عبد الكريم الفيلالي

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

الجزء الأول

إن الأمة التي لا تعرف ماضيها تتمزق في حاضرها
وتعرف الذل والتحقير والبخس والإهانة في مستقبلها
المؤلف

التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير

عبد الكريم الفيلالي

الطبعة الأولى
20 اغسطس 2006

الجزء الأول

رقم الإيداع القانوني
2006/1287
5 يونيو 2006

الترقيم الدولي
(ردمك) 2-0-8702-9954

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة
شركة دار الطباعة
23 ش رشدي - عابدين - القاهرة
هاتف: 002023925376

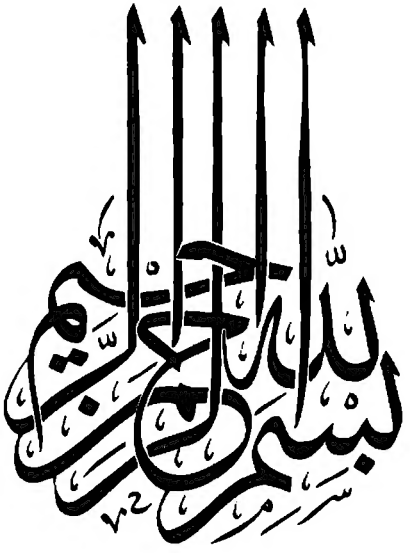
بسم الله الرحمن الرحيم

الصورتان للمؤلف عبدالكريم الفلالى

سنة 1964م

سنة 2006 م

الإهداء

إلى

الشعبين العظيمين:

شعب مصر العظيم وشعب الجزائر العظيم

خمسة وخمسون سنة مضت، وأنا متعلق ومتطلع لتحقيق هذا الإهداء الذي يعرب عن دوافعه ما ورد من حقائق في صلب هذا الكتاب ومن خلال وثائق تاريخ الماضي القريب وما عرفه شعب المغرب العربي في مسيرة نضاله من محاسن ومن مآسي وظلم واعتداء فظيع وأليم، كان وراءه الاستعمار الفرنسي بكل ما تميز به جنس الفرنكة بين شعوب الأرض من خسة ورذالة وسقوط أخلاق وفساد.

وإذا كان شعب المغرب العربي الكبير بعد مصر، أول من عرف شرور الدول التي كانت تتسابق لتحقيق أهداف الاستعمار وما وراءه من شرور، فإن أرذلها وأخسها هو الفرنسي الذي عرف بقتل الملايين من أبناء الجزائر وتونس والمغرب وفزان بليبيا، وإذا الفرنسيون مارسوا في مغربنا العربي الكبير كل ما تميزوا به من رذالة وسقوط وعلى مدى مائة واثنين وثلاثين سنة في الجزائر وخمسة وسبعين في تونس، وأربعة وأربعين في المغرب الأقصى، وبعضها في فزان بليبيا، فإنهم لم يعرفوا طول هذه السنين راحة ولا استقرارا، إلى أن اقتلعت جذورهم ثم طردوا وهم محقرون أذلاء تطاردهم لعنة شعوب الأرض والتي تذكرهم بها أجيال المغرب العربي الكبير مدى الحياة، وتذكر معها بكل اعتزاز مشاركة الشعوب والدول التي ساندت جهادهم والتي لم يهمل هذا الكتاب ولا واحدة منها في مختلف القارات بما فيهم أفراد أحرار من الفرنسيين سياسيون وكتاب وجنود. لكن أول شعب في طليعة كل الشعوب الذي له الفضل كل الفضل في نضالها من باكارتا إلى مراكش المغرب الأقصى حيث أوسخ مخلوق دب على الأرض اسمه التهامي الجلاوي الذي عرف بحقارته عباس محمود العقاد. كما هو في صلب الكتاب كما فضح أمثاله الشعب المصري العظيم، الشعب الذي ناصر الشعوب المستضعفة في كل مكان، وفي مقدمتها شعبنا في المغرب العربي الكبير.

شعب مصر العظيم هو أول من مزق الستار الحديدي الذي مكن له الفرنسيون حول المغرب العربي الكبير. والذي من ورائه قتلوا الملايين من الرجال والنساء والأطفال والعجزة بلا رحمة ولا شفقة. وبذلك تشهد مقابرهم الجماعية شرقا وغربا حتى اليوم، والفرنسيون من وراء الستار الحديدي هم الذين اتخذوا من المساجد مرابط لخيلهم في المغرب العربي الكبير كما فعلوا في جامع الأزهر أيام الكورسيكي نابليون. والفرنسيون بكل نذالة هم الذين طبقوا ما فعل بهم الألمان من رَكل على الوجوه. طبقوه على المغاربيين من فزان الى نواقشوط حتى انتهت سفالتهم وسقوطهم الى التطاول على أكرم

محمد الخامس أثناء زيارته لمصر في قصر القبة ومعه الرئيس جمال عبد الناصر

ما يعتز به تاريخ المغرب السياسي، وهو الملك محمد الخامس الذي أبعدوه منفيا الى مدغشقر يوم 1953/8/20 فكانت مصر في اليوم التالي 1953/8/21 ممثلة في جمال عبد الناصر وأكرم رجالات مصر. أول شعب يحصل فيه تجمع بميدان عابدين من أجل محمد الخامس الذي وضعته مصر بواسطة كل إمكاناتها الإعلامية في طليعة الخالدين من رجالات القرن العشرين. وهو الذي عرفت قبل من أجله مختلف المعاهد والمدارس والجامعات بالقاهرة والاسكندرية منذ 25 فبراير 1951 اقوى المظاهرات التي قضت مضاجع الفرنسيين حين أحرق مقر شركة الطيران الفرنسية وكسر زجاج نوافذ السفارة رجما بحجارة المتظاهرين كما أحرقت عربة "طروموايّ" بشارع قصر العيني، وفي نفس المظاهرة كان المتظاهرون يرددون عبارة "إلى أَنْقَرَا يا ابْنَ المرا" وإذا ما ألقي القبض على منظمي المظاهرة وكنت أولهم ثم سألني رئيس أمن السيدة زينب وهو السيد رشدي لبيب عمن كان يردد تلك العبارة وحتى أبعد المسؤولية عن رفاقي أجبت: "أنا" فكرر السؤال عن معناها فعجزت عن الجواب بيد أنها كانت تعني الملك فاروق مما دفع به ومن حوله لابتسامة عريضة ثم أمرني بالانصراف...

بربك أيها القارئ هل الشعب الذي يلاقي فيه الغريب هذه المعاملة النبيلة التي لا تقتصر على شخص دون آخر، بل كل الشعوب العربية وكثير من الإفريقية التي كان شبابها يدرسون في مختلف كليات جامعات مصر وأكثرهم لا يدفعون الرسوم المحتم على المصريين دفعها خصوصا الفلسطينيون وأبناء الشعوب المستعمرة ونحن أبناء المغارب منهم.

بربك ألا يستحق هذا الشعب الفداء. وليس إهداء كتاب فقط لكن إهدائي لكتابي هذا هو في

نظري ونظر من يعتبر التاريخ وماله من أثر في حياة الشعوب وتمكين روابط الحب والود يدرك ما أعنيه من إهدائي هذا المجهود الذي صرفت من أجله زهرة شبابي.

فإلى الشعب المصري العظيم الذي رفع صوت المغرب الكبير عاليا بين شعوب الأرض التي اشتدت نقمتها وتمكن حقدها ضد الاستعمار شرقا وغربا، كما دفعت مصر بقضايا المغرب إلى المجال الدولي وفي أروقة الأمم المتحدة بطريقة عرف الاستعمار بها من رد الفعل ما شد أزر المجاهدين وحقق آمالهم في الجهاد.

باسمي وباسم المجاهدين الأحرار الذين مزقوا ما وقعه التونسيون مع الفرنسيين على الحكم الذاتي الملحق بهذا الكتاب، والذي هو أنكى وأشد ظلاما من عقد الحماية، وبهم اقتدى المفلسون في إكس ليبان، أولئك الذين أعلنوا غدرهم للمغرب والمغاربة ملكا وشعبا بما وقعوا عليه وتمسكوا به جهارا باسم حزب الاستقلال ومن ورائه، والذي هو بقاعدته وأحراره منهم ومن اتفاقهم براء. ولولا ثورة الأحرار من رجال جيش التحرير المغربي الذين اتفقوا مع إخوانهم من جيش التحرير الجزائري أولئك الذين توعدوا المستعمرين ثم حددوا لتوعدهم يوم 20غشت1955 حيث كان ما كان من وفاء أبطال وأدى زم الذين كان رد الفرنسيين عليهم بقنابل "النابالم" التي أحرقت الديار ومن في الديار، بل والتي تابعتهم وهو فارون بالمئآت من ديارهم.

ومثلهم في شرق الجزائر وغربها، وهم الذين حددوا يوم رد الفعل ضد مادبر من وراء الملك والشعب وضد عودة الملك وإرادة الشعب بيوم العشرين من شهر الذكرى 20 غشت. وهو اليوم الذي قدم الجزائريون فيه من الشهداء، وفي مدينة اسْكيكْدة فقط، إثنى عشر ألف وأربعمائة شهيد، حيث أصبح ذلك اليوم عندهم يعرف بيوم الشهيد تعطل فيه الإدارة وتؤدى الأجور. وإذا كان الفرنسيون يهدفون من وراء الاستقلال الداخلي الذي حققه منديس فرانس مع التونسيين، وكان إدجار فور يجري لتحقيقه مع المغاربة –هو الانتقام من محمد الخامس بعدم عودته للمغرب وبالتالي التفرغ للجزائر التي هي عندهم الولاية السابعة عشر الفرنسية، فإن ماتوعدهم الأحرار وحققوه ثم هم دفّعوهم الثمن غاليا، حطم تخطيطهم وبدل تفكيرهم كما بسطت ذلك بتفصيل في الكتاب.

بربك أيها القارئ ألا يستحق الشعب الجزائري المجاهد الوفي أن يكون جزاؤه الوفاء من الذين يعرفون معنى الوفاء وأقله بالقلم من الذي ليس في إمكانه غير ما يخطه القلم مثلى مما يجعلني كذلك أقدم هذا الكتاب وما فيه من مكارم الشعب الجزائري العظيم قديما وحديثا فإلى الشعب الذي له الفضل كل الفضل في تمزيق ما اتفق عليه المفلسون وأذناب المفلسين، والذي لو تم لكان مستقبل المغرب العربي الكبير أشد ظلاما من ماضيه(1)، وإذا كان مثلي من ينتشي فرحا بذلك العمل الذي من نتائجه تحقيق الاستقلال وعودة مثلنا الأعلى محمد الخامس الى عرشه وإلى شعبه الذي قدم من أجله الفداء بالغزير من الدماء، كما تشهد الوثائق المدرجة في الكتاب، أنني محتسبا ما فرقت في مسيرة نضالي بين الجزائر وموطني المغرب الأقصى، وذلك اقتداء بأستاذي ومرشدي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي رحمه الله، والذي كان له في رجال جمعية علماء الجزائر رحم. كما اشتد اقتدائي بما كان لمحمد الخامس من صادق الحب والتقدير المتبادل مع الشعب الجزائري الذي طالما كتبت له تراجم بعض رجالاته المجاهدين بدافع ما كان يكن لهم من الحب والتقدير، ولذلك اختارني دون غيري 1959 لأنقل للمجاهدين الجزائريين الذين كانت قواعدهم بشرق المغرب منطقة فجيج "جبل ابن المهدي وجبل لكْروزْ" والذين أعطاهم الحرية المطلقة للعمل، وبذلك صدرت أوامره التي حملتها لقيادة جيش التحرير الذي كان يمثله السيد رشيد القبائلي بحضور المسؤولين المغاربة منهم العامل السابق السيد محمد المعزوزي ورجال السلطة في المنطقة، وتلك هي عقيدة محمد الخامس التي صرح بها للملأ وبواسطة الصحف أنه لا استقلال للمغرب بدون استقلال الجزائر كما هو مثبت بالوثائق في صلب الكتاب.

عبدالكريم الفيلالي

الرباط حي السويسي

2006/06/01

(1) راجع الملحق آخر الكتاب ج 12.

تقديم وتمهيد

التاريخ كما عرفه المهتمون المختصون هو تعيين الوقت، وتاريخ كل شيء هو الوقت الذي ينتهي إليه، والتاريخ هو عند المقررين. من أجل العلوم الإنسانية وأدعاها للعناية، فيه يعرف الإنسان مكانه من السلسلة الإنسانية ومكان أمته من الهيأة الاجتماعية، ولو كانت فائدته تنحصر في هذه المعرفة لسهل الاستغناء عنه، ولكن فوق ذلك هو محل العبر ومثار العظات ومصدر العلم بالسنن الإلهية في تكوين الأمم وحلها وإصعادها وإهباطها، وعلم هذا شأنه جدير بأن يجعل في مقدمة العلوم اعتبارا وفي صدرها إكبارا كما قرر ذلك صاحب موسوعة المعارف(1).

لقد كان أول كتاب تناول التاريخ في الإسلام هو القرآن العظيم تناوله بإيجاز وفي مواضيع قليلة مثل خلق الإنسان وقصص آدم ونوح وإبراهيم وذريته وقومه، وموسى وعيسى ومحمد رسول الله صلى الله عليهم وسلم.

أما ما جاء في الكتاب المقدس العهد القديم مفصلا حول تاريخ الإنسانية وما عرفته من توزيع في الأرض بواسطة أبناء سيدنا نوح عليه السلام فذلك هو بداية التاريخ المفصل الذي عرفنا على أبناء سام وحام ويافث ومواطنهم بتفصيل. وهو ما أفدنا منه أصول سكان المعمور وفروعهم ومنهم سكان مغربنا الكبير في ذلك العهد بعد الطوفان.

أما مراحل التاريخ التي مرت بمغربنا الكبير منذ عهد حام وبنيه إلى عهد الأطلسية

---

(1) دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي. جـ.1. 151-152.

وعهود الفينيقيين والرومان وما بعدهم. فالكتاب لم أتناول فيه بعض تلك الحقب التي دامت آلاف السنين إلا من أجل أن أستدل على أن المغاربة عرفوا نظاما وحضارة قبل التاريخ وقبل قدوم الجماعة التي أصبحت تعرف بالبربر زمن سيدنا داوود لما قتل كبيرهم جالوت، وهم بنو عمون، وكان زمان قدومهم حسب تاريخ القتل هو 950ق.م. هذا من جانب، ومن جانب آخر حتى أبرهن أن جموع المغاربة وما عرفوه من نظم وحضارة قبل الإسلام كلها زالت وانتهت ولم يكن لها تأثير بعد ظهور الدين الذي مكن لجموعهم ووحد بينهم كمغاربة مسلمين بعيدا عن العنصرية والعرق والطائفية المرفوضة.

وقد بدأ الفتح ومقدماته بمصر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والتاريخ العربي الإسلامي لم يصبح علما تؤلف فيه الكتب إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة زمن المنصور العباسي الذي ظهر فيه أبو بكر محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية والمتوفى سنة151هـ/768م. أما بالنسبة للتاريخ العام فأول من ألف فيه كتابا من العرب هو أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي المتوفى في بغداد سنة 284هـ/897م. فهو الجغرافي المؤرخ صاحب الرحلات الى أرمينية، وإيران، والهند، ومصر، وبلاد المغرب واسم كتابه «البلدان» دوّن فيه ملاحظاته عن المظاهر الطبيعية للبلاد التي زارها وعن المجتمعات التي شهدها وله كتاب «التاريخ» وروايته فيه توافق رواية الطبري(2). إبن جرير المتوفى عام310هـ 922م. وصاحب كتاب الأمم والملوك وهو من الكتب الجامعة. وكذلك هو الذي نهج على منواله من جاء بعده من المؤرخين كابن مسكويه، وابن الأثير، وله أيضا «تاريخ الرجال» عرض فيه كل ما وقف عليه مكتوبا ومسموعا.

ومن الكتب التي أغنت التراث العربي كذلك كتاب «جمهرة النسب» لهشام بن الكلبي الذي روى عن أبيه محمد الكلبي المتوفى بالكوفة سنة 146هـ 763م. أما ولده هشام فقد كانت وفاته سنة 240هـ 854م وكتاب الطبقات لابن سعد، وتاريخ البغدادي، والأخبار

(2) الموسوعة العربية ص .1983. ط -1965 القاهرة.

الطوال للدينوري، ومروج الذهب للمسعودي، وتجارب الأمم لابن مسكويه، والكامل لابن الأثير، والمختصر في أخبار البشر لابي الفدا، وتاريخ الإسلام للذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير، والمبتدأ والخبر لابن خلدون الخ. أما كتب المغاربة التي تعنى بتاريخ المغرب فهي كثيرة. وفي المقدمة كتاب: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي الحمودي والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري. «ووصف إفريقيا» للحسن بن محمد الوزان وكتب أبي القاسم الزياني الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب والبستان الظريف والروضة السليمانية وغيرها.

وأما عن مفهوم المغرب العربي الكبير وأقسامه فقد فصلت ذلك في الجزء الأول من الكتاب. لكن الذي بقي علي التفصيل فيه وهو لا بد منه كمنهج هو ما يعني المؤرخ الذي يرشح نفسه لكتابة التاريخ وقد وضعته آخر هذا التقديم والتمهيد، مما يعتبر من القواعد التي لا بد للمؤرخ من الإلمام بها حتى يكتب التاريخ، وذلك ما يعرف عند المؤرخين بالمنطق ومناهج البحث في التاريخ.

لست أدري إن كان ثمة رأي يخالف ما قيل من أن التاريخ هو كل العلوم أو إن شئنا قلنا هو الذي يحتوي على كل العلوم، وقد قيل إن التاريخ هو كل الحضارة ما دامت عناصر الحضارة وعواملها هي العمران بكل علومه وفنونه، والسياسة بكل جوانبها ومعطيات أساليبها، والصناعة بكل آثارها وتطوراتها الماضية والمعاصرة، والتجارة بكل تأثيراتها سلبا وإيجابا وازدهارا وانحطاطا، بل العلوم والمعارف والآداب كلها للتاريخ فيها مجال يحللها ويستخلص نتائجها ويحكم على بعضها حكما لا يقبل النقض، لكنه بالإضافة إلى ذلك يختلف عن كل العلوم بعدم اتفاق نتائجه باختلاف الناس وبيئاتهم وطبائعهم وأغراضهم رغم ما قيل وانتشر من قولهم «التاريخ يعيد نفسه» وليس معناها أن تعود حوادثه كالظاهرة الطبيعية حرا وقرا، بل التاريخ يعيد نفسه في زعم ابن خلدون ودوركايم وكانت، إذا تكررت الظواهر ظهرت نفس الحادثة التي نتجت من مثل تلك الظواهر، إذا كثر الظلم والفساد وساد قانون الغاب تعرض الفاعلون لا محالة للدمار

عاجلا أو آجلا، وليست الدول كما يقول بعضهم، لأن الدولة في أي شكل من أشكالها ضرورة حتمية لاجتماع الإنسان، ولا تزول واحدة حتى تحل مكانها أخرى.

وتاريخ المغرب العربي الكبير بأقسامه الأقصى والأوسط والأدنى إلى حدود مصر وقبيلة لعبيدات، هو الذي اخترت الجانب السياسي منه فقط والكتابة حوله بين سرد للحوادث تحليلا واستنتاجا، وحياة الناس فيه ومنهم الملوك والرؤساء وما حول الملوك والرؤساء وما حصل من وقائع وحروب، مع تحليلها والرأي فيها وفي أسبابها ونتائجها قديما، وكذا تاريخ الاستعمار وأسبابه ونتائجه وما آل إليه، وبالتالي تناولت تاريخ المغرب العربي الكبير كوحدة خاليا من تلك الفواصل والعناصر المشوشة التي عرفها في العصور الوسطى ويعرفها اليوم والتي مكن لها ما عرفته البلاد بعد غزو الأتراك منذ منتصف العقد الثالث من القرن العاشر الهجري والذين كان لهم الفضل في تأخير زمن الاستعمار الغربي الأوروبي، لكنهم وبواسطة تحديد زمن الولاة الذي شرعه سليمان القانوني بسنتين فقط يبقى فيها الوالي في الإقليم ثم يرحل ليخلفه غيره وبذلك تحول عمل بعضهم إلى ما يعتبر أفظع من الاستعمار كما سنرى ذلك بتفصيل. وبذلك تناولت من حقائق التاريخ السياسي ولأول مرة تلك التي لم يكتب لها أن تعرف لأنها ولأسباب سياسية كذلك أهملت وبقيت وثائقها بل وحقائقها بعيدة عن تناول من يمكنهم الكتابة عنها من رجالات المغارب القداما والمحدثين، مثال ذلك أن الذي وجه الاستعمار الفرنسي لاحتلال الجزائر كان هو محمد علي القولي حاكم مصر الذي بسبب رغبته القوية في الانفصال عن الباب العالي هو الذي بدأ تودده لنابليون بونابرت لما احتل أبو قير وبعدما أخرجه الانجليز بالقوة التي أذلته، وكان محمد علي يرى في اقتراحه على نابليون تحقيق رغبته في الانفصال عن الباب العالي الذي لا يريد لسلطانه الدوام فيما حوله من ولايات طرابلس وتونس والجزائر فأشار على نابليون بالتوجه نحو الجزائر التي هي قريبة من فرنسا لا يفصلها عنها إلا البحر، وفعلا تمكنت الفكرة التي وإن لم يحققها نابليون فقد عمل من جاؤوا بعده لتحقيقها بعد ما تقررت سرا في مؤتمر فينا 1815 الخ. راجع وثائق خزانة عبد الكريم الفيلالي المصادرة بالخزانة الملكية.

إن للتاريخ في حياة الإنسان الواعي المتدبر من الفوائد ما ليس لغيره من العلوم عند ذوي الإدراك السليم، حيث يتوصل بواسطة التحليل والاستنتاج إلى الحلول التي قل أن تخطئ، ناهيك إذا كانت الطريقة تعتمد تدريب الملكة والكشف كما يعمل الطبيب مع الأمراض وأعراضها قبل ظورها وانتشارها، إذ التاريخ منذ أقدم العهود كان ولا يزال هو معلم الحاكم وقائد الجند وعالم القانون ورجل السياسة، وبالتالي مرشد الأمم التي يتدارس حكماؤها أدوار الحياة التي مرت بها أمم أخرى سبقت وما كان لها من شأن وإكبار وصولة بواسطة الصالحين من رجالها أبطالا وعباقرة، والعكس إذا هي ضيعت التاريخ ولم تعرف منه ما يتعلق بماضيها الذي يرشد لحاضرها ومستقبلها.

التاريخ هو الذي عرفنا أن غرور نابليون الكورسيكي الذي لم يكن له أصل يعتبر ولا أساس في مجال العلم والأخلاق والذي أصبح بالقوة فقط إمبراطور فرنسا ثم هو دوخ العالم بالحروب. إنتهى إلى سجين يتحكم فيه ويذله حارس خبيث وحقير، وأقبح من مصيره لا قاه هتلير وموسوليني في العصر الذي نحياه. وأقرب منهم أمثال محمد رضى بهلوي، وماركوس، وموبوتو وسوهارتو وغيرهم من الذين كشفهم التاريخ ولا يزال ذكر فظائعهم وفضائحهم يتردد على الناس وبألسنة المؤرخين العارفين في كل مكان.

وشيء آخر مهم أشير إليه هو أن كتابة التاريخ ليست بالشيء الميسر لكل من أراد، خصوصا إذا كان الكاتب في مراحل تكوينه أو هو عرف كثيرا أو قليلا من الفساد أو الخيانة السياسية في أطوار حياته، لأن مهمة المؤرخ الهادف ليست بالشيء السهل، بل عملٌ صعبٌ وشاق يقتضي أن يكون المهتم به سليما وخبيرا فهو إذا كان ممن يغوصون في الأعماق للبحث عن الجواهر الأصيلة، لا يرضى تناول الباهث غير الأصيل منها، فالمؤرخ الملتزم الهادف المؤمن بفعالية التاريخ هو الذي يستخرج الحقائق من مصادرها التي تبحث عنه بقدر ما يبحث عنها لينشرها قصد تحقيق الهدف النبيل مهما كانت التكاليف، والمؤرخ الصادق ليس هو الذي يتوفر على المصادر ويبذل في سبيل الحصول عليها الجهد والمال، بل هو الأمين الذي يستفيد ويفيد من تلك المصادر ثم يعرف بها، بنية حسنة وقصد سليم، لأن عمل المؤرخ ليس السرقة والنسخ والمسخ ثم النشر ليكون له ذكر

بين الناس بلا خجل ولا وجل كما يفعل الموسخون الذين اندسوا زمن الفتنة وعهد الرصاص الذي كانوا من صانعيه. إذ التاريخ هو الأمانة أولا، ولا يكتبه إلا الذين عرفوا بأمانتهم والمؤرخ الأمين هو الذي يلتزم بإرجاع كل كلمة مستعارة إلى مصدرها والإشارة إليه بالبيان الواضح الجلي قبل أن يكتشفها خبير ثم يلطم بها وجه السارق الغبي.

إن عمل المؤرخ الجاد هو اختيار الحوادث والقدرة على هضمها وتحليلها وتفسيرها والربط الصالح بينها، وآخر المراحل استنتاج النتائج غير المفتعلة منها، لأن الصانع الماهر المقتبس «المحتال» يستطيع أن يصنع شيئا يظهر أنه إنتاج رغم عدم توفر المواد، معتمدا في صنعه على مهارته في النصب والاحتيال كما عرف لبعضهم من الذين كتبوا شهاداتهم حول الرجال وهم ليسو من الرجال، ومع ذلك سرعان ما يتحول صنعهم الى عدم، بعد أن يكون قد أثار السخرية من بعضهم، والإعجاب من الآخرين أمثاله، وذلك ما نجده في مختلف المجالات المادية والمعنوية(3)، باستثناء العلوم التجريبية، والتاريخ، لأنه كذلك-اتفق على أنه علم ما دام يبحث كل العوامل الطبيعية المحيطة بالأفراد، والتي بواسطتها يقرر ما يقرر من حقائق دون أن يحكم الحكم المطلق، خصوصا إذا هو تناول الحياة السياسية بمحاسنها ومساوئها بأحقادها ومنافساتها، وما عُرفت به من نزاع لا يسلم المندفع في تياره بدون اعتدال من الوقوع في هوة الخطأ وفساد الرأي وظلم الحكم. وذلك هو الذي انتج سنوات الرصاص بعد موت محمد الخامس الذي بدأ التآمر عليه رحمه الله قبل الاستقلال.

إذا كانت رسالة التاريخ لا ترى النور إلا في ظل الحق والعدل والحب والخير والجمال،

---

(3) تناولت هذا الجانب من خلال ما في كتابي المصادر قبل النشر، وهو «مذكرات الشعب المفترى عليه في المغرب» ومن خلال ما قيل عنه «قبائل المغرب» المسروق حرفيا من كتاب لا علاقة له بالإسم وهو كتاب الجغرافية السياسية للدكتور رفلة. ط .2 القاهرة 1966. ومن دائرة معارف البستاني الخ. راجع كتابي المذكور بالخزانة الملكية أو مديرية الوثائق الملكية وهو الكتاب الذي صودر بتاريخ 1968/6/14 بواسطة الشرطة وعلى رأسها رئيس أمن العاصمة: السيد عبد السلام لمزايتي، ورئيس الأمن الإقليمي السيد هابي الطيب وعشرة من رجال الشرطة احتلوا خزانتي لمدة ثلاثة أسابيع بدعوى أن بها من مؤلفاتي ما يخل بالأمن العام ومنها قصص الشياطين الخمس من الذين صنعوا سنوات الرصاص وهم: الأعور والأقرع والأعرج والأسود وقزم الرباط. وغيرهم من كلاب المزابل. وأشير إلى أن الكتاب قابل للوضع من جديد، وسوف يحصل إن شاء الله. عندما يعرف المغرب طريقه إلى الديمقراطية.

فإن هذه المحاسن لا توجد إلا في ظل الديمقراطية وتتحول رسالة المؤرخ إلى عكس ما سبق من المحاسن ثم إلى أوحال وظلام، يقبر فيه المستبدون السفهاء عند اختفاء الديمقراطية أو تزويرها والافتراء عليها كما عرف المغرب في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين بعد موت محمد الخامس طيب الله ثراه.

في مجموع ما كتب عن المغرب العربي الكبير قبل وفي العهد الوسيط وما بعد سقوط الأندلس حيث يلاحظ القارئ الإجماع الذي تبناه المؤرخون العرب وغير العرب من أن المغرب العربي الكبير حينما أصبحت أقطاره الجزائر وتونس وليبيا تحت نفوذ الأتراك منذ بداية العقد الثالث من القرن العاشر925هـ/1519م تراجعت فيما يرجع للحضارة، حتى قال بعضهم إنها غير مستعدة ولا هي قابلة للتحضر بالمعنى المقصود عن الحضارة، وحجتهم ما عرفت تلك الأقطار التي وقعت تحت سلطان الأتراك من مستوى اقتصادي في الحضيض وطبقية ثم بون شاسع بين الحضر والبدو، بل في الحاضرة نفسها من فروق كاسفة وطبقية فاضحة على كل المستويات، اقتصادا واجتماعا وثقافة. باستثناء العمران الذي نشطه مهاجرة الأندلس حسب رغبة سلطان القهر أمثال أحمد المنصور السعدي الذي كانت رغبته في الأبهة تدفعه إلى فعل الرذيلة ومحاربة الفضيلة كما وضحنا ذلك في صلب الكتاب.

بل نجد بعضهم نسب ذلك إلى الحملات التي عرفتها أقطار المغرب الكبير بعد سقوط الأندلس وما شرد الأسبان منها من جموع بلغ تعدادها أكثر من ثلاثمائة ألف مسلم وعربي وما ألحق بهم من يهود. ونسي أصحاب هذا الرأي أن تلك الأعداد توجهت بما حملت معها من محاسن ومساوئ إلى المدن الكبيرة في أقطار المغرب: تطوان ومراكش والرباط وسلا وفاس وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس والقيروان وطرابلس وغيرها، بل إن بعضهم وصف المغاربيين خصوصا منهم البربر أهل البادية أنهم شعب غير قابل أصلا للتحضر وأولئك هم المستعمرون الغربيون الذين شددوا حملاتهم بالسلاح والقلم ضد المغرب والمغاربيين خصوصا منهم البربر كما كشفنا ذلك في صلب الكتاب، ونسي الكتاب الأوروبيون أن يذكروا أن ما عرفه المغاربيون من انحطاط السيء منه سببه

ما عرفه المغاربة من أسواق النخاسة أيام القرصنة في البحر، التي كانت تستولي على المآت بل الآلاف من الأوروبيين. ولا مجال لهم غير البيع في الأسواق رجالا ونساء وبنات، فكان منهم العبيد الأوروبيون الذين كانوا يتصنعون إشهار إسلامهم تلفظا بالشهادة حتى يتحرروا ويعنيهم ما يعني أهل البلاد، بيد أنهم لقنوا ذلك بلا عقيدة صادقة ولا تكوين سليم، أولئك هم الذين لوثوا المجتمع المغاربي بأخلاقهم المنحطة وعاداتهم الرديئة وسلوكهم السيء المنحرف الذي توارثه الخلف عن السلف، وإذا هم تستروا بالإسلام فقد أصبحوا يعنيهم ما يعني المواطنين المغاربيين ولاقدرة لأحد على نبزهم أو نعتهم بما جرّوه على الآخرين من سوء في السلوك والأخلاق، والتي تلوثت بالانحراف والشذوذ الجنسي اللذين ابتليت بهما طبقة خاصة اشتهرت في كل من تطوان وفاس ومكناس وغيرها من المدن، فمثلا إلى عهد السلطان المولى إسماعيل تجمع في مدينة مكناس أكثر من خمسين ألفا 50000 أوروبي استولى عليهم قراصنة البحر الذين كان المفروض أن يقدموا من مغانمهم 10٪ إلى الدولة والباقي يباعون. والذين لم يقدم على شرائهم في أسواق النخاسة. استعملهم السلطان في بناء مدينة مكناس التي بواسطتهم عرفت ما هي عليه من تنوع وضخامة البناء والعمران، ومن مات منهم كان يدفن في نفس الجدار الذي يساهم في بنائه. أما غير هؤلاء من الذين كانوا لا ملجأ لهم غير التيه في المجتمع وقد كانوا بالعشرات بل مآت وآلاف منهم تكونت طبقات ساهمت في الحط من قيمة المجتمع في مختلف الجوانب ويعرفون حتى اليوم بما يتوارثون من انحراف وشذوذ، وقد تناولهم بعض الكتاب من المؤرخين أمثال أبو القاسم الزياني الذي تناول بعضهم وما كتبه عن السودي والكتاني في كتابه «تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء». مخطوط ص 46-49 ومحمد غريط في كتابه «فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان» ص 204-208 ط فاس 1347. تناول فيه الغالي ابن سليمان الأندلسي الإسلامي وقد أورد في حقه وعلى لسانه كلاما فاحشا منه شعرا ما يلي:

قلت لتاج الدين في خلوة ... وقد علاه عبده الأصغر

التاج يعلو فوقه غيره ... قال نعم ياقوت أو جوهر

ونفس السلوك كان عليه ابن سليمان الذي ورثه وورثه كما يعرف أهل فاس وغيرهم من الذين كانوا يعرفون بالبلديين وفيهم كتاب ألفه بعضهم من الفاسيين توجد نسخ منه نملكها.

وفوق هذ وأكثر وضوحا عند إبن الموقت في كتابه «الرحلة المراكشية» ج 2ط مصر1351هـ 1932م وما كتبه القاضي إدريس السناني حول «اللواط والزلال» ومن هذا النوع جنود الانكشارية أو الكرغلية الذين كانوا من مختلف الشعوب الشرقية والأوروبية التي كانت خاضعة للباب العالي والذين كانوا هم قوات الولاة في مختلف الأقاليم التي كانت خاضعة لسلطانهم. ولما غادر الأتراك بقيت جموعهم التي اختلطت بالمغاربيين ثم هم بدلوا أسماء أصولهم فمثلا المروني في الرباط أصبحت المريني(1) نسبة لبني مرين.

أما الجانب الآخر الذي كان له أكبر الأثر في تأخر المجتمع المغاربي فمصدره الحكم الاستبدادي الذي وإن كان قديما فإنه قوي وتمكن بعد حكم الأتراك، وخصوصا كما سبق بعد ما شرع سليمان القانوني لولات الأقاليم البقاء في الإقليم مدة لا تزيد عن سنتين ويعود الوالي لبلاده، الأمر الذي أصبح معه الوالي لاهم له غير جمع المال الذي يرفع مستواه بعد العودة. وبالتالي ما يقدمه هدية للسلطان وما حول السلطان، وإذا كان المغرب الأقصى هو الذي لم يحكمه الأتراك وبالتالي إذا لم يعرف هذا النوع من التشريع فإنه عرف أنواعا من الاستبداد يبدأ من حاشية السلطان مرورا بحكام الأقاليم والمدن إلى الطبقة الدنيا المتمثلة في القواد رجال السلطة وما دونهم، أولئك هم الذين كانوا يستأثرون بكل المقومات المادية والناس لهم تبع وخدم، والدليل على ذلك مظاهر الحضارة ماديا في العمران وأدبيا في الواقع الاجتماعي الذي سرعان ما يعرف الدمار.

إن مهمة التاريخ في هذا الجانب أن يعرف الأجيال الحاضرة ما تقدم للسابقين وما عاشوه في واقع حياتهم حتى يأخذوا منه العبر وتكون حياتهم أحسن ومستقبلهم

---

(1) راجع الروضة السليمانية لأبي القاسم الزياني مخطوط ففيها قصة المروني مع القاضي ابن جلون. ويوجد إخوانهم في مدينة سلا. أما بنو مرين من زناتة فهم أولاد لحلو أسرة معروفة بفاس والأصل في ميسور حيث يعرفون حتى اليوم أولاد بن لحلو. وفي فاس الدغالي تحولت إلى الدكالي إلخ.

أفضل، وهذا يقتضي من كاتب التاريخ المعاصر أن يكون على بينة من الواقع المعاش وعلى علم فيما يرجع الى المجتمع الذي يؤرخ له بعيدا عن الجبن والخوف والهوى لا يجامل ولا يتملق للأقوياء على حساب الضعفاء. بل ولا يظلم ولا يتعدى الحدود.

لقد عمل مؤرخوا المغرب الكبير منذ القديم على أن يقصروا المقومات التي ترفع من شأن حضارة الشعوب على طبقة خاصة تتمتع بإمكانات المال والمعرفة، ومن لم يكن له شيء من ذلك يبقى كما هو ويركز عليه حتى يتمكن منه الرعب واليأس وينعدم فيه الطموح، مع أن التاريخ عرفنا أنه لا توجد حقيقة مطلقة، لا خير مطلق ولا شر مطلق، بل عرفنا التاريخ أن منطق أرسطو اليوم غير صالح لكثير من وجوه حياتنا حسب مقدمته الكبرى والصغرى، والتاريخ هو الذي عرفنا أن الحاكم الظالم المستبد لا يتمكن منه الاستبداد والظلم إلا نتيجة لتأثره بسلوك ما حوله من المشيرين عليه من أشباه المثقفين والسياسيين والمفكرين الذين يسايرون هواه ولا أحد منهم يقول إن الصواب كذا وكذا، حتى ولو كان القول سيقود صاحبه الى ما لا يريد، فإنه سيكون قد أدى الواجب وساهم في إنارة المصباح الذي يكشف للناس الطريق الموصل الى الخير والحب والوئام، وتوزيع ثروة الوطن بين أهله، لقد عرفنا تاريخ الماضي القريب في أقطار المغرب العربي الكبير أن المستفيد من الاستبداد عدو لنفسه ولأهله ولقومه، وبالتالي عدو للديمقراطية التي تحد من سلطانه واستبداده، ولذلك لا يقبل عليها، بل يسعى في ضرر من يتمسك بها ويؤذيه ما استطاع بلا رحمة ولا تردد، والشعب في المغرب العربي الكبير عاش هذا الواقع بمرارة لم ولن تنسى مدى الحياة. وبها سيعرف تاريخ ما بعد استقلاله وتحرره من ظلم الغريب ووقوعه تحت قهر وإذلال «القريب»، لأن التاريخ يدون كل شيء ولا يترك أو يهمل أي شيء، حتى الذي قتل الأحرار في النهار وتوهم أنه قتل في الظلام، صالح بن يوسف التونسي، والمهدي بن بركة المغربي ومحمد بوضياف ومحمد خيدر الجزائريين، ذكرت أسماء هؤلاء الرفاق العظام الذين كان لهم شرف المشاركة في تاريخ الكفاح من أجل تحرير المغرب العربي الكبير، حيث كان لهم دور وأي دور في تاريخ النضال، سجله هذا الكتاب بالتقدير والإعجاب.

لكن كيف قتل هؤلاء الأبطال ولماذا قتلوا ومن الذين قتلوهم؟ الزمان والزمان هو التاريخ هو الذي سوف يعرف الأجيال على القاتل والمقتول بكل بيان وتفصيل، ذلك أن التاريخ هو الذي عرفنا أن الذين علموا الناس الأنانية قديما وحديثا وإن كان لهم ذكر في التاريخ فهو اللعنة والخزي والتحقير، حتى ولو كان أفلاطون الذي افترى على سقراط ثم ظلمه حين نسب إليه حسداً وظلما ما لم يكن من أخلاقه ولا من سلوكه، وما ذلك منه إلا ليتوصل إلى ما كان يحب ويريد، مما لم يستطع تحقيقه باسمه، إذ اختار له إسم أرسطو، لكن التاريخ وفعل الزمان كشف أفلاطون وأنصف أرسطو، لقد ظن أفلاطون حين قال: إنه يحمد الله الذي خلقه إغريقيا لا بربريا، والبربرية كانت تطلق على مطلق الأوروبيين الذين لم يتكلموا لغة اليونان، حرا لا عبدا، رجلا لا امرأة، وفوق كل ذلك خلقه في عصر سقراط، ظن أن قوله هذا يبعد الناس عن فهم حقيقة أفلاطون، وأنه أناني يتستر خلف سقراط حتى يمكن لأنانيته ضد البربر وضد العبيد، ولاستعلاء الرجل على المرأة لأنه مصاب بالانحراف ولم يتزوج مدة حياته، ومع ذلك يمجده الفرابي، ويقول فيه إبن رشد الفيلسوف الإلالهي؟!

التاريخ جوهرة الزمان، والزمان هو الذي علمنا أنه الحقيقة التي لا جدال حولها والتي تسمى بـ «الزمان» لا تلك التي قال عنها أرمنيدس الأزلية التي لا تقبل التغير، وأن كل متغير هو خال من الحقيقة، فالزمان هو الذي لا يتغير. وإذا هو الحقيقة الأزلية، وهو الذي علمنا أن الديمقراطية سلاح ذو حدين الأول مع الحق والعدل والخير والحب والجمال، والآخر وهو المزور. مع الشر والظلم والباطل والقبح والفساد والهلاك والدمار، وكلاهما يقطع ضد الآخر. فمن آمن بالأول واستعمله أراح واستراح وعرف من نعيم الحياة أجمل ما فيها، ومن اعتمد الثاني ضاع وضيع وكانت نهايته الحسرة والندم وسوء المنقلب. وأشد العذاب، وهذا ما يعرفه المستبد والذين يؤيدون استبداده، أولئك الذين لا فرق بينهم وبين الكلاب وهم الذين يتنقلون بين الأحزاب كما تتنقل الكلاب بين المزابل.

تعلمنا في مدرسة التاريخ أنه مهما يتصنع الحاكم التظاهر بصفات العلم والحلم والتسامح والخلق والفضيلة، ما لم تكن تلك الصفات له ومن طبعه، لا بد له أن يقع في

شراك محظور الظلم ما لم يكن حوله ومعه من يراقبه حتى لا يندفع كثيرا نحو الشهوات والغرور، لأن الأمة التي لا تعرف من الحكام إلا من يتصف بصفات الرذيلة والتزوير التي تنتقل بأمر من الحاكم إلى المحكوم، ولا يوجد فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أولى أن يذيقها الله العذاب ما دامت لم تقل للظالم المستبد دونك قف وفي سنوات الرصاص التي عرفتها الشعوب المستجد استقلالها. تاريخ وعبرة، بل وفي عهد حكومات النصب والاحتيال «والتجاوب» التي انقلبت فيها الجيم نونا وما خلفته للتاريخ من عبر.

وشيء آخر لم يهمله التاريخ ليس ثمة حديث نبوي أكثر تداولا على الألسنة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم منكرا فيلغيره» وليس ثمة حاكم في بلاد العرب والمسلمين لم يوظف الدين لتبرير وتبيان سياسته، وتجميل مواقفه، لكن الجهل والجبن في أكثر بلاد المسلمين جعل الحاكم الظالم المستبد يعتقد جازما أن المحكومين أكثر جهلا وأنهم لا يدركون، في حين أن حضارة القرن العشرين والتي هي دون حضارة الإسلام طورت الجميع، وأصبح الكبير والصغير والقريب والبعيد يعرف الواقع المعاش وما يفتريه الحاكم الظالم المستبد الذي يغيب عنه أن الشعب يعرف عنه وعن علاقاته كل شيء حتى المبالغ المالية في حساباته التي يظن أنه خبأها في بنوك أوروبا وأمريكا، ذلك أن الحضارة صيرت العالم بقاراته الخمس وكأنه قرية صغيرة، ومع ذلك فالحاكم المريض المغرور المستهتر المتلاعب سادر في غيه غير عابئ بالسهام التي تسدد إلى صدره، ذلك أن الحاكم الظالم المستبد سرعان ما يصاب بمرض الهلوسة التي ينتج عنها انفصام الشخصية، والتي تجعله يعتقد في أصوات يسمعها وأحيانا يرى رؤوسا منفصلة عن أجسادها تكلمه، وينتج ذلك عن مراكز في الدماغ تنشط في هذا الاتجاه، ولها عقار دواء يستعمل في المراكز الصحية التي تتولى علاج المرضى بالهلوسة وانفصام الشخصية، ولقد عرفت بعض مغاربنا وأقطار العالم الإسلامي العربي من هذا النوع ممن استولوا علي القوة والسلطان فعرف الناس منهم المتاعب التي عمقت الجراح وزادت في الألم الذي اشتد وتنوع بتصرف الذين

داسوا كل الأخلاق وضربوا بالقوانين التي وضعوها والمتعارف عليها والمتداولة بين الناس عرض الحائط. هؤلاء تناولهم الكتاب عبر التاريخ.

في عصرنا الذي نحياه. قليل هم الحكام في أقطار العرب والمسلمين الذين صعدوا عن طريق الديمقراطية، ولذلك قليل هم الحكام الذين يعرفون لماذا خلقوا، وما هي رسالتهم في الشعوب التي يتولون حكمها، وأن الجانب المقدس في النفس البشرية البعيد الغور هو الحق، ولا يغوص البحر ليطفو على السطح وبيده الجواهر التي هي الحق والعدل إلا الإنسان الذي أفاد من رسالات السماء وجهود المهتدين برسالة الإسلام وهدات البشرية الذين هم المصطفون المصلحون من دعاتها، وصدق الله العظيم «من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن عبد يسترعيه الله رعيته يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة» وقال عبد الله بن مسعود لو أن رجلا قام بين الركن والمقام سبعين سنة وهو يحب ظالما لبعثه الله يوم القيامة معه «وكان يقول» من بلغه ظلم ظالم ورضيه فهو شريك، قيل له فإذا سكت عنه وهو غير راض، فقال إن سكت مع القدرة على الكلام حشر معه كذلك».

ولقد عرفنا شعر الزمخشري الذي أورده الزياني في تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء ص 50م خ. على مصير الظالم المستبد ومآله بقوله:

إذا ظَالِمٌ يَسْتَحْسِنُ الظّلْمَ مذْهَباً ... ولجّ عُتُوا في قَبيحِ اكْتِسَابِهِ

فكِلْهُ إلى رَيْبِ الزّمَانْ فإنَّهُ ... سَيَبْدُو لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ في حسَابِهِ

فَكَم قَدْ رَأَينا ظالما متجبرا ... يرى النجم تيهاً تحْتَ ظِل رِكَابِهِ

فلما تمادى واسْتطال بجوْرِهِ ... أنا خت صروف الحادثات ببابه

وعُوقِبَ بالظُّلم الذي كانَ يجتبي ... وصب عليه الله سوط عذابه

بكل وقاحة وعدم اعتبار وتحدي لشعوب المغرب العربي الكبير عرفت هذه الشعوب من المندسين حول الذين استولوا فيها باسم الاشتراكية بيد أنهم احتالوا ثم تمكنوا بقوة الحديد والنار بل بالظلم والاستبداد بعيدا عن الديمقراطية، فعرفت الشعوب منهم الكيد والدس والتدمير على حساب الحق والعدل وسلامة الدولة، بل وعلى حساب أخلاقها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، وفي كل الجوانب السياسية، بما فيها التطلع الى الديمقراطية التي كانت هي الأمل والقصد من التضحية والفداء ومقاومة استبداد المستعمر، بل حتى في المجال الاجتماعي والاقتصادي الذي هو أهم الضروريات للحياة، تمزق شر ممزق، إلى درجة أن بعض شعوب المغرب العربي الكبير بقدر ما عرفت من نمو ديمغرافي، عرفت كذلك الظلم والحيف الاقتصادي، رغم إمكانات المغارب وضخامتها، والتي تحولت بطريقة لا يشرف وصفها، حيث أصبحت احتكارا على جماعة قليلة لا تتعدى 5٪ حصنت نفسها باستعمال الشدة والظلم وقوة الحديد والنار، بحيث لم تختلف عن جماعة الإقطاع السابق الذين حماهم الاستعمار قبل بكل إمكانات القهر ووسائله التي احتكرها من أجل إذلال واستعباد الأقلية الغريبة للأكثرية الوطنية السليبة. وهذا ما لم أتناوله سياسيا لأنني أوقفت الكتابة عند نهاية 1955 لأن ما بعدها أسوأ ما عرفه التاريخ السياسي.

من الأقوال السائرة بين الناس قولهم: التاريخ عِبَر. والعبرة بكسر العين الاتعاظ والاعتبار بما مضى، والماضي عرفنا أن كل الذين يخوضون في مجال السياسة يعلنون ظاهريا حبهم الخير لأنفسهم وللآخرين، لكن الذي عرفناه من التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير قديما وحديثا وفي عهد الأحزاب المصنوعة وما عرفت من متلبسين مغرضين كان هدفهم هو أن السياسي يشيع أنه يكافح ويناضل من أجل ذلك، أي من أجل الإصلاح حتى إذا تمكن وأصبح بيده السلطان، صعب عليه أن يزاحمه عليه أحد، ويريد لأوامره أن تكون هي الأوامر، ومن لم يخضع لها ويعمل بها حتى ولو كانت هي الضلال المبين، ذلك هو العدو الذي وجب أن يحارب ويقاوم، وهذا هو السبب في كل ما تعيشه المجتمعات المتخلفة، والمحكومة بمثل هذا النوع من الحكام الذين يغرقونها في

التخلف الاجتماعي، بل وتشل وتهمش فيها قافلة العارفين الذين يتطلعون لتحقيق الإصلاح.

وهكذا نرى الداعية السياسي الذي كان بالأمس يتشدق بحب الخير للناس يتحول بعدما يصبح حاكما إلى ظالم مستبد لا يطمئن ويشعر بالراحة إلا إذا هو أثقل كاهل المجتمع الذي تسلط عليه بالقيود والأغلال الاجتماعية المتمثلة في الخرافات وكل ما يحط من العقل ويبعد عنه الوعي ويرجع به إلى عهود الطوطمية. مضافا إليها الفقر والحرمان والمديونية وأنواع المخدرات والخمور والفجور والانشغال بما يحقق له لقمة العيش، حتى لا يجد القوم وقتا للتفكير في حقوقهم الضائعة بالتزوير في الإنتخابات والافتراء على الديمقراطية، وللناس في تاريخ الماضي القريب ليس في العالم الإفريقي فقط بل في كل من الروس والألمان والإيطاليين والاسبان وأمريكا اللاتينية زمن هتلير وموسوليني واستالين وافرانكو، بل وشاه إيران، وماركوس الفليبيين، وسوهارتو أندونيسا، وموبوتو الكونغو، وأمثالهم في إفريقيا هنا وهناك، وما جره السابقون على البشرية من ويلات، واللاحقون على شعوبهم من نكبات في ذلك أبلغ عبر التاريخ.

عرف المغرب هذا الواقع السياسي في عصوره المختلفة، ولسوف نقرأ في الكتاب ما عرفه المغاربة القداما مع الرومان وماتلاهم من الذين استولوا على المغرب إلى عهد الفتح العربي وما عرفه المغاربة من الفاتحين الذين كانوا ظاهريا يبشرون برسالة الإسلام وعمليا كان همهم الشاغل هو السيطرة على مقدرات البلاد وحملها مع الآلاف من السبايا إلى ملوك بني أمية كما سنرى ذلك بتفصيل في الكتاب، وبسبب ذلك دخل المغاربة في صراع مع الأمويين والعباسيين استمر حتى بعد تأسيس الدولة المغربية التي اختارت الاستقلال عن المشرق بعد تأسيس الدولة الإدريسية التي تميز بها كيان المغاربة كما عرف المغاربة زمن الدولة الإدريسية إشعاعا حضاريا مشرفا يتفق والرسالة التي بشر بها الإسلام وبها جاء الصادق الأمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وهي التي قادت إدريس الأول ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله عليهم السلام جميعا، والذي جاء في الوقت المناسب الذي

كان المغاربة قد انتهوا إلى قناعة أن لا خير في كل أولئك الذين وجههم الأمويون لا لنشر الرسالة وإنما لجلب الغنائم والسبايا، ولذلك كانت الثورات ضدهم متوالية أدت الى الردة والكفر إلى أن قدم إدريس بن عبد الله وليس له من سند إلا ما كان مما سبقه من إشعاع وما عرفه المغاربة من تنكر الأمويين والعباسيين لآل البيت واستهتارهم برسالة الإسلام.

لقد كان من الواجب على المؤرخين السابقين أن يتناولوا ما عرفه المغاربة في عهد الفتح العربي من أولئك الذين أساؤوا لأنفسهم قبل أن يسيئوا إلى الإسلام. ذلك أن خير ما يقتدى به في كتابة التاريخ في هذا الجانب جانب التصريح بدلا من إهمال المواقف الشديدة الحساسية بل ولا حتى الكناية وعدم التصريح، هو القرآن الكريم، أو ليس هو الذي وصف ابن نوح عليه السلام بما يستحق ثم بين حقيقته، وأنه عمل غير صالح، والقرآن الكريم هو الذي عرفنا على موقف إبراهيم عليه السلام من قومه وموقف قومه منه، بل أو ليس القرآن الكريم هو الذي عرفنا على ما فعله بنو إسرائيل مع أنبيائهم، وداوود عليه السلام مع نعاجه؟ وسليمان عليه السلام مع بلقيس، وبالتالي قريش وما فعله مجرموها والظالمون المنافقون من كبرائها مع الرسول الكريم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم «تبت يدا أبي لهب» وبالتالي أليس التاريخ هو الذي عرفنا علي عظمة الذين اقتدوا برسول الله أبو بكر وعمر وعلي وعثمان وعمر ابن عبد العزيز وغيرهم.

وعملا بذلك ليست الغاية مما سلكت في كتابتي للتاريخ من صراحة فيما يتعلق بمواقف الآخرين، بل وحتى عرض صور الذين أساؤوا بسلوكهم المسيء إلى المغرب والمغاربة، قديما وحديثا وكذلك الذين أحسنوا بأعمالهم وسلوكهم كذلك، ليس هو العرض في حد ذاته، بل الغاية والقصد هو تحقيق الغاية من التاريخ الذي هو: أن أقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت. وحتى يعرف الآخرون، أن التاريخ مرآة الدوام والاستمرار.

ولعل بعضهم يلاحظ أن هذا الكتاب توقف عن الكتابة حول التاريخ السياسي يوم عاد محمد الخامس وتحقق الاستقلال بخروج المستعمرين ليحل مكانهم المغاربة، وذلك عن

قصد وبتخطيط، لأن مرحلة ما بعد الاستقلال وخصوصا بعد موت محمد الخامس رحمه الله، تعتبر ومن خلال الوثائق أكثر حرجا وأشد ظلما وظلاما من الوجهة السياسية، بل إذا هي قورنت بما قبلها، ثم بالزمان وتطوره، لا نجد لها مثيلا في تاريخ البغي والظلم والفساد، أساءت خصوصا إلى ما قدَّمه العلويون لهذا الوطن من مكرمات يتوجها الصدق والأمانة والوفاء وأعلى درجات الخلق والسلوك، وهي الصفات التي ميز الله بها واسطة عقد الدولة العلوية محمد الخامس الذي شرفه تاريخ القرن العشرين الذي جعله في مقدمة صفوف الخالدين، بشهادة ما هو مدرج في هذا الكتاب مما كتبه حوله كبار علماء العصر وما هو مدرج في هذا الكتاب لكل من عباس محمود العقاد وسيد قطب وطه حسين وجمال عبد الناصر وغيرهم من مختلف الأجناس والدول.

وإذا كنت قد بدأت حياتي معه وأنا دون السابعة وبالقرب منه في كل الظروف باستثناء مرحلة الهجرة قصد الدراسة بتونس ومصر التي دامت عشر سنوات1947-1958 عدت بعدها للعمل بجانبه حيث كلفني بما لم يكلف به غيري كما تشهد الوثائق المدرجة في الكتاب. وقد عرفت عنه ما لم يعرفه غيري. عرفت محادثاته زمن طفولتي في كل شيء، تارة مع والدته رحمها الله، وتارة مع الخادم عبد الدار مرجان الحبشي الرجل المسلم المؤمن التقي الذي أشرف على تربيته في طفولته رحمهما الله وتارة مع الرجل العالم الأديب الصادق الأمين الوفي محمد لمعمري رحمه الله. وكانت في أوقات انتظار الصلاة. وتارة مع صديقه الشخصي محمد الغزاوي رحمه الله، وتارة مع صنوه وأعز إخوته الثلاثة عنده المولى الحسن بن يوسف رحم الله الجميع. وقد كنت الوحيد بين الأطفال الذي لا يبعدني عن مجالسه تلك لأن حبه لي كان مستمدا من حب والدته التي كنت باستمرار أقرأ لها سورة يوسف التي كانت تذكرها حب زوجها المولى يوسف رحمه الله. كما كنت أقرأ له أيضا كلما أمرني بذلك كما كان يحملني سلاحه للصيد مع صنوه المولى الحسن بن يوسف كلما هم بذلك في عرصات القصر للكي بفاس الذي كان كثيرا ما يقضي به فصل الربيع. من كل سنة وفي كل ما سبق تعلق بذاكرتي الكثير من محادثاته حتى العائلية منها. مما كون لي فكرة حقيقية عنه لم تتكون

لغيري قط. مما دفع للكتابة عنه بعد المؤامرة التي دبرت ضده وهو المشروع الذي تحول الى إنجاز هذا الكتاب بعد ما قررت البعد نهائيا عن كل مرافق الدولة التي لم تعد صالحة لي ولم أعد صالحا لها. بعد توقيف البرلمان الذي دخلته نيابة عن موطن تافيلالت وبدون انتماء حزبي.

وإذا كانت ذاكرة الطفولة المبكرة هي أقوى ذاكرة الإنسان فقد وعيت الكثير مما لم يذكره التاريخ في حق محمد الخامس، وأولها أنني أشهد الذي جاء في كتابه الكريم ما يعني جميع خلقه المكلفين «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد». سورة ق الآية 18» وأنه ما وصل وقت قط من أوقات الصلاة إلا وجده قد توضأ قبل، وقد كان المكلف بإخباره عن الوقت الضروري للوضوء شخص حبشي إسمه سعيد المؤقت لا شغل له غير تلك المهمة، وإذا كان مما ورد في كتاب الله «إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر». نعرف من ذلك ماذا كانت اهتمامات محمد الخامس الذي كان من يود التقرب منه يلتزم بمقومات الدين... إلخ. وإذا كنت وكما تشهد الوثائق المدرجة في الكتاب فصل 321، وما بعده قد عشت تاريخ النضال من أجل التحرير منذ 1944 ثم عرفت خبايا ما قبيل الاستقلال وما كان للقوم من مؤامرة ضد المغاربة وفي مقدمتهم محمد الخامس رحمه الله. راجع الفصول 321-322-323-324-325-326 الخ. وهي تدل على ما كنت أعرف مما جعلني أرفض الوظيف الإداري مطلقا وبعد موت محمد الخامس. واخترت العيش من مردود الفلاحة وما وفره لي محمد الخامس من مرتب كان ينمو معي من زمن الطفولة 1932 إلى أن قطع بعد موته لأنني لم أخضع للتوجيهات الضالة من أجل تكوين الحزب الذي من أجله وضع لي حساب بمآت الملايين في الخزينة العامة تحت رقم1476. وقد تركتها مجمدة إلى أن سحبها الجنرال عبد الحفيظ الذي وقعت له حوالة بالمبلغ بحضور محمد البرنوسي مدير الخزينة العامة. بتاريخ 21 مارس1967. وبذلك دخلت في الصراع الذي أدى الى احتلال خزانتي ومصادرة مؤلفاتي التي لم تنشر والتزوير ضد ترشيحي للبرلمان 1970 في موطني ومسقط رأسي وبين أهلي الذين فزت بينهم بصفة

محايد أي مستقل في انتخاب 1963 إلخ. ووقتها قررت إنجاز هذا الكتاب حتى أبتعد كليا وأنقطع عن المجتمع الذي عرف تحولا خطيرا.

عرف المغرب في مختلف العصور الكثير ممن استهتروا في حق الشعب بحكم ما استولوا عليه من سلطة ومسؤولية، لكن التاريخ لم يعرفنا على فترة كثر فيها البغي والفساد من بعض ذوي السلطان وكبار المسؤولين انطلاقا من مواقع مسؤولياتهم كما عرفنا عليهم في المرحلة التي أوقفنا الكتابة عنها وهي مرحلة ما بعد 1955/11/16، ذلك لأنها المرحلة التي تمثل فيها ما سبق مما اعتبرناه من عبر التاريخ، فيها عرف الشعب إجهاض مقاصد الاستقلال من بعض ممثلي حزب الاستقلال يتقدمهم التلمساني عمر بن عبد الجليل الذي جمع من المال ما أسس به البنك الشعبي يليه أبو بكر القادري الذي باع المدرسة التي شيدت بأموال الشعب. ما يقدر وقتها بآلاف الملايين في هذا العهد 250 مليون واليزيدي بوشعيب وبهم اقتدى الذين حلوا مكانهم من الذين لم يذوقوا العذاب من أجل تحقيق الاستقلال، بل منهم من كان إلى جانب المستعمرين ضد الاستقلال وما تناولته من مواقف بعضهم. من الذين حلوا مكان المستعمر ثم هم بفضائحهم أجهضوا مقاصد الاستقلال وفي مقدمتهم الشياطين الخمس: الأعور والأعرج والأقرع والأسود وقزم الرباط وغيرهم من الذين التحقوا بهم وهم الذين تنقلوا بين الأحزاب كما تنتقل الكلاب بين المزابل. وما يعنيهم كتبته في الهوامش كتعليق.

إن الأسلوب الذي فضلته لكتابة التاريخ السياسي، قديما وحديثا، خصوصا المعاصر الذي عشته ثم بلوت خيره وشره، وبالنسبة للذين زعموا لأنفسهم حق التوجيه وأرادوا من التاريخ أن يكتب عنهم عكس ما فعلوا لم أفعل إزاءهم أكثر مما يجب على المؤرخ الذي يخاف من نفسه وعليها يوم يقف بين يدي الله ويوم ينتهي ويزول ظله ويبقي الدهر ما كتبت يداه، وأن الذي يسيء وهو في كامل قواه العقلية، ثم يريد من الآخرين أن يقولوا له أحسنت، أولى به أن يصفع ويركل بالقلم وما يخطه القلم، بكل قسوة وعنف عنيف، لأنه بإرادته تلك، إنما يستهين بكرامته بل ويستهين بكرامة أهم المعارف جمالا وروعة وجلالا وهو التاريخ، والفاضل الكريم المحسن الذي يفعل الخير طبعا وسلوكا ألا يستحق الشكر

والتقدير والتكريم وقد قال الله في حق هذا وذاك «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» وقال تعالى «وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها» ثم قال تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خير يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» يراه في هذه الحياة قبل أن يراه في الآخرة.

إن كل مؤرخ من المؤرخين من القداما أو المحدثين، مهما بلغت عنايته واهتمامه، وامتد بحثه واستقصاؤه، لا يمكنه الإلمام بكل جوانب العصر الذي يؤرخ له، لكن بالنسبة للواعي، هناك المهم وهناك الأهم، وهذ الأخير عادة أحق بالعناية في نظر الجميع، ولذلك لا غرو يلاحظ القارئ أنني فعلت ذلك ما استطعت، ولربما الذي يترآى لي أنه أهم يظهر لغيري عكس ذلك، وهذا مصداقا لقوله تعالى «واختلاف ألسنتكم وألوانكم» إذ اللسان هو ترجمان الفكر، ولا ينطق اللسان إلا بما سكن في الجنان. ولقد عبرت عن ذلك في مواقف كثيرة، ربما يراها غيري مما يخالف رأيه وتفكيره، فله كل الحرية في التحليل والنقد وإبداء الرأي على أنني لا أتردد في القول أنني ما نَقَمْتُ على غيري قط حرية رأيه شرط أن يكون موضوعيا، ولذلك لم أقبل من أي كان مهما كبر شأنه، وارتفع سلطانه، أن يعاملني بغير ذلك أو يطلب مني التنازل عن شخصي بالرفق على من لا يستحق الرفق، أو مجاملة من لا يستحق المجاملة، وهم أولئك الذين عاشوا حياتهم كلها ضد الشعب، وفي مرحلة ما بعد الاستقلال أي مرحلة ما بعد موت محمد الخامس رضوان الله عليه اتخذوا النفاق وأوسخ الوسائل وسيلة الى السلطة من أجل اغتصاب المال الذي حولوه لبنوك أوروبا على مرأى من الشعب المهمش الذي لا رأي له ولا اعتبار عندهم.بل ولما تمكنوا أصبح الشعب في ضيق أشد مما كان عليه قبل في عهد الاستعمار، وبعض هؤلاء هم الذين صرحت بأسمائهم والتعريف بهم من خلال الوثائق التي يعتبر التاريخ بدونها لاغيا. مثل ما فعلت مع المخلصين الذين لم يكن لهم من جزاء بعدما تبدلت الأيام غير الأيام، والناس غير الناس إلا الذكر الجميل.

من يتمعن في تاريخ المغرب السياسي بصفة عامة ومن خلال ما كتب المؤرخون القداما والمحدثون من عهد اليعقوبي وابن عبد الحكم الى عهد ابي القاسم الزياني ومحمد بن عبد السلام الضعيفي السوسي أصلا الرباطي نشأة يتوصل إلى حكم أن

الشعب في المغرب العربي الكبير قط لم يعرف حكما صالحا شبه ديمقراطي بلغة العصر فضلا أن يكون شوريا إسلاميا صادقا وسليما، باستثناء فترات جد قليلة تمثلت في العهد الذي كان الحكم فيه بواسطة جماعة من المغاربة يتقدمهم عبد الحميد الأوربي في صدر الإسلام، والذين بواسطة إتفاقهم وبلا أنانية أسند الحكم الى إدريس بن عبد الله الكامل أول مؤسس للدولة في المغرب، بل وهم الذين حافظوا على كيان الدولة إلى أن بلغ إدريس الثاني سن الرشد، ثم بعد زوال دولة الأدارسة وقيام المرابطين عرف المغرب أمثال أبي بكر بن عمر اللمتوني ثم يوسف بن تاشفين ومن بعده ولده علي، ومن الموحدين المهدي وعبد المومن بن علي، إلى عهد السعديين الذين كان منهم عبد الملك. الذي قاد معركة وادي المخازن وهو طريح فراش المرض أثناء المعركة وفيها توفي ليحل مكانه الظالم المستبد أحمد الذهبي. وفي عهد العلويين وبعد ما تمكنت الدولة كان المولى سليمان بن محمد بن عبد الله ثم خلفه من بعده عبد الرحمن بن هشام وولده محمد بن عبد الرحمن، ثم المولى عبد الحفيظ وصنوه يوسف وولده واسطة عقد العلويين وأبو المغاربة ومحقق استقلالهم الملك العظيم في الخالدين محمد الخامس رحمه الله.

هؤلاء حسب اجتهادي ومعرفتي بتاريخ المغرب الذي انقطعت لمعرفته والتمعن فيه. من الذين ذكرت حسب اجتهاد المؤرخ وأمانته، وأما بالنسبة لأقطار المغرب الأخرى فقد كانت إلى بداية العقد الثالث من القرن العاشر تعيش متحدة من نواق الشوط الى قبيلة لعبيدات شرق ليبيا، ولم تعرف التجزئة إلا حين حكمها الأتراك 925هـ 1519م. وبلا مبالغة لم يعرف الشعب في المغرب العربي الكبير من حكامه إلا القهر والإذلال والإرهاق، وإذا لم يكن من الحاكم أعلى أو كان ضعيفا فمن الذين كانوا حوله من الذين كانوا بدورهم يجدون التأييد من أشباه الزعماء والفقهاء والعلماء ما يبررون به أعمالهم، خصوصا تلك التي يرفضها الشرع ولا يقبلها العقل ولا داعي للتكرار ما دامت تلك المواقف من محتويات الكتاب ونضرب المثل بالواقع المعاش والذي عرفته شعوب المغرب العربي الكبير في كل أقطارها باستثناء القطر الليبي منذ أن اختفى منه عميل الاستعمار إدريس ابن المهدي السنوسي، والذي لو بقي لتحولت ليبيا التي قبل تقسيمها إلى ولاية أمريكية أو

انجليزية، لكنها بفضل ثورة الفاتح من سبتمبر 1969 خلصت ليبيا والتي قام بها رجل لم تكن له سابقة في ميدان المضاربات ولا هو من المتطلعين الى ضخامة الأرصدة في البنوك بمختلف الدول الأوروبية، وهو معمر الگدافي بالكاف المعطشة الذي أدرك حقيقته جمال عبد الناصر فلقبه من أول وهلة بأمين القومية العربية، وذلك ما شغله زمنا طويلا ثم هو عمل من أجله بمختلف الوسائل، لكن القومية العربية دخلتها العلة بواسطة المسؤولين في مختلف أقطارها، الأمر الذي جعل معمر الگدافي يهتم «باتحاد الأفارقة» فتوجه لذلك وقد حقق بعض ما كان يقصد، لكن توجهات الاستعمار الجديد وأهدافه ثم مدافع العدو الأكثر حقدا على الگدافي وهم الإسرائيليون ناصبوه العداء، ومع ذلك فإن عمله وما يخططه لشعبه نلمس فيه الصدق والاخلاص والاقتداء بجمال عبد الناصر الذي كان أحيانا وكما عشنا في القاهرة بعضا من حياته 1952-1958 أول تأسيسه لهيئة التحرير، وأنه كان أحيانا يبلغ به التأثر في بعض خطبه التي كانت كلها صدق وأمانة، أنه كلما طال به الكلام حول مصر وواقع معانات الشعب المصري تسيل عبراته ويختنق صوته وهو ما لم نعرفه في معمر القذافي الذي هو الآخر نلاحظ من خطبه الواقعية وخلوها من العاطفة.

وإذا كان جمال عبد الناصر ورفاقه الذين مهد لهم حزب الوفد وجماعة الاخوان المسلمين قد حقق في حياته أكبر مكرمة سياسية وهي تحرير الشعب المصري من إرهاق فاروق وصنائعه أمثال حسنين والهلالي وابراهيم عبد الهادي وحيدر بل والإيطالي بولي واللبناني ثابت وما كان يهدد مصر من تدخل الأنجليز وإجهاض استقلالها ماديا حقق السد العالي وتحرير القنال والإصلاح الزراعي حيث كان الإقطاع يملك معظم الأراضي وفي المقدمة ما يملكه الخديوي 600000 فدان أدخلها جمال ضمن الاصلاح الزراعي من غير أن يكون لبني مر قبيل جمال نصيب منها الخ. والذي لو طال عمره لكانت له مكرمات أكثر. وقد أشار إلى ذلك فيما كتب ونشر وحول فلسفة الثورة. أما معمر القذافي هو الآخر فإنه انجز لشعبه عملا عظيما سوف يجعله بحق ضمن قافلة الخالدين، ذلك هو النهر العظيم الذي سمي بالنهر الصناعي والذي لا محالة سيغير الطبيعة والواقع على

وجه الأرض وحياة الشعب الليبي المجاهد وينسيه آلام العذاب الذي عرفه من الإيطاليين والقبور الجماعية التي خلفوها زمن الأسلاك الشائكة وما يعرف عند الليبيين بـ«اشْبَرْدَگ» والتي كان الأحرار من رجال عمر المختار يتركون للعذاب داخلها إلى أن يموتوا بالعشرات، حيث يدفنون في نفس المكان، وجمال عبد الناصر حسب المسلم العربي المري الذي ولد بغيط العنب 84 بالاسكندرية والذي لم يملك في حياته من متاع الدنيا غير منزل بالعباسية منشية البكري كان بكل ما فيه يمثل البساطة في أجمل مظاهرها. فيه عاش وفيه كان يستقبل الأحرار كما عرفناه، وفيه مات عظيما ولم يترك لأولاده الثلاثة خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم غيره، ومثله البيت الذي يملكه معمر القذافي صاحب خيمة الاستقبالات وربما دونه حسبما رأيناه يوم قنبله أحط شخص عرف كمضحك للناس تطفل على الحكم ثم أصبح رئيسا يحكم شعبا أميريكيا تعداده مآت الملايين يسمى «ريكن» دفعه الحقد والكراهية للعرب والمسلمين في شخص معمر القذافي أن يهاجمه في منزله بالطائرات والقنابل نيابة عن إسرائيل ثم يكتشف أنه خاب سعيه لكنه ارتكب جريمة قتل صبية أذل الله وقتها بذنبها البيت الأبيض ومن فيه.

كان هذا كافيا للدلالة على مثالية الرجلين فالأول حاولت دولة الدولار أن تجربه وتغريه بهدية الملايين من الدولار. يقول كوبلاند في كتابه لعبة الأمم ص 169-204 لكنه استغنى عنها بكبرياء وعزة نفس وبها بُني برج القاهرة. وقد كانت كافية لبناء قصر أحسن من قصر عابدين، وأجمل من قصر القبة لو كان جمال مثل آخرين لكن تاريخ أصحاب القصور وما تتطلبه الحياة في القصور، ليس هو تاريخ أصحاب المبادئ عشاق الصفات والذين يتحلون بأجمل الصفات، والثاني الذي صدّ عن قصور الإيطاليين ثم أراد له القدر أن يتصرف في عشرات الآلاف من ملايين الدولار، 30 مليار سنويا مداخيل النفط فكان هدفه الصادق الذي تفرغ له بصدق هو الرفع من مستوى شعبه، وقد حقق له الكثير فكان بحق معمر القذافي والذين معه بالنسبة لليبيا رسل خير قد رفعوا مستواها وإن كان قد ظهر فيها شخص فعل ببلاده وثروة الشعب ما فعله أمثال رفعت الأسد بسوريا، وخالد نزار بالجزائر وعبد القادر كوجيتي الذي تبرع على جامعة أمريكية بعشرة ملايين دولار، فعل

أكثر من هؤلاء جميعا الليبي يحيى عمر الذي فعل بملايير وقود ليبيا، ما فعله صنوه في المغرب الشرطي المعدم ابن حارس السجن الذي أصبح وزير الداخلية في المغرب(1) ابتداء من يوم 1977/10/27 إلى شهر نفمبر 1999م لنسأل الشرطي ابن حارس السجن ولعل ما فعله إدريس البصري الشرطي ابن حارس السجن في تاريخ المغرب، وبالشعب المغربي لم يفعله أحد قط سواء في عهد الاستعمار أو في عهد الاستقلال، ويكفي أن يعرف القارئ أن أصوات الأحرار المغاربة بحت بطلب محاكمته ومحاسبته عن الملايير التي تحولت إلى الدولار والأورو والتي جمعت من الشعب بواسطة 800000 مكتب أسست لجمع المال في مختلف جهات المغرب. ثم أمر الولاة والعمال ورجال السلطة بالإشراف عليها، ودفع المواطنين بقوة السلطة للمساهمة بالمال ابتداء من يوم 8 يوليوز 1988م، وما فعله الشرطي ابن حارس السجن وأولاده بما فيهم البنت وداد سوف يبقى مما يتناوله المؤرخون لسياسة الظلم والاستبداد على طول الدهر بل أوسخ صفحة في تاريخ المغرب المعاصر. ومهما يكن فإن العهد الذي سيطر فيه أمثال الشرطي ابن حارس السجن عرف ظروفا كلها تزوير في الانتخابات وإذلال للمغرب والمغاربة بشكل يقرأ التاريخ والناس أن المغرب ما عرف مثلها قط، ظروف هي أوسخ ما عرف المغرب، ظروف صنعها قوم اتفقوا على إذلال الشعب بالتزوير وإجهاض مقاصد الاستقلال، ظروف عرفها القريب والبعيد صنعت طغمة من الذين عرفتهم المحاكم ثم عرفت فظائعهم وفضائحهم أمثال عبد المغيث السليماني والعفورة، والملايير التي لم يختلسها إلا اللصوص من أولاد مراحيض البادية، بل حتى التي اعتبرت من الأسرار التي هدد بافشائها الشريطي ابن حارس السجن والتي دست في الحقائب وهربت إلى ما وراء البحار لتحقق النصر للمشارك في الفضائح التي حركتها بصمات جون بيير تكوا مضافة إلى فظائع وفضائح

---

(1) راجع مختلف الصحف المغربية وجريدة البيضاوي عدد 110 بتاريخ الأربعاء 7 يونيه 2004م. وجريدة الأيام عدد 21 الأربعاء 8 مارس 2006 والأسبوع الصحفي عدد 829/392 بتاريخ 17 مارس 2006 . وغيرها من الصحف وقد بحت أصوات المواطنين مطالبة بمحاسبة أخطر شخص أجهض مقاصد الاستقلال وأفقر المغاربة ليصبح أبو الملايير هو وأولاده. وهو الشرطي ابن حارس السجن إدريس البصري الذي كان بالأمس يحار في قوت يومه.

المرتزقة أمثال «جيل بيرو وإنياس دال» وغيرهم من المحترفين الذين ضاق مجال استرزاقهم في فرنسا فالتجأوا إلى أسواق السمسرة في المغرب التي انكشفت فيها فضائحهم بالكذب والبهتان الذي جعلهم سخرية الرجال والصبيان. ويكفي أن يعرف الناس الحساب الطويل الذي للمستعمرين وأبناء المستعمرين الذين منهم إنياس ذال مع محمد الخامس الذي أذل فرنسا وتاريخ فرنسا بطريقة لم تعرفها عبر تاريخها الملوث.

ونعود إلى الظروف التي دفعت أمثال هولاء المرتزقة من الفرنسيين الذين كان الواجب يقتضي فضحهم من خلال أعمالهم. لكن الذين كان يمكنهم ذلك لم يفعلوا ما دام هناك موسخ للمملكة وهو الجاسوس المشهور الذي تطفل على المهمة والذي سوف يقرأ المغاربة وغير المغاربة فضيحته وما دفعه الجهل والتطفل اليه من سرقات مكشوفة. لم يتعرف عليها الذين همهم الشاغل هو التعرف على تلك الفضائح والسرقات التي لا يقدم عليها إلا من أراد الله به شرا وأراد به الجهل ومركب النقص أن يصبح سخرية بين الناس.

وفي الظروف التي هي أسوأ ماعرف تاريخ المغرب الأقصى والتي تزعمها عميل فرنسي تأكدت خيانته وكراهيته لمحمد الخامس وهو أحمد رضى كوديرة الذي لم يكن من مهاجرة الأندلس بل ولا صلة له بأولاد كوديرا وإنما جاء بأصوله قريبا صيد القراصنة في البحار، والذي ما ثبت أن محمد الخامس وصف أحدا بمثل ما وصف العميل الحقير أحمد ولد التهامي كديرة وفاطمة بوعلو الزعرية، نتيجة فضائحه التي أهلت عددا من السفهاء الخونة وأبناء الخونة لأعلى مناصب الدولة من أجل تحقيق أهداف مكشوفة ومنهم عمر بن مسعود طوليدانو الذي جر مجموعة من الوزراء الى السجن بفضائحهم التي هي أقل ما عرف مما نشرته الصحافة عن الشرطي ابن حارس السجن إدريس البصري السطاتي الشاوي الذي كان هو وقومه وأبوه وجده وأخوه وحموه يحارون في قوت يومهم، أصبح إدريس وعائلته يلعبون بالملايير المنتزعة من الشعب قهرا باسم بناء الجامع الذي وضع تخطيطه على الماء، وتمويله باكتتاب بدأ يوم 8 يوليوز 1988م وخصص لجمع المال من الشعب ثمانمائة ألف (800.000) مكتب في عموم المغرب حيث أمر العمال وكل رجال السلطة بدفع عامة الشعب للمساهمة، وإذا كان الإشراف على البنا فرنسي،

وتسيير العمال فرنسي، فقد قيل إن شركة رخام الجنوب إشتغل عمالها ستة عشر مليون ساعة(16000000)والمسمات وداد بنت إدريس البصري هي المديرة للشركة وأجرتها في الشهر مائة ألف درهم، عشرة ملايين سنتيم، وربما هي لا تعرف معنى شركة الرخام ولا أين تقع. وإذا كان الجامع كما نشرت الصحف تكلف صيانته مليار سنتيم في الشهر، فما قول الشرع فيه وفي الصلاة فيه عبر التاريخ، وما عشت من زمن طويل مع تاريخ شعب المغرب العربي الكبير وغيره من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية، بل والتي ترجع الأوائل منها إلى أقدم العهود وأكثرها غورا في سابق الأيام أنه ما من أحد يجب أن يحاسب ويسأل عن أعماله قبل الحاكم، إذ الحكام والوزراء المكلفون بحكم الشعوب وتدبير شؤونها، هم الذين يحاسبهم التاريخ ويهتم بأعمالهم لأنهم المسؤولون أولا في تاريخ كل شعب، في صحفهم يكتب الخير والشر والتقدم والتخلف. وهذا ما عشناه وأدركناه من حياة الذين عاصرناهم من بعض الحكام الذين أسند لهم التسيير فهم إن كانوا من الطغاة المغرورين الذين يلهثون وراء شهواتهم البهيمية العاجلة، هم الذين يستهدفون وبتركيز قوي وعنيف لخداع المخادعين وتملق المنافقين، وافتراء الكاذبين، وتدليس المدلسين وتغرير المغررين، أولئك الذين لا يحققون مقاصدهم السافلة من وراء الشعوب وعلى حسابها وبواسطة الحاكم الذي وصفناه، إلا بتلك الوسائل والطرق السافلة المنحطة كذلك، لكن إذا هم وجدوا أمام قوي سليم ذو حصانة بالعلم والدين والخلق وحسن السلوك وسلامة التدبير باؤا بالفشل والتحقير والخزي الذميم، فبالنسبة للأول يستأسدون ويسيطرون ثم يجرون عليه وعلى من في حكمه وتحت سلطانه الويل والتمزيق والانحطاط والانهيار، بل العذاب الأليم وسوء المصير. والذي يقرؤ التاريخ ولا يستفيد منه هذه الحقائق إنما يضيع الوقت ولا يستفيد من الحياة لكن ما يقرؤ من تاريخ المغرب القريب المكتوب بواسطة الذين كانوا يكتبون كيف اتفق وكأنهم يكتبون قصصا بلا هدف ولا قصد صادق قارئه لا يخرج بالنتيجة المرجوة من قراءة التاريخ وقد أدركت هذا قبل أن أبدأ بالكتابة لذلك وجدتني أكتب بالأسلوب الذي يشد القارئ ويجعله يستفيد، بل التاريخ المعروف المتداول بين المغاربة هو تاريخ التصوف المفترى عليه. تاريخ الاسترزاق

الذي وجد بعضهم فيه وسيلة تحقق لهم ما يطلبه المفترون على الله والناس في هذه الحياة من مال وجاه سرعان ما ينقلب إلى فقر وذل وعدم تقدير عندما تعم المعرفة وينتشر الوعي.

ومهما يكن فإن الهدف الذي أقصد من كتابتي للتاريخ السياسي في المغرب العربي الكبير، هو غير الذي كتبه أولئك الذين أشرت إليهم وغيرهم من الذين لم أذكر أسماءهم هنا، والذين لم يستعملوا مناهج البحث فيما كتبوا، فالقصد عندي أولا هو أن أحقق للقارئ، ما يقصد من التاريخ السياسي كوحدة تتمثل في ترتيب الفصول حسب التسلسل التاريخي للحوادث أولا، حتى يلم القارئ بتاريخ المغرب العربي الكبير وتكون له نظرة شمولية على تاريخ المغرب العربي الكبير قديما وحديثا، وبطريقة تتفق وكتابة التاريخ غير التي سار عليها بعضهم من الذين كانوا يخلطون بينه وبين فن القصص، يجمعون الوثائق والروايات كيفا اتفق، ثم يصهرونها ويصبونها في قالب شبه أدبي تضيع معه الغاية والقصد من التاريخ، وإذا كان الذي يلمسه القارئ لبعض المؤرخين الذين اشتهروا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين أغلبهم إنما ينقل اللاحق عن السابق من غير أن يبذل من الجهد قليل ولا كثير، فإنني قد أشرت الى ذلك في الأماكن التي يجب التعرف عليها، وكثيرا ما اتخذت لذلك هوامش حتى لا يحصل التشويش على القارئ وهو منسجم مع وحدة الموضوع. كما يجب أن ألاحظ أن الكتاب تناول مرحلة لم تكتب بعد كما يجب وهي مرحلة التاريخ الحديث التي كتب منها بعضهم ما يعنيهم ويغطي فضائحهم وفضائح آبائهم، كتبت عنها وعن كل ما يعني المسؤولين عن فظائعها وفضائحها بكل صراحة ومن خلال الوثائق التي يعتبر التاريخ بدونها لاغيا ولا يعتبر. ولذلك اخترت ان أدرج منهج البحث في التاريخ بعد هذا التقديم والتمهيد. وهو المنهج الذي تلقيته ضن المحاضرات التي تلقيتها عن الدكتور محمود قاسم صاحب كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث أيام دراستي عليه بكلية دار العلوم جامعة القاهرة قبل خمسين سنة مضت والتي تذكرني حبي الكبير لمصر والمصريين لطلبة وعميد الكلية الدكتور إبراهيم مصطفى الذي كافح معنا أيام النضال

من أجل قضية مغربنا الأقصى وملكه العظيم 1951 وما قمنا به من مظاهرات عطلت الدراسة بالكلية بل وبالجامعة لمدة أسبوعين في عهد حكومة الوفد الوطنية وعلى رأسها مصطفى النحاس طيب الله ثراه ووزراؤه الذين خدموا قضية المغرب العربي كل من الدكتور صلاح الدين وفؤاد سراج الدين وطه حسين كما أذكر فضل وجميل أساتذة الكلية ومختلف كليات الجامعة التي كان لها ولغيرها الفضل كل الفضل في التعريف بقضية بلادي وما عرفته من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي تسلط على العاهل العظيم محمد الخامس ابتداء من 25 فبراير 1951 والتي أدرجت وثائقها في هذا الكتاب وإذا هو كان في المستوى فإن إحسان الشعب المصري الذي استجاب لما قام به طلبة الجامعات المصرية وقتها سيبقى خالدا ولا ينسى أبدا. بل إن بعضهم إحسان عبد القدوس رحمه الله أشار الى أن ما حصل في تلك المرحلة من عمل المصريين إزاء جهاد المغرب العربي الكبير ساهم في التعجيل بالثورة المصرية خصوصا إذا علمنا أن جموع المتظاهرين كانت تردد من حين لآخر وهي في طريقها من ميدان التحرير الى ميدان الجامعة شعارات تمس بفاروق وقتها وهي «الى أنقرا يا بن المرا» وهي عبارة لم أكن أعرف معناها. الأمر الذي دفع السيد رشدي لبيب رئيس أمن السيدة زينب، أن يلقي علي القبض ضمن منظمي المظاهرة الذين كانوا يرددون كلمة "إلى انقرا يابن المرا" وأنا منهم ولما سألني معناها لم أعرفه فضحك وأطلق سراحي.

منهج البحث في التاريخ

1- التاريخ يبحث في الماضي ولا يدرس سواه. مثله كمثل العلوم التجريبية التي تعتمد على الملاحظة والتجربة وتقوم على التعميم، وذلك لتحديد صيغ القوانين تحديدا رياضيا بحثا، وتلك صفة العلوم التجريبية، أما الظواهر التاريخية التي تدرس كما تدرس العلوم التجريبية، فهي لا تقع مباشرة تحت ملاحظاتنا ولا يمكن دراستها إلا بعد وقوعها، أما الشبه بين دراسة العلوم الرياضية وعلوم التاريخ فهو أن كلا منهما يعتمد على جمع الوثائق ودراستها بالملاحظة مباشرة، وذلك بالنسبة للتاريخ كما يفعل عالم الطبيعة غير أن الوثائق بالنسبة لدارس التاريخ، تعتبر نقطة بدء للوصول إلى تحديد الظواهر التاريخية، في حين أن عالم الطبيعة يتخذ ملاحظة الظواهر وسيلة إلى وضع الفروض.

تلك فروق واضحة بين كل من الباحث في علم التاريخ وعلم الطبيعة، أما طرق الشبه التي ذكرناها، فهي تتمثل في استخدام المؤرخ طريقة الاستقراء التي يغلب عليها طابع التحليل والتركيب العقليين، بينما يغلب طابع الملاحظة والتجربة على العلوم الأخرى، كذلك يهدف الباحث التاريخي الى الكشف عن العلاقات السببية بين الحوادث الماضية.

على أن دارس التاريخ لا يمكنه فهم الماضي وتفسير حوادثه إلا إذ اعتمد على بعض الوسائل الخاصة، وإلا إذا مر بمرحلتين أساسيتين واضحتي المعالم، ونعني بهما مرحلتي التحليل والتركيب. أما الأولى فتتكون من عدة خطوات تدريجية تبدأ بجمع الوثائق ونقدها. والتأكد من شخصية أصحابها، ثم تنتهي الى تحديد الحقائق التاريخية الجزئية، وهنا تبدأ المقالة الثانية، وفيها يأخذ المؤرخ في تصنيف هذه الحقائق والتأليف

بينها تأليفا عقليا. وقد يضطر إلي سد ما يلقاه من فجوات بالفروض التي يعمل على التحقيق من صدقها، فإذا تم له ذلك استطاع الاهتداء الى الصلات بين الحوادث وتوضيح ما خفي من أسرارها، وسنوضح أكثر في هذا الموضوع بعد.

2- التاريخ علم أم فن:

يقول بعضهم أن التاريخ ليس بعلم ويعتمد على ذلك بما يلي:

أ- لا يلاحظ المؤرخ الظواهر التي يدرسها بطريقة مباشرة وإنما يعتمد على السماع والنقل والأخذ عن بعض الوثائق التي دونها أشخاص رأوا هذه الظواهر وسمعوا بها، وكل هذه الأشياء يجب الحذر منها والشك في كل ما تؤدي إليه من نتائج. إذ كثيرا ما يشوه الناس الحقائق حين ينقلونها، وإذا كان ذلك يحصل بالنسبة للحوادث القريبة العهد أو المعاصرة، فكيف لا يكون الأمر كذلك فيما يتعلق بالبعيدة، وإذا فالفارق كبير بين التاريخ وبين العلوم القديمة الأخرى.

ب- لا يحق لنا أن نطلق إسم علم على أي بحث نظري إلا إذا أمكن استخدامه في التنبؤ بالمستقبل، أي إلا إذا هدانا الى الكشف عن بعض العلاقات أو القوانين العامة التي يمكن تطبيقها على الظواهر مهما اختلفت أزمانها أو أماكنها، ولا شك في أنه لا يمكن تحقيق هذا الشرط في التاريخ، إذ لا يدور بخلد عاقل أن يتصدر لتأكيد القصة الآتية.

وهي أن المؤرخ يستطيع الاهتداء الى بعض القوانين التي تمكنه من التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها، فإنا نعلم أن الظواهر الإنسانية شديدة المرونة، وأن نصيب الأفراد في توجيهها ليس يسيرا وأن بعض الحوادث الكبرى ينشأ أحيانا عن بعض الأسباب المباشرة التافهة، وان وجود نفس الشروط لا يؤدي دائما الى وجود نفس الحوادث، ذلك رأي الذين قالوا أن التاريخ ليس جدير بأن يسمى علما.

ولنا أن نرد رأيهم الأول بأن التاريخ اليوم قد أخذ يتحرر من طابع الفن الذي كان يغلب عليه في العصور الماضية، ثم بدأ يقترب بعض الشيء من العلوم الاستقرائية، وإذا

كان بعض علماء الاجتماع يزعم أن هناك فارقا كبيرا بين علمهم وعلم التاريخ، لأن المؤرخين يدرسون الظواهر الإنسانية الماضية من جهة تتابعها الزمني، وفي مظهرها الخاص، بمعنى أنهم لا يهتمون إلا بالحوادث التي وقعت مرة واحدة كإحدى الثورات والغزوات أو الهجرات، ثم يصفون هذه الحوادث ويربطونها بتلك التي تسبقها أو تلحقها، وليست تلك هي وجهة نظر علماء الاجتماع الذين يبحثون عن العناصر الثابتة المطردة الحوادث التاريخية، ويهتمون بتتابع هذه الحوادث من الوجهة الزمنية بقدر ما يهتمون بالأسباب التي تفسرها، وهذا النقد فقد أكثر أهميته اليوم، لأن المؤرخين أصبحوا أكثر إعراضا عن وصف الحوادث الفردية وبيان نتائجها، وهم يحاولون تفسيرها والكشف عن عناصرها الجوهرية في النظم السياسية والاجتماعية ليقفوا على أسباب الظواهر التاريخية، ويمكن القول بأنهم أصبحوا أكثر شبها بعلماء الاجتماع، ومع ذلك فإنهم يخالفونهم في الاعتراف بتأثير العوامل الفردية، ويفسحون في تفسيرهم للتاريخ مجالا للصدفة والاحتمال.

كما نلاحظ من جهة أخرى أن علماء الاجتماع خففوا من غلوائهم في التشبث بوجهة نظر «دوركايم»(1) الضيقة الأفق، وأصبحوا يعترفون من جانبهم بالعوامل الفردية والعرضية التي تغير مجرى التاريخ.

ومهما يكن من شيء فقد مضى الزمن الذي كان يعتمد فيه المؤرخون على الطريقة التقليدية وهي طريقة سماع الأخبار ونقلها، وأصبح الباحث المحقق لا يقبل الخبر إلا بعد نقده وتمحيصه وغربلته والمقارنة بين مختلف رواياته، وذلك ما يقتضيه الوصول الى الحقيقة التاريخية المجردة من كل طابع شخصي، وحقيقة ضاقت الهوة التي كانت تفصل التاريخ من العلوم التجريبية منذ طبق المؤرخون أساليب التفكير الاستقرائي على بحوثهم، ويدل على ذلك أنهم يبدأون دائما بجمع الوثائق وتحليلها ثم ينتهون أحيانا إلى وضع بعض الفروض التي يمكن التأكد من صدقها بالحوادث التاريخية، وذلك ما

(1) راجع فلسفة التاريخ وعلم الإجتماع للدكتور عبد العزيز عزت 11-52 ط. القاهرة 1956.

استعملناه في النقطة الخاصة باستقدام الحسن الداخل جد العلويين الى المغرب سنة664هـ 1265م.

والذي لم يقل فيه المؤرخون الذين يجهلون قواعد المنهج في البحث التاريخي غير أنه جيء به بركة من آل البيت ليثمر نخيل سجلماسة؟!

وبعد دراستنا للواقع الذي عاشته سجلماسة وقبائلها المجاورة كبني سليم وهلال ورياح وصباح والبربر، وما عرفوه من اضطهاد بني مرين لكل العناصر الموالية للموحدين كقواد الجيش الذين كانوا ينتمون الى القبائل المذكورة مما دفع السياسيين منهم الى التفكير في استقدام أمير علوي يقاومون به نفوذ بني مرين الزناتيين المستجدين وقتها إلخ.

وإذا كان المؤرخون ينتهون بعد مثل هذه الوسيلة الى وضع بعض الفروض التي يمكن التأكد من صدقها بالحوادث التاريخية، وقد تكون الوثائق أو الآثار التاريخية ناقصة ومحرفة أو مزورة، وهنا تبدو حاجة المؤرخ الى استخدام التجربة والمقارنة للبرهنة على صدقها أو كذبها، وليس معنى هذا ان البراهين التاريخية ترقى الى صف البراهين في الرياضة وفي العلوم الطبيعية، إذ أن المؤرخ لا يستطيع إثبات صدق الآراء التي يصل إليها في التاريخ بتطبيقها على بعض الحوادث الأخرى، بل الذي يفعله هو أن يطبق العلاقة السببية التي يهتدي إليها على نفس الحوادث أو الوثائق التي يحاول تفسيرها.

أما الرد على النقطة الثانية والتي تعني التوسع بعض الشيء في مفهوم العلم حقا، يقول أرسطو إن العلم لا يدرس سوى العام، بمعنى أنه يهدف إلى معرفة الأجناس العامة التي يمكن إدخال الأنواع تحتها، وأنه يرمي إلى الكشف عن العلاقات السببية التي توجد بين الأشياء، ولكن تعريف العلم على هذا النحو يخرج منه بعض البحوث النظرية التي لا يشك أحد قط في أنها عملية، مثال ذلك علم «جيولوجيا» الذي لا يدرس سوى حالات خاصة عندما يبين الأطوار التي مرت بها طبقات الأرض في مختلف العصور، وفي الواقع ليس ثمة فارق كبير بين التاريخ وعلم «الجيولوجيا» إذ يدرس الأول ماضي المجتمعات الإنسانية، ويدرس الثاني ماضي الكرة الأرضية، وهناك سبب آخر يدعونا إلى

وصف التـاريخ بأنه علم. وهو أن المؤرخ لا يقف عند حـد وصف الحـوادث الماضـيـة وتنسيقها، بل يرمي الى الكشف عن العلاقات السببية في نطاق واسع لأن الظواهر التي تدرسها هذه العلوم ترجع في التحليل الأخير الى أفعال إنسانية تعبر عن إرادات فردية او اجتماعية، وإذن فليس هناك ما يبرر حرج بعض المؤرخين الذين لا يريدون البحث عن أسباب الحوادث ونتائجها عندما صدقوا ما قاله علماء الاجتماع من أن العلم لا يبحث عن الأسباب، وإنما يهدف إلى الكشف عن القوانين، ومما يؤسف له ان هؤلاء المؤرخين تركوا دراسة الظواهر التاريخية لجماعة من علماء الاجتماع الذين لم يعدوا إعداد كافيا لدراستها، ولم يفطنوا إلى أن بيان الأسباب هو الذي يخلع على التاريخ صفة العلم. وقد أدرك ذلك ابن خلدون قبل علماء أوروبا بعدة قرون حيث قرر الحقيقة التالية وهي: أن التاريخ يبدو لبعض الناس فنا، ولبعضهم علما جديرا بهذا الإسم، فهو فن لدى العامة، وعلم لدى الخاصة وقد قال في ذلك »إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.

3- طبيعة الظواهر التاريخية:

لا يبحث التاريخ بمعناه العام في الظواهر الإنسانية فحسب، بل يبحث أيضا في الظواهر الماضية أيا كان نوعها، فهو يدرس ما في الطبيعة، وما في المجتمعات أما معالجة جميع الظواهر فتكون على أساسين مختلفين: الأول نظري والثاني تاريخي.

فبالنسبة للأول يستطيع العالم دراسة تاريخ الأرض والمجموعة الشمسية كما يستطيع دراسة القوانين التي تخضع لها هذه الاجرام في الماضي والحاضر والمستقبل على حد سواء.

أما التاريخ بمعناه الخاص فيحاول رسم صورة واضحة عن الإنسانية مستخدما في ذلك ما خلفته وراءها من آثار مادية كالمعابد والمقابر والتماثيل، والنقود والأدوات

المصنوعة، أو آثار نفسية كالقصص والأساطير، والآداب وجوامع الكلم، والعلوم والديانات والوثائق إلى غير ذلك.

والظواهر التأريخية ظاهرة اجتماعية في جوهرها، ولكنها تختلف عن هذه الأخيرة من جهة أنها محدودة في الزمان والمكان. وبيان ذلك أن التاريخ لا يعالج نشأة الديانات بصفة عامة. وإنما يدرس كيف ظهرت إحدى الديانات الخاصة كالموسوية أو المسيحية أو الإسلامية أو البوذية إلخ. فإن كل ديانة من هذه الديانات نشأت في عصر ومكان معين، كذلك لا يعالج المؤرخ الهجرة بصفة عامة، ولكن يعالج مثلا هجرة القبائل العربية أيضا من مصر والصعيد المصري إلى شمال إفريقية والبلاد المغربية والأندلس، وهجرة الشعوب الأوروبية الى أمريكيا واستوراليا بعد كشفها.

ولا يقف التاريخ عند حد دراسة الجماعات الإنسانية، بل يمتد بحثه إلى حياة الأفراد، ومع ذلك فهو لا يعنى بحياة هؤلاء إلا لارتباطها بحياة الجماعة، أي من جهة تأثيرهم في قومهم وعصرهم، وحينئذ فإنه لا يؤرخ عادة للعامة أو المغمورين، وإنما يؤرخ لأبطال التاريخ الذين حلقوا فوق عصورهم وقادوا أمتهم وطبعوها بطابع خاص(1).

---

(1) لقد اعتمدت في هذا المنهج على المحاضرات التي تلقيتها لما كنت طالبا في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة قبل أكثر من خمسين سنة مضت 1954 والتي مصدرها كتاب: المنطق الحديث ومناهج البحث. وإتماما لموضوع منهج البحث في التاريخ ولمن أراد ذلك أن يرجع إلى كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث للدكتور محمود قاسم الفصل الثاني عشر. ص 355-381 ط2. 1953. القاهرة. أو إلى كتاب الدكتور أحمد شلبي «كيف تكتب بحثا أو تقدم رسالة». ط.القاهرة 1957 وكذلك فلسفة علم التاريخ للدكتور عبد العزيز عزت ط.القاهرة 1956. تلك هي مسيرة إنجاز الكتاب في مختلف مراحلها حتى أصبح يتكون من إثني عشر مجلدا واثنين وثلاثين بابا وثلاثمائة واثنين وثلاثين فصلا. ولما أصبح جاهزا للطبع تعرض لمأساة ضيعت من عمره خمسة عشر عاما. حتى اليوم ونحن في عام 2006. والقصة تصور لنا الواقع الذي انتهى إليه المجتمع المغربي وما عرفه من فظائع وفضائح ومآسي تتمثل في سلوك طبقة كان المفروض أن تكون هي التي ترعى الأخلاق وتضرب المثل بسلوك كبار المسؤولين منها، بيد أنها التي يتزعم أفراد منها السير في أوسخ السبل وأخس الفضائح التي منها الفساد والرشوة والابتزاز والنصب والاحتيال، وتلك هي طبقة بعض المجرمين المتأصلين في الإجرام الذين اندسوا في إدارة الأمن التي عرفت إشراف جماعة مدنسة أصلا وسلوكا زمن إدريس البصري وأحمد الدليمي وغيرهما.

في هذه المرحلة وبالتحديد أصبح الكتاب جاهزا للطبع عام 1990م ولما فكرت في طبعه على حسابي وليس لي من وسيلة إلا بيع مزرعة لي في الأطلس المتوسط دائرة ميدلت مساحتها 110 هكتارا محفظة ورسمها العقاري 2712/27 وإسمها النجاح، ولما شاع خبر بيعها اتصل بي سمسار قال إن إسمه حميد أصلا من كروان ويعرف «بولحية» ثم أخبرني أن هناك شخص يريد شراءها وهو يشغل رئيسا أمن إقليم مكناس إسمه بوشتى بومهراز، وبعدها عاد إلي =

= ومعه الشخص الذي قدمه لي بالاسم والصفة بوشتى بومهراز رئيس أمن مدينة مكناس. وفعلا اتفقنا على اللقاء حيث أقام بوشتى بومهراز وليمة عشاء فاخرة في منزل فاخر بحي بليزانس بمدينة مكناس. حضرها السمسار حميد بولحية القرواني، وشخص إسمه الحاج بن غانم من صندوق القرض الفلاحي ويسكن بالهرهورة تمارة. هاتف منزله وقتها 725866 طمنني أنه سيحصل على القرص المطلوب 250 مليون سنتيم كما حضر شخص كان معي إسمه الصغير بنعيسى توفي. وإذا نحن انتهينا من العشاء فإن المبيت كان في المنزل الفاخر الذي قيل إنه منزل بوشتى بوهمراز وفي الصباح توجهنا بجمعنا إلى حيث مزرعتي المعروضة للبيع حيث تجول فيها هو والذين معه على كل مرافقها، ولما عدنا إلى مدينة مكناس توجه بنا والسمسار معه الى منطقة سبع عيون حيث أدخلنا منزلا بآيت يوسف لا يتوفر عليه سوى قلة كله زخرفة بالجبص والفسيفساء الجدران والسقوف، وبعد تناول الشاي توجه بنا نحو مزرعة بها عشرات من الهكتارات قال إنها ملكه وقال السمسار إنه يعرضها للبيع وثمن الهكتار عشرة ملايين وهناك من هو مقبل على شرائها.

اتفقنا على أن أبيع له مزرعتي بثمن قدره 150.000.000 مائة وخمسون مليون سنتيم . ثم تم البيع بواسطة الموثق بمكناس النوتير "الشقروني بتاريخ 1990/1/18 سلمني نقدا ستون مليون سنتيم وعن الباقي 90 مليون سنتيم سلمني "شيكين" واحد بمبلغ 60 مليون والثاني بـ 30 آجلهما ستة أشهر ثم هو طلب قرضا بمبلغ 250 مليون استلم منها 118 مائة وثمانية عشر مليون سنتيم. لكن ما ذا حصل بعد انتظاري الى نهاية المدة ستة شهر.

لقد تبين بعد ان تصرفات بوشتى بومهراز كلها نصب واحتيال. لم يكن رئيس أمن في مدينة مكناس، وإنما فقط مفتش أمن بباب سبتة حيث كان يحصل على مبالغ كبيرة جدا من مهربي المخدرات بلغت في ليلة واحدة من أحدهم كما أخبر بعضهم أنه سلم مبلغ 70 مليون سنتيم ومثله كثيرون. وأن الدار الفاخرة إنما أجرها لذلك الموقف، والأرض التي قيل له وأنها معروضة للبيع كذب وافتراء، بل هي للأملاك المخزنية وأخيرا أنه فعل ذلك مع تاجر أجهزة فلاحية سلمه شيكا بمبلغ 36مليون ثمن آلة حصاد، ولما لم يمكنه من المبلغ قدمه للمحكمة حيث حُكم عليه بستة أشهر ولما استأنف ارتفع الحكم إلى سنتين قضاهما وأنا أنتظر بحيث نصح لي وكيل الملك ورئيس المحكمة بعدم فعل ما فعل صاحب مبلغ آلة الحصاد الذي أدخله السجن وذلك إلى أن يخرج ووقتها يكون قد عرف ما يليق بأمثاله في السجن، وإذا هو ووالده كانا يجتمعان على الليالي الحمراء. ويشتركان في مبالغ النصب فإن الوالد والأخوة والأعمام عاملوه بما يستحق من الإهمال وفعلا لم تتم مدة السجن حتى كان المجرم النصاب قد تحطم نفسيا ثم أخذ يفكر في الحل الذي يحول بينه وبين العودة الى السجن، وبطريقة أشد مما عاش ورأى لمدة سنتين ولم يجد ثمة من وسيلة غير الشريك في استغلاله مال الحرام الذي هو والده حتى يفوض له التصرف فيما شيده بالحرام، الدار الفاخرة والأرض التي في ملك أبيه بالشراكة مع أعمامه، وفعلا تم له التفويض بتوكيل صريح، انتزعه من أبيه بدعوى أنه سيبيع نصف الأرض التي ابتاعها مني وبثمنها سيعيد ما يكون قد رهنه لي موقتا، وفعلا ذلك ما حصل وعرض علي رهن الأرض الى أن يدبر أمره ويسترجع المرهون، وقبل أن أجيبه استشرت مع رئيس المحكمة ووكيل الملك الذي كان قد أعياه البحث فلم يجد في ملكه ما يدفع لمقاضاته والحصول على المبلغ المطلوب 90 مليون، ولذلك وجهاني للاقتراح عليه أن يبيع لي الدار وما يملك. أبوه على الشياع مع إخوته الأربعة في بعض الأرض المحفظة وكذلك التنازل على عقد كراء أرض أخرى وفعلا ذلك ما تم بالنسبة النصاب. لكن نصيحة الرئيس والوكيل دفعت إلى أنه يجب أن يتم البيع أيضا من أبيه بواسطة عقد آخر يؤكد ما باعه لي النصاب بتوكيل مفوض، وفعلا تم البيع من الأب بعقد. عجلت بتحفيظ ما اشتريت ثم بقي الأمر حسب رغبة النصاب وأبيه في طي الكتمان لمدة أكثر من سنة. أصبحت بعدها صاحب التصرف المطلق شرعا وقانونا فيما اشتريت، لكن الأب امتنع من الخروج من الدار حيث دخلت معه في نزاع أمام القضاء الى أن أخرجه القضاء باستعمال القوة، وإذا ما عرضت ما اشتريت للبيع فإنه أصبح يفسده لدى كل من يحاول الشراء. وأخيرا وفي غيابي احتل الإسطبل المجاور للدار ولا زلت أقاضيه على الهجوم حتى اليوم، ولم أتمكن من حقي في البيع وطبع الكتاب منذ 1990 وتلك هي مأساة الكتاب وما ضاع من عمره.

الباب الأول
المدخل الواسع

الفصل الأول
الله والإنسان

[سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون]
سورة يس، الاية 36

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة، من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين» سورة المومنون، الاية 12.(1)

لقد عاش الإنسان في حيرة من أمره منذ القدم، وذلك فيما يرجع الى مشكلة خلق وأصل العالم، جال فكر الإنسان في جميع مختلف مراكز وجوده، منذ عرف كيف يفكر في هذا الموضوع، وكان ذلك كما اثبتت الدراسات في أول اجتماعه، وعندما حاول إدراك كل شيء وتفسير كل شيء، حيث نسب الى المفعولات ما كان لعلتها من الحياة والقوة(2) ، وبعد ما تحضر تناول الحديث في الخالق والكون والإنسان، وشرح كل ذلك حسب قدرته على الفهم وطاقته في الإدراك واستعمل الادلة التي اهتدى إليها والاقيسة الطبيعية التي تعرف عليها، وكلما تقدم به الاستقرار ازداد تفكرا في كل ما سبق،حتى أصبح له من الطرطمية والديانات ما يستدل به على تقدمه وتطوره، فكانت الديانات البابلية، المصرية، والسومرية والحيثية، والفنيقية واليونانية والجرمانية، ثم ديانة الدرويد، والاسكندنافية

(1)راجع موضوع الخلق في القرآن الكريم في السور والايات التالية : السور 7:1 و46 :3 و19:29 و 13: 3 ـ 5و 21 : و31 و22 : 5و31: 20 ،41 : 9 و54 : 49 و57 : 4 : و65 : 12و 78 : 6و50 : 38 و2 : 29 و40 : 57 و76 : 27 و7 : 29 و16 : 65 و35 : 27 و16 : 4ـ5 ـ 6 ـ 7 ـ 9 ـ 10 ـ 11 12ـ 14 ـ79 ـ 88 ـ81، ولعله بمراجعة هذه الايات من القرآن العظيم يستطيع الفكر الواعي أن يدرك من الأسرار ما لا تحفظه له كل الدراسات الإنسانية، والتي مهما تطورت لا تزيد المومن الصادق الإيمان والواعي كذلك إلايقينا وتدبرا وتفكرا وتمسكا بقدرة الخالق وما خلق، وهذا ما تركزه الديانات السماوية.

(2) راجع.م ع : 747 حول حياة المادة.

وديانات الهند، وذلك عندما تكونت الأسرة والقبيلة والقرية، ثم تعددت الآلهة بتعدد مظاهر الطبيعة من تشوب: «إله» العاصفة عند الحيثيين الى «إله» الإخصاب عند المصريين، وفي كل ما سبق أدلة وأية أدلة على ضلالة الإنسان التائه بحثا عن أصل العالم ومصدر الحياة واحتياجه الى هداية وإرشاد لمعرفة ضالته التي لم يكن له استقرار نفس ولا راحة ضمير قبل الاهتداء إليها . ولم تكن مسكنات العقل عند حكماء الفرس والهنود والإغريق وبعض كهنة مصر بكافية للخروج بأصحابها من دائرة الحيرة والتيه، لأنها جميعا وقفت دون الهدف والقصد، وإذا كان الخلق والتكوين لحكمة وغاية أرادها الله كان على الخالق أن يوجه ويرشد، فكان إرسال الرسل والأنبياء الذين تحولت بظهورهم المعتقدات، وعم البشرية نوع من المعرفة الدالة على الخلق كيف تم، وعلى الخالق المبدع كيف خلق.

قبل الخوض مع الذين خاضوا في موضوع خلق الإنسان وتطوره مما زعموا حول النشوء والارتقاء وأصل الأنواع وما تاهوا فيه من متاهات لايزعم أحد منهم انها استقرائية بقدر ما هي آراء سبق إليها من سبق ،ثم اقتدى به اللاحقون وحول الكون والأرض وما فيها من مخلوقات . نرجع الى الكتب التي ركزت الأديان والتي كشفت للإنسان أنه بأمر الخالق القادر كانت الأنوار و كانت المادة الأولى التي خلق الله منها السموات والأرض، وكانت دخانا غير محدودة المعالم، وبأمر الله تعالى تحول الدخان، يقول الله تعالى:"ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إيتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها" (فصلت 12/11)، وخلق النور الذي كان لابد منه لإتمام الخلق و التكوين ...الخ، يقول الله تعالى: "ولخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(سورة غافر اية 40)(3)»

وبقدر ما تباينت آراء أبناء بني الإنسان واختلفت، اتفقت الديانات السماوية بل اتحدت،، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون

---

(3) على من يريد التوسع في هذا الموضوع الذي هو موضوع الأرض بين الفضاء والمكان" وما للعلم فيه من أقوال، وحول الإنسان وتطوره بين النشوء والارتقاء حسب مفهوم تشارلز داروين ومن شايعه أمثال ه. ج ولين، عليه أن يراجعه في كتاب "معالم تاريخ الإنسانية" ج I 140 ـ 72، ط 3 لعام 1967 مطبعة لجنة التأليف والترجمة: عبد العزيز توفيق ـ عزيز جاويد.

بجميع ما فيه من عوالم في ستة أيام(4)، كما ورد في التوراة:

1 ـ في اليوم الأول خلق الله النور والظلمة، فكان الأول نهارا والظلمة ليلا : 1. 5.

2 ـ وفي اليوم الثاني خلق الله الجليد6 ـ8 .

3 ـ وفي اليوم الثالث : الأرض والبحار والنبات والأشجار. 9 ـ 13 .

4 ـ وفي اليوم الرابع الشمس والقمر والنجوم وكان صباحا وكان مساء 14 ـ 19.

5 ـ وفي اليوم الخامس الأسماك والطيور وباركها الله. 20 ـ 23 .

6 ـ وفي اليوم السادس حيوانات الأرض والإنسان. 24 ـ 31 .

على هذا اتفقت اليهودية والنصرانية ومثلهما الإسلام في عدد الأيام، لكن الإسلام يختلف معهما فيما ذهبا إليه من قول لا يتفق وصفة القدرة الكاملة للقوي الكبير المتعال، حيث ورد في التوراة أنه «استراح» في اليوم السابع: «وفرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع.. وبارك الله اليوم السابع وقدسه.. الخ سفر التكوين 2: 1/3. ولعل هذا مادفع الطبيعيين وعلماء الجيولوجيا بعدهم الى عدم الاقتناع بما ورد حول العالم وعدد الأيام في الآديان. أما في القرآن العظيم فيقول الله تعالى في سورة(ق) الاية 38:«ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب»(5) وإذا ما اشتدت الحيرة بالإنسان حول ما يتعلق به، بددها القرآن بما يتفق والعلم، يقول الله تعالى في سورة «المومنون، الأية 12: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين». ويقول تعالى في سورة الحجر، الاية :26 «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من

---

(4) سفر التكوين من 1 الى 31 ط جمعية التوراة الأمريكية، ط. القاهرة 1938 ، ويعتقد كثير من الباحثين أن سيدنا موسى عليه السلام لم يكتب التوراة ، بل هي منحولة عليه منسوبة إليه فقط، وآخر رأي في هذا الموضوع للأستاذ جبردومط، ص:24 ط القاهرة 1929، ثم راجع فجر التاريخ : أحمد زكي بدوي الأسكندرية بدون تاريخ، ولا يفوتنا كذلك أن نلاحظ أن كبار مؤرخي الغرب أمثال :ه. ج ولز يعتقدون أن ما ورد في الكتاب المقدس حول قصة الخليقة والطوفان الكبير من قصة شمشون قد جمع شتاتا من مصادر بابلية، راجع معالم تاربخ الإنسانية ج 191/1 ط 1967 ـ القاهرة، ترجمة عبد العزيز توفيق ـ عزيز جاويد مصدر سابق.

(5) لغب لغبا ولغوبا : تعب وأعيا فكأنما في الآية القرآنية ردا صريحا على ما نسبه القوم لله تعالى جلت قدرته.

حمأ مسنون»، وللدلالة على قدرة الخالق المبدع سبحانه، قوله تعالى في سورة الفاتحة الاية الأولى"الحمد لله رب العالمين، ولقد أثبت العلم الذي انتهى الى التجوال في الكواكب الكثير من هذه الحقيقة، وفي مقدمتها عجز الإنسان أمام قدرة بديع السموات والأرض، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.. «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض... ثم الايات 117:2(6) وقوله تعالى في السورة7: 54 "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك رب العالمين)(7).

أشرنا الى أن الديانات وإن اتفقت على زمن الخلق الذي حدده الله تعالى بقوله "ستة أيام" فإن العلم حسب مفهوم الإنسان جادل في هذا التحديد الذي لم يدرك فيه غير ما تعرف عليه من المفهوم المصطلح عليه حول قياس اليوم الذي هو الدورة المألوفة للأرض المقابلة للشمس حول نفسها، والتي تتم في أربع وعشرين ساعة، وذلك هو يوم الإنسان الذي يختلف كل الاختلاف عن مفهوم اليوم عند الله، والذي عرفه بقوله تعالى: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون"(8) وقوله تعالى في سورة السجدة الاية 4 : "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " ، وفي سورة المعارج قوله تعالى(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة). ولقد ورد عند الخازن البغدادي679-741هـ/ 1279 - 1340م في كتابه "لباب التأويل في معاني التنزيل" في تفسير قوله تعالى: هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا"، أن آدم بقي أربعين سنة طينا وأربعين سنة حمأ مسنونا، وأربعين سنة صلصالا كالفخار، فتم خلقه

(6) و164 - 255 - 259 - 260 - 284، وفي سورة 3 : 5 - 6 - 83. 97 - 189 والسورة 4 : 126 - 130 - 131 - 132 - 133 - 134، والسورة 5 : 48، والسورة 6: 12-3-12- 14-15-17-59-60- 61 - 62 - 63 - 64 - 65 - 99 الى 103" إن الله فالق الحب والنوى".

(7) راجع تفصيل آى القرآن الكريم ص:149-163، ط القاهرة، 1955م ومعجم آيات القرآن ط2 القاهرة1965م.

(8) راجع مادة أرض م.ع ص 119ط. ق، 1965، لقد تناول عالم مغربي هو إدريس خليل المراكشي مفهوم الزمان في محاضرة خاصة أذيعت بتاريخ 15 رمضان 1407هـ/14 ماي 1987، تعتبر من أحسن إدراك للإنسان على ضوء ما جاء في القرآن العظيم "وان يوما عند ربك.."الاية وإذا هو لم يصل إلى المقصود، فإنه كان قريبا منه.

بعد مائة وعشرين سنة، فإذا نحن استخرجنا عدد أيام المائة والعشرين سنة، ثم ضربناها في خمسين ألف سنة ينتج لنا من السنين 2.190.000.000، و عليه ما ذا يقول الذين قدروا لظهور الحياة على الأرض ما بين 2–3 ملايير من السنين، وأن الإنسان عندهم كان آخر المخلوقات، وفيه يقول الله تعالى في سورة: المومنون الايات12-13-14:"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة.. الاية" .

وهكذا عالج القرآن العظيم مشكلة الخلق التي تناطحت حولها أقوال الفلاسفة قديما، وعلماء الجيولوجيا والأنتربولوجيا حديثا، وطال جدالهم قبل أن ينتهوا الى اتفاق على فكرة التطور نفسها، تلك التي تناولها القرآن العظيم قبل أربعة عشر قرنا كما في الايات أعلاه. "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ..."الاية.

أية عظمة وأي وضوح أكثر من هذا، وأي إعتبار لنظرية التطور وما قيل عن النشوء والارتقاء أمام جلال وعظمة هذا الرسم الواضح الجلي لعمل بديع السموات والأرض، يقولون إن تاريخ نشوء الإنسان هو آخر مرحلة وصل إليها التطور النوعي الذي لم نجد حوله رأيا قاطعا، إذ بعضهم رده الى ملايين السنين، وبعضهم قرب المسافة ورده الى خمسين ألف سنة، مع أنهم لم يخبرونا بما يشبه اليقين ويطمئن النفس البشرية حول ما سبق، كما حصل بالنسبة لما جاءت به الديانات السماوية وما بينه القرآن العظيم.

اتفقت تواريخ الهنود والصينيين والفنيقيين والكلدانيين واليهود واليونان، حول موضوع الطوفان أنه حصل ثلاث مرات قبل عهد نوح عليه السلام ويقولون إن الأمم القديمة كانت تعرف أن الأرض عرفت طوفانات عمت القارات وجاء علماء علم الأحياء "البيولوجيا: يتقدمهم الفرنسي كوفييه جورج ليوبولد 1769–1832(9) والذي قال:«إن التعاقب

---

(9) راجع م.ع 476 – 1506 . هناك مذهب يقول بنكبات الأرض وتقلباتها أو تعاقب الخلق . وهما مذهبان أيدهما العالم الفرنسي الجيولوجي الشهير المختص في الحيوان ومؤسس علمي التشريح المقارن . و الحفريات وهو « كوفيه جورج ليوبولد» 1769 – 1832م وهذان المذهبان تغلبا زمنا على سواهما، ويراد بهما انقلاب عام يمحق به كل أثر للحياة على سطح الأرض، ثم تقوم على أثره مخلوقات أخرى حية وهذا التعاقب عندهم حصل 36 أو 40 أو 50 مرة في تاريخ الأرض، وهناك من يقول بأن النكبات لم تكن عامة، وقد أيد هذا المذهب كذلك العالم الجيولوجي الانجليزي السير شارل ليل الذي بين في كتابه « مبادئ الجيولوجيا» بما لايقبل اعتراضا أن النكبات المشار إليها =

قد إنتاب الأرض ما بين 36 ـ50 مرة ، و قول مثل هذا يكاد القارئ له يأخذه مسلما كما يأخذ قول الجيولوجي الذي يقف أمام نوع من أنواع الحجر ثم يدلي لنا بملايين السنين يدركها بواسطة رسوباتها وظروف تكوينها من أصل عضوي نباتي أوحيواني(10)... ونجد بين رجـــالات الإســـلام من يتـــجـــه في هذا الاتجـــاه، حـــيث يقـــول من

= لم تكن عامة بل خاصة، أي أن الانقلابات لم تعم قط سطح الأرض دفعة واحدة، وإنما الأرض تتبع دائما في تاريخها نشوءا تدريجيا ثابتا مستمرا، وهي دائما وأبدا تحت فعل نفس القوى، معرضة لنفس الأحوال التي لا تزال تغير سطحها حتي اليوم، وقال أيضا إن هذا النشوء بطيء جدا وغير محسوس بحيث يخفى علينا، و ما أن اشتهر هذا المذهب حتى انضم إليه جمهور الجيولوجيين، وهو الذي مهد السبيل لانحراف الأفكار عن مذهب ثبوت الأنواع في بعض جوانبه، كما رفض مذهب نكبات الأرض وإنقلاباتها العامة. ثم ظهر مذهب لامارك العالم الفرنسي الذي تناطح مع مذهب دروين. إذ فحوى مذهب جان باتيست لا مارك 1744 ـ 1829م على وجه الإجمال، وما ورد في كتابه «فلسفة الحيوان «1809م وتاريخ الحيوان العديم الفقر 1815م، فبالإضافة إلى ما أثبته بالبراهين الطبيعية من عدم ثبوت الأنواع واشتقاقها بعضا من بعض من أدناها إلى أعلاها، وارتقائها بالتحول التدريجي . ثم هو يذكر لهذا النمو عدة أسباب كالعادة والضرورة، و الجنس واستعمال الأعضاء . وفعل الأشياء الخارجية ، والوراثة، و التي يجعلها في المقام الأول و يعتقد ناموس الارتقاء التدريجي، ويقول بالتولد الذاتي في الأجسام الحية الدنيا . وأكثر اعتماده على استعمال الأعضاء وعدمه . وعلى العادة و الضرورة. وبالتالي فمذهب لامارك باختصارالذي لم يكن من يسانده في فرنسا غير جيفر وسانتيلير 1772 – 1844م هو أن الوراثة مع الأحوال السابق ذكرها تجعل الأحياء تنشأ وتتحول وفقا للضرورات، وللأحوال الخارجية الفاعلة فيها، من أدنى الحيوان حتى الإنسان ، وهو يظن أن الإنسان نوع من القرود ارتقى حتى صارت كمالات الارتقاء فيها وراثية . وقد قيل أن أفكاره تتشابه مع أفكار العالم الألماني شابنهور 1788 – 1860م وهو صاحب كتاب « العالم إرادة و فكرة » كما قيل إن لامارك توافق في بعض جوانب أفكاره مع الألمانيين الشاعر «غائي» صاحب كتاب «تحول النبات» 1790 و الطبيعي الفيلسوف «أوكن لورانس» 1779– 1851م صاحب كتاب « فلسفة الطبيعة» و الذي اقتدى في ترتيبه بلامارك ، وعنده أن جميع الأجسام الحية ناشئه مما يسميه «العلقة الأولى» بلازما أو برتوبلازما لكن هذا المذهب لم تكتب له الحياة واضمحل بسبب ما عرف وقتها من زوبعة الفلاسفة والطبيعيين.

(10) لقد ظهر أخيرا "1963" باقليم تافيلالت دائرة أرفود نوع من الرخام عندما يحك تظهر فيه أنواع من الحيوانات البحرية التي إنقرضت، وقيل إن تاريخ وجودها يرجع إلى500 مليون من السنين، كما أن بعض المظاهر الجيولوجية تؤيد رجوع ظهور واحة تافيلالت إلى العصر «السلوري» الذي هو ثالث أزمنة حقب الحياة القديمة من التاريخ الجيولوجي، الذي يقدر بأكثر من 300 مليون سنة، راجع مادة م .ع 927، ثم راجع فجر التاريخ لأحمد زكي بدوى ط: الاسكندرية بدون تاريخ ص 1 – 30، وقصة الطوفان لإسماعيل مظهر ط القاهرة 1929. ولقد قال المعري قبل هؤلاء جميعا: «جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم».

إنها قولة أديب ولكن ماالفرق بينها وبين أقوال الآخرين ، فارك أوربل أنطوين – كروزيار يطر هيويل ، فرنسيس باكون – شارليزداروين – وبالتالي راجع ملقى السبيل في مذهب النشوء و الإرتقاء، تأليف إسماعيل مظهر ط مصر 1924 . والرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني، ثم فلسفة النشوء و الارتقاء، مجموعة الدكتور شلبي شميل طبعة المقتطف 1940 الخ، وإذا ما ثبت أن بعض الأهرامات وأبو الهول وجدوا قبل الطوفان فما معنى اتخاذ ما بعده بدءا للتاريخ .

يفسر قوله تعالى في سورة البقرة الآية 30 :(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون). قال بعضهم في تفسيرها: «إن الملائكة ما قالوا ذلك إلا مما رأوا من معاصي الامم لله، ولولا أنهم رأوا أمما كثيرة قبل آدم عصوا وسفكوا الدماء ما قالوا ذلك(11) ونجد آخرين يقولون إن الدين لا يستطيع مسايرة ماجد من المستكشفات والمخترعات ، لأن الديانات تنكر التطور، وتقول بالخلق المستقل وتقف جامدة أمام المخترعات وما يجد من ضروب المعرفة، و الواقع أن العقل السليم يكذب ذلك ويرفضه ، لأن القائلين به من الذين لم يكن لهم اتصال بالدين الحق ، أما الحكماء الذين عرفوا باتصالهم الوثيق بالدين ومنهم فلاسفة أمثال ابن طفيل وابن رشد الذي حاول الربط بين العلم و الدين في مفهوم معاصريه(12) والذي لم تصلنا دراسته في الموضوع، ولو حصل لعرفنا من وقتها أبلغ دراسة حول مسألة التطور التي لا نعدمها فيما كتب هو وغيره، أمثال الرازي، وابن سينا وغيرهما وقبلهم إخوان الصفا، وكثير من الذين فسروا قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ...» الآية وكذلك غيرهم من الذين ضاع إنتاجهم سواء في المشرق أثناء وبعدحروب التتار، أو في المغرب زمن المرابطين والموحدين، وبالتالي راجع ملحق الفصل الأول من كتاب مولانا محمد علي الباكستاني «الإسلام و النظام العالمي الجديد» ص47، ترجمة أحمد جودة السحار، ط . مصر بدون تاريخ . لجنة النشر للجامعيين.

وهكذا إذا كان القرآن العظيم كلام الله يؤكد لنا أن الإنسان خلقه الله من تراب ، فإن العلم كذلك أكدلنا أن ما في التراب من مواد توجد كذلك في جسم الإنسان وتلك هي الكربون و الأوكسجين، والإدروجين، واليود، والفلورين . والكوبالت، والزنك، والسلكون والألومنيوم، والفوسفور، والكبريت، والأزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمنغنيز، والحديد، والنحاس الخ.

---

(11) راجع قصص الأنبياء للكسائي (مخطوط خاص) ص 2 و م خ ع رقم 1009.

(12) تعرض ابن رشد بسبب ذلك لسوء معاملة الجاهلين حيث منع وولده عبد الله من دخول الجامع بإشبيلية ، ولكم يتذكر ذلك بمرارة .

الفصل الثاني

بين العصور و الدهور

كل من أراد أن يؤرخ لحياة الإنسان على وجه الأرض وفي أية بقعة من العالم إلا ونجده يتحدث عن التاريخ من خلال ما عرف لعلماء الجيولوجيا و الانثروبولوجيا ثم البيولوجيا قبل كل شيء ، والتوغل في هذه الدراسات يذهب بالمرء بعيدا جدا . حتى إن ما يقدر من الزمان لمراحل التطور في تلك الحقب الضاربة في القدم ، لم يعد معه لمدلول السنة غير شيء ضئيل وقليل المعنى، ضعيف الدلالة، حتى لو قدر بما قاله بعضهم لمدة بدء تفكير الإنسان ووعيه الذي هو ألفي قرن على أقل تقدير.(13)

إن تاريخ وجود الإنسان على سطح الأرض لا يمكن تقديره فضلا عن معرفته وتحديده، ولا من باب الاستئناس فقط، بل نحن نقول ولا ضير في ذلك، هل الإنسان

---

(13) راجع معالم تاريخ الإنسانية لولز 1 – 112 ط ، ق ، 1967 ، ترجمة جاويد، المصدر السابق . إن الدراسات الكونية اليوم تتجه إلى بنيات ملحمة عجيبة هي ملحمة الكون و الحياة السائرة في تصعيد جليل أكيد إلى الذروة و المؤذن بظهور الإنسان ، وأن ثمة ملايين من السنين مضت قبل أن يكون النبات ثم يصبح غذاء للإنسان و مجالا للحيوان ليتدرج من الأسماك إلى القوازب ومن القوازب، إلى الزواحف، ومن الزواحف إلى ذوات الضرع قديمها وحديثها إلى القردة إلى أشباه البشر الذين تنبئ بوجودهم بعض العظام المكتشفة .

وهكذا فآدم في رواية التوراة كما أشرنا أعلاه تكوين 1/26 –28 حيث يدور الكلام في سفرالتكوين من الفصل 2/ 4 إلى نهاية فصل 3 على الخلق وحياة آدم وحواء إلى أن أخرجا من الجنة ، وفي فصل 4 / 1 – 2 – 25 وفصل 5 / 1 – 4 ما ولد لهما من الأولاد قابيل وهابيل وشيت وغيرهم من البنين و البنات بل وفي التوراة 4/5 أن آدم عاش 930 سنة لأنه تنازل لداوود عن 70 سنة وعند الطبري 1 / 115 – 122 – 176 وابن الأثير 1/29– 37 أنه تنازل عن 40 سنة . بل من خلال التاريخ حول حياة آدم يمكن لمن أراد أن يستأنس بذلك أن يراجع معجم التوراة ج1/ 102 ط 1928 ليرى فيه كيف أن حواء غاصت إلى رقبتها في مياه دجلة وأنها مكثت 37 يوم، وأن آدم غاص في نهر الأردن ومكث بها 200 سنة مفصولا عن حواء إلى أن تاب، وبعد التوبة أخذه جبريل إلى جبل عرفات حيث التقى بحواء الخ، بل نجد حتى ابن بطوطة يصف لنا جبل سرنديب على أساس أن آدم نزل به وأن به طريقان طريق بابا وطريق ماما الخ راجع .دائرة المعارف الإسلامية 1/ 553 – 55 وج 1 من دائرة معارف البستاني من ص 105 إلى111 ط 1956 .

الموجود اليوم بمختلف سلالته و الأصل الذي يرجع إليه بعيدا طبعا عن نظرية التطور الداروينية(14). بل الإنسان الذي يحاول الدارسون تحديد موطنه بغرب آسيا أو غيرها، بل وآدم الذي وصف الله تكوينه في القرآن العظيم الايات :2 العلق، و4 النحل و6 الطارق و6 الزمر، وفي العهد القديم1/26 28، و5/5.. الخ هل آدم هذا هو أول من وجد على سطح الأرض أو سبق بأمثاله ثم تكررت الأصول وتفرعت مرات ومرات، ثم أدركها الفناء والزوال، وهي بالنسبة لنا في عالم الغيب كالمجهول من الكون، مما لا يعلمه إلا الله، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: " ألم ياتهم نبأ الذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله " التوبة 70". ومعنى هذا أيضا ترك الباب مفتوحا بالنسبة للزمن، على أننا إذا راجعنا ما عند اليهود في هذا المجال نجد أنهم يزعمون أن الماضي من لدن آدم الى الأسكندر(15) قد روه ب3448 سنة، و النصارى يزعمون أنه 5180 سنة، ويدعون على اليهود أنهم نقصوها ليقع خروج عيسى عليه السلام في الألف الرابع وسط السبعة آلاف.

إن الإنسان الذي وصف الله خلقه من طين يمكننا أن نقول إنه هو آدم الأول، وليس هو ذاك الذي وجد على وجه الأرض بالنسبة لما أورده البيروني فيما يتعلق بزعم اليهود والنصارى، وإنما هو تقريب لأفهامنا كما هو الشأن في وصفه تعالى للخلق وللحشر والبعث، وإلا كيف يفسر ما انتهى إليه علماء الجيولوجيا والأنثروبولوجيا الطبيعية، الذين وضعوا لنا أرقاما عالية حسب تقديرهم للدلالة على الزمن الذي وجد فيه الإنسان، إذ بمقياس الزمن الذي نحياه قدروا لعمر العائلة البشرية مليون سنة، وليس الإنسان العاقل إلا نوعا حديثا منها، بينما الأسماك مثلا ظهرت منذ 2000 و3000 مليون سنة. وهذه نظريات بالية وقليلة العدد، أما ما عند جورج جاموف في كتابه"نشوء الكون(16). فلقد قسم علماء الجيولوجيا عصور التاريخ الجيولوجيا الى أربعة أقسام هي :

1 ـ الأيوسين، 2 ـ الأوليغوسين، 3 ـ الميوسين، 4 ـ البليوسين.

---

(14) راجع فلسفة النشوء والإرتقاء ج 1 من مجموعة د شبلي شميل ط 1910م.

(15) الأسكندر : الأكبر تلميذ أرسطو كان بين 356 ـ 323 ق م وهو ملك مقدونيا وعن فيليب الثاني م.ع151.

(16) راجع الاثار الباقية للبيروني حول ماهية التواريخ ط 15 طيزج 1923.

وهذا الأخير دامت مدته حسب تقدير بعضهم مابين مليون ونصف المليون سنة، ومجموع ما بين العصور الأربعة قدره بعضهم بخمسة عشر مليون سنة، بل إن بعضهم ضاعفها، أما عصر البليوسين وهو دون العصور السابقة، فقد قال عنه علماء الجيولوجيا أنه : عصر إرتفاع تدريجي وهبوط تدريجي في قشرة الأرض، والدراسات الجيولوجية للأرض بالنسبة للتضاريس التي هي الاختلافات في إرتفاع سطح الأرض، فإن سر بروز جزء من اليابس وارتفاعه على سطح الماء، إليه يرجع الفضل في تكوين القارات ونشأة تطور الحياة الأرضية بخلاف المائية، وكأن نتيجة هذا تطور الحياة ونشوء الإنسان والعمران، ما دام الإنسان لا يعمر إلا اليابس من سطح الأرض فهناك ما يعرف عند الجغرافيين بالتضاريس الثانوية، وهي عبارة عن ارتفاع قشرة من الكرة الأرضية عن الأجزاء الأخرى وعنه نشأ ثلاثة أنواع من التضاريس :

أ ـ تضاريس المرتبة الأولى وهي القارات والمحيطات، ومن هذا القبيل أن قارات آسيا وإفريقيا وأمريكا كانت متلاصقة ولم يكن للبحر المتوسط وجود، بل كانت هناك بضع بحيرات تدل على مكانه، وفي الوقت نفسه كانت القارة القديمة تطغى كثيرا على المحيط الأطلسي، وتتصل بالقارة الجديدة في جهة المدار الاستوائي، كما كانت تقرب كثيرا من أمريكا شمالا إن لم تكن متصلة بها فعلا.

هذا ما يقوله بعض علماء الجيولوجيا، والى ما يقرب من هذا أشار بعض المؤرخين العرب(17) ففي مرحلة من مراحل عصر البليوسين كان النصف الشرقي للأبيض المتوسط. منفصلا عن النصف الغربي، وكانت أوربا متصلة بإفريقيا عند إيطاليا، وكذلك عند جبل طارق، وكانت هناك اضطرابات بركانية، وجبال الألب وإن تم تكوينها غير أنها لم تكن قد وصلت الى حالة استقرار، وكانت مصبات كثيرة من الأنهار مغمورة بمياه البحر الى مسافات بعيدة، وقد تكون البحر الأحمر على شكل بحيرة مستطيلة، لأن

---

(17) ترجمة إسماعيل مظهر بدون تاريخ. ويتكون التاريخ عند الجيلوجيين من الأزمنة التالية :

الأركى 2000 مليون سنة، وزمن الحياة القديمة 250 مليون سنة، وزمن الوسطى 125 مليون سنة، وزمن الحياة الحديثة 50 مليون سنة. راجع عبد المنعم الحميري في الروض المعطار: لبلاية، والترجمانة الكبرى للزياني ط1966 و موسوعة البستاني 41/4 ـ 42، وزمن وحقب م.ع.728 ـ 29 ـ 927 - 28 ط 1965.

إفريقيا كانت متصلة بآسيا حيث يوجد اليوم بوغاز جبل طارق.

ب ـ أما تضاريس المرتبة الثانية في سلاسل الجبال العظيمة مثلا هملايا والألب والأنديز، أو السهول الفسيحة في روسيا وآسيا.

ج ـ وتضاريس المرتبة الثالثة وهي : الاختلافات الموضعية كالأودية وسط سلاسل الجبال أو الكثبان وسط السهول.

وهكذا في خلال فترات من الزمان طويلة أو قصيرة، نشأت جبال في بضعة مواضع قابلتها انهيارات في مواضع أخرى، واحتفر البحر الأبيض المتوسط في ثلاث مراحل أو أربع، وبقيت جبال البرانس والألب وجبال الأطلس، وتقطعت الأراضي الأطلسية فانفصلت في أول تقطع من أراضي أمريكا وجزر الأنتيل، وفي القطع الثاني إنفصل شاطيء غينيا(18) وانفصل الثالث في مغربنا الأقصى، وفي الوقت عينه تقهقر الساحل الأطلسي الشمالي ثلاث مرات حتى الشواطيء الحالية لبريطانيا الكبرى، ولبريطانيا الصغرى.

ومهما يكن من أمر فإنه اتفق بين الجيولوجيين على أن الإنسان وجد في هذا العصر الجيولوجي المعروف ب"البليوسين"، وأن ما اكتشفه العالم الهولاندي الجراح دبوا من جمجمة إنسان وبعض عظام الفخذ وعدد من الأسنان، وكلها لشخص واحد. يرجع تاريخه الى العصر المذكور أطلق عليه : "إنسان جاوه"(19) وإن تلك العظام على قلتها كانت كافية لأن تساعده على أن يمثل صورة الشخص الذي تركها، فلقد كان إنسان في مرحلة غاية في التأخر، لا يملؤ جمجمته سوى مخ صغير " جمجمه نحو 1000س م 2"، ولقد كان لهذا الاكتشاف أثره في إنتاج المؤرخين الذين نجد أغلب المعاصرين منهم ـ وكما أشرنا ـ كلما حاول الكتابة حول بلد ما إلا و يتناول تاريخ ظهور الإنسان على

---

(18) م.ع.ع، ص : 1260 ط ق 1965م.

(19) المصدر السابق 353 ـ 1612 ـ 1481، والموسوعة المغربية، معلمة الصحراء ملحق، ص : 84 ط 1976م وتاريخ إفريقيا الشمالية لشارل أندري جوليان، ترجمة مزالي وسلامة 11 ـ 20 ط ت 1978. وكذا كتاب «الزمن القديم» تأليف كارل الفريدفون تسيتل الذي صدر عام 1872، وتاريخ تطور الجيولوجيا له أيضا 1899 وكتاب إضافات الى جيولوجية وحفريات الصحراء الليبية والمناطق المتاخمة للقطر المصري نشر عام 1883م ثم راجع تراث الإنسانية مجلد2/50 ـ 56

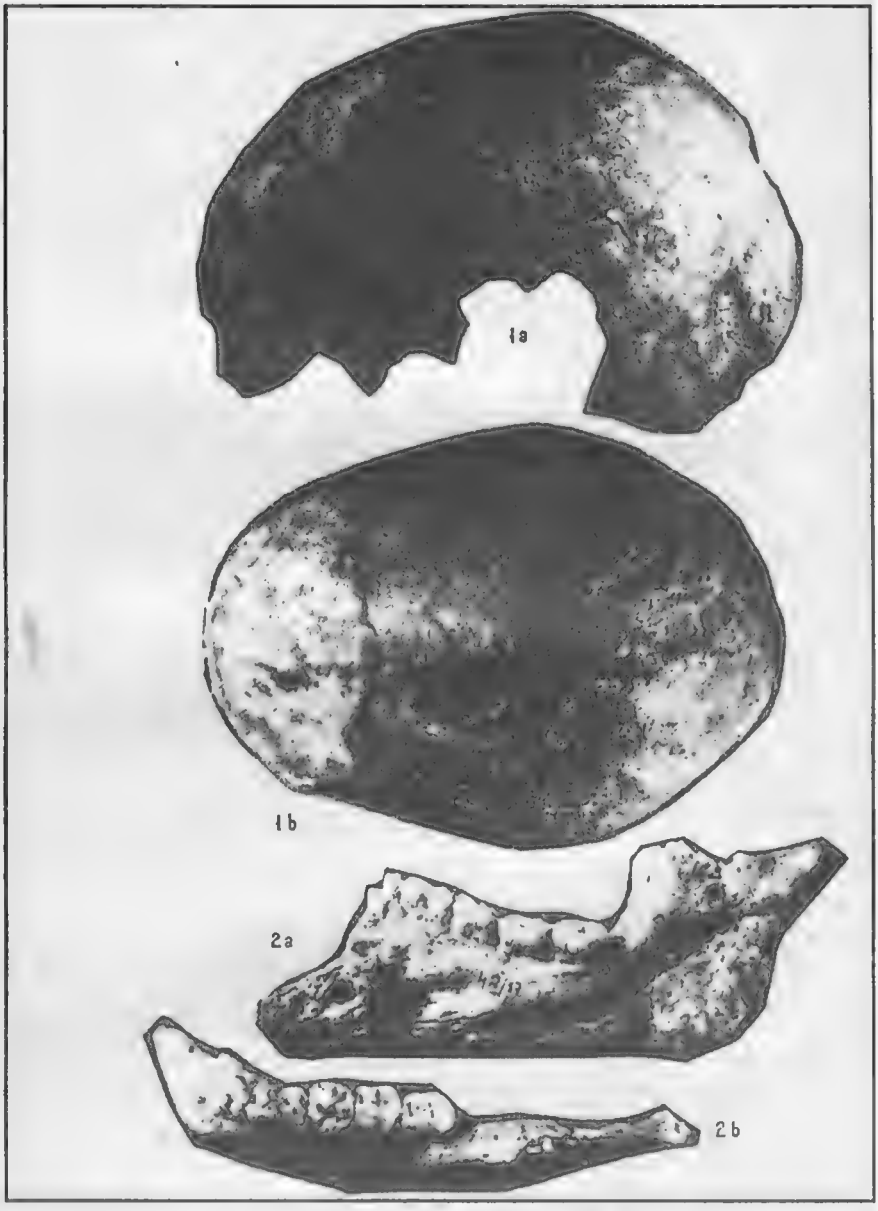

بقايا لجماجم بشرية – فك الانسان القديم – صور جانبيه

الأرض المؤرخ لها، وكل من فعل ذلك ثبت له أن الإنسان تدرج من مهد الميعة والضعف، ومر بأطوار، وقطع مراحل شاسعة حتى وصل الى ما هو عليه الآن بعد أن خضع لعوامل التطور في كل أدوار حياته، بل نجد بعضهم يتناول بالكتابة كمدخل كيف كانت السماء تمطر دون انقطاع، وكيف غادرت النباتات البحار وكذا بدائية الحياة من السمك الى الهلامى(20) إلى اللافقريات، ثم السمك، والبرمائيات، والزواحف، والثدييات، ثم الإنسان الذي تطور بعد نضال وتحسن دام مآت الآلاف بل مليون سنة(21) عند بعضهم إنتهى بعده الى هجرة نحو الكهوف والمغارات التي تحميه من الوحوش ذات الناب، والمخلب، وهي المحاجر، والهضاب مثل التي اكتشفت في بعض سواحل المغرب عفويا حيث وجدت بقايا الإنسان التي أجرى عليها بعض علماء الجيولوجيا دراسات ثبت معها أن الإنسان احتمى بها في أزمنة ضاربة في القدم، فكان ذلك الاحتماء بالكهوف هو لباسه الأول الذي تعلم بعده كيف يحتفر الحفر ويغطيها بالقش وأغصان الشجر، ثم بعدها أخذ يقتل الوحوش بالأشجار الكبيرة، ويتخذ من جلودها كساء، وعرف كذلك كيف يستفيد من النار التي لم يخبرنا أحد بما يقبله العقل عن اكتشافها مما قيل عنه أثر البراكين ـ أو الصاعقة أوالفرك، بل وكيف تعرف الإنسان عليها ثم جلبها الى الكهف الذي اتخذه وقاء له، وبالنار بدل تعامله مع اللحوم بعد زمن مع غيرها من المأكولات ، كما اخترع من الأدوات الحجرية ما ميز عصوره التي طبعت بها، ثم كان عصرا النحاس والحديدي، وبعدهما الزراعي. وأخيرا، اخترع الكتابة فقيل تلك بداية التاريخ الذي حدده بعضهم بستة آلاف تقريبا، والتاريخ من هذه البداية التي نجد لها مصادر محسوسة وملموسة، يقبل ولا يرفض. بل ذلك ما يقال له التاريخ كما سنرى، وإن كانوا قد وجدوا في العراق قرية قرب بغداد يرجع تاريخها الى 10.000 سنة كما نشرت إذاعة لندن مساء يوم 1986/5.

---

(20) سكان هذا الكوكب آدم عوض :16 ط مصر 1936 وفجر التاريخ ب :32.

(21) قصة الجنس البشري د . هنريك فان لو، ترجمة خورشيد ط ق 1957 ، ثم مادة إنسان 494/4 ـ 96، ثم وجدى 698/1 ـ 735، وقد أحاط بجل المذاهب التي تداولت موضوع أصل الإنسان، ثم خرج بما يتفق والعقل والدين، ثم فصل المقال لأرنست هيكل، ترجمة : حسن حسين، ص 16 ط مصر. 1924 الخ. ثم راجع كتاب ظاهر الإنسان. تأليف تياروه شاردان، ترجمة ندرة البازجي.

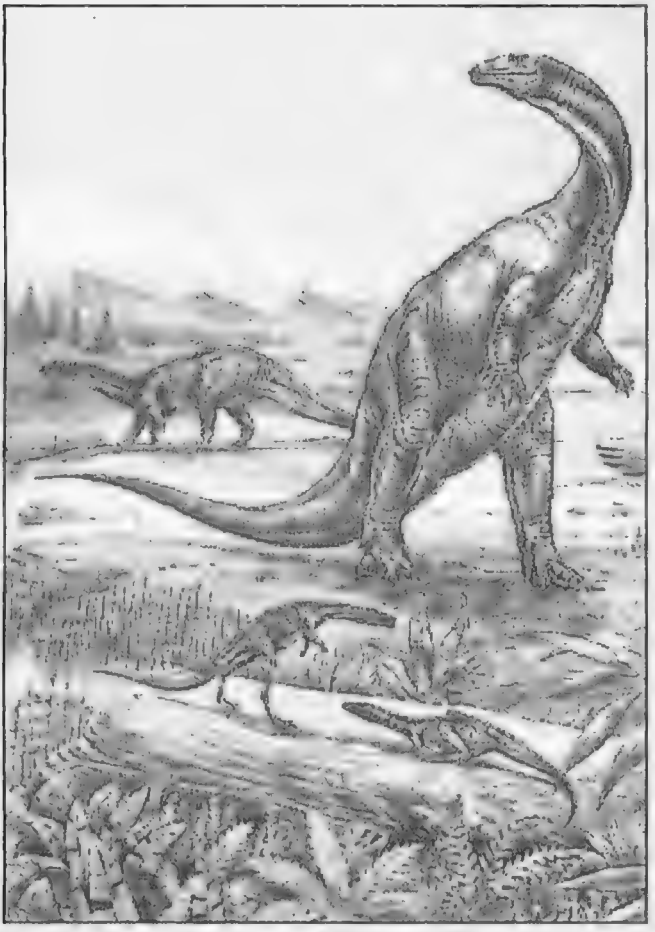

دينصورات عاشت قبل 200 مليون سنة وتظهر بأسفل الصورة اثنان من الدينصورات الصغيرة من أكلات اللحوم وفي منتصف الصورة اثنان من أكلات النباتات الضخمة حول مياه المستنقعات.

الفصل الثالث

الإنسان ومحاولة
تحديد موطنه شرقا وغربا

لكن قبل هذا وذاك من هو الإنسان الأول؟ وما وطنه؟ وكيف كان شكله؟ وكيف تكاثرت جموعه؟ وأين انتشر على وجه الأرض؟ إن ما قيل عن سلم النشوء والارتقاء بدءا من الدعاميص، الى ذوات الفقرات، الى الإنسان موضوع لا داعي للجولة فيه، لأنه لا أحد يعلم متى ظهر الإنسان أولا على الأرض.

لقد كانت بقايا ما قيل عنه "إنسان جاوة" أول بقايا إنسان أجريت عليها دراسات أعطت من الأوصاف ما دفع بعضهم الى كثير من الأقوال والاستنتاجات البعيدة عن الصواب، كان إنسان جاوة وكما عرفنا من قولهم عن حجم جمجمته، ومخه أنه يقل عن أحط الأجناس التي تعيش اليوم في حجم مخها أو على أكبر تقدير يشبهها، وكان ذا فك بارز ناتيء وأنف أفطس غليظ ، وجبهته مائلة منحدرة وله حواجب مشرفة من فوق عظم بارز.

هذه الصفات التي يصفها بعض الكتاب بأنها من الناحية البشرية صفات منحطة جعلت بعض المتحذلقين من الكتاب ينعتونه بـ"الإنسان القرد"(22) لكن هذه الحذلقة لم يكن لها داع مطلقا، فهذه بقايا إنسان من غير شك، ولها من الصفات البشرية ما يضطرنا

---

(22) أوردت جريدة الشرق الأوسط في عددها 1958 بتاريخ1984/4/8 ص 1 ، أن بعض الأمريكيين والكينيين اكتشفوا في كينيا بقايا إنسان يرجع تاريخه الى خمسة ملايين من السنين وهي عبارة عن عظمة فك متحجرة؟ وفي المغرب أعلن عن اكتشاف بقايا إنسان قدروا له حوالي 50 ألف سنة أطلقوا عليه إنسان فاس 1985/2. الخ. لكن كيف نسلم هذه التقديرات بسيولة هذه الأرقام، ونحن نعلم أن الوسيلة التي بين أيدينا من الاكتشافات الحديثة هي كاربون 14 وهذا يستعمل في تقديرات النباتات ثم هذا لا يتجاوز في تقديراته ما يزيد على 40 ألف سنة .

أمثلة من الهياكل العظمية للراقي من القردة والانسان وهي الأمثلة التي ضللت الانسان

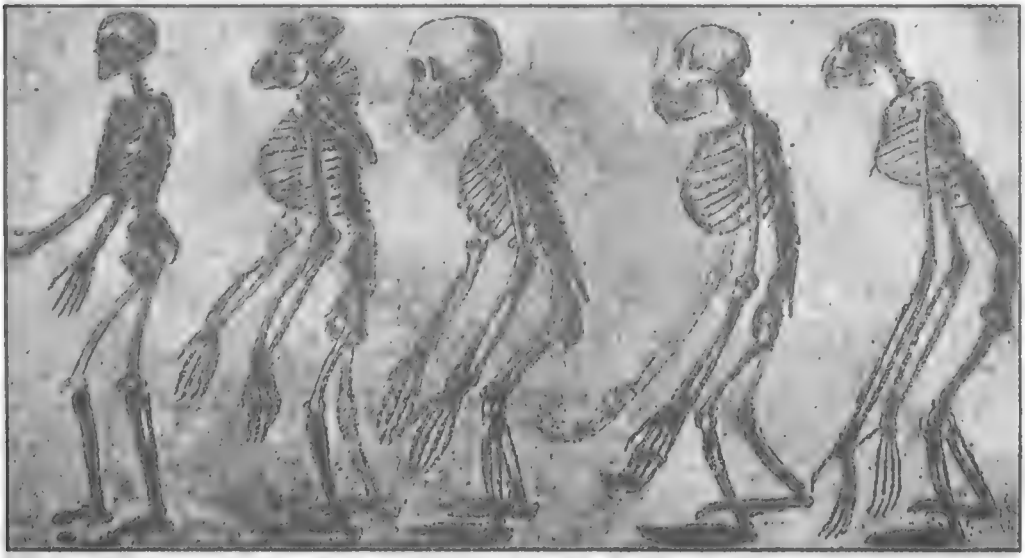

الجيبون الاورانغ أوتانغ الشمبانزي الغورلاد الانسان

لأن ندخله في عداد البشر، وأن نطلق عليه إسم" إنسان جاوة" والذين دعوه بالإنسان القرد هم تلك الفئة التي كانت تتصايح بنظرية التطور التي لم يحسنوا فهمها، والتي ظنت أنها قد أصابت في إنسان جاوة الشيء الذي سموه الحلقة المفقودة، بل حسب معطيات الفحص إنسان يدب على الأرض في حالة هي غاية في البساطة ولكنها تتناسب مع ذلك العهد البعيد الذي كان يعيش فيه، وأكبر الظن أن ذلك الجنس لم يستطع مغالبة الحوادث واحتمال تكاليف الحياة زمنا طويلا. ولهذا فقد انقرض من الأرض ولم يبق من نسله الى زمننا هذا شيء.

فبقايا إنسان جاوة هي كل ما عثر عليه من بقايا الإنسان البليوسيني، وهي للأسف بقايا قليلة ولا نستطيع أن نغلو فنبني عليها نظريات كثيرة، وكل ما نستطيع تقريره هو أن بقايا الإنسان قد وجدت فعلا في عصر البليوسين، ونظرا لأن البقايا لا تدل على نوع بشري راق، ففي الغالب أن إنسان البليوسين هو أول إنسان وجد على سطح الأرض، فلا يجوز لنا أن نذهب بعيدا من هذا العصر.، الى الميوسين مثلا كما يفعل بعض الغلاة من الكتاب، بل الذي يمكننا تقريره هو أن الإنسان قد نشأ وتكون في عصر البليوسين، في بقعة فسيحة من الأرض هي وطنه الأول الذي درج به وعاش فيه دهرا، ثم أخذ ينتشر منه الى سائر الأنحاء(23).

حقيقة أن استكشاف بقايا الإنسان في جاوة لا ترشدنا الى الوطن الأول، ولكنها تهدينا بشيء من التأكيد الى العصر الذي عاش فيه الإنسان في وطنه الأول، وهو أمر له أهميته، ونستطيع أن نجعل منه نقطة ابتداء لبحثنا عن الوطن، فهل كان هذا الموطن في شمال إفريقيا أو في أوربا أو أمريكا؟ وهل كانت هذه البلاد في العصر الذي نتحدث عنه في أواخر عصر البليوسين وأوائل البليستوسين صالحة حيث تتوفر على الجو المعتدل والمناخ الصالح لنشأة الإنسان الأول.

قيل إن الدراسات الجيولوجية أثبتت أن الصحراء الكبرى على امتدادها شرقا

---

(23) المصدر السابق ومعالم ويلز ج 124/1 ـ 25. وكذا ماوراء التاريخ تأليف وليم هاولز ترجمه د. أحمد بوزيد ص 35 ـ 45 ـ 114 ـ 139 ط بيروت 1984.

وغربا كانت تتوفر على خصوبة و هواء معتدل في ذلك العصر، وأنها كانت تتوفر على أنهار ووديان وبحيرات تجمعت فيها من الرسوبات ما استدلوا به على أنها تختلف عن المرحلة المطيرة في المغرب، والتي كانت موازية لمرحلة الجليد بأوربا، مثل وادي جرجر بالحجار، الممتد شمالا الى توكرة، والمتجه شرق الجزائر، ومع ذلك لم يكن هذا هو موطن الإنسان الأول، بل ولا أوربا ذات المناخ القارس والمسالك الوعرة، والزلازل والثلوج، بل ولا أمريكا ولا وسط إفريقيا(24)، بل موطن الإنسان الذي انتشر منه الى كل ما سبق، والذي كان يتوفر على الجو المعتدل والطبيعة الصالحة لنشأته ونشاطه، إنما هو غرب آسيا، هذا المكان هو وحده الذي تتوافر فيه الصفات التي نتطلبها في الوطن الأول للإنسان، فهو سهل الإتصال بالإقليم المغولي وبالأقاليم الزنجية، وبالجهات التي تعيش فيها السلالات السمراء والبيضاء من الجنس القوقازي، وليس من الصعب أن نتصور خطوط الهجرة التي سلكها الإنسان من هنا الى مختلف النواحي، وقبل أن نكمل هذه الصورة وصفا وإيضاحا يجمل بنا أن نشير الى أن هذا الوطن الأول في غرب آسيا لم يكن قطعة صغيرة محدودة من الأرض، بل كان يمتد شمالا من سهول تركستان "آسيا الوسطى"، الى هضبة إيران الى سهول دجلة والفرات والخليج الذي كان أرضا يابسة، والى شمال جزيرة العرب وبادية، الشام التي لم تكن بادية سهلا فسيحا ذا مطر ونبات،، فالوطن الذي يعنينا ذكره يحده شمالا سيبيريا القارسة، وبحر قزوين وجبال القوقاز، وغربا تحده جبال أرمنية ولبنان، ومشرقا تحده هضبة البامير وجبال سليمان ، ولكنه يمتد في الجنوب الشرقي حتى يصل بلاد السند إن لم يدخل فيها، وفي الجنوب يستحيل تحديد هذا الوطن لأن معظم جزيرة العرب أو على الأقل نصفها الشمالي صالح لأن يكون جزءا

---

(24) المصدر السابق ولز 124 ـ 25 ويرى فيلر: أن وسط آسيا وجنوب إفريقيا وغربها وشمالها هي الوطن الأصلي للإنسان، وهذا ما لم يوافق عليه صاحب تطور الجنس البشري، ص : 163 ت 2، أنظر رأيه مشروحا في الجماعة البدائية وأصول الأجناس في تاريخ العالم ،ج 195/1 ـ 252، ترجمة إدارة الثقافة العامة بمصر، ثم موجز ولز ص 41 ط مصربدون تاريخ، ولقد ظهر فريق آخر في جامعة بيركلي بكاليفورنيا، في أمريكا تحت إشراف الباحثة ربيكا كارل، والذي له نظرية أخرى في أصل الإنسان الذي رجع به الى إفريقيا، راجع ملخص النظرية في الملحق الأسبوعي لجريدة الإتحاد الاشتراكي المغربي ط البيضاء بتاريخ 1987/2/7م.

منه، وهكذا نستطيع أن نضيق المدى ونحصر نشأة النوع البشري في هذا الجزء من غرب آسيا، ولا نستطيع أن نغلو فنزيد في تحديده وتضييقه وحصره في مساحة أصغر، ولا يمكننا أن نختار جهة بالذات من جهات هذا الإقليم الواسع الفسيح الأرجاء، فنخصها بأنها وحدها دون النواحي جميعها الوطن الذي نشأ فيه الإنسان فعلا، ولا بد لنا على الأقل أن نزداد علما بآثار الإنسان الأول وبقاياه المختلفة في هذه الأقطار قبل أن نستطيع تضييق الدائرة وحصر الوطن الأول في مساحة أضيق وأدق مما وصفنا.

في هذه المساحة إذا تطور النوع البشري وتكون الإنسان الأول، ومن الممكن أن نقتفي أثر كل نوع من فروع النوع البشري، وأن نتبعه من موطنه الأول الى الموطن الثاني والثالث وهلم جرا، لنرى كيف انتشر الإنسان وعمر الأرض، على فرض أن انتشاره فيها كان تعميرا لها، وكيف تكونت الأجناس المختلفة في مواطنها الجديدة، وشيء من هذا يوجد في التوراة كتاريخ كما سنرى بعد في هذا الكتاب فصل "المغاربة و التاريخ بعد نوح عليه السلام ".

وهكذا فإن التركيز على أن غرب آسيا هو الموطن الأصلي للإنسان كان للأسباب الآتية :

1) لأننا لم نجد بين القارات الأخرى ما يصلح أن يكون مهدا للنوع البشري مستوفيا جميع الشروط التي ذكرناها.

2) لأن آسيا هي القارة الوحيدة التي تمثل فيها اليوم جميع السلالات البشرية المعروفة، ومنها بعض سلالات ليس لها وجود في أية قارة أخرى.

3) لأنه لا يمكن أن يكون محض مصادفة أن أقدم بقايا بشرية قد وجد ت في جاوة أي في أطراف قارة آسيا.

4) لأن آسيا هي القارة الوحيدة التي تمس جميع القارات وتتصل بها جميعا فيسهل تصورها مركزا تنبعث منه الحركات البشرية.

5) لأن حركة الجماعات البشرية في عصور التاريخ وقبيل التاريخ هي عادة من قارة آسيا إلى الجهات المجاورة وليست بالعكس، ومن بين جهات آسيا قد رأينا أن الناحية

الوحيدة التي ترضينا في جميع الاعتبارات هي الإقليم الغربي(25).

وبعد أليس كثيرا على إقليم واحد أن يكون منشأ الإنسان الأول، ومهد الحضارات الأولى، ومنبع الديانات الشهيرة، ومصدر اللغات السائدة في العالم اليوم، على أن هناك نظرية أخرى يكاد الإجماع يتفق حولها بين علماء البشرية، تلك التي يتزعمها(FLEURE) وهي أن الإنسان البدائي الحديث نشأ في المنطقة الواقعة بين الأطلنطي وبلاد العجم، وسكن مايعرف الآن بالصحراء الكبرى ومصر والبلاد العربية والعراق، وإذا كانت هذه الأصقاع وقتها مروجا تكسوها الأعشاب والحشائش، وقد سكن هذه الأصقاع المحيطة بالبحر المتوسط عدد كثير من الناس، ويزعمون أنهم لم يكونوا متجانسين بالتمام، وأنهم كانوا سمر الجلود سود الشعر، وعيونهم عسلية، ويقولون إنهم عاشوا هناك في أيام انحسار الجليد عن الأرض الأوربية بعد العصر الجليدي، ويدعون أنه لما تغيرت أحوال الجو في منطقتهم وعمها الجفاف، ونزلوا في وادي النيل والعراق، وتفرقت جموع منهم شمالا الى أوربا، وشرقا الى آسيا، وجنوبا الى إفريقيا، وبدأ كل فريق يتخصص في إقليمه ويتلون باللون الموافق لذلك الإقليم، مما يدفع بنا الى عدم القول بالتمييز الذي قيل عن السلالات والذي نسبه بعضهم الى لون البشرة ، مع أن هذا يختلف باختلاف الأصقاع، وأحيانا حتى في السلالة الواحدة مما يجعل تقسيم "لينيوس العالم النباتي السويدي 1707 ـ 1778م(26) . والذي قسم الأجناس الى: ـ1) . أبيض قوقازي. 2) . أحمر أمريكي .3) . أصفر آسيوي . 4) . أسود إفريقي، إنما هو تقسيم مصطنع، وقد سبقه إلى نفس النهج الألماني بلومنباخ1752ـ1840م والذي قسم الأجناس البشرية خمسة أقسام(27) رئيسية اعتبرت الأساس لكل التصنيفات، وإنما كان يقول بمذهب الفرنسي

---

(25) راجع سكان هذا الكوكب مصدر سابق، ومهما يكن، فقد عرف التاريخ القديم أربعة أجناس للإنسان : 1 ـ الجنس الذي عاش بإفريقيا الوسطى منذ 600.000 ق.م وقد عثر عليه بإفريقيا الوسطى 1925م. 2 ـ إنسان جاوة، وقد قدروا له300.000 ق.م وقد عثر عليه بها عام 1892م. 3 ـ جنس نياندرتال وقد قدروا له 100.000 ق.م وقد عثر عليه فويروط بمدينة دوسا لدرف بألمانيا . 4 ـ هوموسابيان وقد قدروا له 40000 سنة وقد وجد بفرنسا 1686م.

(26) م.ع. 1601 له كتاب «النظام الطبيعي».

(27)م.ع 403.

بوفوت(28) 1707– 1788م، القائل بأن الإنسان حيثما وجد هو إنسان من نوع واحد وإن اختضبت بشرته بألوان تختلف باختلاف الأصقاع، ولكن أتباع الانجليزي داروين(29) 1809 ـ 1882م، عند البحث عن تقسيم طبيعي لضروب الناس، أرادوا التفريق بين الناس بحسب أصولهم وأنسابهم، لا بحسب ألوانهم، فالسلالة والنسب في مذهب هؤلاء شيء واحد، وعلى ذلك يجب أن تكون علامة السلالة ـ إذا كان في الإمكان إيجادها ـ رمزا لجميع الخواص والأوصاف التي تكون الوراثة، يجب أن تكون دليلا على الإنتساب والعزو لأصل معين ودليلا كأنه سلسلة النسب، فهل يصح اللون أن يكوّن علامة الذين يسكنون الأصقاع الجرداء التي يقع عليها نور الشمس(30) كما سنرى.

---

(28) له موسوعة التاريخ الطبيعي 44 جزء راجع .م. ع : 437.

(29) المصدر السابق 774، له كتاب أصل الأنواع الذي ألف عام 1859 راجع ترجمة إسماعيل مظهر منشور وزارة الثقافة والإرشاد بمصر بدون تاريخ و لولده فرانس، دارون أسس أصل الأنواع 1909.

(30) راجع كتاب المجمع المصري السنوي، ص : 160 ط : 1930. وكتاب الوراثة والسلالة والمجتمع تأليف : ل. س دن ـ ث دوبزها نسكن ترجمة عز الدين فراج نشر وزارة الثقافة المصرية مجموعة 1000 كتاب بدون تاريخ.

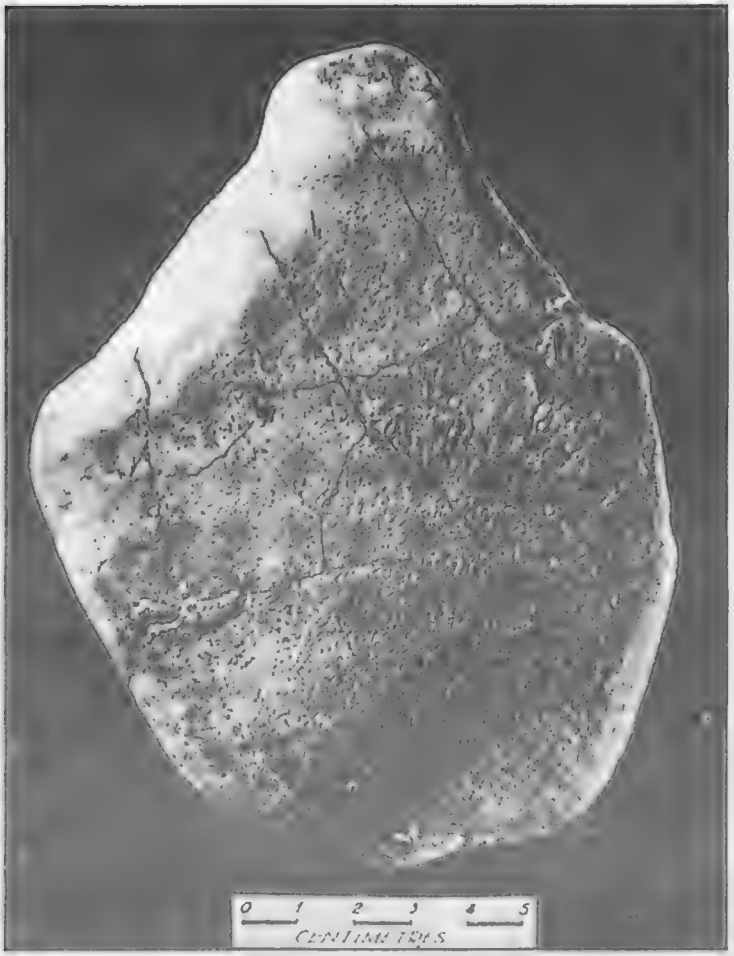

قطعة صخرية مشوهة من عصر الفيلافر انشيان في الزمن الرباعي الأسفل ← مكان التقاطها عرباوة
• تدل على وجود صناعة عتيقة في شمال افريقيا. لقد تعاقب على المغرب فترات مطيرة خلال الزمن الرابع توافقت مع توضع ارسابات من أصل قاري ومن أعمار مختلفة.. هذه الفترات تتوافق مع التقسيمات الآتية
ـ العصر الغربي ـ العصر السلطاني ـ العصر التنسفتي ـ العصر السلاوي ـ العصر الملوي.
كما أن الزمن الرابع تميز بفترات أعطت ارسابات بحرية حسب الأعمار الآتية:
ـ الخلاحي ـ الولجي ـ الارنفي Anfatien ـ المعارفي Maarifien ـ المسعودي.

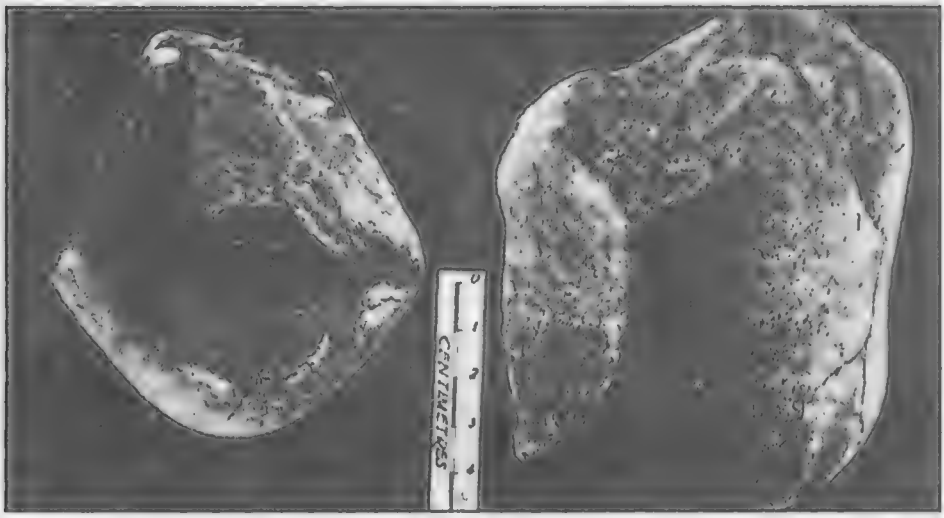

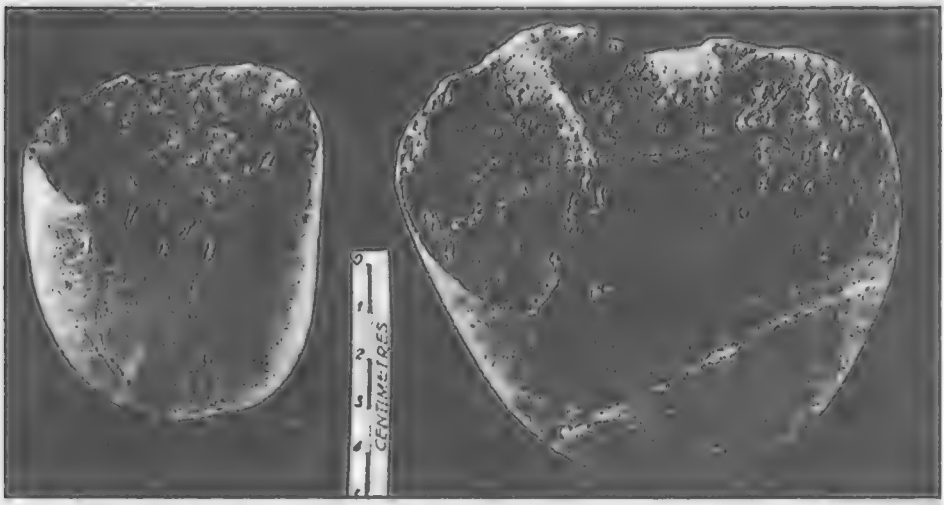

قطع صخرية منها ما هو ثنائي الوجه ومنها ما هو أحادي الوجه من منطقة عرباوة وهي تؤرخ للزمن الرابع ـ الفيلافر انشيان الأسفل :

دلت الدراسات التنقيبية عن كون تلك التكوينات تتوافق مع وجود حضارة انسانية في شمال غرب المغرب

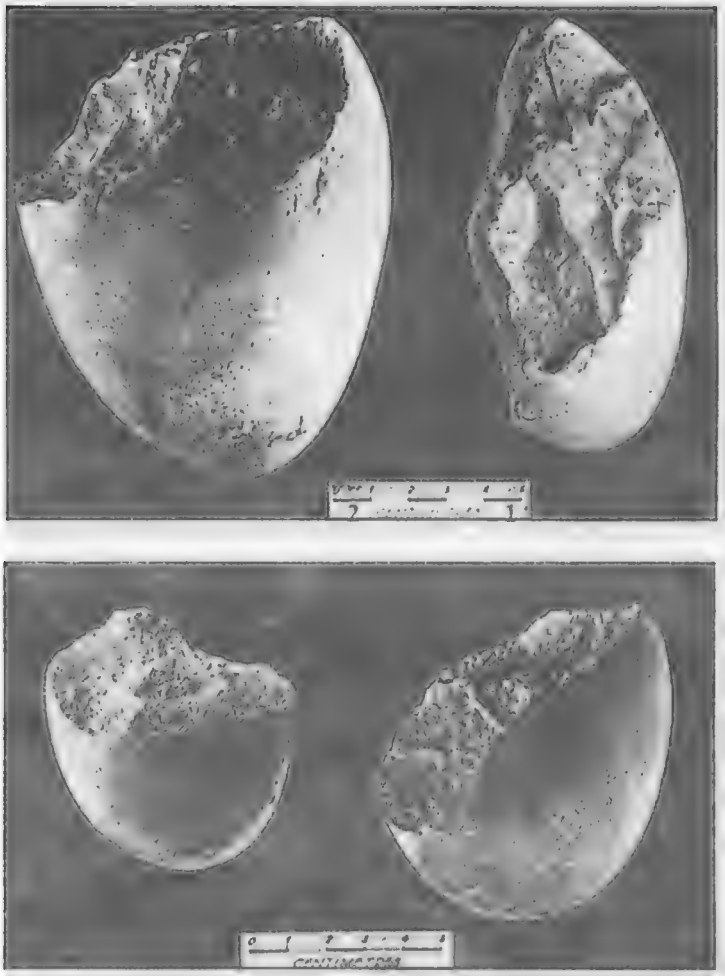

تكوينات صخرية رباعية قطع صخرية على شكل نصف جلمود وأحاديتا الوجه، القطعتان 1ـ 2 من منطقة تارديكيت الزاحلة.. بينما القطعتان 3 ـ 4 من منطقة دوار الدوم (الرباط)

هذا يدل على أن الزمن الرابع شهد نفس التكوينات في الرباط وفي ناحية عرباوة.. (حصى ذات سمك من 10 إلى 20 سنتمتر) اعطتنا مجموعة من الحجارة المنحوتة (تواجد حضارة إنسانية واحدة في المغرب).

إن المؤثرات الحضارية المرتبطة بالفيلافر انشيان سواء أتت من منطقة عرباوة (أو من المعمورة أو نواحي الرباط تدل على نفس النتائج

– وجود صقل ونحت للحجارة لاستعمالها في أغراض إنسانية

- اختلافات طفيفة في التكوينات الجيولوجية

- استخلاص وجود صناعات عتيقة ربما هي أقدم صناعات عرفها المغرب، ويبدو ان دلائلها أخذت فقط من التكوينات العلوية للزمن الرابع ، وهذا يودي إلى الاعتقاد ان العصور الجيولوجية الاقدم ربما تكون هي الأخرى تتضمن شواهد من آثار صناعات إنسانية أكثر قدما.

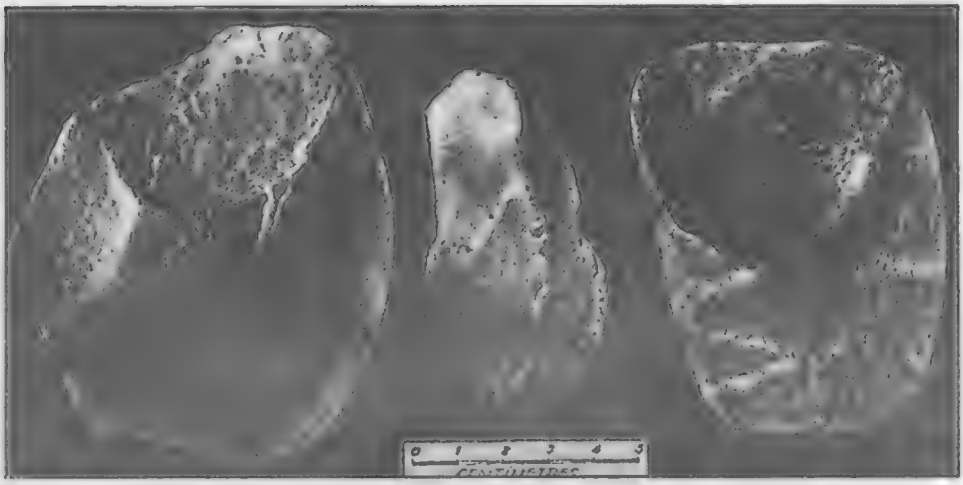

1 2 3

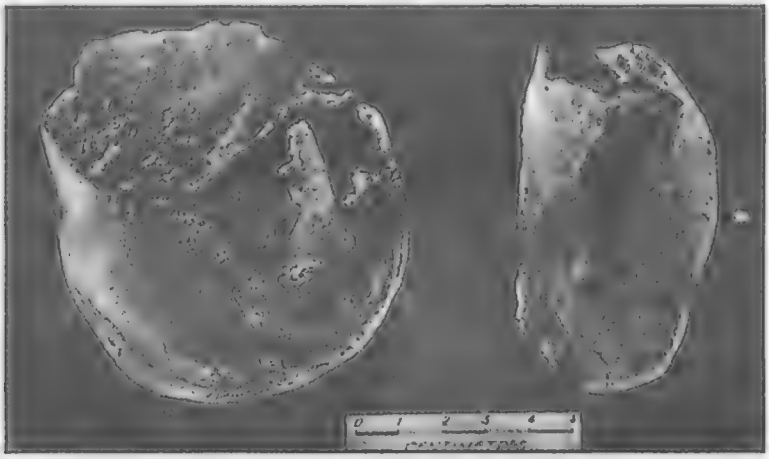

4 5

تكوينات عثر عليها في منطقة الرباط (دوار الدوم) على جوانب نهر أبي رقراق : الدرجة الخامسة

1 : قطعة صخرية وحيدة الوجه

2 : جزء من جلمود على شكل فرع من البرتقال

3 جلمود متعدد الأشكال وذو رأس هرمي

5.4 : قطعة صخرية غير منظورة من جانبين

هذه التكوينات ترجع إلى الأصل المسعودي وهي تكوينات بحرية دلت على صناعة تتوافق وتتشابه مع مثيلتها في العصر السلاوي.

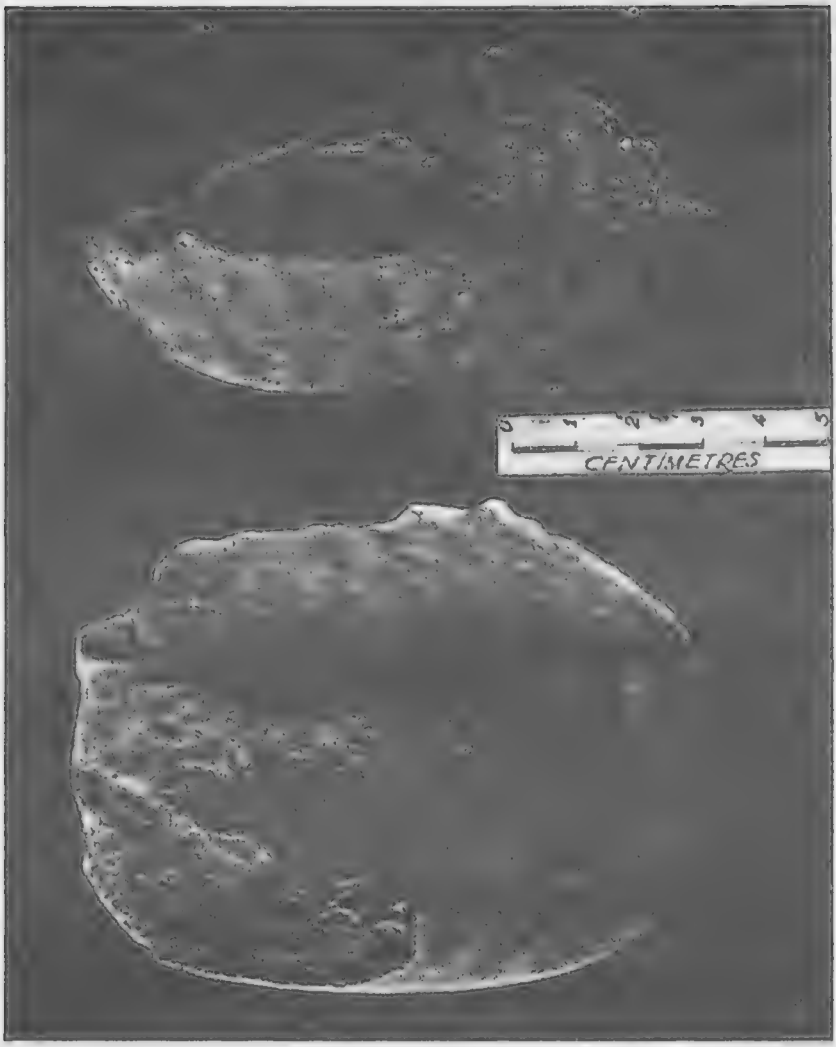

جلمودان منحوتان يرجعان إلى العصر السلاوي عثر عليهما في ناحية الرباط. يعاصران المرحلة المطيرة المعروفة في أوربا بـ (GÜNTZ) صناعة من نوع OLDUVIEN النحث هنا على حجارة أكثر خشونة من سمك يتراوح بين مرتين إلى ثلاثة.

الملاحظ أن هذه الصخور تتخللها لحامات من الحديد علوها الأقصى يصل إلى 70 سنتمتر.

الفصل الرابع
إنسان المغرب؟

وبعد ماذا عن الإنسان في جهات أخرى من الأرض؟ إنسان بيكين، وإنسان نياندرتال(31) الى الإنسان الحديث الذي حدد ويلز لظهوره تاريخ ما بين 75 ألف و50 ألف سنة، بالنسبة لإنسان أوربا، وما قيل عن مجموعات كرومانيون بفرنسا، وكومبي بكابل، وغريما لدى بإيطاليا، وبلاندون وسواسكوب بإنكلترا، ثم إنسان جبل الكرمل بفلسطين وكذا إنسان هلبردج وشاينهم بألمانيا وإنسان روديسيا بإفريقيا، وأنطلياس من أعمال لبنان، وما أشبه ذلك مما قيل أنه وجد في منطقة مدينة حلب(32). بل وصدى ارتباط إنسان المغرب الكبير بتلك العصور السحيقة وما وجد منه بالكاومن أرض الجزائر، وإنسان الرباط المكتشف 1933م والذي قيل إنه قصير القامة، عظيم الهامة، طويل الوجه، مفطح الجمجمة، محدود المدارك العقلية الخ. بل وما وجد بمحجر سيدي عبد الرحمن ناحية الدار البيضاء ، وإنسان آسفي، ثم إنسان فاس المكتشف حديثا " 1985م "وما وجد بالكهوف التي دخلت التاريخ بالمغرب على عهد الحماية، مثل العالية، وشقارة جوار طنجة، وحفريات الأمريكيين بهذه المنطقة، وما عرف عن دار السلطان جنوب الرباط، والخنزيرة جنوب الجديدة، وتافوغالت بني يزناتن وما فيها من تلك الكهوف التي قيل افتراضا إن الإنسان استعملها قبل التاريخ بآلاف السنين، وقد وجد بها ما يدل على ذلك(33) وكهوف

---

(31) نياندرتال واد على أحد روافد نهر الرين في أوربا.

(32) قصة الإنسان ص 14 للدكتور جورج حنا. ط 3عام 1959.

(33) نشر باسم البحث عن الآثار ضمن منشورات وزارة الثقافة المغربية وتحت إسم "عشر سنوات من المنجزات، ص243 وما بعدها ط1961 ما قيل أنه وجد من بقايا بشرية وحيوانات وأدوات عرفت بعد "دراسة" الطبقات بواسطة صور أخذت بالأشعة دون الحمراء وأعلى من الزرقاء، واتضح لهم أن تلك الكهوف كانت آهلة بجنس بشري خلال 5000 س من 12000 الى 7000 ق م، وهذا ما يطابق العهد الحجري المتوسط، أي عهد الحجر المنحوت وعهد الحجر المصقول، ورغم مضي أكثر من عشرين سنة على هذا النشر لم نتعرف على شيء مما ذكر، ولا عن =

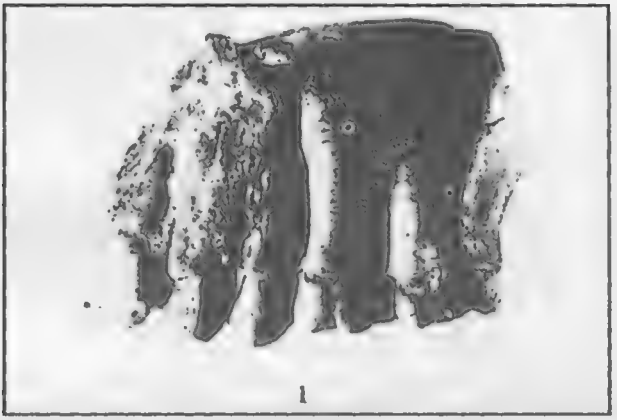

1

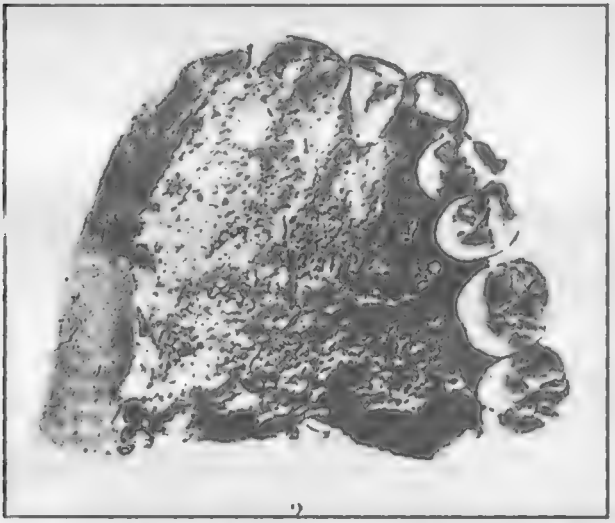

الفك الأعلى اليساري ـ نظرة جانبية لإنسان الرباط المكتشف في شهر فبراير 1933 من طرف ARAMBOUG et HOFFRTETTES وهو أقدم من إنسان أوربا شبيه بإنسان طنجة ـ تمارة ـ سيدي عبد الرحمن ـ إنسان الرباط هو أقدم إنسان في المغرب.. وهو نوع من المخلوقات التي أعقب ظهور الثديات والتي ربما اشتق منها : تطور انطلاقا منها مجموعة من الاسنان (فك ـ ناب ـ ضرس) كلها تشهد بأن هذا الإنسان هو أول من استوطن المغرب.

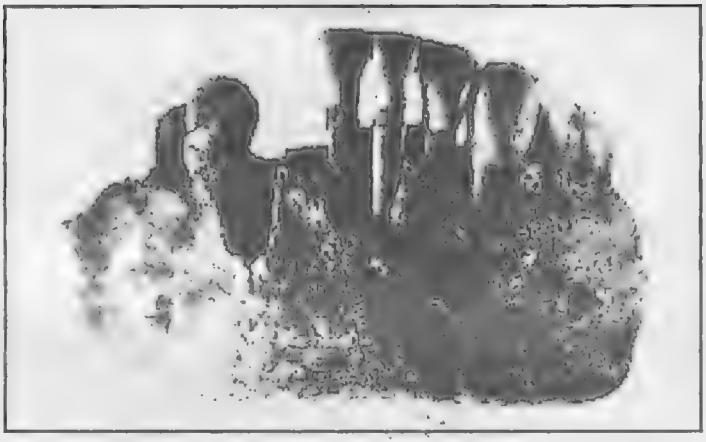

1

2

بقايا لعظام فكين
الأول : والثاني منظوران بكيفية جانبية ـ إنسان الرباط ـ

فك إنسان الرباط نظرة من أعلى

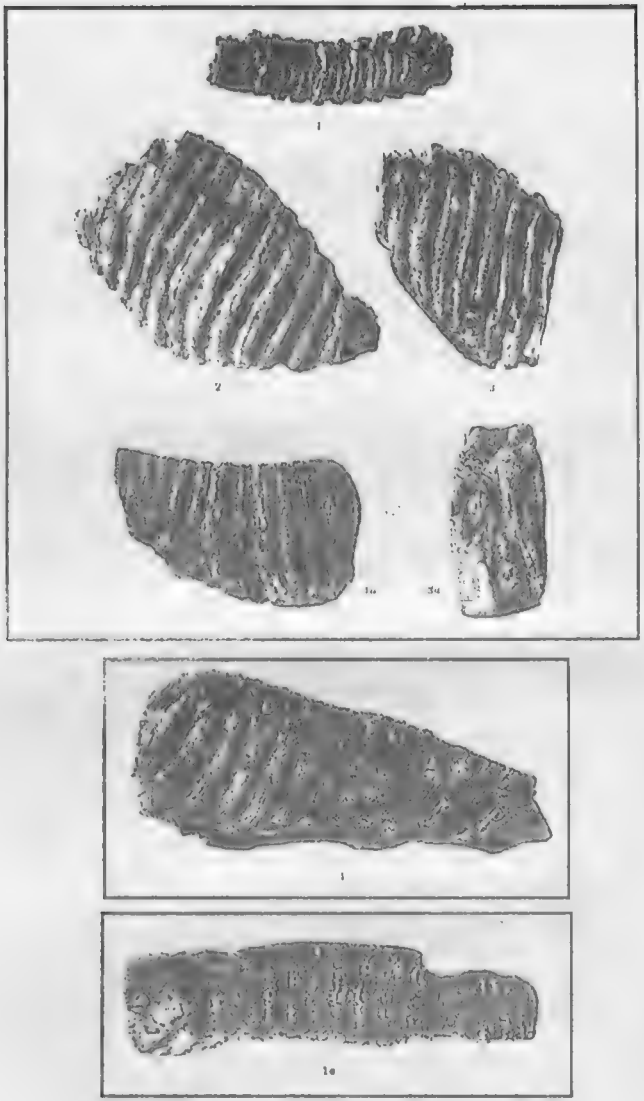

عظام لبقايا حيوانية اكتشف في محجر سيدي عبد الرحمن

ترجع إلى عصر الفيلافر انشيان الأسفل وجدت هذه الحيوانات في كل المغرب العربي في جنوب تونس، شبيهة ببقايا حيوانية عثر عليها في وادي L'OMO بافريقيا الشرقية

جعفر المعلقة بميدلت تلك التي اكتشف فيها الدينصور عام 1995م.

إن ما يتناوله بعضهم من دراسات واستنتاجات للرسوبات البحرية والحيوانية إلى غير ذلك مما لا قبل للتاريخ السياسي به ، لأن التعمق فيه لا يفيد بالقدر المطلوب بل إن الدراسات التي ظهرت في مثل هذه المواضيع لا تزال محدودة وغير مستوفاة بالنسبة

= المكتشف والذي لو كان لأعطى لفترة ما قبل التاريخ بالمغرب اعتبارا غير الذي كان لأن تاريخ المغرب الكبير بمختلف أقطاره لا يتوفر على شيء من ذلك مما يستغل في مجالي العلم والسياحة. وقد تم العثور في بداية الستينات على جمجمة في منجم « إيغود » وظن العلماء أنذاك أنها لإنسان من سلالة نياندرنتال ويؤكد بحث جديد أنها أقدم من ذلك ..

حقائق في أرقام :

لقد تم العثور على أحد أجداد الإنسانية، ويكاد علماء الأنطربولوجيا لا يتذكرون هذا الجد، إنه يدعى إنسان «إيغود» وهو مغربي ، وجمجمته تامة الاستدارة ووجنتيه مسطحتين، مما يجعل شكله مقبولا كي يكون جدا للإنسان الحديث.. إلا أن هذا الجد لم يقع الإنتباه إليه إلا الآن..

في بداية الستينات، تم إستخراخ جمجمتين من قاع منجم البارتين فك طفل، وعظم العضد، وبقايا عظمية أخرى، وعثر على الكل وسط مجموعة من الأدوات الحجرية من الصنف المسمى بالصناعة « الموستيرية ». وفي تلك الفترة أي بداية الستينات لم يتسير إلا استخدام طريقة الكربون 14 لتدقيق تاريخ تلك المواد التي تم العثور عليها.. إلا أن الكربون المشع (الكربون 14) يفقد مصداقيته إذا تجاوز الأمر 40.000 سنة.

وحسب نتائج استخدام الكربون 14 فقد تم تسجيل أن إنسان إيغود عمره أكثر من 40.000 سنة. واستخلص الاختصاصيون أن عمر إنسان إيغود حوالي 40.000 سنة و في ذلك التاريخ كان الإنسان الأوروبي، إنسان نيادرتال يضع أدوات من الصنف المسمى بـ«الموستيري». وبكفية ميكانيكية أصدر انطربولوجيون رأيهم بأن إنسان إيغود هو «إنسان نيادرتال المغربي» بدون زيادة.

هذه الخلاصة لم يطمئن لها ج، هوبلان الباحث في معهد الانطربولوجيا بمتحف الإنسان التابع لكوليج دوفرانس، فلم يستسغ أن يكون إنسان نيادرتال وهو إنسان أوروبي الأصل قد عاش جنوب البحر المتوسط. وكي يطمئن قلبه انكب منذ سنة 1980 مع زميلته آن ماري ميي على دراسة الفك الأسفل للطفل الذي عثر عليه بإيغود. وما الذي وجدوه؟ وجدوا دقنا، وهذا الجزء البارز في الوجه هو ميزة خاصة بالإنسان العاقل الذي ينتمي إليه إنسان عصرنا، وكل الأجداد من السلالات الأخرى كانوا محرومين منه.

فاثارت هذه الملاحظة قلق الباحث HUBLIN ، فقرر أن يتفحص الجمجمتين الأصليتين عن قرب، فاكتشف أن إنسان إيغود، لا يتوفر على رأس مشابه لأنسان نياذرتال، فعظام الوجنتين مسطحتين لدى إنسان ايغود، وهي بارزة لدى إنسان نيادرتال، ودائرة الرأس لديه شبه مربعة منخفضة بينما هي لدى إنسان نيادرتال بيضاوية وعالية...

وقام البحث الفرنسي بجلب نماذج من الأنسان والشعر التي تم العثور عليها في المنجم الأصلي. وعهد بها لمختبر كندي قصد دراستها. فكانت النتيجة واضحة وغير قابلة للنقاش : عمر إنسان إيغود يتراوح بين 80.000 و125000 سنة. وجاءت هذه النتيجة في وقت مناسب، ولإعادة النظر في أصل الإنسان الحديث. ذلك أن أقدم إنسان حديث معروف الى حد الآن هو الذي ثم العثور عليه في فلسطين وعمره 92000 سنة. هذا مع العلم أنه تم العثور على جماجم في شرق إفريقيا وجنوبها إلا أن تاريخها موضوع جدل كبير بين الاختصاصيين. =

كهف من كهوف بويبلادن دائرة ميدلت

للمغرب الذي لم يكن للمسؤولين فيه عن هذا القطاع في عهد الاستقلال من الحيوية والمعرفة ما يمكنهم من الاستمرار فيما بدأته إدارة الحماية من أبحاث جيولوجية، كان الواضع لها أساسا خدمة اقتصاد المؤسسات الاستعمارية الباحثة عن المعادن التي كانت توفر إمكانات البحث والتنقيب، وتراجع مغرب الاستقلال هذا كان مقصودا حتى يظهر الفكر المغربي بمظهر العجز، بل حتى الأعمال التي أنجزت بواسطة الأحافير في عهد الاستقلال كلها مليئة بالفجوات التي لم ولن يزيلها ما جد من الوسائل التكنولوجية المستعارة، التي استعملت في طرق البحث بجهات مختلفة من العالم، والتي في إمكانها تزويد المغرب بما عند الآخرين ليسهم بدوره في العمل الإنساني ضمن قافلة البشر، وسنترك الخوض في هذا الموضوع السياسي الى حينه.

إن حياة إنسان ما قبل التاريخ وعلاقة ماجد منه بالمغرب ثم بالجزائر وتونس وليبيا، رغم المقارنة التي قام بها بعضهم بين إنسان الرباط والكاو بالجزائر وقفصة بتونس، والجغبوب بليبيا، وبالقارة الإفريقية وغيرها، كل ذلك سيبقى لغزا لم ولن يتمكن أحد ما سواء في المغرب أو غير المغرب ومهما فعل من حلّه(34) بخلاف عصر التاريخ عليه، فإن المؤرخ يستطيع في هذه المرحلة وبواسطة المقارنة بين حضارات الإنسان شرقا وغربا، أن يصل منها ما يوجد بالمغرب مما يرجع الى عهود ضاربة في القدم، ولو مع شيء من التحفظ في بعض الجوانب مع غيرها من الحضارات، ولا نتهيب كثيرا، إذا

= وعليه فإن إنسان إيغود يطرح فرضية مثيرة : فإنسان إيغود الذي يبلغ عمره حوالي 100.000 سنة جاء في وقت سابق مباشرة لظهور الإنسان الحديث. وكي يبرهن الباحث الفرنسي HABLIN على فرضيته ينوي استصدار ترخيص من الجهات المعنية (العلمية الفرنسية والإدارية المغربية) للشروع في التنقيب مجددا في منجم إيغود.ربما تم العثور في منجم إيغود على الأدلة التي طالما انتظرها أنصار النظرية القائلة بأن البشرية أصلها من إفريقيا.

(34) راجع تطور الجنس البشري 163 ط ق 1963 وفصل المقال ص 59، والعلم يدعو الى الإيمان ا.كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنويويورك، ترجمة الفلكي ص 103 ط مصر 1954، وجوليان 68 ووجدي م : إنسان وقصة الجنس البشري د هندريك فانلون ترجمة ابراهيم زكي خور رشيد وأحمد السنثناوي ط القاهرة 1997 شابليون وحجر رشيد، وألواح سوم لصمويل كويمر، ترجمة : طه باقرط بغداد.عام1957 . وقد نشرت إذاعة المغرب بتاريخ صباح يوم 89/3/18 أنه اكتشف في جبل هسلات بتونس أدوات حجرية يرجع تاريخها الى مليون 1000.000 سنة مضت.؟؟ ونشرت ج الإتحاد الاشتراكي عدد 2486 بتاريخ 1990/5/27 بحثايزعم أن أصل الإنسان من إفريقيا ورد فيه أن :إنسان إيغود هو «إنسان نيادرتال المغرب بدون زيادة.

أمكننا الحصول على الوثائق حتى ولو كانت غامضة إذ يوجد من العلماء من يكرس حياته لحلها ومعرفة ألغازها ورأينا مبني على أساس أن الباحث المغربي الكفء، بقي مهمشا بالنسبة للأبحاث والأحافير التي عرفت في بلاده، رغم توفرها في عهد الحماية، ومظانها الكثيرة جدا حتى اليوم، والتي تكون أكثر فائدة للبلاد بحكم ما جد من روح الإعتزاز في الشعب المغربي المفترى عليه، على أننا فيما يرجع الى معرفتنا بآثار المغرب وما يدخل منها في تحديد الزمن لم نعرف منها غير ما قدمه لنا الأجانب قبل وما لم يقدموه بقي مجهولا حتى على المتصدرين للتسيير، وإلا لماذا لم يكتب لنا أحد بتفصيل عن "الحفريات" الأمريكية في طنجة وما اكتشف فيها من صناعة العصر الموازي للعصر اللفلوازي، بل ولا حتى عن الإنسان وآثاره الراجعة الى العصر النيوليتي " البربري" حيث دامت تلك الآثار في بعض الجهات من المغرب الى أوج الحقبة التاريخية، وحتى الى العهد الروماني وما عرف غيره من الصناعات مثل المصاطب(35) مما دفع الى الاعتقاد أنها صناعة متأخرة في شمال إفريقيا عموما، كل ذلك لم يعرف الباحث المغربي عنه ولا عن مدى الإستفادة منه في مجال التاريخ قليلا ولا كثيرا، ولو فقط ببعض الذي أفاد منه الدارس الأوربي في مجال كتابة التاريخ الذي وضع لعصوره بالمغرب من المصطلحات ما بقي قاصرا عليه، وأحيانا ينتهي ببعضهم الخلط الى الوقوع في أكبر الأخطاء(36) مع أننا قلما نجد منهم من تثبت ثم تعرف على المصادر الموثوق بها فيما يرجع الى التاريخ المدون، وبالنسبة للماضي القريب فقط.

أما العصور الجيولوجية (37) والبيولوجية(38) والأنثروبولوجية(39)،فالمغرب وقد

---

(35) المصطبة : بناء غير مرتفع يجلس عليه، جمعه : مصاطب.

(36) راجع تيراس وماسينيون وليفي بروفانصال، وجوليان وغيرهم ممن سنتعرض لذكرهم حسب كلامنا عن الظهير البربري لأنهم جميعا كانوا يهدفون من كتاباتهم هدم الإسلام وتمييز ما اسموه العنصر البربري الذي كانوا يطمعون في تنصيره، ثم فرنسته مما سنرى من خلال كتابات العشرات منهم والذين وجدوا من حثالات المجتمع المغربي ما صاهر حثالات وعاهرات المجتمع الفرنسي ثم أخذ يشيع بين المغاربة ما يمزق شملهم ويقضي على مصدر قوتهم وأصالتهم.

(37) علم طبقات الأرض.

(38) علم الأحافير.

(39) علم دراسة الجنس البشري وتطوره، راجع م.ع 235، كتاب أصل العائلة فردريك أنجلز، ترجمة أحمد عزالعرب ومراحل التطور قبل التاريخ ص : 10 ـ 18، ط1957.

وكذا كتاب : ما وراء التاريخ تأليف وليام هاولز ترجمة أحمد أبوزيد ط دار النهضة العربية بيروت 1984 ثم كتاب التاريخ العام تأليف فيليب فان نس مير الامريكي ط بيروت 1912اص 1ـ 10.

مضى على إستقلاله ما يزيد على ربع قرن لا زال عالة على ما وضع له السابقون من غير المغاربة في هذا المجال. لهذا أقول : من الأحسن للباحث المغربي أن لا يذهب بعيدا أكثر عن العصور الحجرية التي يجد أثناءها من الوسائل ما يستدل به على تاريخ الإنسان بالمغرب في تلك العصور التي لا أقول إنه من الممكن دراسة التاريخ فيها دراسة مفصلة، وإنما فقط كمدخل للإستئناس وإلقاء النظرة التي لا بد منها لكل دارس للتاريخ.

إن الذين يطلقون العنان بالرجوع الى ما قيل عنه العصر الصقلي وهو ما يوازي عصور ما قبل الجليدي الذي قدروا له ما بين 90 ـ 100 مليون سنة، إنما هم يقحمون في التاريخ ما ليس منه في شيء،إن مدة العصر الحجري الأدنى الذي وجد فيه إنسان الرباط، مدة طويلة وطويلة جدا بالنسبة للأعلى، فضلا عن العصر النيوليثي القريب، الذي عاصر ما قبل عهود الأسرات في مصر، سواء في شمال إفريقيا أو في غيرها. فكيف بالذين يريدون أن يؤرخوا للإنسان في هذه المراحل، مع أن علماء «البلنتولوجيا» يجهلون الربط بين الإنسان الذي خلّف الأدوات الشيلية والاشولية التي تخلفت عن عهد صناعي العهدين الحجري الأدنى والمتوسط، الى أن ظهر العصر الموستيري الذي يرجع إليه إنسان الرباط والذي يأتي بعد العصر الحجري الأعلى، وما اكتشفت حوله من الصناعات القفصية نسبة الى قفصة، والمجهولة التاريخ وما تطور عنها مما اكتشف ناحية تبسة شرق الجزائر، ومدى علاقتها بالقفصية وعلاقتهما معا بالوهرانية التي عمت أغلب أرض المغرب الكبير، حيث أصبحت صناعة العصر الحجري الأدنى الذي يحدد تاريخه ما بين10.000 ـ 5000ق .م. وفي هذا الزمن تطور الإنسان العاقل وساعده الجو والمناخ فأصبح يستفيد مما حوله من حيوانات وفواكه، بل أصبح يقاوم عوامل القضاء عليه من حيوانات وطبيعة، وأصبح يختبئ في الحفر ويغطيها بالقش الى أن انتهى به السير والوقوف على أبواب العصر الحجري الحديث الذي هو نتيجة ما سبق من حضارات قفصة وصلتها بالعصر الذي أطلقوا عليه العهد النيوليتي الذي قيل إن الفنيقيين قدموا أثناءه للمغرب وفيه قاموا بتأسيس ما عرف لهم من مراكز تجارية عبر الشواطيء.

في هذا العصر عرف الإنسان تطورا إنتهى به الى مزاولة الفلاحة التي سوف لا يعرف طفرتها بالمغرب إلا في عهد الملك البربري ماسنيسا 148 ـ 202 ق.م. وبعد استئناس

الحيوانات وصنع الأدوات من الحجارة المصقولة محل المنحوتة، وعرفت صناعة الأدوات من العظام، كما عرفت آنية الفخار البدائية التي سرعان ما عرفت هي الأخرى تطورا، كما عرف الإنسان بعد كيف يجتمع في أماكن أعدت للسكنى بالحجارة، وربما كانت حسب المعطيات في ليبيا، وحين استقر أصبح ينحت ويكتب على الحجارة بطريقة أصبحت اليوم شبه وثائق لدى الباحثين الذين لم تتفق آراؤهم حول الكثير منها، سواء بفزان من أرض ليبيا أو الجبل الأخضر بها كذلك، وما فيها من رسوم الكهوف خصوصا ذات الخطوط المنكسرة والمنحرفة التي لا تنطوي على فكرة معينة، والى تلك التي قيل إنها مستمدة مما عرف بمصر من حضارة اتصلت بعبادة الكبش الذي له قرص فوق رأسه شبيه بقرص الشمس الذي فوق رأس كبش معبد آمون الرابض بواحة سيوة وأسوان والأقصر، ومثله بطريقة بدائية نجده في المغرب بأرض زناتة من فجيج، بالمكان المعروف «تنية المجاهدين" على أن من يريد أن يحدد ذلك بزمن معين يكون زاعما وبعيدا عن القول المقبول، بل حتى نفترض فروضا تذهب بنا بعيدا كما سبق لبعضهم لا نقبلها ولا نقول بها.

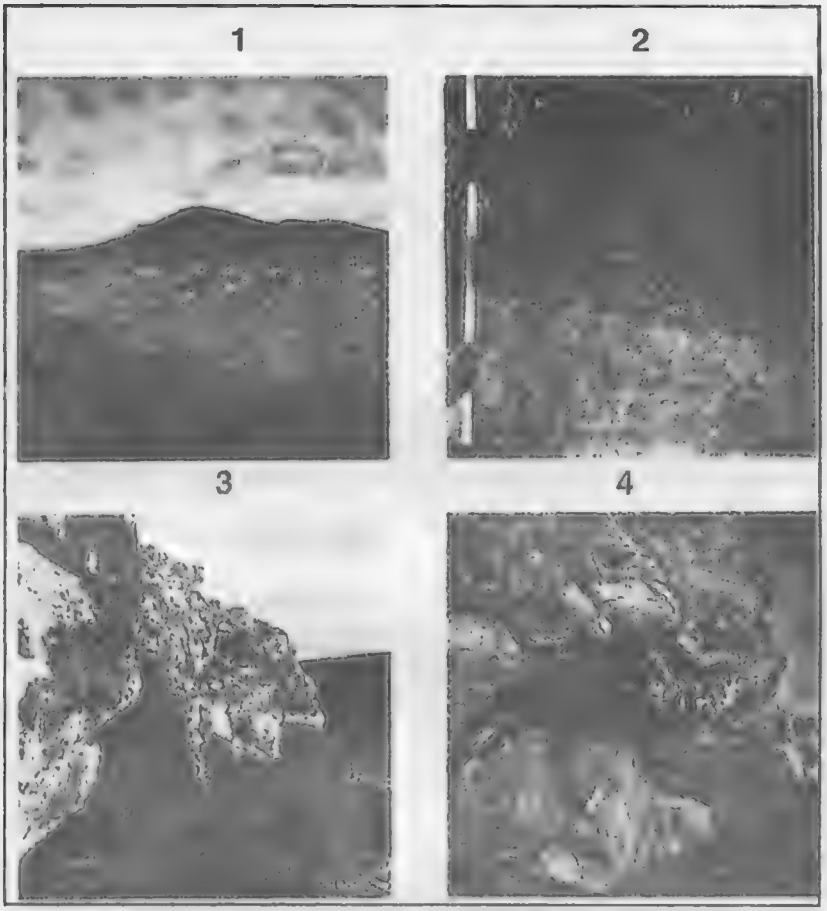

الصورة 1ـــ واد اشكار ورأس سبارتل

الصورة 2ـــ المغارة (A) تلاحظ الطبقة الصخرية 1و2 بوضوح

الصورة 3 ـ مدخل المغارة A

الصورة 4 : المغارتان B ثم "C" يلاحظ أن الأدوات المعثور عليها في المغارات الثلاث C.B.A متشابهة من حيث شكلها وأغراض استعمالها من الأدوات المستعملة : فخار للزينة ـ كؤوس ـ برونز من الملاحظ أن هذه الأدوات عثر عليها في ثلاثة طبقات جيولوجية سمك الطبقة الأولى 0.30م إلى 1.10متر

سمك الطبقة الثانية من 0.20 إلى 1 متر

سمك الطبقة االثالثة 0.10 إلى 0.50 متر.

في هذه المغارة نجد تكوينات من الرمل والحصى الدقيق والذبل Humus"مواد عضوية" ثم رماد وتربة حمراء

الأدوات الموجودة عبارة عن فخار دقيق ذو لون أحمر يضم بعض السلكس

- أسلحة وعصي

- الصورة تبين مجموعة من القطع الفخارية.

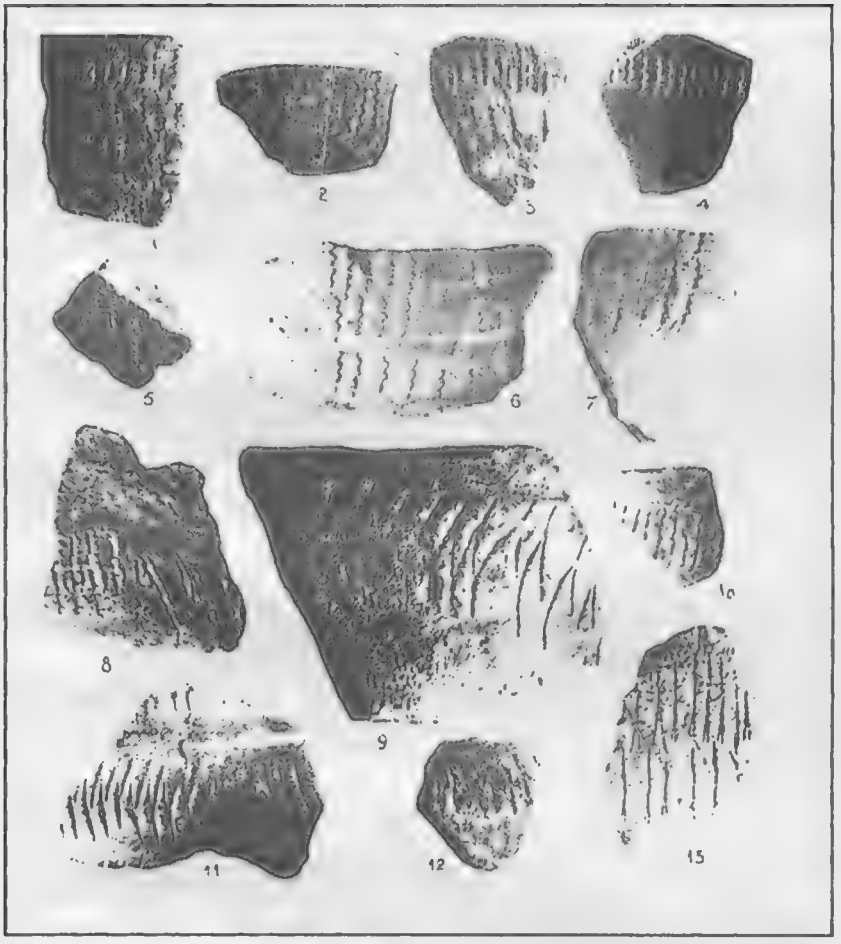

قطع فخارية نلاحظ فيها اختلاف الصنعة من خلال أشكال النقش
الاشكال من 1 إلى 7 و10 : نقش على شكل خطوط متوازية.
الأشكال 8،9 نقش على شكل مختلف وغير متمايز
الشكل 11 و13 : نقش على شكل عظمي
يلاحظ وجود نفس الظاهرة المشار إليها أعلاه (تنوع أشكال التعامل مع الفخار)

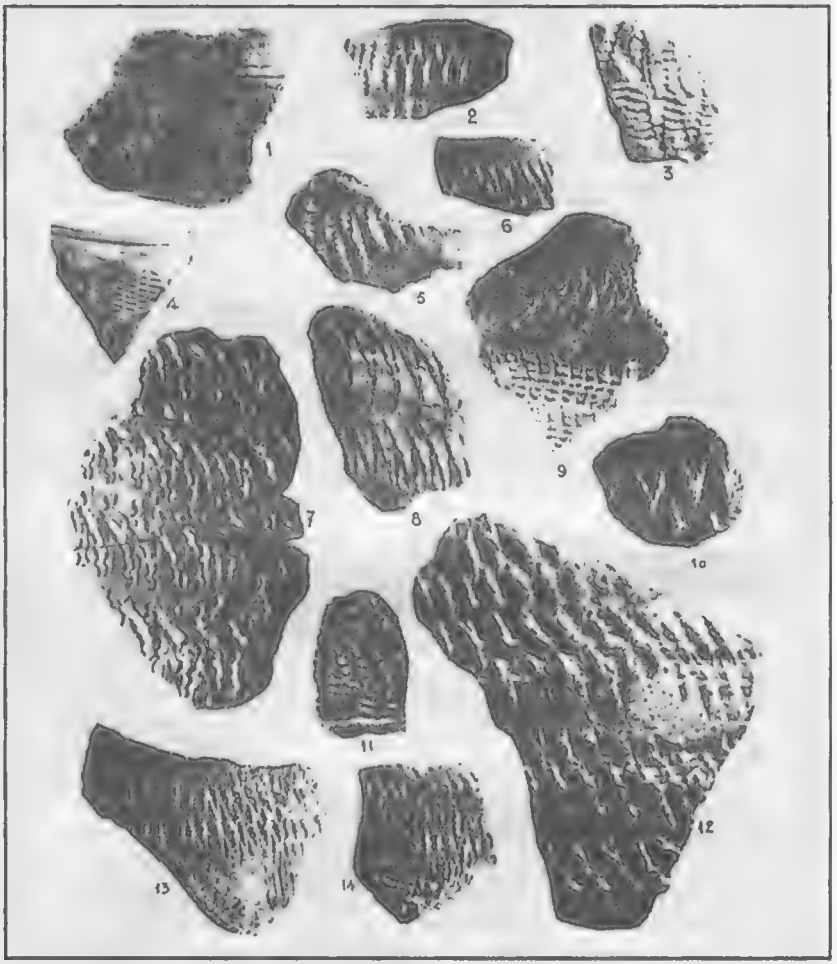

يلاحظ وجود نفس الظاهرة المشار إليها أعلاه (تنوع أشكال التعامل مع الفخار)

صناعة بشرية اتخذت العظام كمادة أولية

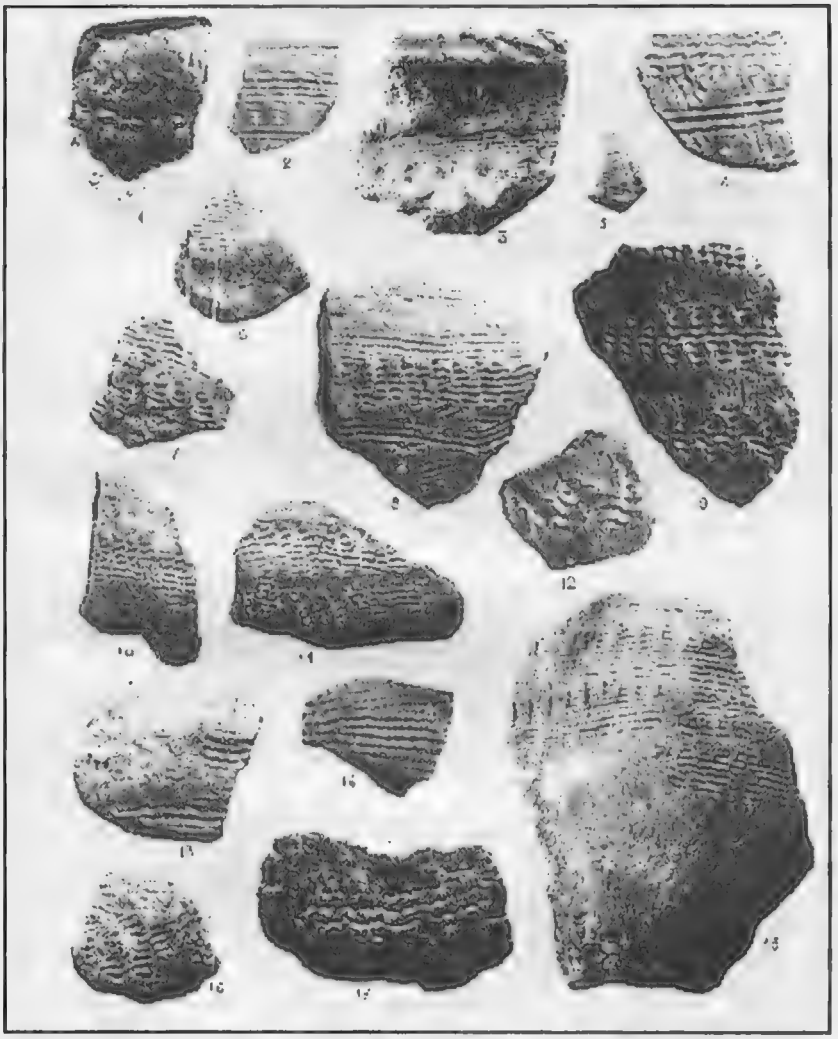

أدوات للاستعمال في الطقوس الدينية

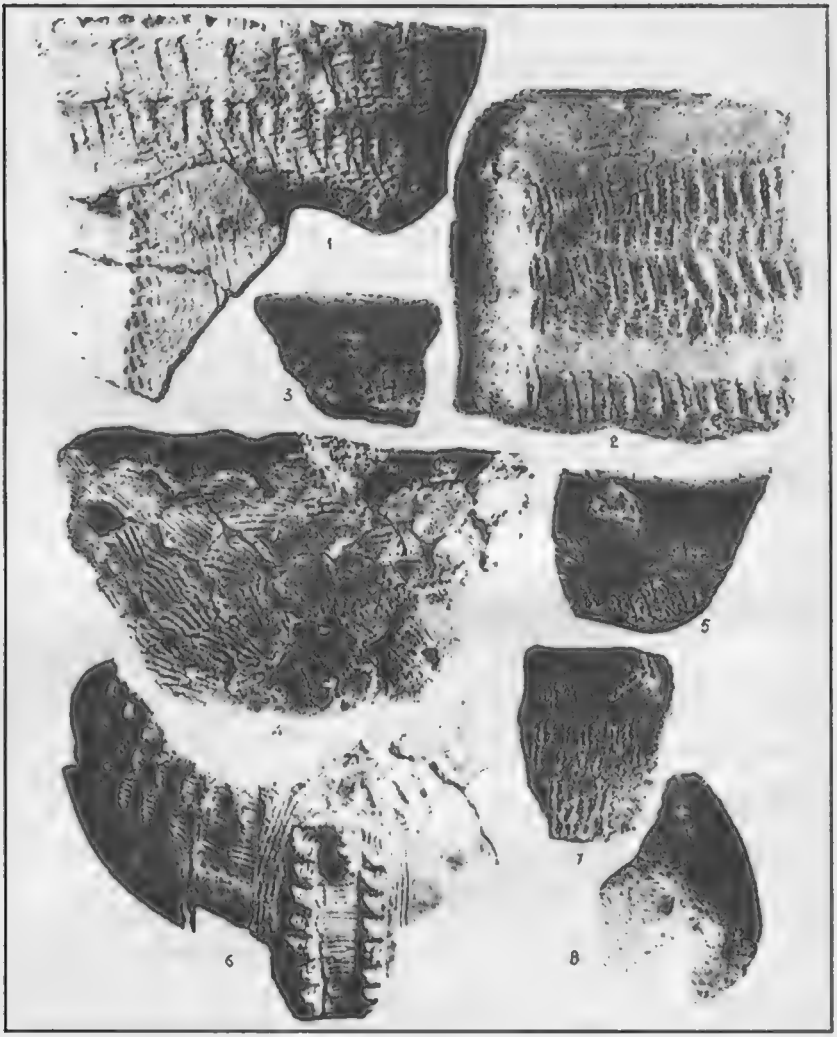

أدوات الطين صقلت من أجل استعمالها "ديكور" للزينة

ذلكم هو الشق الضيق من باب المدخل الى تاريخ المغرب الكبير، وأما الشق الثاني والقريب منه فهو الذي نجد فيه ما أقحمه بعضهم من آراء علماء الانثروبولوجيا بصيغة أخرى، وما قيل عند دراسة تطور الإنسان المغربي، وكل ما قيل في نظرنا لا يزيد أكثر على أنه آستنتاجات ليس لها مصدر تاريخي يستانس به.

ومع ذلك نقف أمام هذا الشق لنقرأ ما كتب عنه قبل التعرف على المصادر التي لا قيمة للتاريخ بدونها.

أشرنا الى ما قام به كل من «لينيوس» المواليدي السويدي و«بلومنباخ» الألماني حول تصنيف البشر، وأن الأخير وضع لكل صنف ما يميزه، وبعد ما قسم البشر الى أقسام خمسة رئيسية، ركزها على لون بشرة الجلد التي منها الأبيض والأسود والأسمر والأصفر والأحمر، وهذا كل ماعرفه الانثروبولوجيون في عهد العالم المشار إليه الى أن ظهرت دراسات توبينارد، وهيكل أرنست هاينرش 1830ـ1919م ومولر 1825 ـ1896م(40) والأول هو الذي زاد على لون البشرة شكل الشعر ولونه ، وشكل الأنف ، ومثله فعل هيسكلي وجوفردي سانت هيلين، ودي كاترفاج، الذي هو مؤسس علم الأنثروبولوجيا الطبيعية.

في سنة 1889م ظهر أول تصنيف عام قدمه الفرنسي دنكر، بنى فيه تقسيمه على أساس لون الشعر والعين والشكل العام للوجه والأنف،ونسبة قياس الرأس وطول القامة، وشكل عظام الحواجب، وفصائل الدم، ثم جاء غيره وزاد بيانات حول الشعر المموج، والمسترسل، والمبروم، والملتف حول نفسه، كحبة الفلفل، بل وللمسترسل درجات، أما لون العين فمنه الرمادي الفاتح، والغامق ، والبني الفاتح، والداكن، والأخضر بدرجاته، والأزق بدرجاته، والعسلية، والسوداء، ثم شكل الأنف وشكل الوجه، وطول القامة، وفصيلة الدم التي ميزوا بها السلالات وصنفوها أصنافا ستة، وأن كل سلالة من السلالات البشرية تتميز بصفة مما ذكر من الصفات، ومع ذلك فهي في نظرنا لم تحقق ما كان يرجى من معرفة أصول الشعوب ولا حتى الدلالة على التقارب السلالي، ومثال ذلك الزنوج الأفارقة ذوي اللون الأسود، ألم يكونوا مثل الاستراليين ومثلهم قبائل متعددة في السودان

(40) م.ع. 1787.

والطوارق المغاربة، والصوماليون، ومع ذلك لا قرابة سلالية بين هؤلاء وأولئك، بل الأخيرون من السلالة القوقازية عندهم، أي سلالة الأبيض المتوسط، بل المجموعة البيضاء عندهم بينها تفاوت في لون البشرة، ومثل هذا في المجموعة المغولية، وبأبسط ملاحظة أليس هناك كل التأثير للوراثة؟ ثم لأشعة الشمس في الأقاليم المدارية الإستوائية الى درجة الإحراق والسواد، ومثلهم سكان جزر جاوة وسكان القطب الشمالي الذين لهم لون داكن، ومع كل هذا ذهب علماء الانثروبولوجيا في طريقهم القائم حكمه على الألوان :

أ) فأصحاب البشرة السمراء والشعر الصوفي، والعين الزرقاء، والأنف الدقيق، والرأس الطويل، والوجه المتباعد الوجنتين، كل ذلك من الصفات المميزة لسلالة من السلالات.

ب) وهناك أصحاب البشرة السوداء، والشعر المجعد الموج، صفاتهم تلك دليل على سلالتهم.

جـ) أما أصحاب الشعر الموج البني أو الأسود، والعيون الداكنة فهم من سلالة متميزة، ومنها عندهم الهنود الأفغان، والعرب الساميون، والبربر الحاميون، ولهؤلاء في تصنيفهم بشرة بيضاء زيتونية، وقامة طويلة وأنف مستقيم غليظ، ورأس طويل ووجه مربع.

ذلكم هو تصنيف "دنكر" الذي جاء بعده تصنيف "هادون" ثم "إيكشت"(41) الذي بنى تصنيفه على ثلاثة أقسام، أدخل فيها عامل الطبيعة الجغرافي، والجو، والمناخ، وأن البشر عنده جنوبيون، وغربيون، وشرقيون، و«البربر» سكان المغرب الكبير عنده من النوع الغربي، سلالة الإنسان العاقل، فرع الأبيض المتوسط، وأنهم انتشروا من القوقاز نحو أورباجنوب غرب آسيا، ثم شمال إفريقيا ـ وهذا عن البربر غير صحيح في نظرنا، سوف ننتقده بعد ـ وأن التأثيرات المشار إليها عنده لا تدخل في تكوين معظم شعوب جنوب أوربا وغربها، وهي لا تقتصر في انتشارها على بعض أجزاء قارة أوربا فحسب، بل إنها تنتشر في غرب آسيا، وشمال إفريقيا، ولذلك اختلطت هذه السلالة بغيرها من السلالات وتطورت عدة تطورات محلية في نواحي انتشارها المختلفة فظهرت منها عدة تنوعات

---

(41) تطور الجنس البشر، 192ـ 204. مصدر سابق.

محلية، وبالرغم من هذا فإن جميع التنوعات تشترك في صفتين أساسيتين هما: الرأس الطويل، وسمرة البشرة ، والعيون السوداء، وتزداد صفة السمرة وضوحا في شمال إفريقيا حيث الطراز الصحراوي من سلالة البحر المتوسط، المتميز عن الطرازين الايبيري الذي يسكن شبه جزيرة إيبريا، وجنوب فرنسا، وجنوب إيطاليا، وجزر حوض المتوسط وجنوب شرق البلقان.

وعن الأطلسي الذي مقره إسبانيا وجنوب فرنسا والصحراوي الذي يختلط بالسلالة الجنوبية الشرقية التى تسود شبه جزيرة العرب وآسيا الصغرى، كما أنه يختلط عبر الصحراء الكبرى بالسلالة الزنجية مما أورد طرازا خاصا من سلالة البحر المتوسط ، تمتاز بالبشرة الداكنة السوداء ، و الطراز الصحراوي هذا يمتاز بكل صفات سلالة البحر الأبيض المتوسط الأصلية ، القامة المتوسطة النحيفة . والرأس الطويل ، والبشرة السمراء لكن الشعر أكثر تجعيدا كلما توغلنا في الصحراء الكبرى واقتربنا من المنطقة السودانية(42).

والمغرب الكبير عندهم سكانه من سلالة الجنوب الشرقي للسلالة القوقازية في جنوب غرب آسيا التي دخلت شمال إفريقيا عن طريق جنوب اليمن والغرب الإفريقي، وهي تدخل في تكوين السلالات العديدة التي تسكن هذه المنطقة والتي تتحدث بلغات حامية كما تشمل الأثيوبيين.

وأما الجانب الحضاري لإنسان المغرب الكبير عندهم، فإنهم يقولون : إن التطور الذي عرفه المغاربة ضمن قافلة البشر، أصله من أروبا حيث كان لا يفصل أوربا عن طريق إفريقيا إلا البحر المتوسط الذي تقسمه شبه جزيرة إيطاليا قسمين : الحوض الشرقي، والحوض الغربي، وتقترب جزيرة صقلية اقترابا شديدا من الساحل، تونس في منتصف حوض البحر تقريبا، كما أنه لا يفصل شمال إفريقيا عن شبه جزيرة إيبيريا سوى مضيق جبل طارق، وهكذا في رأيهم تكون قارة أوربا جزءا من الوطن القوقازي

---

(42) أورد شارل أندري جوليان في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية ج 68/1 تصنيفا قال إن صاحباه:برتولون وشانتر وضعاه على أساس 1532 ملاحظة في قيس الأوادم إنتهيا منها عام 1913م وعلى أساس ذلك قسما سكان بلاد البربر الشرقية الى ثلاثة أصناف تولد عن ثالثها صنفان آخران، راجعه..؟ وما أورده يحمل بطلانه في طياته.

الكبير الذي يقع الى الغرب من جبال الضاي(43) والذي يمتد من سهول تركستان الى المحيط الأطلسي، ويشمل جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا والصحراء الكبرى وشرق إفريقيا، وقد وفدت الهجرات البشرية من أقدم عهد الإنسان العاقل بهذا العالم الى أوربا، عن طريق هجرات أو غزوات قادمة من الشرق أو من الجنوب، وكانت هذه الهجرات تحمل حضارات معينة، وتسلك طرقا معينة كذلك، وتختلط بما سبقها من هجرات أو تضطرها الى العزلة والانزواء، وهكذا منذ أواخر العصر الحجري القديم حتى العصور الحديثة، أي منذ 14000ق.م. حيث انتهت مرحلة العصر الحجري القديم، ثم تبعتها مرحلة العصر الحجري المتوسط ما بين 14000 ـ 5000 ق.م، ثم الحديث ما بين 5000–3000 ق.م ثم ظهر عهد البرونز، وهو الذي تحرر فيه الإنسان من استعمال الآلات الحجرية ما بين 3000–1500ق.م. تلاه عصر الحديد1500 ق.م، وهذه المقاييس هي بالنسبة لحضارة مصر والهلال الخصيب والحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أما بالنسبة لأوربا فحضارة العصر الحجري القديم، استغرقت مآت الآلاف من السنين، بينما لم يستغرق العصر الحجري المتوسط سوى تسعة آلاف عام تقريبا(44) وبعد هذا عرف الإنسان الزراعة، وكان للصين والهند فضل السبق فهما اللتان عرفتا أنواع المزروعات التي ارتفعت بالإنسان عن مشاركة الجمال والبغال والحمير أكل النباتات، واستئناس الحيوان، وكان قد عرف الجرّ بالحصان لأول مرة في جنوب آسيا في وقت يقدر بنحو 8000 ق.م. أما العصر الحجري الذي أطلق عليه الحديث لم يعرف بشكل مؤكد إلا في مصر، وبلاد ما وراء النهرين، وحوض نهر السند، حوالي الآلف الخامسة ق.م ولم ينتشر في جنوب شرق أوربا إلا بعد ذلكْ بألف عام، كما أن حضارة ذلك العصر لم تنتقل من شرق الأبيض المتوسط الى جنوب أوربا وغربها ثم وسطها إلا بعد ألفين من السنين كذلك.

وهكذا ففي الوقت الذي كانت أوربا في نهاية العصر الحجري الحديث، وبداية الزراعة، كانت بلاد الشرق الأدنى، الهلال الخصيب ومصر ـ قد تقدمت في مضمار

---

(43) جبال الضاي سلاسل جبلية تمتد في ج.غ. سيبيريا، وفي جمهورية قازاخستان وغرب منغوليا، أعلى قمتها "4602م" في منغوليا.م.ع، 202.

(44) المصدر السابق : تطور الجنس البشري، 218 ـ 19 .ط 1963.

الحضارة باستعمالها المعدن، وانتقالها الى مدينة التجارة وحياة المدينة، ولم تعرف أوربا حضارة المعدن والبرونز إلا حوالي الألف الثانية ق.م. ووقتها كانت حضارة مصر وبحر إيجه وبابل، وآشور، قد خطت خطوات.

وهكذا نجد أن كل ما ينقل من الحوض الشرقي الى أوربا من أنواع الحضارات كان يمر بشمال إفريقيا الى المحيط الأطلسي شمال إيبيريا، ثم الى فرنسا وأجزاء متفرقة من سواحل الجزر البريطانية وإيرلندة، بل وصلت هذه الموجة الى شبه جزيرة أسكندناوة الخ، ويقول الغربيون إنه بعد هذا وفي الألف الثانية قبل الميلاد، عرفت ألوانا من الهجرات الى حيث الوطن الأصلي للساميين بشمال شبه جزيرة العرب، ومنه الى جهات أخرى بعد ما ضاق المكان بأهله، فكانت هذه الهجرات مستمرة لم تنقطع، ويعرف تاريخ أول هجرة سامية تلك التي اتجهت نحو العراق وأسست دولة بابل، ثم دولة آشور بعد ما تم الامتزاج بالسومريين والهيلاميين، وهي الشعوب الطورانية والغير السامية، بل هي من وسط آسيا.

و حوالي الألف الثالثة ق.م.(45) خرج الكنعانيون من شمال شبه الجزيرة الى فلسطين وسوريا حيث استوعبوا العناصر الإنسانية القديمة، واشتغلوا بزراعة السهول الساحلية الخصبة، وشيدوا أقدم مدن فلسطين، وسوريا، وظلوا العنصر الأساس لسكان فلسطين على مر القرون، ومنهم لا محالة العنصر العموني الذي منه اشتق بربر المغرب كما سنرى، والذين سيهاجرون من منطقة «ربة عمون» جنوب فلسطين، الى شمال إفريقيا كما ستخبرنا التوراة، المصدر الأول لتاريخ هذه المرحلة.وحتى نؤكد تاريخ خروج الكنعانيين فقد عاصر خروجهم انبعاث الأموريين من شمال شبه الجزيرة الى سوريا، ثم سهول دمشق من ناحية، وسهول العاص من ناحية أخرى، ففي مستهل الألف الثانية ق.م خرجت قبائل بدوية من شمال شبه الجزيرة الى حدود سوريا وضفاف الوسطى، ثم ظلت ترابط على أبواب الهلال الخصيب حتى انهارت مقاومة حكوماته في القرن 13 ق..م، ووقتها أسسوا المملكة الآرامية بدمشق، وهم الذين حاربوا الشعوب الهند أوروبية التي

---

(45) المصدر السابق، ص 270 .

كانت تحكم آسيا الصغرى وأرض الجزيرة شمال العراق، من الحيثيين والميتاني والحوريين، وكان ذلك في نهاية عصر البرونز، الذي امتاز بحركة اضطراب كبيرة بين القبائل في وسط آسيا وشرق أوربا.

تلكم هي مواطن البربر الأولى من أرض كنعان ، وحيث كان العبرانيون بهضبة يهودا، بينما كان الكنعانيون يسكنون التلال المشرفة على الساحل، وما لبث العبريون أن وجهوا بشعب أتى عبر البحر، هو الشعب الذي أطلقوا عليه الفلسطين، وهو أقوى بطشا وأرقى حضارة، وهو أحد الشعوب التي هاجرت من جزيرة كريت وجرز بحر إيجة، تحمل أسلحة الحديد وتهدد السواحل الشرقية للبحر المتوسط، والفلسطين بهم سمي الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، وهم الذين أسسوا المدن الساحلية حيث كونوا اتحادا مدنيا قويا من المدن التي أنشأوها وهي : غزة، وعسقلان، وأشدود، وعكرون، وجات، ويافا، وهم يدخلون مع الكنعانيين الذين منهم البربر قبل في تكوين عرب فلسطين الحاليين(46).

وهكذا إذا نحن راجعنا جل مصادر تاريخ المغرب، سواء التي ترجع الى المشارقة أو التي كتبها المغاربة، نجد الكل متفق على أن السكان المغاربة القدامى من كنعان بن حام، بل وعند الغربيين كما رأيناهم من السلالات القوقازية المتواجدة في شرق إفريقيا وشمالها، لأن إفريقيا تدخل نطاق السفانا - في نصفها الشمالي - من منطقة المجموعة القوقازية، وهذا الجزء من إفريقيا يشمل مداخل القارة من الجنوب الشرقي، ومن الشمال الشرقي، ومن الشمال الغربي، وهي على الترتيب :

أ) باب المندب* .ب) برزخ السويس. ج) جبل طارق.

وقد لعب الباب الأول دورا كبيرا في تعمير القارة منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، فمنه دخلت جماعات البوشمن، والهوتنتوت، والأقزام، ومنه دخلت السلالات الزنجية، منذ العصر الحجري القديم، ومنه دخلت إحدى السلالات القوقازية عن طريق اليمن والقرن

---

(45) المصدر السابق، ص 270 .

(46) المصدر السابق 274 ثم راجع فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي، ص 8 - 9 - 30 وما بعدها، ط مصر 1945م.

* باب المندب مضيق بين البحر الأحمر وخليج عدن عرضه 26 كم ، وفي هذا المضيق جزيرة ميوم أو بريم وهو مفتاح البحر الأحمر من جنوبه م.ع . 295 ط 1965.

الإفريقي، ومن ثم اتجهت نحو شرق إفريقيا ونحو شمالها، ولما كانت اللغات السائدة اتخذتها جماعات تلك السلالات تنتمي الى عائلة اللغات الحامية، فهي التي أوجدت لها مكانا بين الإخوة القدامى كما سنرى حين توزيع أبناء حام بن نوح عليه السلام كما تخبرنا التوراة.

أما برزخ السويس فقد استقبل هجرات قديمة ترجع أقدمها الى الألف الثانية ق.م. كما أنه كان المنفذ الأسيوي للشعوب السامية نحو مصر، ونحو شمال إفريقيا، فمنه دخل المصريون واليهود، كما دخل العرب بموجاتهم العديدة.

وأما طريق جبل طارق فقد كان طريقا قديما للهجرات من شمال إفريقيا الى أوربا، في العصر الحجري القديم، والعصر الحجري الحديث، ثم أصبح طريقا للهجرات من أوربا أثناء عصر الحديد وفي العصور التاريخية.

الفصل الخامس

هل المغرب أصل الحضارات؟

بعد كل ما سبق مما دونه التاريخ، والذي تخبرنا بعض مصادره عن مرحلة من مراحله التي طمست ولم تبذل الجهود الكافية لتوضيحها وكشف الغامض منها، تلك هي مرحلة ما قالوا عنه الأطلسية، والتي لوصح ما قيل حولها، ألا يصح أن يكون المغرب الأقصى موطن بل أصل حضارات كان لها شأن عظيم في تطور حياة الإنسان، وهكذا لست أدري إن كان ما ورد في كتب الآخرين حول الأطلسية يستوجب الدراسة والإستقراء أم يكتفى بذكره والمرور عليه مر الكرام، فالأطلسية لها ذكر في تراث القدامى من عباقرة المؤرخين والفلاسفة، الذين تحدثوا عنها كمركز من مراكز الإشعاع الحضاري، فقد تناولها أفلاطون في كتابه الذي لم يتم وهو "كريستياس" وذلك فيماكتبه عن الفنيقيين من رواية عن أخبار الكهنة المصريين، وما كان لهذه الأطلسية من حضارة، وأن زوالها يرجع الى 9000 سنة قبل سولون أوالى 10.000 ق .م. على وجه التقريب ، كما أن تلك الإنقلابات المشار إليها قبل، توضح أنه كانت هناك جزيرة عظيمة مجاورة لجزر الكناري ومادیرا وإسبانيا، ومجاورة لجزر برمودا، وقد ظلت قائمة مدة طويلة، تلك الجزيرة هي الأطلسية التي عرفت عمرانا وحضارة، وقد وصف أفلاطون حضارتها والانهيار السريع الفجائي الذي طمرها بأكملها في أمواج المحيط.

ومن هذا المركز أي من الأطلسية يقول بعضهم، خرجت أولى القبائل التي عمرت أمريكا الوسطى منذ خمس عشرة ألف سنة، وكذا الجاليات التي احتلت مصر العليا وإثيوبيا، وربما يستأنس في هذا المجال بما يوجد من قبور الإنسان القديم المعروفة بـ (تيموليس)، الممتدة من موريتانيا الى حدود مصر جنوبا، والتى تشبه الأهرامات في مصر لكنها بدائية، ويقدر ثيوبومب عدد هؤلاء المهاجرين بعشرة ملايين، وهناك كتاب

مقدس عثر عليه في يوكاتا(47) وفيه تفاصيل الكارثة التي ابتلعت الأطلسية ، وقدر بمقتضاها عدد السكان الذين غمرهم ماء المحيط بأربعة وستين مليونا.

فالأطلسية إذا كانت مهد الحضارة لنصف الكرة الأرضية،ومنها اشتقت الحضارة المصرية التي إنتشرت بعد في شرق البحر الأبيض المتوسط، ومما يحتج به أن الأطلسية كانت بالأبيض المتوسط قبل انفتاح بوغاز جبل طارق و امتداد مياه الأطلسي(48) ويقول أفلاطون(49) كذلك **بناء على ماعلمه من كهنة منف المصريين** : إن الأطلسيين هم أول من قاموا بتعليم الكلدانيين و المصريين والحميريين، و لو أن ثمت شك بالنسبة للأخيرين، ويقول أفلاطون أيضا : إن ذلك كان منذ عشرة آلاف سنة قبل عصر سولون الذي هو 450ق.م وربما كان قبل ذلك العصر ب خمسة عشر ألف عاما أو عشرين ألف سنة أو أكثر لما كان سطح الأرض أو قل العالم إذا شئت على غيرما هو عليه، ونحن نعلم أن الكهنة المصريين كانت لهم في العصر الذي سبق وجود البحر المتوسط آراء صحيحة في كثير من العلوم التي لم يسلموها لغيرهم، والقليل الذي سلموه لعدد يسير جدا من الأجانب المحظوظين أثناء تدريبهم إياهم في هياكلهم التي كانت على نوع ما مدارس سرية ، و هذا القليل قد كفى لرفع فيثاغورس(50) الى المرتبة التي وصل إليها ، و لتلقين أفلاطون ما أفضى به الى البشرية التي لا تزال حتى يومنا هذا مأخوذة بسمو أفكاره.

ولم تكن معلومات الكهنة المصريين قاصرة على معرفة الأطلسية التي زالت من الوجود، وكانوا هم آخر من احتفظ بحضارتها الفائقة التي اشتقت منها حضارتهم بل

---

(47) راجع المصدر السابق م.ع 1993.

(48) تحدث الحميري عن كيف تم الإنفتاح حين كلامه عن آسفي ج 64/1 ولبلاية ج 191/2 مخطوط خزانتنا رقم 103 مادة اندلس 35/1. **ولو أن هذا الكتاب طبع لتعرف المؤرخون على بعض ما ضاع من تراث جمعه ابن عبد المنعم بطريقة لم تتوفر لغيره وأخيرا طبع بتحقيق إحسان عباس الذي يشكر على ذلك.**

(49) فيلسوف يوناني عاش حوالي 427 ـ347 ق. م راجع الموسوعة 181، والبستاني 41/4.

(50) فيثاغورس فيلسوف يوناني حوالي 582 ـ 507 ق.م وقد ولد في ماسو س م. ع 1342ط 1965، راجع كتاب **فنيقية** لبنت بطوطة ترجمة عن الفرنسية 5 ص 11 – 12 ط 1365/1/27هـ . ثم المصدر **الوارد** به عن اخبار البشر. وكذا كتاب الإنسان في القرآن الكريم لعباس محمود العقاد. ص 68 لكن ولز يقول غير هذا في كتاب معالم تاريخ الإنسان 178/1ط 1967 ومختصر دراسة التاريخ لتوينبي ج 57/1 ترجمة محمد شبل ط جامعة الدول العربية 1960. =

كانت لهم معرفة كذلك بحادثة زوال تلك الأطلسية زوالا تاما، وفي ظرف خاص، وهو فعل الماء وذلك كان نوعا من الطوفان الذي قيل إنه تعدد مرات ومرات كما ورد عند البيروني،ثم في قصة الطوفان لإسماعيل مظهر ط مصر 1929 المشار إليهما قبل إلخ..

إنه لمن المستصعب الحصول على تاريخ عام لأمم هذه القارة وأقسامها، ولابد في ذلك من الاستناد إلى تقاليد غامضة وقد ذكر أفلاطون لكاهن مصري من سايس تاريخ أرض كبيرة أتلنتيدية، ولد فيها نبتون أطلس، وغاديرون أوغادير، وهما توأمان وأولادا آخرين امتدت سلطتهم شيئا فشيئا الى قرب مصر، ثم حدث طوفان عظيم خربت به مملكتهم، وقد حاول بعضهم إحياء تاريخ تلك الأعصر المجهولة التي كانت فيها إسبانيا متصلة بإفريقية،وكان البحر المتوسط متصلا بالمحيط من طريق أخرى معروفة إلى الآن، وهي الى شمالي جنوب جبال البرانس في سباريت ومستنقعات غشقونية، وكان الأطلنتيك مغطيا حينئذ الصحراء، ومتصلا بالسواحل الجنوبية من جزيرة العرب، حيث سماه إسترابون وديودور 21 ق. م. اتلنتكوس بلاغوس، بيد أن هيرودوتس "484 ـ 425 ق.م."

= لقد ظهرت جماعة عرفت بـ «حركة «المركزية الإفريقية» AFRO - CENTRISME هي حركة تقول بالمركزية أو الوسطية ـ الإفريقية، أي أن إفريقيا هي قلب حضارة العالم.. وأصحابها يقولون أن السود هم أصحاب الحضارات الأوائل، وإن كل الحضارات الغربية قامت على هذه الحضارات، بعد أن نسبت إنجازات البشرية العظيمة الي الرجل الأبيض، وأهملت ذكر الرجل الأسود.

وتقول الحركة إن أمريكا بالذات هي أكبر خدعة، وأنها مارست أكبر عملية تزوير ومحو لإبداع وفكر الرجل الأسود، وكذلك فعلت أوربا!..

والواقع أنه بالرغم من أن الإهتمام بهذه الحركة يبدو الآن شديدا، فإنها ليست حركة جديدة، بل إنها قامت منذ سنوات عديدة، وصدرت عدة مؤلفات لتوضيح منطلقاتها وأهدافها.. ومن ضمن هذه المؤلفات :

ـ المحورية الإفريقية لـ «موليف أسانت» (1988).

ـ اثينا السوداء لـ «مارتين بيرنال»(وقد صدر في جزئين حتي الآن، ويكاد يكون أهم المراجع) (1987).

ـ القادة الأمريكيون لـ «ديان رافيتش» (1990).

ـ حضارة أم بربرية لـ «الشيخ أفتاديوب» السنغالي (1991)

ـ أمريكا غير المتجانسة لـ «آرثر سيليزنجر (1991)

وهذه الدراسات مطولة، ولكنها مثيرة وجديدة وشديدة الجاذبية، وأشرف على إنجازها أمريكيون سود يشغلون مناصب علمية عالية في مختلف الجامعات والمعاهد الأمريكية.

ولعل أهم ما جاء في هذه الدراسات هو رد اثنتين من أعظم الحضارات البشرية، هما الحضارة الفرعونية، والحضارة اليونانية، الى انجازات الرجل الأسود.=

والذي وصفه شيشرون ماركوس توليوس 106 ـ 43 ق.م" بأبي التاريخ أكد أنه نفس بحر إرثيريا. وفي ذلك العصر لا محالة دخلت الناس من إفريقيا الى إسبانيا فاستوطنوها، وسمع هيرود وتس في أيامه بأنهم يسمون كينيتة وعرف بطليموس 323 ق.م وتاقيطس بعد ذلك بأنهم من أرومة إفريقية، وكانوا لا يزالون يعرفون بالإسم المذكور في جوار سيرت الأصغر، وبعد أن بطل الإسم من كلا الجهتين ذكر أميانوس 330–400ق.م

= فالحضارة الأمريكية الحالية في رأي هؤلاء الباحثين، ليست حضارة انجلو ـ أمريكية، وإنما هي حضارة ـ افرو ـ أمريكية، أي أنها ليست نتاجا أوربيا (انجليزيا أو ألمانيا) بل هي حضارة إفريقية ونتاج للإبداع الإفريقي، بل إنها نتاج الحضارة الفرعونية التي قامت على ضفاف النيل، وهي حضارة سوداء، كما يقولون!.

وهنا ينبغي التوقف بالذات عند كتاب مارتين بيرنال الذي يتساءل بكل ثقة : هل كانت (كليو باترا) سوداء اللون؟.

فالمتفق عليه بين الدارسين والمؤرخين هو أن الحضارة الغربية بدأت في القارة الإفريقية على النيل، لدى الفراعنة، بل لم يجادل أحد في صحة قيام ممالك متقدمة وعظيمة في غرب إفريقيا، ولكنهم يتعمدون الفصل بين الفراعنة المصريين وباقي الشعوب الإفريقية.. لكن بيرنال يؤكد أنهم أفارقة، وأن الحضارة اليونانية في أثينا تم تشكيلها على يد المصريين القدماء، الذين كان معظمهم، كما يقول، ذوي بشرة داكنة اللون، إن لم تكن سوداء تماما!.

وبرغم هذه الحقيقة ـ يضيف بيرنال، فإن الدارسين الأوربيين قاموا في القرن التاسع عشر بفصل الحضارة الفرعونية والكنعانية عن الحضارة الغربية الأوربية لأنهم أنفوا أن تكون أصولهم سوداء.. والملحوظة التي ينبغي التنبيه إليها هنا، هي أن بيرنال، أسمر اللون، ويهودي، وكان والده قد أرسله ليبحث عن أصوله!.. ولذلك فهو يهتم بذكر أصول الكنعانيين.

ويتابع بيرنال في كتابه «أثينا السوداء» تأكيده بأن هناك نصا إفريقيا قديما يقول أن «المصريين هم الذين أوجدوا أثينا»، وأن هيرودوت كتب أن أسماء معظم آلهة اليونان اشتقت من أسماء آلهة الفراعنة، وأن التاريخ يقول إن المصريين والفنيقيين حكموا كل اليونان تقريبا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وإن المؤرخين اليونانيين أثبتوا أن الذين سنوا القوانين في اليونان تعلموا في مصر القديمة وعادوا بالأسس التي بنى عليها الغرب شكل سياسته! وأن مدينة «طيبة» اليونانية بنيت علي شكل «طيبة» المصرية (الأقصر)، وهو يؤكد أن الحضارة المصرية كانت حضارة سوداء»، وأن هوميروس، الشاعر اليوناني الكبير، وسقراط، وتوت عنخ آمون، وحتى كيلوباترا، ثم امنحوتب، كانوا جميعا من السود، وأن الحضارة الفرعونية بدأت من مشارف ما يسمى اليوم اثيوبيا، فهي علي الأقل في بداياتها، سوداء! وإن البحر الأسود سمي نسبة الى حاملي الحضارة السود الذين استوطنوا هناك.

ويستدرك بيرنال، بأن هذا لا يعني أن كل الحضارة المصرية سوداء، بل تعاقب عليها الآسيويون وشعوب البحر الأبيض المتوسط، وأن «نفرتيتي» كانت لها ملامح قوقازية (روسية)!.

أما «أسانت» مؤلف كتاب «المحورية الإفريقية» فيلخص هدف النظرية أو الحركة الجديدة بأنها ليست إلا «عملية إعادة الأفارقة الأمريكيين الي مكانهم الفعلي في الوجود الحضاري والفكري»، وكذلك وضع الأفارقة داخل الإطار التاريخي الأمريكي باعتبارهم فاعلين ومؤثرين. ويقول : إنه من الغرابة أن تعرف القوميات والأقليات الأثنية (العرقية في أوربا أصولها وهوياتها، أما نحن في أمريكا فلا نعرف عن أصولنا شيئا، لأن السود قلما شاركوا في صنع التقاليد التاريخية في أمريكا...

وكوريبوس قوما يقال لهم كنتاقريون ساكنين في بلاد تابعة الآن للجزائر، وقوما يقال لهم «استورة» كانوا في نواحي طرابلس الغرب، وقد كان في إسبانيا أيضا قوم يسمون "قنطبرية"، وآخرون يسمون استورية، وذلك قرب نهر ماجردا، وهو الذي ينبع من جبال سوق هراس بالجزائر، و يصب في خليج تونس بالبحر المتوسط طوله 415 كم من روافده ملاق وتاسة، وسليمانة وباجه(51).

بل في هذه المنطقة من أرض المغرب الكبير ما بين الجبل الأخضر وطنجة، نجد من الآثار ما يقدر زمنها بأكثر من عشرة آلاف سنة تقريبا، تلك هي رسوم الإنسان الصياد التي رسمها في الكهوف المتناثرة هنا وهناك، كصور الفيل والحيوانات الأخرى التي كانت متواجدة بالمغرب في تلك العهود السحيقة، كما صور الإنسان أيضا وعلى جدران الكهوف التي كان يسكنها، ما كان يستعمله من الأدوات وصور الكلاب التي أخذ يستأنسها ولأول مرة الى جانب الثيران التي أخذ يستعملها هي الأخرى في ما يتعلق بشؤون حياته اليومية، كالحرث وحمل الأثقال بجر العربة التي استعملها بعد ما اخترعها في هذا الزمان المبكر، والتي ما جرها الحصان بالمغرب إلا في القرن الثالث قبل الميلاد مع أنه جرها في آسيا منذ 8000 ق.م، وهكذا لو أن العلماء خصصوا لما بين غرب مصر وطنجة من الدراسات ما يكفي، مركزين على عصر التاريخ الذي سجل مقدماته التوراة كما سنرى، لاكتشفوا فيها ما يستدل به على أن هذه المنطقة عرفت من حضارة الإنسان القديم الكثير والكثير جدا .هذا ولا يمنعنا مانع من افتراض أن الأطلسية قبل زوالها

= وفي كولومبيا ظهرت حركة تسمى بالسواحيلية «نوواموبا» تعني «كلنا واحد»، وهي حركة تهدف الي إستبعاد الأروبيين وأجيالهم البيضاء من صنع مجد العالم وحضاراته الحديثة، وأن يكون «للسود» هويتهم الحضارية الخاصة، بعد أن عاشوا«ضيوفا» على المصطحات الفكرية الأوربية لمدة 500 عام، بوصولهم «عبيدا» الى أمريكا، ويدللون على ذلك بأن عددا كبيرا من عظماء العالم كانوا سود، وأن «بيتهوفن» كان له جدود من قبائل «المورو» (الذين كانوا يعيشون في المغرب وإسبانيا)! وأنه لا يمكن أن يتحقق أي هدف للحركة إلا إذا استعان أي قوم أو شعب بمقدراته الفعلية.

هناك من ينتقد أصحاب هذه الحركة بأنهم يمارسون «العنصرية الفكرية والثقافية».. ج الإتحاد الإشتراكي 1991/10/4 عدد 2979 ص 8.

(51) راجع البستاني 4/44-45.

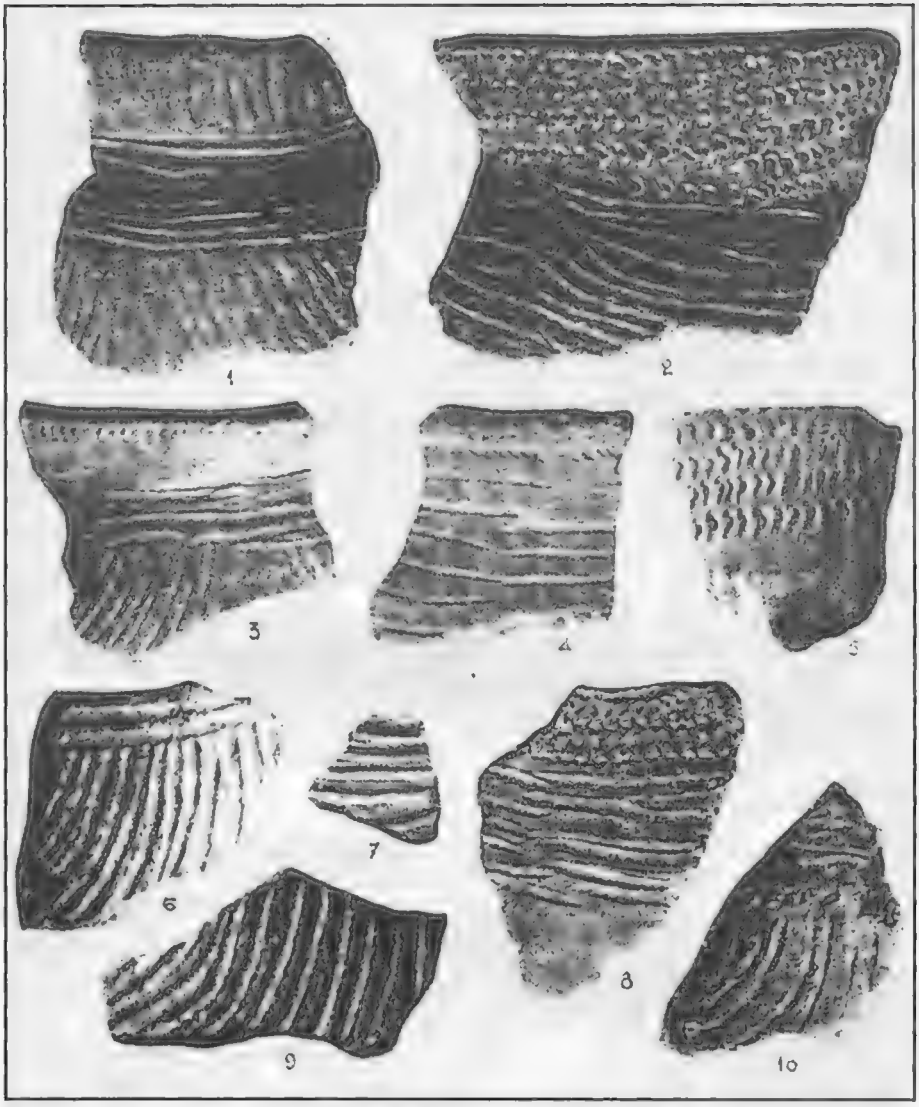

خزف للزينة أشكاله تتميز بقدر الاضلاع (مضلعات) (شكل رقم 1) يتميز بمداخيل واسعة + أخاديد عمودية + نقش على شكل قصب (الشكل رقم 2) الأشكال من (3 إلى 10) أدوات مختلفة للزينة.

بأزمان سحيقة تكون قد غصت بسكانها فهجرها السكان الزائدون شيئا فشيئا الى المقاطعات القريبة منهاأوالبعيدة عنها زرافات قدرها تيوبومب(52) المشار إليه قبل بعشرة ملايين من مجموع أربعة وستين الوارد ذكرهم في المخطوط المقدس الذي وجد في يوكاتا، وكانت أمريكا الوسطى و المكسيك و البيرو هي البلدان التي يسهل دخولها بلا مراء، لأن قارتي إفريقيا وأمريكا كانتا متلاصقتين إحداهما بالأخرى، يؤكد ذلك على الأقل ما عثر عليه في أحافير يوكاتا من مباني أثرية ومخطوطات هيروغليفية ومومياات مشابهة لما عثر عليه في مصر(53)، ولا بد أن تكون هناك جماعات أخرى من المهاجرين توغلت في شبه الجزيرة العربية، وربما كانت من بقايا سلالاتها الصابئة والحميريون في القرنين 12–11ق م. وهناك مهاجرون استطاعوا التسرب عن طريق شبه الجزيرة المذكورة الى السهول قبل ظهور نهري دجلة والفرات أو بعده، حيث تكون من بقايا هذه الغزوات السلمية ذلك الشعب الكلداني القوي على ما هو مرجح(54).

لعل مثل هذه الحقائق التي تعتبر بالنسبة لتاريخ المغاربة غير مهضومة ما دامت لم تعزز بواسطة ما جد من المعارف في مجال البحث التاريخي بالحفريات والبحث عن الوثائق المتمثلة فيما كتب ونحت على الحجر، ولكن ما يقرب ذلك من أفهامنا هو ما اكتشفه هنري لوط في كتابه حضارة الصحراء(55)" وعن الإنسان المتحجر في الرباط المشار إليه قبل، وما اكتشفه العالم مارسي 1934، وبيبرسون 1955 الذي اكتشف مجموعة فكوك سفلية بمحجر سيدي عبد الرحمان قرب الدار البيضاء، وكذا ما إكتشفه روش وأن

---

(52) تيوبومب فيلسوف ومؤرخ يوناني ولد في جزيرة كينوس ساكس في القرن 4 ق.م.

(53) راجع كتاب أوليات العالم العظمى، تأليف شوريه. وكتاب فينيقية المذكور، ص :5، والموسوعة العربية ص:1993 ـ 1051 مصدر سابق

(54) فينيقية ص6، واللسان العربي ج 1 من المجلد 10 ص : 151ط بتاريخ 1973/1/10م.

(55) طبع الكتاب 1956، وقد أورد الأستاذ محمد العربي الخطابي دراسة حوله في دعوة الحق هناك رأي لبعضهم أن الساميين هاجروا قديما جدا من إفريقية الى بلاد العرب حيث جاوروا الحاميين، ويظهر أنهم جاؤا دفعات متوالية واستوطنوا الأراضي المجاورة للصحراء العربية السورية فجاء أولا البابليون والأشوريون ثم الكنعانيون فالعبرانيون فالعرب والكلدانيون، وفي أثناء ذلك دخل الحبشة شعب سامي من بلاد العرب الجنوبية، والذي أورد هذا من غير أن يدلي لنا بالمصدر الذي استقى منه هو فليب فان نس مير الأمريكي صاحب كتاب التاريخ العام ص7 هامش 4 ط 1912.

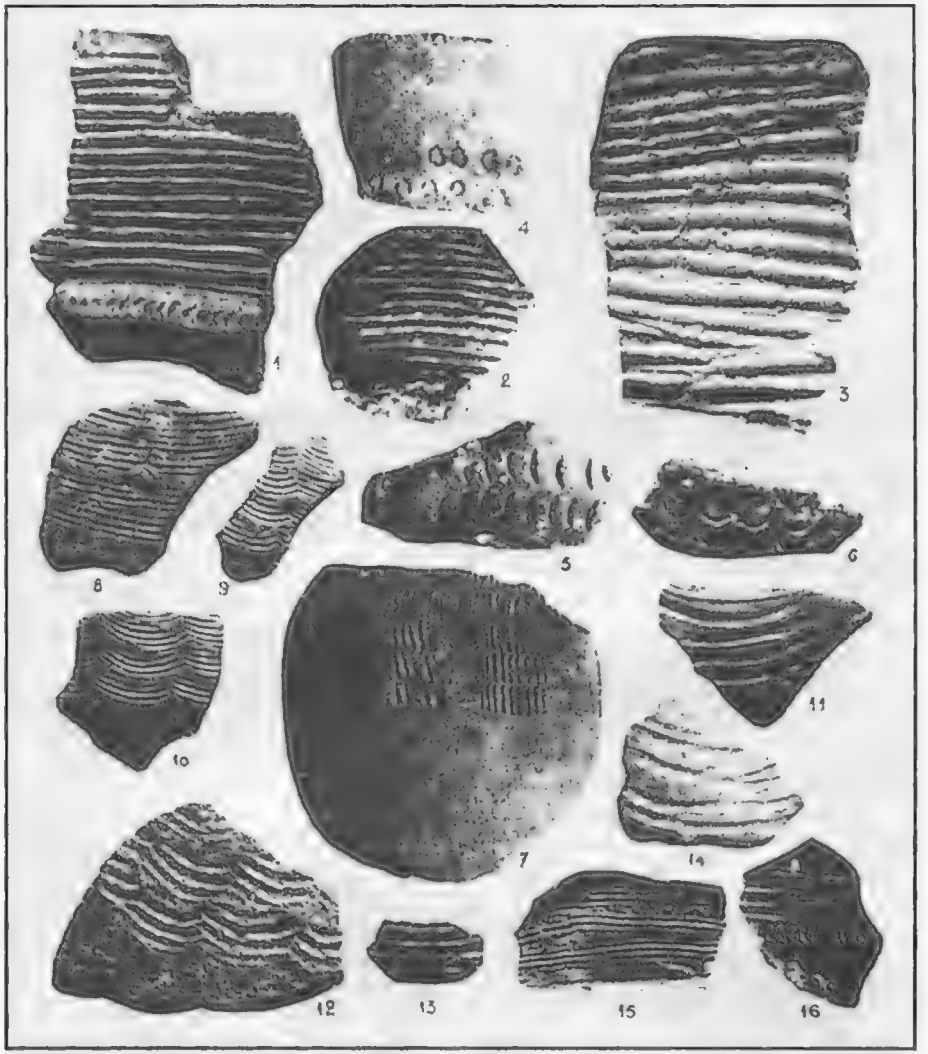

- خزف للزينة
- مداخيل هذه الأدوات أو أعناقها مستقيمة
- نفس مضلع أفقي

الأشكال (من 4 إلى 7) النقش فيها على شكل كتل لحمية الأشكال من 8 إلى 12 على شكل صدف.الأشكال (من 13 إلى) 16 نقش متنوع.

ما وجد بدار السلطان قرب الرباط يرجع تاريخه الى ثمان وعشرين ألف سنة حسب تحاليل كلارك(56) و كذا ما ورد في المدخل الى الجيولوجيا الصادر عن وزارة الطاقة والمعادن بالمغرب(57)و بالجملة نعود فنؤكد ما سبق بطريقة أخرى ، إذ مهما يكن فإن معلوماتنا عن هذه الحقبة من التاريخ هي معلوماتنا عن الكون وما خلق الله من بشريات قبل بشريتنا وإن كان الهنود يقدرون في كتبهم أن الكون خلق منذ 2000.000.000 بليون سنة(58) وإذا كان الإنسان المعاصر قد اكتشف "كاربون 14 "كوسيلة من وسائل التحليل وتحديد الزمن بالنسبة للنبات في حدود 40.000 سنة وإذا هو نزل بالزهرة وعرف المريخ بعد صعوده الى القمر، فإنه ليس في استطاعته بعد أن يجد الحلول لكثير من العقد التاريخية التي حاول قبل حلها، لكن دون أن يتوصل الى ما يقنع ويسلم له العقل.

إن تاريخ المغرب قبل التاريخ تعرض لكثير من الاستنتاجات التي مصدرها العلماء الغربيون الذين لم يكن علمهم أقل ضررا على الفكر المغربي من الجهل في نظرنا، ما دام المغاربة أنفسهم قد اعتمدوهم ولم يتمكنوا من المعارف الكفيلة بدفعهم الى مجال البحث والتنقيب بنفس الطرق والوسائل العلمية التي يعمل بها علماء الغرب، خصوصا وأن العلوم على مختلف ألوانها أصبحت قاسما مشتركا بين الناس، وفي ميدان التاريخ لا يجمل بنا الإنتظار والتطلع الى الآخرين ليقولوا لنا من نحن؟ وكيف كنا؟؟ وقد حصل هذا مع كثير الأسف، حتى إن بعضنا ليذهب بعيدا حين يريد الكلام حول تاريخ المغرب القريب، فلا يعرف إلا ما كتبه الغربيون الذين يشكر الصادقون منهم على عنايتهم بتراثنا وتاريخ بلادنا، في حين أنهم لم يتعرفوا على هذا التاريخ بالقدر الذي يمكنهم من خباياه مادام أبناؤه أنفسهم لم يتعرفوا عليه.فمخطوطاتنا التي اكتشفت، والتي لم تكتشف بعد،

---

(56) راجع ما كتب عن إميل إينوش دعوة الحق س 9ع2 ص 88 بتاريخ 65/12.

(57) عدد رقم 41 ص : 6، بتاريخ أبريل 1977.

(58) ورد هذا في كتيب البشائر لأبي الكمال القاضي عبد الصمد حازم السهواري الهندي وعلق عليه الطنطاوي الجوهري بتقدير للكاتب ص،7 ط : مطبعة حجازي بالقاهرة بدون تاريخ، ثم راجع ما أورده هـ .ج ولز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية ج 11/1 اط 1967 نقلا عن المسترو .ب.رايت حول حوض الأبيض المتوسط، وأنه كان يحتوي على بحيرتين.. إلخ وتشم في معلوماته رائحة بهارات أرسطو وما قيل عنه حول الأطلسية لكنه اتجه شرقا، راجع ص : 178 نفس المصدر.

لم يتعرف عليها الغربيون كما لم يتعرف عليها بعد حتى الذين هم أحق بالاعتزاز بها(59).

لقد رأينا وبكثرة من قال إن سكان المغرب الأولين هم البربر، وأصبح هذا القول ثابتا عند كثير ممن كتبوا حول تاريخ المغرب من المعاصرين، ومن الأوروبيين من قال : إن أصل البربر من أوربا قدموا قبل انفصال الأبيض المتوسط عن المحيط الأطلسي، بل أخذ يزيد الطبخ بهارات بمقارنته بعض سكان الريف والأوراس المحدثين مع الأوربيين في الخلقة وبياض البشرة وشعر الرأس وزرقة العينين، وآخرمعاكس ينسبهم الى العرب ويتمادى في سرد ما قصد به الاستهلاك في فترة من الفترات، كعهود دويلات البربر في الأندلس، أو عهد دولة المرابطين والموحدين في المغرب الخ.

بل عمران مغربنا وحواضر المدن، انتظرنا الى أن يقول الغربيون فيهما ما أصبح رغم عدم صحة الكثير منه، هو الرأي الذي تعرف عليه بعض المغاربة، أما الانساب التي أصبح يخوض فيها من لا نسب لهم في هذا الوطن، فقد تعرضت هي الأخرى للتمزيق والتشويه(60)، ولعل هذا الخلط والتشويه لتاريخ المغرب مرده الى ما حصل في هذا المجال

---

(59) راجع تاريخ إفريقيا الشمالية للكاتب الفرنسي المتطفل «أندري جوليان»، ترجمةم مزالي وسلامة فحول ضبط تسمية بلادنا التي أطلق عليها من عند ياته مع التفضيل إسم «بلاد البربر» إذ سكانها في زعمه يكاد يكونون جميعهم من البربر دون سواهم، راجع ص: 12 1978 دون أي تعليق من المترجمين المتطفلين كذلك وقد كان هذا منه طبعا في عهد الاستعمار، وأوضح ما كان يهدف إليه وقتها وحتى عهدنا من محاولات للتفرقة تبناها بعض حكام المغرب من بقايا تلك العهود..

(60) ولقد تنبه كثير من الكتاب المغاربة الى هذه الظاهرة ثم أخذوا يتناولون في أبحاثهم ودراساتهم الجامعية، الجوانب المثيرة في تاريخ المغرب، كما أخذ بعضهم يخرج من الكتب النادرة بعد تصحيحها مايشكر عليه، وهذا عمل سيصحح أخطاء المستشرقين بلا شك، ويفضح الخونة المتلبسين الذين لا يعنيهم من تاريخ هذا الوطن غيرما يحققه من النفع المادي مثل الجاسوس الإستعماري التلمساني المشهور مورخ المملكة عبد الوهاب بن منصور، الذي شوه التاريخ وافترى من غير أن يحترم الأمانة بحيث اتخذ ما أعطي له من وسائل للإنتقام من بعض رجالات المغرب والجزائر في أعلامه حتى أصبح بعض الإخوة من الجزائريين وقد جر بعضهم الى نفس الوسيلة، يسلكون نفس النهج بعنف عنيف وشدة قاسية يتطاولون على مقدساتنا بلا وعي ولاروية، متناسين أننا جميعا رغم ما يظهر من خلاف اختلقه المسؤولون منهم يجمعنا الماضي والحاضر والمستقبل، ونحن في الخير والشر إخوان. وإن ميثاق هذه الاخوة وضعه السابقون على أسس صادقة حسب قواعد الإسلام الذي هو حبل الله القوي الجامع بيننا قبل كل شيء وأن ما يصدر عن الجاسوس المشهور عبد الوهاب منصور لا تجهل دوافعه حين تعرض لقتل من المجاهدين الجزائريين ثم هرب هو في تجاه وأسرته في تجاه ساهم فيه وليس لوجه الله الشاهدى بودخيل ولد الحاج مصطفى الذي أصبح بعد يشغل منصبا سياسيا بسوكرمن أرض الجزائر بعد الإستقلال الخ..

منذ أقدم العصور، فقد تداول حكم المغرب الكبير في الماضي البعيد، وكما يعرف الجميع كل من القرطاجيين، والرومان والوندال ثم القوط البيزنطيين، ولا أحد من هؤلاء استطاع أن يطبع المغاربة القدامى أو البربر بطابعه رغم طول الزمان الذي مضى على حكم تلك الدول لأقطار المغرب الذين أطلقوا عليهم تارة النوميديين، وأخرى اللوبيين وغيرها الإفريقيين أو المغاربة أو الجيتول، وكل ذلك بسبب جهلهم لأصول المغاربة وعناصر تكوينهم، وقد تبعهم اللاحقون في جهلهم ذاك،لأن المستجدين بنوا دراساتهم للمغاربة على ما وجد في الميدان من المظاهر التي أصبحت ميدانا للدراسات فيما يرجع لمعرفة أجناس البشر، وتلك هي أنواع البشرة وألوانها، والشعر الأشقر أو الأسود، والعيون الزرق أو السود أو العسلية، بل مثل هذه الملاحظة عرفها التاريخ للجغرافي القديم سيلاكس حول تونس التي أشار إلى ما فيها من العنصر الأشقر الشعر في رحلته التي يرجع تاريخها الى قرنين قبل الميلاد، والتي وضعها بعد رحلته حول الأبيض المتوسط، وبسبب ما ورد عند السابقين واللاحقين مما أشرنا إليه إخترنا في البحث عن أصول المغاربة نهج طريق لم يسبق إليه من المعاصرين فيما نعلم علنا نصادف الصواب ونكون قد حققنا الدخول في بداية طريق يبقى على غيرنا العمل على إكمال شقه وتعبيده.

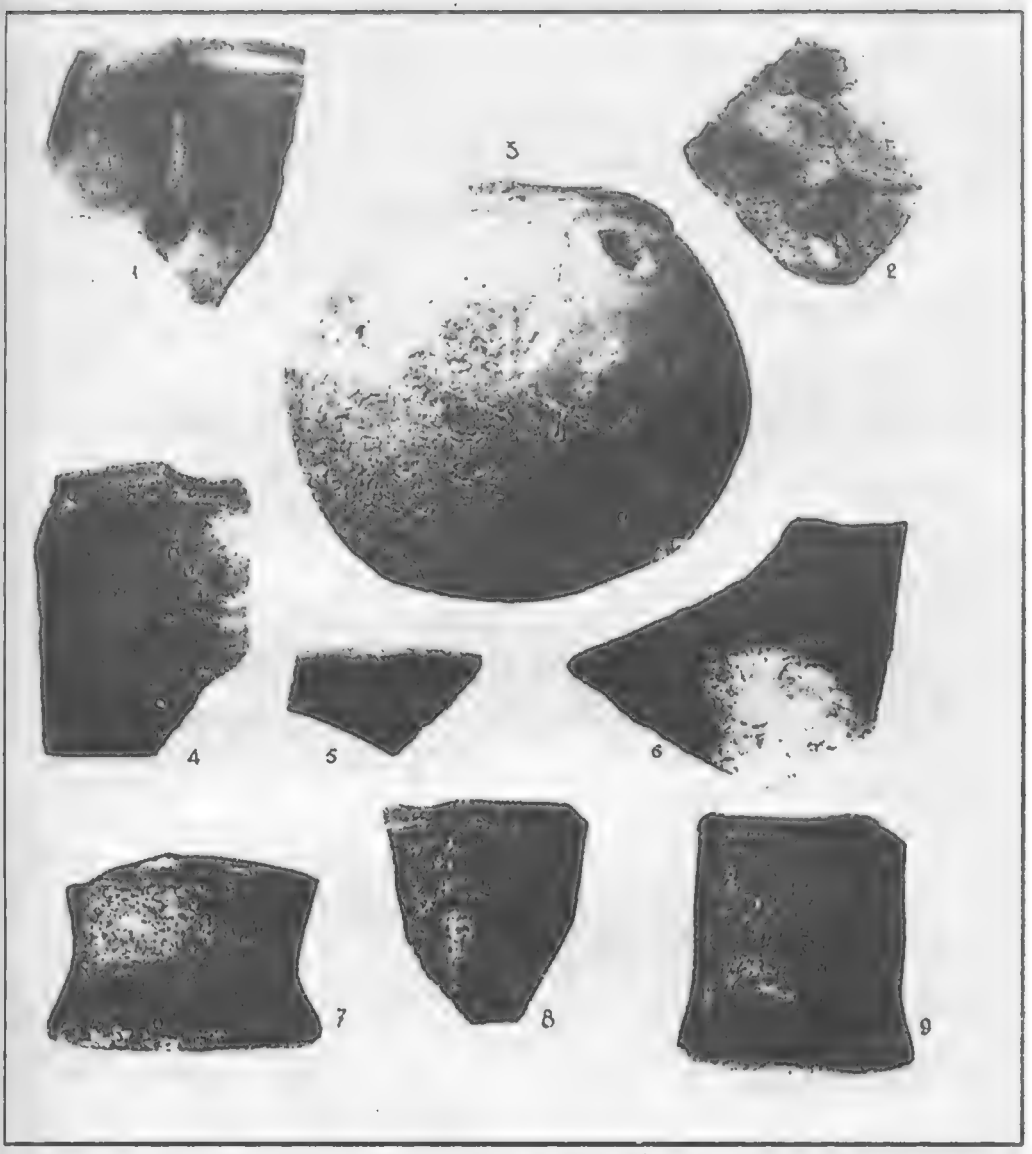

أشكال لأوعية (وعاء) مصنوعة من الطين الأحمر أشكالها إما دائرية أو قريبة من الشكل الدائري استعمالاتها في الحياة اليومية المنزلية + الطقوس الدينية

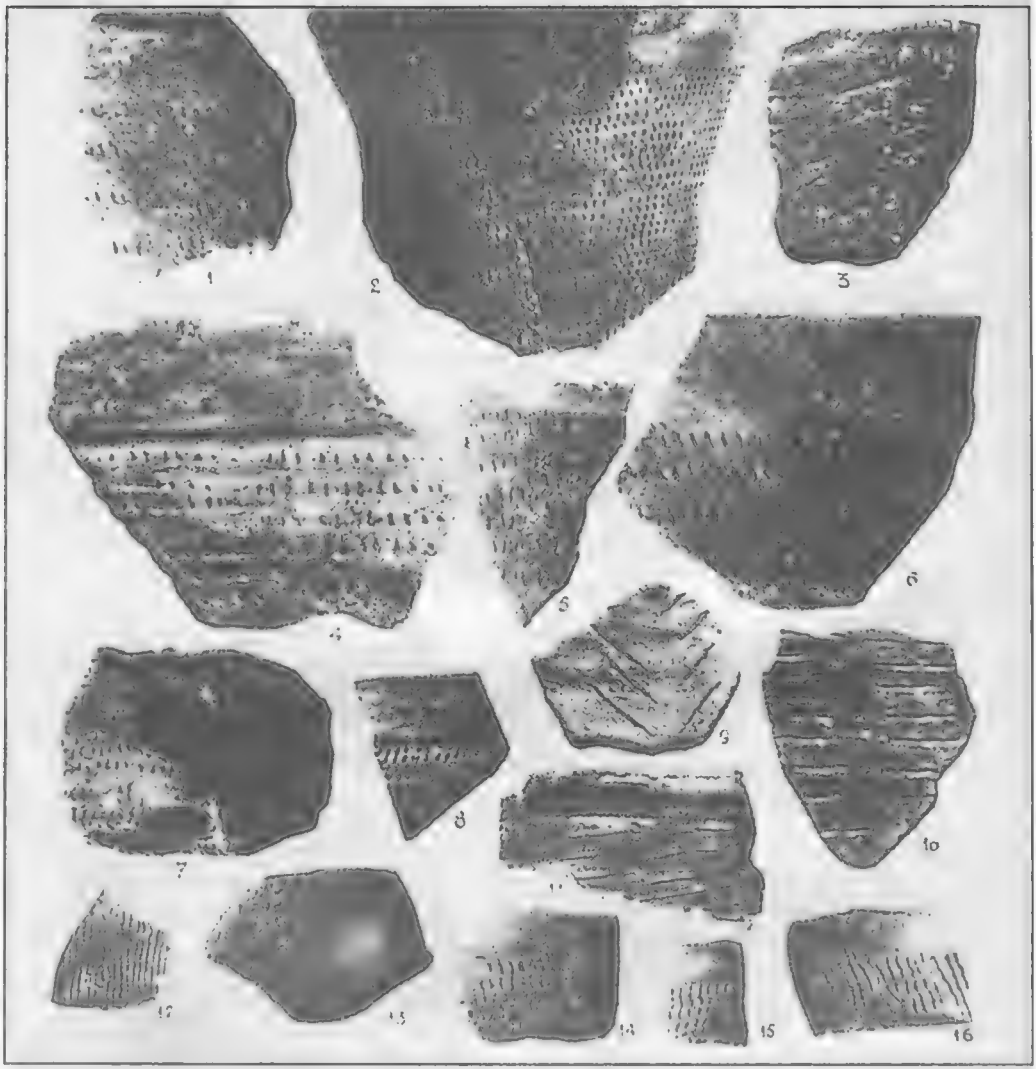

أواني فخارية عبارة عن مواد مصنوعة من الطين الأحمر المنقوش والمحزز.
الأشكال (من 1 إلى 6) نقش مخلب.
الشكل 7 : مقبض حلبي وأدوات للزينة
الشكل 8: حافة لآنية فخارية
الشكل من 9 إلى 11 : أدوات تزيين محزوزة
الشكل 12 و16: أدوات للزينة على شكل مشط
الشكل 13 إلى 15: أطراف من أواني منقوشة.

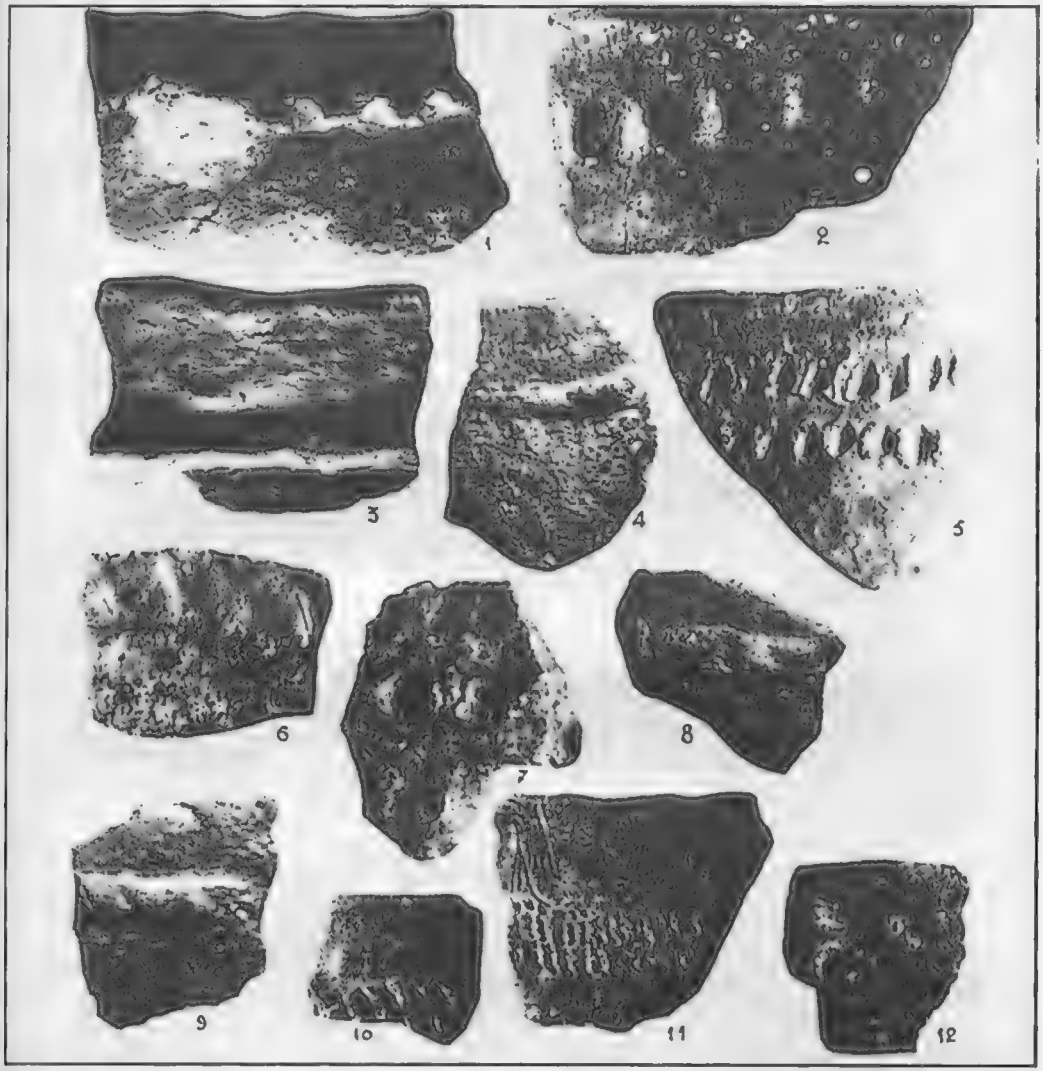

* أواني خزفية للزينة على شكل أصبعي digital رقم1: ثدي للإمساك نقشه أصبعي
2 و5 جوانب لمزهريات تتضمن نقشا على شكل أضافر
6 نقش على وجه مزهرية
12.9.8.7 قطع ذات نقش أصبعي
11: نقش على هيأة مشط1

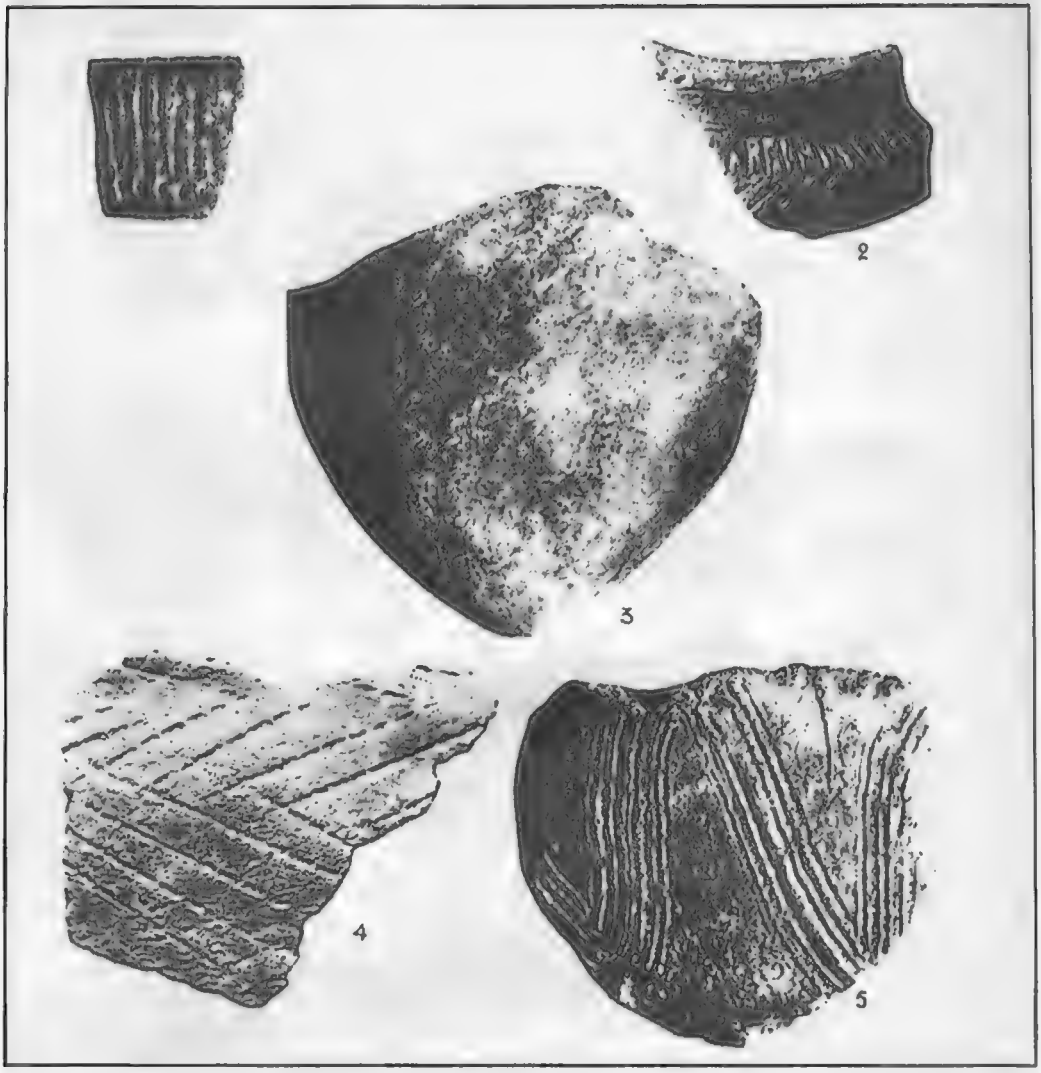

أواني خزفية متنوعة:

1- كسرة خزف منقوشة مطلية بتراب صلصالي يستعمل في العادة للتخصيب له لون أحمر

2- آنية للزينة فيها حز ونقش متوازي

3- مزهرية عريضة القاع هي شكل مخروط

5- آنية للزينة على شكل مشط

مجموعة من القطّاعات (البلاطات)

نحتت على الحجارة وهي حادة ومعقوفة المقطع بحيث تشبه خطم القاقم (حيوان من الفصيلة السمورية وجدت في المغارات الثلاثة كما يلي:

1 : المغارة A

2: المغارة C

3-4-5 : المغارة B

6 : المغارة B

7 و 8 : المغارة C

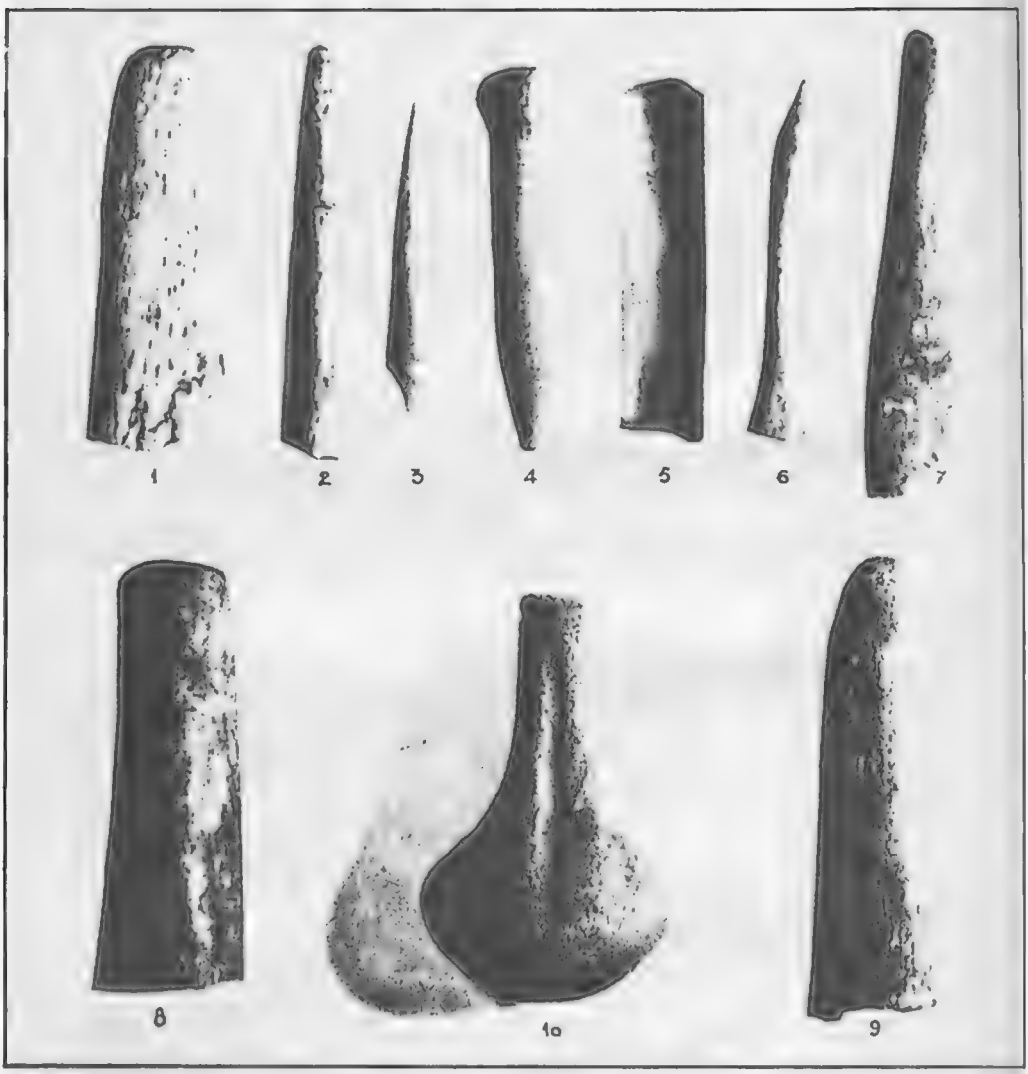

صناعة العظام (أطوال طبيعية)
الأدوات عبارة عن
+ آلات لصقل الأقمشة والورق (مصقال)
+ آلات للنقش والخرازة (محزز)
+ مثاقب
+ آلات لصك النقود

صورة لمغارة في وهران (لها عدة أضلاع)
عثر فيها على أدوات صناعية قديمة تذكر بما وجد في المغارات الثلاثة C.B.A

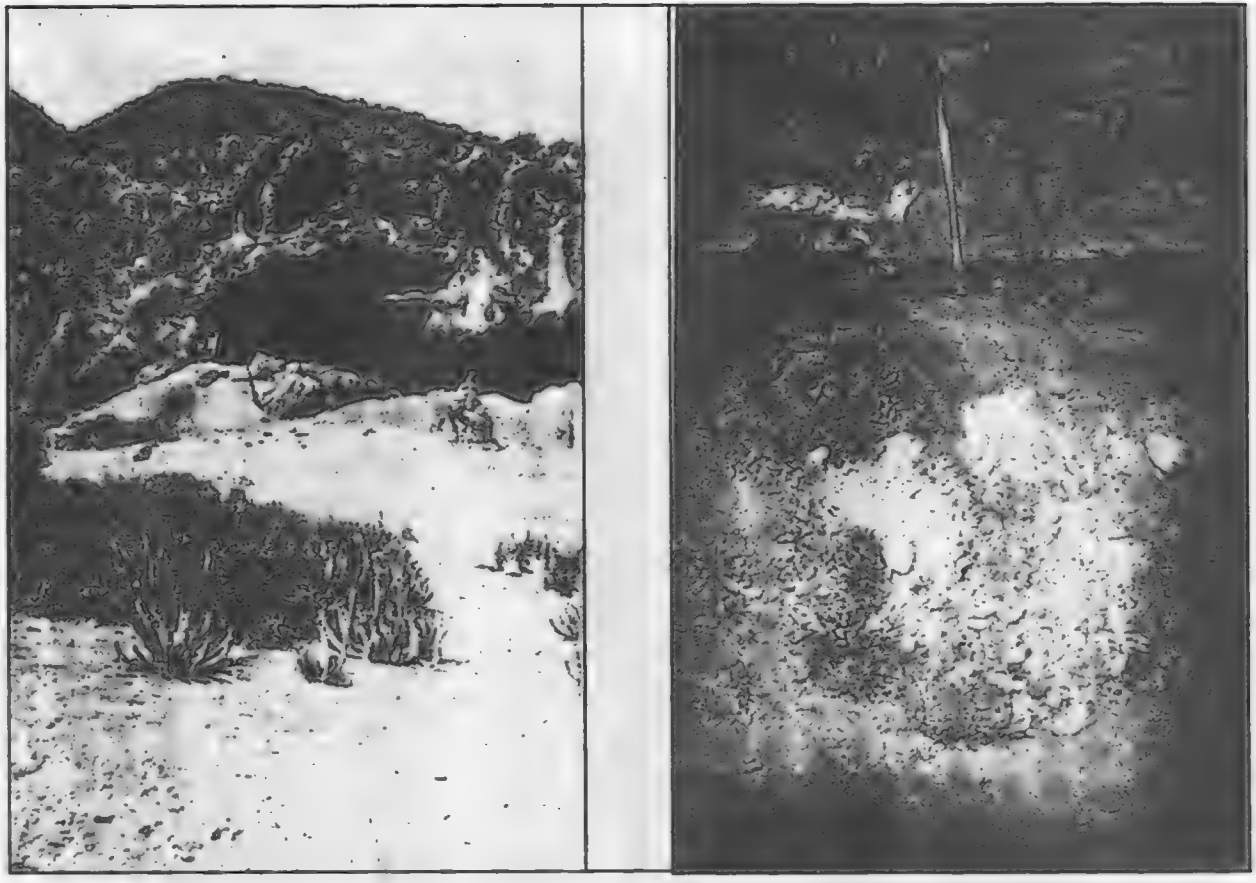

رأس غير (كبير)

1- مدخل المغارة التي عرفت تنقيبا في سنة 1952

2- الجزء الأعلى من الطبقات يتكون من بقايا صدف بحرية "MOULE" سمكها من 1 إلى 2 و1 متر

طبقات صخرية علوية مكونة من تكوينات عضوية من أصل نباتي من العصر الغربي
في الزمن الجيولوجي الرابع

مغارة الجنوب في وهران
– أدوات لتزيين النساء (حلي)
عبارة عن صدف مثقوبة
– جواهر تتدلى من الأقراط (موجودة الآن في متحف الباردو)

مغارة الجنوب في وهران
- أدوات لتزيين النساء (حلي)
عبارة عن صدف مثقوبة
- جواهر تتدلى من الأقراط (موجودة الآن في متحف الباردو)

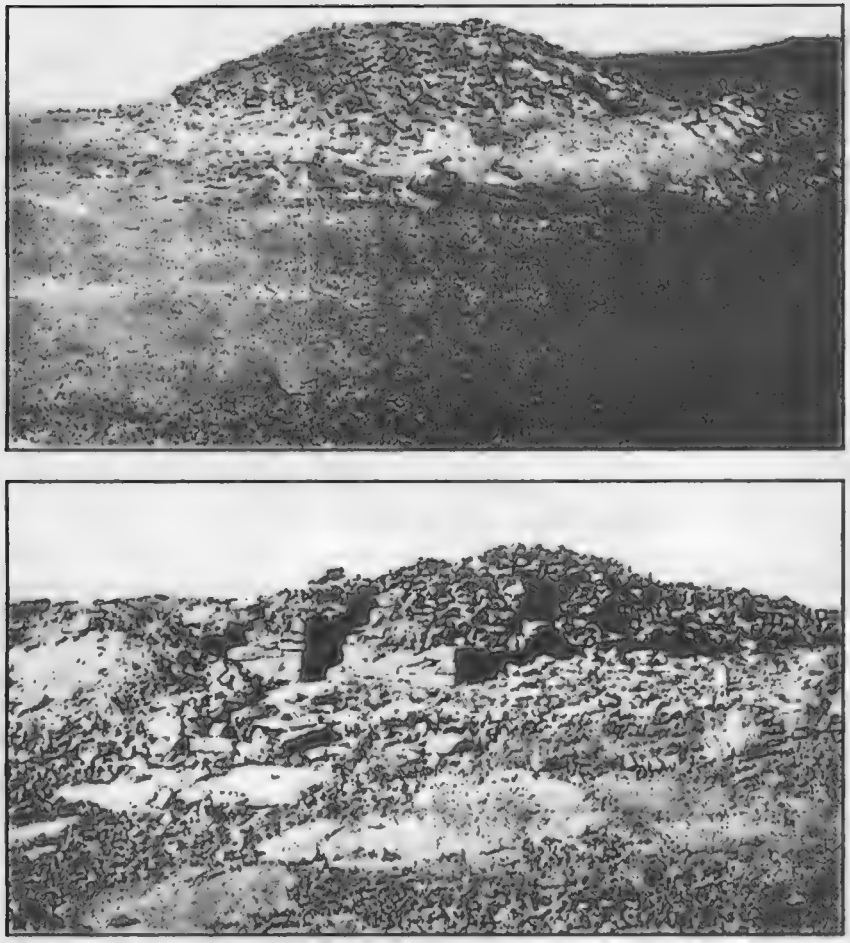

المقابر القديمة المعروفة بـ "تيموليس" بتافيلالت في الصفحات 75-76-77 من كتاب الجيولوجيا المغربية وفي الصفحة 78 ما وجد من حلي كان يدفن مع صاحبه وهي كثيرة ومنتشرة عبر الجنوب.

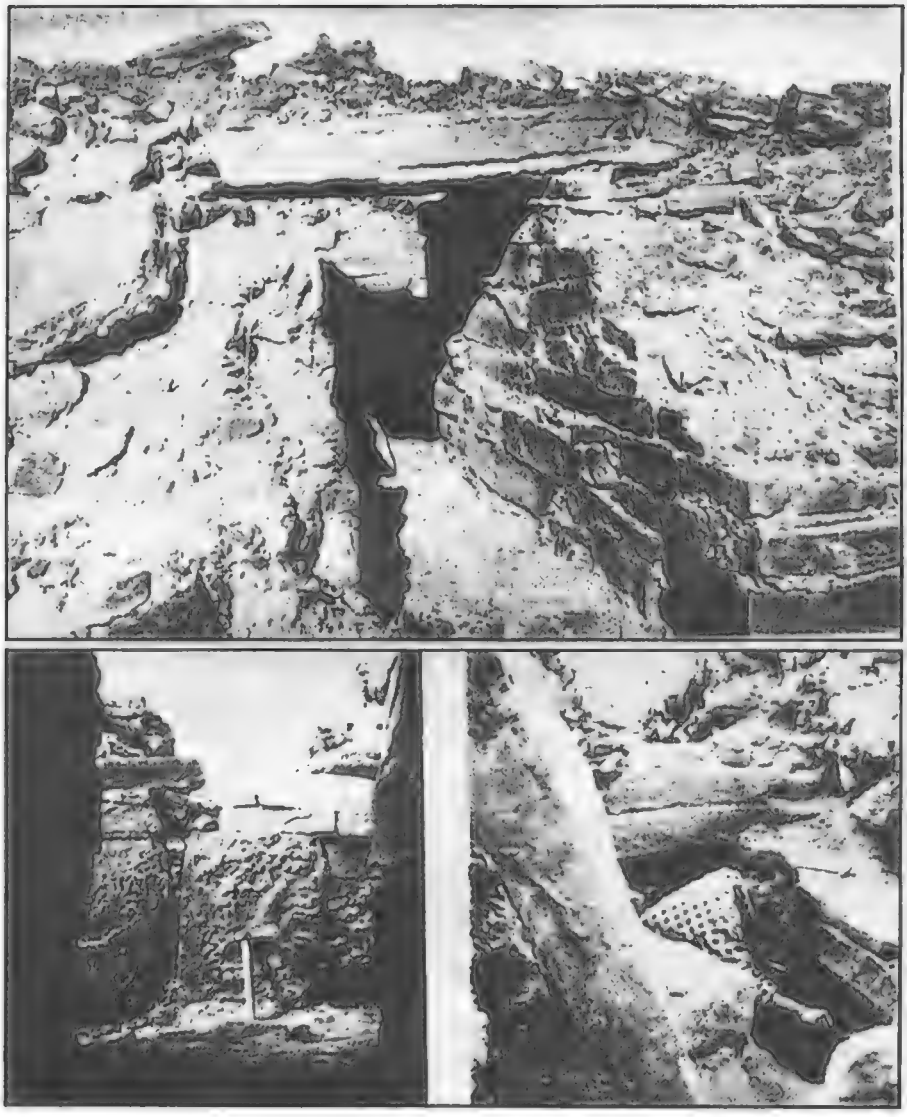

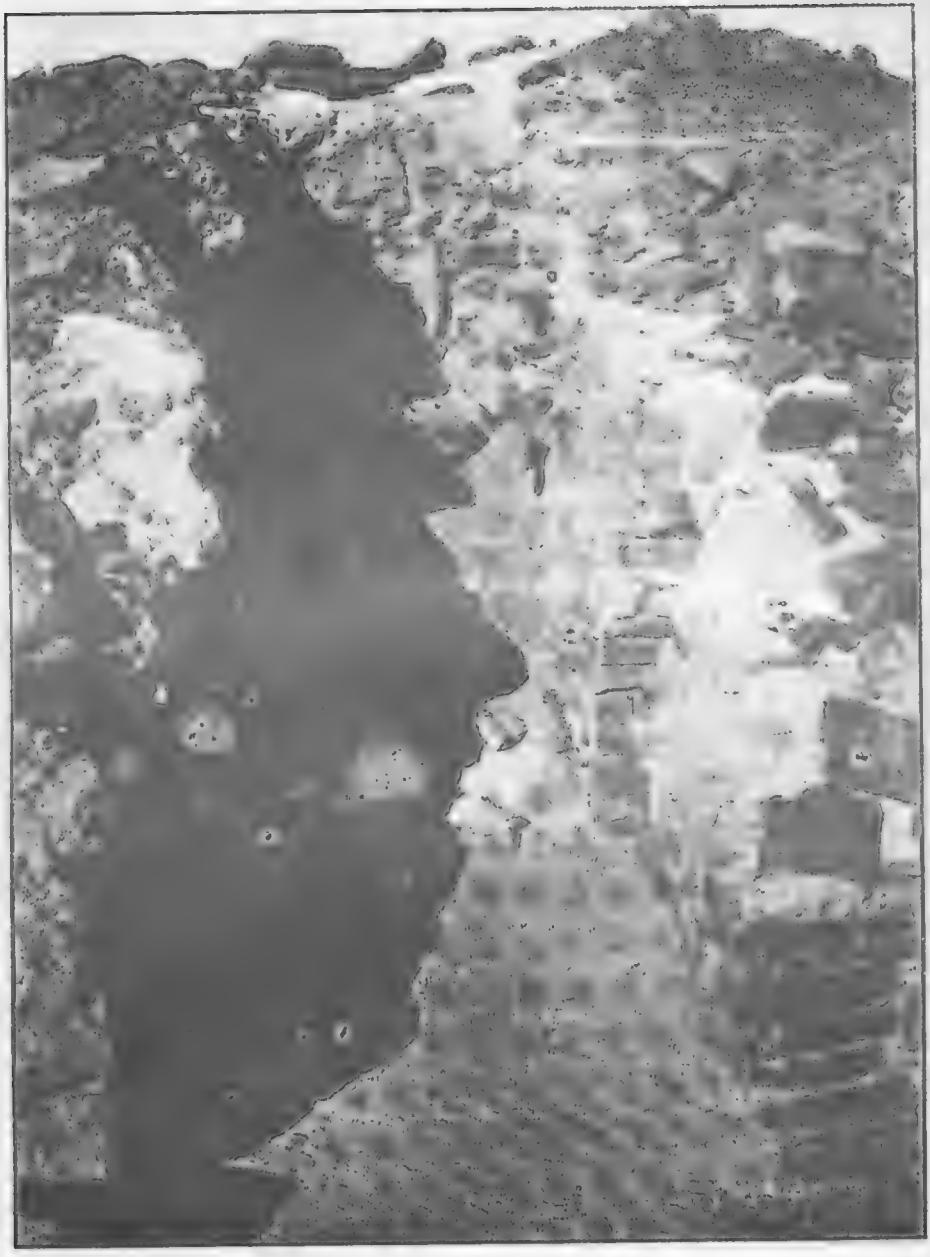

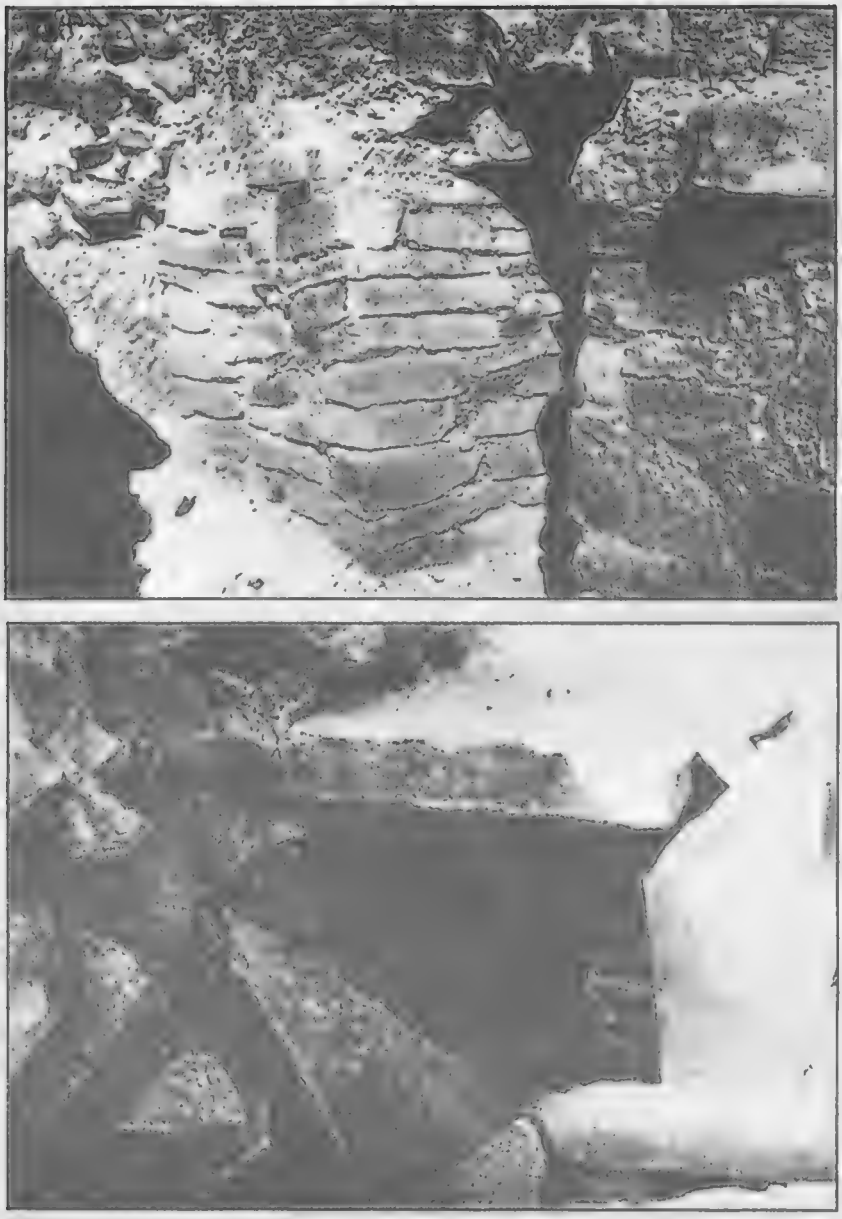

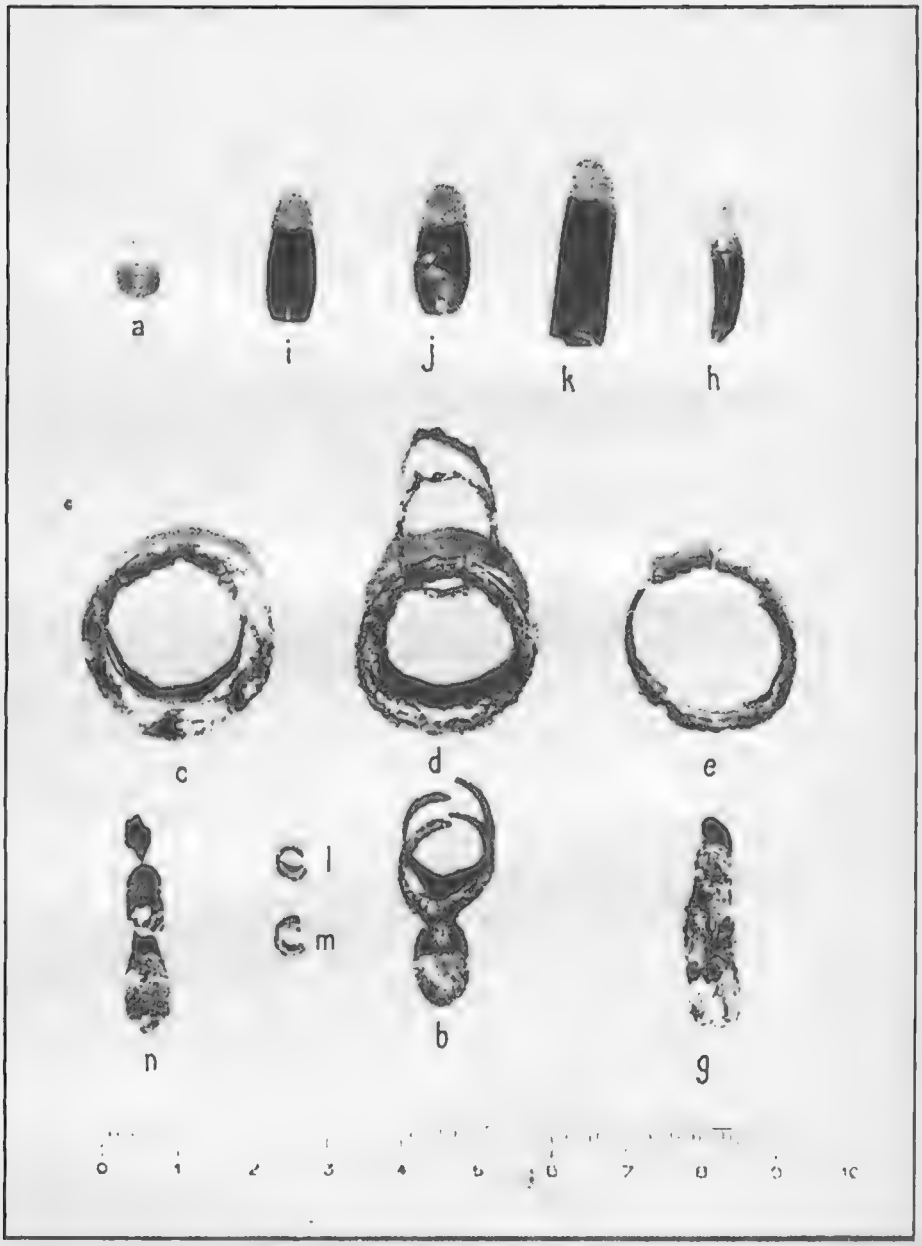
a
i
j
k
h
c
d
e
l
m
n
b
g
0
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10

الباب الثاني
المغرب الأقصى أرض وبشر

الفصل السادس

المغرب الأقصى : أرض وحدود

يقع المغرب الأقصى(61) في الشمال الغربي للقارة بين خطي عرض16 درجة غربا، وتبلغ مساحته بعد استرجاع الصحراء المغربية من يد الأسبان سنة 1395هـ 1975م حوالي516، 802 ك م ويحد شمالا بالأبيض المتوسط حتى بوغاز جبل طارق(62) وطنجة، وغربا المحيط الأطلسي(63) وشرقا وادي كيس والمكان المعروف "زبوجت مولاي إسماعيل" قرب الأصنام(64) وجنوبا الصحراء الكبرى، ويمتد شاطئيه على الأبيض المتوسط والمحيط نحو الثلاثة آلاف واتصاله بالصحراء كاتصاله بأوربا أقرب وأسهل، مثل إتصاله بإفريقية في الوسط والغرب، ثم بآسيا كذلك، فموقع المغرب الأقصى يمتاز عن بقية أقطار المغرب الكبير وهو يتكون جغرافيا من سهول وجبال وتضاريس وأنهار تتخلل جبال الأطلس الكبير، الممتدة من أقصاه غربا إلى الحدود المصرية شرقا، ثم الأطلسين المتوسط والصغير، والهضاب الشرقية والغربية ثم الصحراوية، وبين الجبال والهضاب

---

(61) يطلق المشارقة إسم المغرب على ما جاور مصر غربا وهو إطلاق ياقوت الحموي وابن عذاري المراكشي، بل وابن خلدون في المقدمة 90 ـ 91 وكل المؤرخين القدامى.

(62) راجع معجم البلدان، 1/63 ـ 324 ـ 325 - 94ـ 583، والبيان لابن عذاري 6/1. والجغرافية السياسية للدكتور رفلة 453ط 1966. ثم الروض المعطار للحميري م خ نا رقم 103 مادة طنجة.

(63) راجع الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني ص : 66 ط 1967، ثم وثائق تاريخية وجغرافية عن إفريقيا الشرقية ت م جيان ترجمة يوسف كمال، ط 1927 ص: 151 ودائرة المعارف الإسلامية 207/9 مادة (درن)، والموسوعة العربية 171، وموسوعة وجدى مادة مرا 647/8، ووصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان ج ترجمة د محمد حجي ود محمد الأخضر ط 5/2 370 .(64

(64) وهي الحدود المتفق عليها مع الأتراك ثم الفرنسيين، راجع الإتفاق والخريطة في الإتحاق لابن زيدان 169/5، وهو الإتفاق الذي تم في 4 ربيع الأول 1261 هـ 845/5/8م، ولقد كانت حدود المغرب قبل جنوبا الى نهر السنغال من سان لوي الى تمبكتو وكاو جنوبا، ثم أصبحت بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، وبعد اتفاقية 1260هـ / 1844م أصبحت الحدود كما هي حسب الإتفاقية المذكورة، راجع النص والخريطة في الإتحاف. ودائرة المعارف البريطانية بل ومختلف كتب ومذكرات الغربيين أواخر القرن 19.

التي كان ولا يزال لها دور في الحياة، والتي يبلغ إرتفاع بعضها الى 4165م فوق سطح البحر مثل «توبقال» في الأطلس الكبير ومثله مكون 4070م وجبل العياشي، في الأطلس المتوسط 3757 م وبوناصر 3340 وبوويبلان 3190 وصاغرو الذي يبلغ ارتفاعه 2712م.

كما توجد سهول ومروج ممتدة وفسيحة، وأودية وأنهار منها الجاري طول السنة، ومنها الموسمية التي تستمد جريانها من السيول والثلوج، مثل نهر اللكوس وسبو الذي طوله 460 كم وأبو رقراق، وأم الربيع والذي يبلغ طوله "560 ك م" ووادي سوس وتانسيفت ودرعة وملوية، ومنها ما يصب في الأبيض المتوسط أو المحيط الأطلسي، ثم الوديان الداخلية مثل گير، وزيز، وغريس، وزوزفانة، والساورة جنوبا وشرقا.

والمغرب في القارة الإفريقية يتمتع بجو معتدل جميل، خصوصا في الساحل الذي يختلف عن الهضاب الجنوبية والواحات، وذلك بفضل الأمطار الموسمية، وبقدر تأثر مناخه أكثر بالأطلسي فإن المتوسطي أقل تأثيرا فيه، وإذا علمنا أن موقعه يمتد عرضا ناحية الشمال من خط 28° الى 36° ندرك ما عليه مناخ المغرب، كما يتأثر بالإرتفاع وبمجارات المسطحات المائية صيفا وشتاء، وهذا الإرتفاع كذلك يساعد على تكثف بخار الماء بالرياح الهابطة من المحيط، حيث تتساقط الأمطار بشكل مفيد في الساحل الذي يتراوح المد الحراري فيه بين 8° و 12°، و الذي يصل في الداخل إلى 20° خاصة في النواحي السهلية الداخلية. أما الجنوب فتشتد فيه الحرارة صيفا كما يشتد البرد شتاء، والمطر في الشمال أكثر غزارة من الجنوب.

ويمكن تقسيم المغرب مناخا الى أربعة مناطق، هي: أ ـ مناخ المناطق المرتفعة وهي مناطق الأطلسين الكبير والصغير وجبال الريف.ب ـ مناخ السواحل. خصوصا الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي حيث تكثر الأمطار شتاء وتتلطف الحرارة صيفا. ج ـ مناخ المناطق المنخفضة في الداخل والواقعة في ظل المطر. د ـ مناخ المناطق الصحراوية الممتدة من أمغالا بالجنوب الغربي على حدود الموريطان بشنقيط الى عين صالح في الجنوب شرقا(65) .

---

(65) ردت أمغالا الى المغرب بعد الإتفاق الذي تم بين المغرب والأسبان في 1975/11/14 وبعد صراع سياسي ابتداء منذ 1956م، ثم راجع الجغرافية السياسة لرقلة 435 ـ 450 والتي اختلس منها عبد الوهاب ابن منصور حوالي ثمانين صفحة، راجع ما أخذه حرفيا ب 382 رقلة من ص 29 في القبائل ثم قارن الى ص 87، ومثله من موسوعة البستاني مادة بربر ج 2 ـ 3 ـ 7 الخ. ثم راجع تعاليق مختلفة بعد من هذا الكتاب.؟؟؟

والمغرب كبقية أقطار شمال إفريقيا، يتوفر على غابات بها ملايين من الأشجار، الى جانب غابات الحلفاء التي لا توجد في غير أقطار المغرب الكبير، والمغرب بلد زراعي بالدرجة الأولى، إذ يبلغ مردود الزراعة فيه ما يساوي 40٪ من قيمة أنواع الإنتاج حيث ينتج منها جميع أنواع الحبوب والخضر التي يصدر الفائض منها كما يتوفر في ميدان الزراعة على الملايين من أشجار الزيتون والبرتقال والتفاح وغيرها من جميع أنواع الفواكه والكروم والموالح ، خصوصا بعد توسيع شبكة الري(66) وفي المغرب ثروة حيوانية تقدر بعشرات الملايين من مختلف الأنواع يصدر منها الضان والماعز والبقر والإبل والخيل والبغال والحمير، كما يتوفر المغرب على ثروة سمكية لا يجاريه فيها بلد آخر، وذلك بفضل شاطئه الممتد على المحيط الأطلسي، وبالتالي فالمغرب يتوفر على تربة زراعية سواء في الشمال أو الجنوب في الشرق أو في الغرب. أما المعادن في المغرب فبالدرجة الأولى ينتج الفوسفاط كثاني بلد في العالم ، بل يحتوي على 40 ٪ من مخزون العالم الى جانب الفحم الحجري والرصاص والمنغنيز والكوبالت والنحاس والملح والكبريت، وكما يوجد البترول في بعض النواحي التي اكتشف فيها سيدي قاسم والصويرة إن صح(67) الى جانب الفحم الحجري والحجر النفطي الذي قيل أنه أصبح طاقة يتطلع إليها في المستقبل والذي يوجد بكثرة غير مقدرة في كل من تمحضيت بالأطلس المتوسط وطرفاية بالجنوب الغربي، ورغم أن الإنتاج المعدني لم يستغل بما فيه الكفاية فإنه يكون نحو

---

(66) أعلن عن طموح المغرب الى تحقيق مليون هكتار من الأرض السقو وهو ما يعادل 3 ملايين فدان، قيل : إن الذي تحقق منها سنة 1976 = 600 ألف؟ لكن مجال الزراعة كمجال الصناعة يحتاج الى تخطيط زراعي فيه مصلحة الطبقة المسحوقة وإلى توزيع عادل لكن الطبقة الجديدة باستهتار تستأثر بمقدراتنا والتي استولت عليها خارج نطاق المشروعية وسيطرتها تحول دون ذلك بحيث لم تستفد الطبقة المحرومة من الأراضي المسترجعة من المستعمرين الذين صادروها قبل من تلك الطبقة وعددها 850.000 هكتار وهذا مادفعني الى إقتراح قانون من أين لك هذا؟ حيث تقدمت باقتراح القانون على منصة البرلمان يوم 1965/11/19 فكان موضع قبول بالنسبة للوطنيين الذين خابت آمالهم وموضع تدمر من الآخرين، لكن البرلمان أوقف بعد أقل من شهر يوم 1965/6/8 حيث أعلنت حالة الاستثناء التي هي من أخطر ما يواجه التاريخ السياسي لمرحلة ما بعد الإستقلال وهو مادبره فيها خصوم الدولة والشعب معا، هذا مع العلم أن الجديد ان يبليان كل جديد وهو ما يجب أن تعرفه الأقلية من الطبقة الجديدة التي حلت مكان الاستعمار بتملكها لكل شيء في هذا البلد الذي أضناه الإرهاق وحطمه الابتزاز وفرقه الافتراء .

(67) تبلغ مساحة الغابات في المغرب الأقصى نحو 350000 هكتار من الفرشي والبلوط أما مساحة الكلبتوس فقد قدرت بالملايين من الهكتارات ومن الحلفاء 2 مليون هكتار. الخ .

الأربعين في المائة داخل الإنتاج الإقتصادي(68)، أما الصناعة فالمغرب منذ أقدم العصور يتوفر على ألوان من الصناعات الوطنية التي منها النسيج، وصناعة الصوف والزرابي، والنحاس، والخشب ، والجلود، بالإضافة الى الصناعات الراقية في الذهب(69) والفضة وأنواع الحلي والأثاث المنزلي. وقد فتحت هذه الصناعات للمغرب مجالا سياحيا وتجاريا في مختلف بلاد أوروبا، كما توجدفي المغرب بعض الصناعات الحديثة المتطورة، وللمغرب شبكة المواصلات السلكية واللاسلكية ووسائل النقل الجوي والبحري، وله موانئ ومطارات تستمد أهميتها من موقع المغرب الممتاز للوصل بين إفريقية وأوربا، وبالتالي ففي المغرب. كثير من المدن منها القديمة التي هي من بناء البربر القدامى كما سنتعرف عليها، ومنها الجديدة أي المستحدثة، وهذه المدن موزعة على الخريطة المغربية من الشمال، طنجة، وتطوان، وسبتة، ومليلية، الى سجلماسة جنوبا، ومن وجدة شرقا الى أكادير والساقية الحمراء ثم الداخلية غربا، وعاصمة المغرب الإدارية الرباط، والإقتصادية الدار البيضاء(70).

وهكذا فإن المغرب دون غيره في القارة الإفريقية يحتل مكانا لا يتوفر عليه غيره، فهو إلى جانب إشرافه على المحيط الأطلسي ، وشاطئه الممتد على الأبيض المتوسط يتحكم كذلك في مضيق جبل طارق الذي يعد من أهم طرق العالم ، والمغرب بحكم قربه

---

(68) راجع خطاب جلالة الملك حول اكتشاف النفط بتاريخ 1978/10/17

(69) ذكرالبكري وجود الذهب بجبل قرب تازة، وياقوت من غير تركيز ذكره في « سجلماسة ونواحيها » راجع دائرة المعارف الإسلامية 9 /207 ، والذي عرفه التاريخ بالنسبة لسجلماسة هو تجارة التبر مع غانة واستجلابه بكميات وصفها ابن حوقل وابن بطوطة وغيرهما ، بل و التي من أجله كان يقصدها رجال التجارة من مختلف البلاد من الأندلس وتلمسان و القيروان و القاهرة ودمشق وبغداد حتى إن بعضهم اتخذها موطنا ثم شيد فيها من السكن ما تعاقب فيه خلفه من بعد بحيث حتى اليوم نجد اسم الإشبيلي يطلق على قصر و اللمراني وغيرهما كما سنرى بعد حين كلامنا عن دولة بن مدرار.

(70) لقد أنشأ البربر الكثير من المدن قديما بالمغرب ، كما يخبرنا ابن راشد 81 والحميري، ج1-2 فزناتة تامسنا أنشأوا أنفا ، ودای ، وصنهاجة بدكالة بنوا طيط ، وأزمور ، وأسفي ، وأسس ملوك قبائل حاحة : قلعة السويرة، وقلعة أجادير ، وقبائل هشتوكة وجزولة مدينة رودانة ، وقدميوة ، قلعة أمصميز ، وقلعة تينمل ، وأسس فزواطة وترنانة وقبائلهم قصور درعة ، وبنو مدرار ، سجلماسة، ودمنات أسسها امراء فطواكة ، وأنشأ أمير زناتة قلعة أزرو ، قبل الإسلام ، كما أن أول مدينة بالمغرب بنيت في الإسلام هي مدينة النكور ، أسسها إدريس بن صالح الحميري عام ثمانين هـ ، وفيها نزل حسان ابن النعمان أمير عبد الملك بن مروان .... =

من أوربا يكون صلة الوصل بين الشرق و الغرب ، أي بين إفريقية وأوربا وأمريكا، وقد كان له دور هام في هذا المجال منذ أقدم العصور، حيث كانت تجارته تمتد من أوربا إلى آسيا وإفريقية ، فالتجار ذوو الرحلات والعلماء من المغاربة كالإدريسي وابن جبير، وابن بطوطة، وابن مرزوق، والوزان الفاسي، والمقرى، وأبو القاسم الزياني، والعبدري، وغيرهم عرفوا وعرّفوا بالمغرب في جهات مختلفة من أقطار الأرض، ويحفظ لنا التاريخ علاقة التجار المغاربة قديما وحديثا مع الصين والهند والشام والعراق وبلاد فارس شرقا، وكذا فرنسا وبريطانيا و الأراضي المنخفضة وإيطاليا وألمانيا في بلاد أوربا ، كما امتدت علاقة المغاربة بالفتح والعلم والتجارة في كل من غانا، والسينغال، ومالي، والنيجر، إلى السودان شرقا ، وقد لعب المغاربة دورا لا يجهله المؤرخون في مجال نشر الحضارة ورسالة الإسلام في كل ماذكر من البلاد، وما وجود مذهب مالك وانتشاره في ربوع إفريقيا إلا أثر من آثار المغاربة .

ذلك هو المغرب الجميل بموقعه وتربته وجوه ومكانته، والذي يبلغ تعداد سكانه

= ومن مدن المغرب القديمة كذلك

أدكه : وهي بوادي نول باب السودان	بادس : بالريف	داي بتادلة
أزمور	بليوش : قرب سبتة	سبتة ثم سلا على وادي كريفلة
أنجوان : الجديدة	البصرة قرب القصر الكبير	سجلماسة
أسفي	تاجرا : بالسوس	صرحة بين سوس و السودان
أغمات أريكة وأغمات نفيس	تطرقلة بالسوس أيضا	صرصر .
أصيلة : بين طنجة و العرائش	تمسمان : تازوطة	الكارة .
طيط بدكالة	تاكرار بجبال ورغة ناحية فاس	فازاز بين قرى وعمائر بالأطلس المتوسط
	تابلبالت بالجنوب الصحراء	فاس
	تانسيفت قرب مراكش	فروحة قرب القصر
	تامسنا تانملت	فيمورة قرب أصيلة
	تامدرت	عين الحياة قرب سبتة
	تادلة : تاجة : طنجة	ماسة بالسوس
	تازايلا ببلاد دغياثة وتطوان	مطماطة قرب فاس

مكناسة الزيتون نكور بالريف ، نفيس، وجدة : ورزيغة بمكناسة الخ الخ

راجع وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان . و الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري و الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني ففيها زيادة على ما ذكر الكثير جدا ط 1967 « نزهة المشتاق في اختراق الافاق للإدريسي الحموي» أ – 2 ط القاهرة بدون تاريخ .

اليوم1981 أكثر من الخمسة والعشرين مليونا بالتقريب ، يمتازون بكثرة الشبان الذين يكونون نسبة عالية من سكانه ، حيث لا تتجاوز أعمار 45٪ 15 سنة و50٪ تقل أعمارهم 20 سنة، ويبلغ النمو الديمغرافي به أكثر من 2/2٪، بحيث يضاعف السكان كل عشرين سنة، ونظام المغرب ملكي منذ ألف ومائتي سنة، (1200) وله دستور وضع 1962 وعدل مرتين. وللمغرب إدارة مسايرة للتطور من حيث التشريع، لكنها مقيدة بأثر الماضي القريب، واللغة الفرنسية هي التي يصدر بها التشريع ثم يترجم وقد مضى على عهد البلاد بالإستقلال السياسي ما يقرب من 40 سنة بشكل أفقدها السلامة وحسن التسيير، كما يعرضها تصرف المسؤولين بروح الاستبداد الى الفساد والتعطيل رغم التطلعات وما يظهر من الرغبة العامة في الإقدام على التخطيطات التي لم ينجز منها مخطط قط في موعده، ثم هي بالتالي تنهج نفس النهج في مجال التعليم الذي لم يعرب كلية منذ أربعين سنة، بل يتميز بالخلط وعدم الاستقرار في المناهج إلى درجة التراجع، أما التقسيم في المغرب إلى أقاليم فقد إنتهى سنة 1981 الى 36 إقليم وعمالة.

ويتكون الشعب المغربي منذ القديم من أجناس مختلفة صهرها الإسلام، بحيث يتكون من البربر والعرب والفرس والاعلاج و"البلديين" الذين التحقوا بالإسلام في فترات متعددة ومتقطعة من تاريخ المغرب، كما يوجد بالمغرب مواطنون من اليهود 95٪ منهم رحلوا الى إسرائيل ويحتفظون بالجنسية المغربية وفي المغرب طبقات إجتماعية كانت في الماضي تعتمد على العرق : أشراف، وعرب ، وبربر و"حراثين "، سمر البشرة بل وبيض، وهم أيضا يرجعون إما الى العماليق أوالمولدين باختلاط العرب والبربر قديما مع السوادين الذي كانوا قبل عبيدا بالشراء، وأغلب مواقعهم حيث كانوا يستعملون كنوع شبيه بالرقيق هو الجنوب من الساقية الحمراء إلى واحة فجيج، والذي أطلق عليهم إسم "الحراثين" هم الفاطميون لما قضوا على دولتهم بني مدار الصفرية وكانت قوتها منهم فخصصوا لهم ولليهود الذين كان أحدهم من التجار مع الشرق هو الذي كشف عبيد الله والمهدي زمن إليسع المدراري ـ خصصوا لهم مهنة الحراثة، ولليهود البناء والكنافة.

وبالتالي فرغم تميز تاريخ المغرب القبلي بالحروب فقد عرف مجتمعات استقرارية لم تهضم فيها الحقوق، حتى إن اليهود لم يوجدوا بكثرة في بلد كما كانوا في المغرب،

فبالإضافة إلى اليهود الذين يرجع أصلهم إلى البربر، قدم غيرهم من الشرق والأندلس وقد تجمعوا أكثر في سجلماسة لقربها من تبرغانة، كما كانت لهم مراكز في مختلف جهات الأطلس، تدغة، ودرعة، وسوس، ودمنات، وتازة، ودبدو، وكرامة، ويفران سوس، حيث بقي أقدم كتاب لهم، إطلاقا الى أن نقل قبل الإستقلال بقليل(71).

(71) رواية الشيخ عبد الله الجرسيفي، رئيس جمعية علماء سوس، الذي قال إن الذي نقله من يفرن سوس هو حاييم وايزمان..؟

الفصل السابع
المغاربة القدامى

عند الغربيين : هناك دراسات متعددة ومتنوعة حول المغاربة القدامى،وهي وإن كانت لا تسلط الأضواء الكاشفة للحقيقة،فهي صالحة لمعرفة ما عند الآخرين الذين تعددت أقوالهم ولم يدلوا بمصادر واضحة ومقبولة.

تقول هذه الدراسات حول وجود المغاربة القدامى، كان الكنعانيون قد انتشروا في الغرب مختلطين ببعض العناقيين. وذكرهم سنكونياتون باسم أطلس(72)، وربما كانوا نفس الأمة الباقية هناك، ويستفاد من كتب أنسابها أنها من ولد مازيغ(73) من كنعان وكانت تذكر في الجغرافية القديمة بإسم مازيقيين وجيتوليين(74) وقد اختلط بهم عدة مستعمرات من القبط والكوشيين، والعرب، والصابئة والعمالقة، والفلسطينيين، وعند الغربيين أنهم لم يزالوا الى الآن مع ذلك الاختلاط العظيم ممتازين بتقاليدهم التي تدل دلالة مخصوصة على أن صنهاجة وكتامة، ولمطة، وهوارة، ومصمودة ولواتة من نسل الصابئة اليمنيين؟ وأن زناتة من نسل عمليقي، وأن غيرهم ممن تسميهم العامة جلوتية من نسل جليات"جالوت"وهم أيضا عند آخرين من العناصر التي تركبت منها مع الليبيين، الأمتان اللتان ذكرها سالست أنهما أصل سكان إفريقية الشمالية الأولين، فكانت حين

---

(72) يلاحظ أن الباحث أشار الى بقية نسل الأطلسية، راجع كتاب السياسة لارسطو تحقيق لطفي السيد ص: 177، ط 1947م، وجغرافية شمال إفريقية ليسرى الجوهري، ط1976.

(73) مازيغ إسم بربري معناه : الرجل الحر، وجمعه إيمازيغن، راجع دائرة المعارف الإسلامية 225/2 وما بها من مصادر، وهو غير شلح، كما ورد في ج 354/13.

(74) إسم لإحدى القبيلتين الأصليتين العظيمتين المستوطنتين إفريقية الشمالية إلى الجهة القريبة من مصر، وأما القبيلة فهي الليبية، وكانت تسكن قبلا على شاطيء البحر الأبيض المتوسط إلا أن الموريطانيين والنوميديين دفعوهم إلى جنوب جبل الأطلس وكانوا أمما رحالة تعيش من اللبن واللحم، وتلبس الجلود، ولم تكن لهم حكومات قانونية، وكانوا منقسمين إلى قبائل كثيرة منها : البلانوجيتوله، وكانوا سودا تقريبا، لاختلاطهم بالجنوبيين.. إلخ راجع دائرة المعارف للبستاني 611/6 .

إختلطت بها بقايا عسكر هرقل التي انهزمت من إيبيريا مؤلفة مما ياتي :

أولا : الماديون، والأرمن الذين تألفت من اختلاطهم بليبيي المغرب أمة هبريدة.

ثانيا : الفرس : وهم لا محالة أصل الفروسيين والفارسيين المذكورين في الجغرافية الإفريقية، والذين إذا اختلطوا بليبيي السواحل، إنتشروا في الشرق باسم النوميديين وامتدوا إلى قرب المكان الذي سارت إليه مستعمرات فنيقية، وأنشأت قرطاجنة الشهيرة(75).

ولكن كانت الإستكشافات الأولى التي قام بها الربابنة المصريون أيام فرعون سيزوستيرس الثاني(76) ومثله في الإستكشافات فعلت قرطاجنة حيث قام حانون القرطاجني 5 ق م بإستكشافاته التي وصل فيها الى أعمدة هرقل ، ثم رجع بعد جولة بإفريقية أحاطت بإفريقية إلى جزيرة فرناند وبغينيا الإستوائية. ثم كتب أخبار رحلته على أعمدة بعل مولوخ أكبر آلهة الفنيقيين في كتابه المعروف البريبلوس(77) والتي لا شك نجد في ما كتب تارتوليان عن تاريخ قرطجنة 198م وإكليمنديس الأسكندري الذي كتب وعلم بقرطجنة(78) من سنة195م الى202م كما نجدها عند الإغريق والروم خصوصا الذين اهتموا بحياة القرطاجنين كخصوم ألداء مما سنعرض له بعد بتفصيل حين كلامنا عن

---

(75) البستاني44/4.

(76) هو رمسيس الثاني ميامون فرعون مصر خلف أباه سيتي الأول على عرش مصر سنة 1330 ق م. وقد حارب الشام، وحالف الحيثيين بعد حروب، وقد رفعه أهل مصر النوبة إلى مصاف الآلهة وتوفي بين 1270 ـ 1260 ق.م استكشفت جثته سنة 1881م راجع وثائق تاريخية لجبان،ص: 434/1.

(77) معالم تاريخ الإنسانية ه ج . ولز 87/1 ط 1967، ترجمة عبد العزيز وجاويد ولقد صدر أخيرا كتاب لأحد الفرنسيين هو الأستاذ "الان بورجو" تعرض فيه لعلاقة الأفارقة من الزنوج مع الإغريق واهتم أكثر بنفي فكرة "الزنجي المتوحش" وأنها ليست فكرة قديمة، بل هي من اختراع العصور الحديثة إبتداءمن القرن 16 وأنها نتيجة اتجار الأوربيين بالرقيق بعد إكتشاف السواحل الإفريقية من طرف البرتغال وأن الزنوج قبل ذلك كانوا على إتصال ببلاد الإغريق، وكأن الكاتب في هذا اكتشف شيئا جديدا، ولو أنه قام بجولة في ربوع ليبيا بدءا من مدينة قرينة بالجبل الأخضر، والتي أسست في أوائل القرن السابع ق م ،أي سنة 613 لتبدل رأيه، ورغم أن الكاتب أورد أمثلة على تلك العلاقة أراد أن يرقى بها الى نوع من الحضارة عرفها الزنوج، إلا أن تلك الأمثلة لا تؤكد ما ذهب إليه حسب المفهوم من الكتاب الذي سماه.

(78) المصدر السابق 37،30 د الإسلامية 466/2 وفيهما أن الفنيقيين عرفوا المحيط الأطلسي قبل أن يعرفه اليونانيون بألف ومائة سنة، بل هم الذين أنشأوا المستعمرات بسواحله، وامتدت تجارتهم الى جزائر بريطانيا وبحر البلطيق، راجع تاريخ سوريا لفليب حتى، ترجمة جورج حداد ط 1958.

المغرب والإستعمار القديم منذ عهد الفنيقيين إلى القرطاجنين ورحلة حانون(79) التي قام بها بحثا عن معادن الذهب وإنشاء مراكز التجارة، كل هذه الإستكشافات لم تعرفنا على حقيقة الجنس الذي كان يسكن هذه الرقعة من الأرض والذي اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون كل الإختلاف حول أصوله، وإذا كان ابن خلدون وهو أعظم المؤرخين الذين اتصلوا بأقدم المصادر بعد ما ردد أقوال جل الذين سبقوه حول أصول البربر انتهى إلى قول أبي عمرو و بن عبد البر، حيث لم يستصوبه ثم قال عنه وعن غيره : "واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة من الصواب ثم قال: "وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو

---

(79) راجع تمثال الراعي الصالح ت ر. جلوفر، ص 2 طالنيل 1928. وعن رحلة حانون في مطلع القرن 5 ق م. الذي خرج في ثلاثين ألفا من الرجال والنساء والذراري، على متن ستين؟! سفينة عظيمة لكل منها خمسون مجذافا، فقد ورد في ما سجله الرحالة المذكور عن هذه الرحلة، وعلق على تمثال الإله بعل، وقال الربان حانون في قصة رحلته التي رفعها إلى مجلس الشيوخ لدى عودته إلى قرطاجنة" راجع ما قاله أرسطو طاليس 384 ـ 322م، عن مجلس الشيوخ في كتابه (السياسة) سياسة المدن، وعن الدستور القرطاجني ص 173 ط دار الكتب المصرية 1947، تحقيق لطفي السيد، وعن الرحلة المذكورة يقول : بعد أن جزنا أصنام هرقل «هذه الأصنام وصفها الحميري في ج 191/2 ـ 92 م خ نا» "جبل" بيومين أنشأنا أول المدن وسميناها «يثمياتيريون» وهي المهدية" واللفظ يوناني معناه : المبخرة" راجع المصدر المذكور، وهي مطلة على سهول رحبة ثم أقلعنا منها نحو الغرب إلى "سولويس" رأس كنتين، وقد بسقت فوق أرضه أشجار غضة، فبنينا هناك معبدا للإله بوصيدون" لعله داجون"، ثم عكفنا إلى المشرق مسيرة نصف يوم، فإذا بنا على سمت بحيرة قريبة من الشاطي تكاثفت عليها الأهل والقصب ورعت حولها الفيلة واخضرت آجامها الضواري، وعلى مسيرة يوم عنها أنشأنا عدة قرى قريبة من الساحل سميناها حصن ثريكون "الجدير" وغيتة، وعكرة، ومليطة، وأرامبي. ومن ثم انتهت بنا السفن إلى اللكسوس، وهو نهر غراف منحدر من هضاب ليبيا وعلى مشارعه قبيلة لكسته، وقد سرحت مواشيها على ضفته، وهي قبيلة عظيمة مضيافة آخيناها وأقمنا عندها أياما، ثم التقينا بعدها أقوام إثيوبيين قوم سكش لكس لا يقرون الضيف، مساكنهم الأدغال وقلل الجبال بين مرابض الوحش، على طريق نهر اللكسوس، وهذه الجبال مأوى أهل الكهوف وهم قوم غريبوا الخلقة يقال إنهم في أحضارهم يفوتون الخيل، فاستصحبنا تراجم من قبائل اللكست وأنطلقنا بمراكبنا نحو الجنوب مدة يومين على محادات شواطيء غامرة ، ثم انصرفنا نحو الشرق مسيرة يوم، فوقعنا في فرضة فيها جزيرة صغيرة، ضربنا فيها خيامنا وسميناها فرنة، وهي في تقديرنا تناوح قرطاجنة من حيث البعد عن أصنام هرقل، إلا أن الرحلة بين طنجة والأصنام مثل ما بين الأصنام وفرنة، ولما استأنفنا السير مررنا على نهر طام يسمونه قريت "السينغال" وتستمر الرحلة مارة بخليج بساغو أمام غينيا حتى تنتهي إلى جبل عرفه بمركبة الآلهة حتى ينتهي إلى جزيرة أكثر أهلها من النساء، وقد كسا الشعر أبدانهن، كان التراجمة يسمونهن غوريلا. تمكنا من القبض على ثلاث من السعالى من نسائهن، لكنهن أبين الإنقياد ومزقن بأنيابهن جلود رجالنا، حتى إضطروا إلى قتلهن فحملنا جلودهن وعدنا بها قافلين إلى قرطاجنة لنفاذ الزاد»، راجع الفنيقيون وركاز الذهب ص 65 ـ 70 ط. 1950 ، وقد أورد الأستاذ عثمان الكعاك في كتابه عن تونس أسماء بعض ذوي الرحلات من اليونان في القرن الأول ق م في كلامه عن البربر عن استرابون، وقد أورد مصادر عزيزة المنال؟، ثم راجع عن الفنيقيين أيضا قصة الحضارة لول ديورانت ج 1 من المجلد الثالث، ص 84 ـ 92 . وقد تعلم أفلاطون من كهنة =

صورة راس نبتون اله البحر الذي وجده الاسبان
في خرايب ليكسوس

جوبا الأول

جوبا الثاني ملك موريطانيا

نسيفساء اله المحيط بليكسوس

العمـاليق وأنهم نقلوا من ديار الشـام أو انتـقلوا فـهـو سـاقط يكاد يكون من أحـاديث خـرافيـة، وأخيـرا إنتـهى الى القـول الصـواب، رغم تناقـضـه مـع مـا سـبق له في أنسـاب الخليقة وهو ما لاحظه المصحح دون أن يصحح لعميد المؤرخين ما وقع فيه من تناقض(80) حيث قال :

= مصر كما أشرنا واطلع على مجموعات تاريخية وعلمية سواء في منف أو في ساين، وهي أخبار لا نعرف عنها سوى النزر القليل من أجزاء ضائع بعضها من كتاب "كريستياس" أو من كتاب "تيمية" الذي هو كتاب الطبيعة حيث يوجد ثلاث متحدثين وهم : "تيمية" و"هروموكرات" و"كريستياس"، ورابع مجهول يغلب على الظن أنه أفلاطون نفسه.

ويتكلم تيمية عن نشأة العالم كوسموس ويتكلم كريستياس عن تنظيم العالم ويشير الى المذكرات المخطوطة التي تركها صولون ويروي قصة التنافس بين أهل أثينا أو شعوب الأطلسية، راجع كتاب الطبيعة لأرسطو وفنيقية لبنت بطوطة ص 38 ـ 39ط 1365 هـ، ويلاحظ أن ما كان موجودا من البحر المتوسط في ذلك العصر، وهو عصر ما قبل التاريخ، كان عبارة عن بحيرتين أو ثلاث بحيرات كما دل على ذلك البحث الذي وضعه ليتر، وأن إفريقية وأوربا لم تكونا قد انفصلتا بعد، إحداهما عن الأخرى في الموضع الذي يوجد فيه الآن جبل طارق، : ويقول كريتياس : إن زلازل أرضية وطوفانات محت في وقت واحد الأطلسية أي أثينا مدينة ما قبل التاريخ" وذكريات أعمالها القديمة الباهرة، ولعلنا بذكر الأطلسية قد بعدنا جدا عن واقع التاريخ الذي يمكننا تحقيقه ولا نقصد غير الاستئناس، ومهما يكن، فإن التاريخ بعد لم يحقق في كثير مما تعرض له المؤرخون مثل البلاد التي ذكرها المقريزي في الخطط ج 341/1 والتي ذكر عنها كثير من الحكايات، وقال عنها إنها بين إفريقية وبرقة، ممتدة في الجنوب الى سمت المغرب الأوسط، ومثله ما عند الهمداني في كتابه عن البلدان، بل إننا لن نعرف شيئا عما اكتشفه المعاصرون عن الصحراء، مثل العلامة هنري فوط رئيس متحف الإنسان بباريز، وما جمع من مواد أثرية تتصل بوجود حضارة في الصحراء ناحية الحجّار وما كانت عليه من عمران يتمثل فيما اكتشف من رسوم ونقوش، وصور، وحيوانات، انقرضت، ويرجع تاريخها الى العهد الحجري الصقيل، كل ذلك يدفع الى التأمل أكثر في تاريخ وجود الإنسان في هذه المنطقة من المغرب الكبير المتصلة بالصحراء، والتي لم يصل العلم إلى قول راجح ومقنع فيما يتصل بحضارتها الضاربة في القدم، بل إن بعضهم أمثال الدكتور برونر BRUNER الذي قضى عشرين سنة في مصر يدرس جماجم الموميات والتماثيل المصرية في أقدم أشكالها وقد وصل بأبحاثه إلى أنه كان في مصر القديمة عنصران : العنصر الذي يتكون منه الشعب المستعبد الذي استخدم في بناء الأهرام، والعنصر الراقي الحاكم، وهو الذي زرع البذور الأولى للحضارة البشرية، ويقول الدكتور برونر إنه بدراسته لجماجم الفراعنة ومقارنتها بجماجم الأجناس الأخرى، توصل إلى أن الجنس الحاكم السيد الذي أقام دعائم الحضارة المصرية لم يكن إلا الجنس البربري، أو المغربي، ساق هذا النص العالم كلتبرومر KALTBRUMER في مذكرة جمعية علم الأجناس بباريز 1855م كما ورد في الجزء الأول من كتاب "عمل إسبانيا في إفريقيا" التطوانية الذي نشرته وزارة الحربية الإسبانية 1935 صفحة 42. راجع مجلة المعرفة عدد 2ص3 السنة الأولى بتاريخ شوال 1366هـ 1947م.

(80) قيل عن أصول البربر أقوال لا حصر لها وكلها لا تثبت أن البربر أول من وجد بالمغرب ومن هذه الأقوال ما يلي :

1 ـ أنهم من لقشان ولد إبراهيم

2 ـ يمنيون من حمير، أو من القبط

3 ـ أنهم تفرقوا وقت حصول كارثة سيل العرم =

«وبعد ما قرر قبل في أصول البشر أو الخليقة حسب إطلاقه يقول عن البربر:" والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوانهم أركيش، وفلسطين، إخوانهم بنو كسلوجيم، بن مصرايم،بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له، كانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة، وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعا لفسطين، فلا يقعن في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه»(81) في حين أنهم أبناء فوط بن حام، كما سبق لنا أن أشرنا وكما نوضح في الفصل التالي بعد.

= 4 ـ أنهم من لخم وجذام كانت منازلهم فلسطين أخرجهم منها بعض ملوك الفرس، فلما وصلوا مصر منعهم ملوكها فانتشروا في البلاد وعرفوا عند المصريين القدامى باللوبيين.

5 ـ أنهم من ولد لقمان بن حمير بن سبأ

6 ـ أنهم من السلت المتفرع من الجنس الهندي الأوربي الذي منه لوكولوا و البلج والبلس والايريون وهو ما ألح عليه الكتاب الفرنسيون زمن الإستعمار في شيء من التكلف البليد المقيت

7 ـأنهم أخلاط من ولد كنعان والعماليق، وهذا قريب من الصواب.

8 ـ أنهم من حام أي من بربر بن تملابن مازيغ، بن كنعان، بن حام، وهذا أقرب الأقرب إلى الصواب كما سنرى حين تقويمنا للخلط الذي وقع فيه ابن خلدون، حين كلامه على أصول الخليقة، والذي ربما أوقعه فيه اعتماده على من نقل عن الكتاب المقدس الذي هو التوراة، ولم يعتمد الكتاب نفسه، راجع 190/6.حيث قال :"وأعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة عن الصواب".

(81) المصدر السابق، 192/6 -193.

الفصل الثامن
أصول المغاربة في تاريخ العرب

إن مصادر التاريخ الإسلامي العربي في مجموعها غامضة في ما يرجع لتاريخ المغاربة القدامى ، وبعضها نجده قد وقع في خلط بسبب محاولة السبق بتسجيل رواية شفوية، أو النقل عن مصدر مشوش الفهم دون استقراء، حتى إن بعضهم بسبب ذلك أوقع من بعده في نفس الخطأ الذي كثيرا ما تنبه له ابن خلدون كما هو الملاحظ في العبر وكما أشرنا ، وكثير من ذلك حصل حين الكلام عن البربر وأصولهم لجل الذين تناولوا هذا الموضوع، فمثلا صنهاجة، وكتامة عند ابن حزم، والزياني، وغيرهما من البربر، وقد اقتدى بهما الكثير، وهما عند ابن خلدون(82) والهمذاني في الإكليل، وابن خلكان، وابن قتيبة وابن رشيق من العرب،وقد اقتدى بهم الكثير،ونحن نرى أن الذي يريد معرفة القدامى من المغاربة قبل البربر يرجع الى التوراة يستخرج منه الأصول الأولى لتقسيم البشرمن أبناء نوح الثلاثة، فإذا نحن عرفنا سكان المغرب ضمن سكان العالم في هذا الزمن السحيق، الذي لم يوجد له تاريخ يكون أنسب منه، وقد نجد هذا في مختلف تواريخ العالم، وإن كان ما ينقله مؤرخو العرب منه مشوشا ومضطربا، بل هو المعتمد كثيرا حتى عند قدماء المؤرخين غير العرب، ولكنهم يقعون أحيانا في الخلط كلما رجعوا إليه، إما لأن النسخ التي كانت رائجة وقتها غير محققة ولا مصححة، وإما لأن النقل بعد

(82) 6/ 192 . ثم راجع السيوطي في حسن المحاضرة، جـ1/14 – 16 ط حجر، والمعجب حين كلامه عن المدن والأقاليم من برقة الى سوس، ص : 346 ، وكذلك المسعودي وغيرهم. على أننا نجد ابن خلدون مثل السيوطي في حسن المحاضرة قد انساق وراء آدم وما كان له من الأبناء كما في التوراة الاصحاح 5 تك 5. الخ. في حين أن هذا لا يتفق مع العلم أولا، حتى إنه رجع الى كتاب الطبيعة أرسطو، راجع ترجمة لطفي السيد عن ترجمة برتلمي ط 1935، ثم ترجمة إسحاق بن حنين،ت ع بدوي ط 1965، ذلك لأن عقيدة المسلم تجزم وبنص القرآن أن الخليقة الأرضية بعد آدم قد أبادها الطوفان، الذي يرجع تاريخ ما بعده إلى 4004 ق م، وهذا ما يجعلنا نقول بما ورد في التوراة كتاريخ معتمد من طرف كثير من رجالات التاريخ، راجع ولز بعد.

غير الكثير من المصادر ثم حرف ما فيها عما هو صحيح في التوراة، ومهما يكن فإن ما ورد فيه بالنسبة للمؤرخ يعتبر أصح مما روى عن قدماء المصريين والفنيقيين و الإغريق والروم، رغم أن الفنيقيين قبل رحيلهم من صور، عرفوا هذه النواحي ثم مارسوا التجارة فيها، وكانت لهم فكرة واضحة عن البلاد من جميع نواحيها، خصوصا أيام وجودهم بمالطة قبل مائتي سنة على استطانهم بالمغرب "ترشيش"، ومثلهم فعل الإغريق والرومان، مما نجده في إنتاج المؤرخ الإغريقي هيرودوت 484 ـ 425 ق.م، وديودور الصقلي21 ق.م، وغيرهما عن سكان لوبيا وجبلها الأخضر الذي عرف ألوانا من أفكارهم وحضارتهم بشكل لا تزال معالمه ماثلة بكثرة حتى اليوم، لكنهم لم يحدثونا عن أصول المغاربة القدامى بالشكل الذي نستمده من الكتاب المقدس كما سنرى.

إن تاريخ البربر في المغرب نال من كل المؤرخين العرب القدامى عناية واهتماما، ومنهم من أورده بشكل بعيد عن الواقع و لكنهم جميعا لم يوضحوا فكرة وحقيقة أصول المغاربة القدامى، بل جلهم تحدث عن المغرب وكأن البربرهم أول من وجد به، وأنهم كما سبق أبدوا رأيا شبيها بما استعرضنا خاليا من ذكر البربر على تلك الصفة، فالبلاذري في فتوح البلدان، والبكري في المسالك، والطبري في الصلة، وابن الأثير في الكامل، والمسعودي في المروج، وابن كثير في البداية، وابن حزم في الجمهرة، وابن عبد الحكم في الرياض، بل وحتى الواقع في الخلط الكثير ابن أبي زرع في روضه، وابن عذاري في البيان، والمراكشي في المعجب، ثم عميد المؤرخين المعاصرين نسبيا أبو القاسم الزياني، هؤلاء جميعا إلا قليل منهم أفادوا من التوراة بطريقة غير واضحة ومنهم من لم يعط كبير إهتمام لأنه نقل عن غيره، ولعل السبب أيضا هو ما كان من اعتبار ـ المسلمين له ـ يتمثل في عدم إستعمال مصدر هو بالأساس مرفوض مقدما، مادام أساسا غير معترف به منهم كممثل للديانة اليهودية، وربما كان لهذا الرأي رواج أكثر من غيره، في الوقت الذي نجد هذا الكتاب قد احتفظ لنا بحقائق تاريخية لما بعد الطوفان لا توجد في غيره، وحتى إن وجدت في ما سجل القدامى من المصريين نجدها لا تختلف عنه في الكثير إلا من حيث التعبير، وبالتالي فهو بالأساس كتاب تاريخ كتب بعد العودة من بابل، ومعرفة ما كان في "نينوي" من مصادر.

لقد اجمع كل الذين ذكرناهم من المؤرخين اقتداء من اللاحق بالسابق على أن أصل سكان المغرب هم البربر، وأن البربر أصلا من آل عمون سكان جنوب فلسطين، لكن من أين لهم هذا الإجماع. إنه حسب المعطيات التاريخية لا شك كان من مصدر واحد تسرب لجميعهم و المصدر الأول العربي الذي بين أيدينا هو البلاذري في كتابه "فتوح البلدان(83) وهو المتوفى 279هـ/ 892م(84) ففيه نجد النص على أن البربر من الجبارين الذين قاتلهم داوود. ع وكان منازلهم على أيادي الدهر فلسطين وهم أهل عمون(85) ، فأتوا المغرب فتناسلوا به(86) وهكذا نجد البلاذري نفسه ينص على أنه روى شفهيا عن بكر إبن الهيثم الذي سأل بدوره عبد الله بن صالح في حين أن الاستنتاج يؤكد أن قوله هذا لا يعني المغاربة القدامى، ولا يثبت أن البربر هم أول من سكن المغرب، كما أشار ابن خلدون إلى أن موجة الهجرة كانت بعد الحرب بين داود وجالوت وأنها وجدت المغرب قد امتلأ بالقبائل والبطون والأفخاذ.. إلخ. وهكذا لا نجد في مثل هذا ما يعطينا فكرة عن أصول المغاربة قبل البربر، ولربما سيظهر من تراث المغرب المخطوط والذي لم يكشف بعدما يكون أكثر شمولا مما عرفنا من تاريخ العرب(87) وغير العرب حول المغاربة القدامى وهذا

---

(83) ط دار النشر للجامعيين، ص315 ط 1957.

(84) المصدر السابق، وظهر الإسلام لأحمد أمين 2/ :20

(85) ورد في المصدر المذكور عمود بالدال بدل النون وهو تصحيف مطبعي لا شك سيظهر على كل من يأخذ منه وكمارأينا من بعضهم أن قصر أبحار بحاء مشددة وهو الذي ولد فيه المولى إسماعيل بن الشريف بتافيلالت و ورد عند ابن زيدان بجيم وهو خطأ مطبعي تبعه كل الذين أخذوا عن المصدر المذكور إلخ. ولسوف نجد طابع كتاب ياقوت الحموي يقع في نفس الخطأ الذي أحدثته الطباعة في فتوح البلدان «عمود» بدل عمون كما سنرى ذلك في الفصل العاشر من هذاالكتاب

(86)المصدر السابق 315، ثم راجع تطور الجنس البشري، المصدر السابق، وفيه عن سلالات الأبيض المتوسط ص 214 ط 3 : 1963 حيث أطلق على سكان شمال إفريقية الطراز الصحراوي تمييزا لهم عن الأيبيري والأطلسي وأنه يختلط بالسلالة الجنوبية الشرقية التي تسود شبه الجزيرة وآسيا الصغرى.. إلخ.

(87) لقد استطعنا اليوم أن نحصل على مخطوطات مغربية وأندلسية يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة مضت أي إلى أواخر القرن الرابع الهجري، بل وقبله مثل بعض الواضحة لابن حبيب التي اعدمت في عهد الموحدين وموطا مالك على الرق، رواية يحيى بن يحيى الليثي الخ، ومن يدريك لعلنا نحصل على ما لم تصله أيدي المؤرخين قبل، مثل الملخص للفخر الرازي الذي وجدناه في ثلاث مجلدات وهو مجهول لدى المعاجم حتى قالوا عنه «مقال».. الخ ويقول يوحنا ابكاريوس في كتابه "قطف الزهور في تاريخ الدهور" ص :217 ط بيروت 1973.

وقد اختلف المؤرخون والعلماء في أصل سكان هذه البلاد "المغرب من حدود مصر الى المحيط" فزعم =

ليس ببعيد ما دمنا قد وقفنا على النادر من التراث في المغرب.

وأما بالنسبة الى ما يرجع إلى العصور الحجرية حسب الإطلاق الغربي فما على الذي يقتصر على درس التاريخ السياسي إلا أن يمر عليه مر الكرام، ولو فقط على ما قيل عنه" العصر الحجري الحديث" والذي لا نجد مناصا من التعرض لحال الإنسان المغربي في ذلك العهد، ولو فقط للإستئناس، ومن خلال انطباعاتنا عما قيل في ذلك العهد الذي كان الإنسان المغربي يختلف فيه عن أخيه في المشرق، فالأول الذي حكم عليه بالتخلف زمنا طويلا قبل أن يلتحق بأخيه في المشرق، وهو المغربي، ذلك أنهم قالوا إن المشرقي عرف إنتاج الطعام ثم تطور بشكل عرفه كيف يختزنه، وذلك بعد ما قطع المراحل المعروفة في حياته الزراعية، في حين أن إنسان المغرب كان وقتها لا يزال إنسان رعي، وأكثر من هذا فقد حدد بعضهم أن تلك المرحلة بدأها إنسان المشرق حوالي منتصف الألف السادسة قبل الميلاد، في حين بدأها الإنسان في المغرب بعد ألف سنة، أي بعد منتصف الألف الخامسة، بل عند بعضهم إذا كان العصر الحجري الحديث قد امتد في المشرق الى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، فإنه في المغرب قد امتد إلى العهد الروماني، كما يقولون إن إنسان المشرق خرج من عصر الزراعة إلى العهد الحجري النحاسي، في عهد الأسرات بمصر مثلا، وبقي في المغرب الأقصى إلى عهد الرومان، ومرد ذلك الى طبيعة الإقليم التي أظهرت أن إنسان المغرب الأقصى في مختلف العصور تأخر فترة طويلة عن أخيه في المشرق، أما حين يربطون إنسان المغرب الأقصى بإنسان الصحراء الكبرى الممتدة من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي، فإن الأمر يختلف ويصبح في نظر بعض الدارسين لأصول الحضارة أن الذي بالمشرق إنتقل

= بعضهم أنهم من آسيا، وقال آخرون من عرب اليمن، وقيل من بني غسان، وقيل أخلاط من كنعان وعماليق..الخ ثم ختم، ومما يدل على أن أصلهم من بني كنعان وآل فنيقية بعض كتابات قديمة ومنقوشة على بعض الآثار القديمة باللغة الفنيقية، منها هذه العبارة" نحن الذين انهزمنا من أمام يشوع بن نون "إلا أنه لم يفصح عن مكان وجود ما أورد مع أنه متأثر بسفر يشوع بن نون الوارد في التوراة من الكتاب المقدس العهد القديم، والذي ورد فيه التشديد على الكنعانيين من ذرية حام الذي باء بلعنة والده نوح عليه السلام ملعون كنعان عبد العبيد. الخ.. راجع السفر وما فيه من أصحاح 23 في الكتاب المذكور ص: 337 ـ 78 ط القاهرة 1938 . وقد أتبعه بسفر القضاة الذي يتناول ذكر بني عمون الذين منهم البربر كما سنرى بعد.

من المغرب، حين بدأ الجفاف يعم بعض المناطق الصحراوية التي تنقل منها الإنسان الى تونس وبرقة ثم مصر حيث يتوفر له المأكل والمشرب، فقصد الواحات والأنهار، وهذا ما حدا ببعضهم الى ربط حضارتي المغرب الشرقي بحضارة الفيوم في مصر، وأنهما يرجعان إلى مصدر واحد، ويمثل لذلك بالأواني الفخارية الكروية الشكل والمستطيلة والمدببة القعر، وكل هذه الدراسات في المغرب لا تزال غير استقرائية، ولم يباشرها المغاربة بما لهم من معطيات في هذا المجال، بل اكتفوا بما يقدمه الآخرون رغم أنهم لم يتمكنوا من الفحص الكافي جيولوجيا لأرض المغرب الكبير.

الفصل التاسع

وحدة البشر بعد الطوفان

ومن هم المغاربة والبربر بعد نوح عليه السلام

لست أدري هل يحق لكاتب في هذا المجال أن يقصر الكلام على سكان المغرب في حدودهم الضيقة، وهل هو يستطيع ذلك إن أراد وأن يكتب كما يقتضيه الواقع بتناول كل الرقعة التي يوجد بها ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه إسم مغربي وبربري، مادام هذا البربري نفسه موزعا على مناطق وجهات، ولا يقتصر على المغرب الأقصى أو المغرب الكبير، بل يمتد وجوده إلى ما وراء الصحراء الكبرى شرق مصر وجنوبها، ونظرا للتقسيمات التي عرفت في التاريخ القديم والحديث، أصبح كل يعرف بانتمائه للموقع المحدد إقليميا مغربي، جزائري و تونسي، ليبي، مصري، نوبي، سوداني، تلك هي أماكن البربر ومواطن أصول اللاحقين منهم في التاريخ المحدد بطرد النبي داود لبني عمون الشعب التوأم لموأب عندما أعان العمونيون آل مؤاب، ضد بني إسرائيل وأذلوهم لمدة ثمان عشرة سنة عبدوا فيها العجل، والعمونيون كانوا بالتحديد في الموقع الذي يعرف اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية، وعاصمتها عمان المشتق من الجد الأصلي بني عمون(88) وإذا ما عرفنا التاريخ أن زمن داود عليه السلام الذي ملك فيه ثم توفي هو

---

(88) راجع خريطة فلسطين وفي الجنوب فيها توجد أماكن بني عمون وعاصمتهم «ربة عمون» غرب خط 30، ثم راجع سفر القضاة من التوراة العهد القديم، الأصحاح 3 فقرة 13، ثم الأصحاح 10 ف 6 والأصحاح 11 ف 23 ثم سفر صموئيل الأول (1) ص 11 ف 1 ـ 11 والأصحاح 12 ف 12، وصموئيل الثاني 2 الأصحاح 10ف او19، ثم إصحاح 11 ف 10 ـ 12 وأ صحاح 26 ف 30 العهد القديم. التوراة، طبع باشتراك جمعيات التوراة الأمريكية والبريطانية والأجنبية بتاريخ 1938 بالقاهرة، ثم راجع الدراسة المستوفاة عن التملود في آخر الجزء الثاني ثم الجزء الثالث من المجلد الرابع لقصة الحضارة، وعن التوراة، راجع ملخصها في كتاب ولز معالم تاريخ الإنسانية، وكذلك قصة سيدنا يونس بن متى، وما ورد فيها من إيماء لما أمر الله تعالى النبي يونان بالذهاب الى نينوي، لإعلان حكمه جل قدره، لكنه أسرع في الهروب فركب سفينة ذاهبة الى ترشيش في أقصى المغرب" وترشيش هي تونس، مما =

ما بين 1055 ـ 972 ق.م، أمكننا القول بأن البربر قدموا المغرب في حدود هذا التاريخ أي بعد ما أصبح المغرب يعيش في بطون التاريخ القديم بحضاراته التي انهارت ثم قامت ثم انهارت، وبدوله التي زالت ولم يخلف الزمان من آثارها ما يتعرف عليه اللاحقون بعدها حتى اليوم، إلا ما كان مما أوردناه عن الأطلسية. بل إذا كان هذا هو التاريخ الذي قدم فيه البربر وهو محقق باتفاق مع ابن خلدون(89) ومخالف مع صمويل الأول وسفر الملوك وأن داود نفسه وقتها كان تحت الحماية مخالفا لحرام ملك صور وهو ما لا يسمح لنا المجال بالخوض فيه أكثر. ذلك أن الزمن الذي شيد فيه الفنيقيون بعدهم مدينة قرطاجنة يكون هو آخر المائة التاسعة ق.م ماداموا قد شيدوا مدينتهم سنة 810 ق.م.

وهكذا لا يعتبر البربر هم أول من وجد بالمغرب في الوقت الذي نجد فيه ما يدل على وجود العمران قبل خمسة آلاف سنة، بل أكثر كثيرا في المغرب، ولولا تزاحم حكام الدول المتعاقبة على تدمير الآثار خصوصا البربرية والفنيقية، لبقي لنا ما يستدل به على التوغل في التاريخ القديم والحضارات الأولى في المغرب، وربما قبل حضارة الفراعنة والفرس والإغريق، مع أن شيئا من هذا لا نفقده لو أننا وجهنا العناية وقمنا بأبحاث و«حفريات» خصوصا في ليبيا والجنوب الممتد عبر الصحراء الكبرى حتى الحجار وشنقيط، ما دامت القبور البدائية التي تشبه الأهرامات "تيموليس" ممتدة عبر هذه المناطق، والتي لا شك أن منها ما يرجع إلى أكثر من عشرة آلاف سنة.

= يدل على أن هذه المدينة كانت عامرة وكبيرة زمن آشور وليست فقط لما وصلها الفنيقيون 810 ق.م. راجع الفكر اليهودي. ج. ه هرتس ص : 195 ط لندن 1920 وكذا الجدول الذي يعني وحدة البشر بعد في هذا الكتاب إذ فيه أن ترشيش هو ابن ياوان بن يافت بن نوح، بل نحن لا نذهب مع الأنثروبولوجيين القائلين إن القارة الإفريقية مهد الإنسانية، وأنها القارة التي اكتشفت فيها كل المتحجرات الإنسانية المطابقة لمختلف مراحل التطور البشري إلى غير ذلك مما أورده هنري لوط في كتابه عن طوارق الحجار، بل دراستنا هذه بعيدة عن هذا الزعم، ومن أراد زيادة الإستئناس في الموضوع يرجع إلى مادتي «حقب» و"زمن" في الموسوعة العربية ص: 728-927 – 28 ط 1965 وهو ما ذهب إليه بعض الغربيين بكثير من الغلو حتى قيل ما قيل بشيء من اليقين عن الإكتشافات المتحجرة وغيرها، ثم راجع تاريخ شمال إفريقيا، لشارل أندري جوليان ص 39 ـ 62، ترجمة مزالي ط 3 الدار التونسية للنشر 1978م وما فيه من المصادر والمعتمد عليها دون تمحيص.

(89) راجع العبر 191/6.

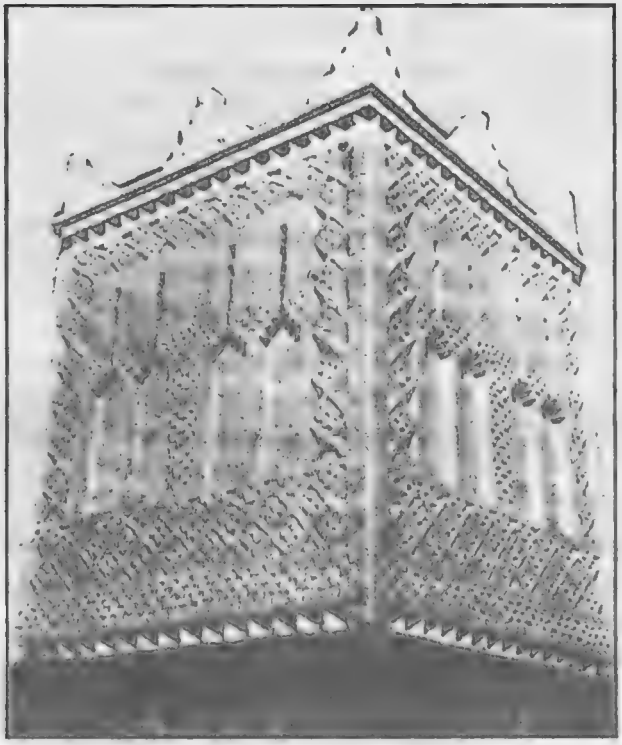

العمران المغربي قديما

العمران المغربي قديما

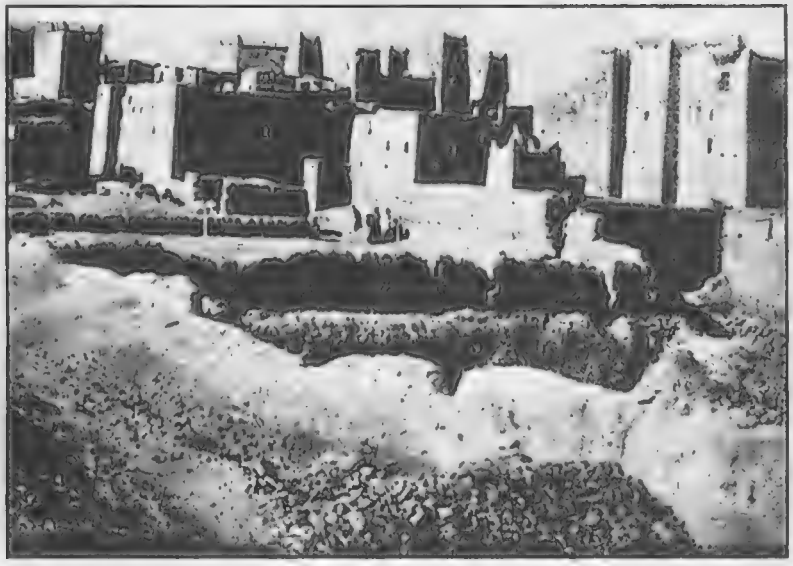

العمران المغربي قديما

العمران المغربي قديما

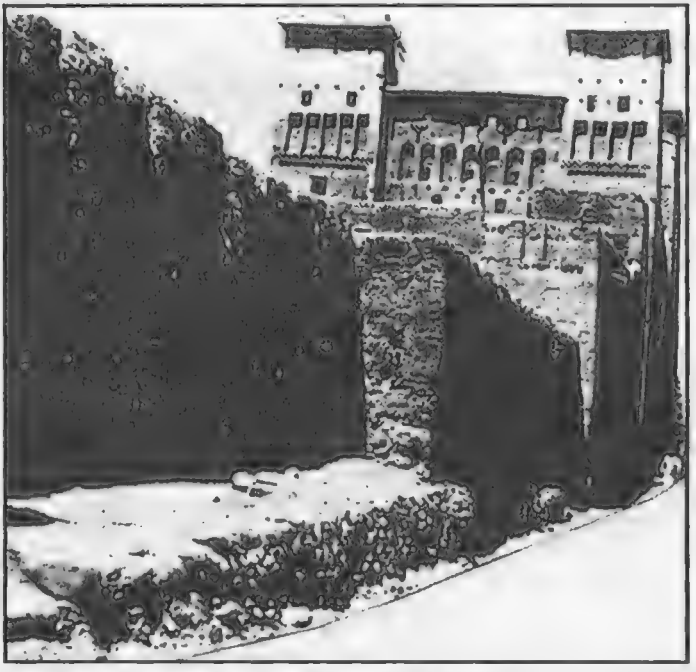

قصبة في دادس بالجنوب المغربي

وإذا ماذا عن تاريخ المغرب في التوراة(90) ورغم أنها لم تستعمل التحديد الزمني فهي وكما ورد فيها المصدر الأول لكل تواريخ الأمم والشعوب(91) فيما يرجع لأصولها ونشأتها وانتشار البشر في مختلف القارات.

تحدثت التوراة عن حياة نوح بعد ما أصبح يفلح الأرض، وبعد ما زرع الكروم، وصنع الخمر ثم شرب منها حتى ثمل وانكشفت عورته ثم أبصره حام أحد أبنائه الثلاثة بعد : سام، ويافث، اللذان وضعا الرداء على كتفيهما ومشيا الى الوراء، ثم سترا عورة أبيهما، تقول التوراة فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل ابنه الصغير حام، فقال حسب ما ورد في شروح اليهود وتحريفهم كي يخرجوا بفكرة السامية دون غيرهم، وأن حام الذي منه كنعان مغضوب على الولد كنعان لا على الأب الذي كشفه وهو حام، فقال : «ملعون كنعان كفرد وكشعب، عبد العبيد يكون لإخوته»(92) ولابن خلدون في مقدمته رأي في ما يعني السودانيين من هذه القصة وتقول التوراة أنه لم يلعن حام لأنه سبق أن باركه(93)و بهذا علل كتاب اليهود ما عرفته بلاد كنعان من استعمار، وما عرفه أبناء كنعان من تفرق في الأرض، في الوقت الذي بارك سام كما ورد في شروحهم للتوراة، وقال «مبارك الرب إله سام» أي أن نسل سام هو الشعب الذي اختاره الله، ومن نسل سام نبي الله إبراهيم بن تارح الذي ولد بأرض كنعان عام 200 بعد الطوفان، وقد توفي في حبرون بفلسطين عام 375 ب ط ونسله الذين اختيروا ليكونوا بين الشعوب الوثنية

---

(90) إستعمل العرب النسخة المعروفة بالسبعينية وهي التي عرفوها، واليوم توجد بين أيدينا نسخ محققة من اللغات الأصلية التي هي العبرانية والكلدانية وهي المشار إليها في تعليق سابق.

(91) لقد تعرض السيوطي كغيره من المؤرخين لهذا مشيرا إلى التوراة في غير تفصيل في كتابه (حسن المحاضرة) ج 1 ص 1 ـ 16، وذلك في ما يخص مصر، وقد سبقه المقريزي في الخطط، والأول كان ما بين 849 ـ 911 هـ/ 1445 ـ 1505م في حين سبقه الثاني حيث كان ما بين 766 ـ 846 هـ/ 1344 ـ 1442م والسيوطي عرف بملخصاته ومؤلفاته الخمسمائة ؟ والتي منها ما نسب إليه بدافع ظروف...

(92) تك9 : 20 ـ 24، وكتاب الهداية حام وكنعان ص15 ـ 18 ط 2 القاهرة 1900 لجمعية المرسلين الأمريكيين في الرد على كتاب إظهار الحق، لرحمة الله ابن خليل الرحمن الهندي ط 1280هـ وكتاب الهداية عنه أخذ المسمى سلمان رشدي الذي نال من شخص الرسول الكريم والذي أهدردمه الخميني الخ في حين أننا لم نجد من تحرك ضد هذا الكتاب الا ما كان مما قام به الأستاذ عبد الرحمن الجزيري صاحب كتاب « أدلة اليقين » في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره ط القاهرة 1934.

(93) تك9 : 1 وتك 9: 25.

كشعب للرب(94) أما يافث فقد فسح الله له ليسكن في مساكن سام و ليكون كنعان عبدا لهم(95) و يظهر من هذا تداخل العرقية بسبب الحروب والخصومات التي عرفها بنو إسرائيل مع جيرانهم. وإذا نحن تتبعنا قصة بني عمون وما حصل لهم مع بني إسرائيل حتى انتهى الأمر إلى ما فعله حانون برسل داود لما مات ملك بني عمون، وأرسل داود يعزي ولده فلما وصلوا أشار رؤساء بني عمون لحانون سيدهم أن ينكل بالرسل، فحلق لحاهم وكشف عوراتهم ثم ردهم إلى داود(96) بل لقد تمكنت العداوة بشكل أخذ حيزا غير قصير من التوراة بين العمونيين الكنعانيين والإسرائليين، الأمر الذي نستدل منه على ما فعل بالتوراة من حيث الإساءة إلى الكنعانيين دون غيرهم، على أن هذا لا يطعن في الحقائق التاريخية التي وردت في التوراة كما يقول النقاد : إن قصة التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة.

ومن الشروح الواردة حول التوراة وما ورد فيه من تاريخ، نجد أن ساما سكن آسيا، وكنعان سكن أرض فلسطين، وباقي نسل حام سكن إفريقية، ويافث سكن أوربا وأمريكا، بإحتلال البلاد الأسيوية كإحتلال اليونان والرومان لبلاد الفرس، والكلدان والأشوريين، فضلا عن استعبادهم للكنعانيين إلخ.

ونستعمل هذه الجداول بعد استخراجها من التوراة لنعرف كيف تكونت العشائر والقبائل من الأفراد، والذين سميت الأماكن بأسماء بعضهم وكيف أصبحت، ومنها الشمال الإفريقي الذي منه المغرب، وحتى لا نساير الترتيب الذي نهجته التوراة حيث رتب ذكر أبناء نوح، تقدم ذكر الولد الثالث يافث، ثم الأول سام، ثم الثاني حام(97)

---

(94) تك9 : 26.

(95) تك 9 : 27.

(96) صموئيل 2 :1.

(97) تك 9 : 20 ـ 24 و10 : إلى 23 ص 15 ـ 17 ط القاهرة 1938 ، لقد حصل جدال حول استعمال الكتاب المقدس كمصدر تاريخي، والذي استعمله المسعودي صاحب المروج، راجع ما ورد من تعليق مطول على كتاب مقالة في الإسلام للانجليزي جرجيس صال من ص 1 الى 95 ط 1891 تعريب هاشم العربي، ثم راجع سبائك الذهب للسويدي، وقد استعمله في ما إستخرج من أنساب دون النص على التكوين أو الأصحاح وذلك حين استخرج ما تفرع عن نوح، وقد استعمل ولز طريقة أخرى في معرفة الأجناس البشرية، وهي مقسمة الى أربعة بدلا من الثلاثة، وأن هذه الأجناس يقول. عملا بما أصبح عليه رأى العلماء قبل نحو الستين سنة أن هذه الأجناس منفصلة عن بعضها منذ الأول لانحدارها من أسلاف منفصلين في الأصل، راجع معالم تاريخ الإنسانية ج 1/131 ـ 2/ 273 ـ 290، وفي =

بعد خروجهم من الفلك واستعمار نوح في الأرض وتوزيع ذرية أبنائه الثلاثة، حسبما ورد في العهد القديم من الكتاب المقدس التوراة المتفق عليه من طرف اليهود والنصارى، وإن كنا على مذهب محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي في الآثار الباقية ص23 وما بعدهاط ليبزج 1823م وما قاله عن التوراة في ما يرجع إلى ماهية التاريخ ، وأن كل جانب فسر ما وضع حسب الذي يرضيه، ولذلك لا يوجد في الأناجيل من كتب الأنبياء ما يعتمد عليه.

يافث(98) وبنوه

1) جومر ومنه سكان أوربا الأولون في ولاند وألمانيا وفرنسا وإسبانيا وبريطانيا وإيرلاندا.. إلخ ومن جومر
- توجرمة : استعمر أرمينية
- ريفات... بولاندة
- اشكنار : ...الأناضول

ويظن البعض أنه استوطن ألمانيا.

2) ماجوج : منه تسلسل معظم الشعب الروسي والإيرلاندي ومنغوليا والأسكندناف.

3) ماداي :استعمر بلاد مادي، وفارس، والأفغان، وتركستان، والتبت.

4) ياوان:استعمر بلاد اليونان، ومقدونية، والجزائر المحيطة بها

وبنوه وهم :
- أليشة : استعمر جهات بلغاريا
- ترشيش : استعمر جبال طوروس
- كنيم : إستعمر جزيرة قبرص
- دودانيم : إستعمر منطقة الدردنيل وتركيا من ناحية أوربا

5) توبال : إستعمرحول البحر الأسود

6) ماشك : إستعمرالقوقاز وروسيا الجنوبية موسكو، ثم امتد الى روسيا وهنغاريا والنمسا وسويسرا وإسبانيا والبرتغال وأنكلترا وإيرلاندا.

7) تيراس : وهو الذي استعمر وبنوه من بعده تراقيا ورومانيا ويوغسلافيا وما حولها.

= هذه الصفحات أورد الكاتب ملخصا لما ورد في التوراة، وبالتالي فإن الأصحاح 929 من العهد القديم و260 من الجديد، تشتمل على شيء مهم وعظيم من التاريخ، واليهود والنصارى متفقون على العهد القديم، لكن بعضهم مثل شلوتزر الذي يعتبر أول من استعمل وصف السامية آخر القرن 18 م وقع في خلط نتج عن عدم التقصي في استعماله للتوراة.

(98) راجع تك10 ـ 6 وكتاب صدى النبوات لأرسناي ط القاهرة 1951. ولقد نسب الزياني في الترجمانة 77 أن أندلس إبن يافث بن نوح، وأن أولاده سبت وطنج وبلش الخ.

سام وبنوه (99)

1) عيلام : إستوطن بلاد العجم.
2) أشور : منه الأشوريون كانوا مستعبدين لنمرود ومواطنهم أعالي النهر.
3) أرفكشاد : إستوطن بين النهرين وجزيرة العرب على البحر الأحمر، ومنه شالح، ومن شالح عابر الذي هو جد إبراهيم(100) من حفيده تارح
4) لود : إستعمر آسيا الصغرى حيث تركيا الان.
5) آرام : إستوطن بين النهرين فسمي به سهل آرام وبنوه :
   - عوص : إستوطن خليج العجم
   - حول : إستوطن عند مخرج نهر الأردن وسوريا.
   - جاثر إستوطن آسيا الصغرى
   - ماش.....

فالج : كان سكنه بين النهرين وهو جد إبراهيم(ع)(101)

يقطان وبنوه : المودا، وشالف، وحضرموت، ويارح ، وهدورام، وأوزال ودقلة، وعوبال، وإبيمايل، وشبا، وارفير، وحويلة، ويوباب.

وقد سكنوا جنوب غربي شبه جزيرة العرب حيث عدن واليمن(102).

حام وبنوه (103)

1) سبأ: إستوطن بلاد الحبشة
كوش :
2) حويلة : إستوطن بلاد اليمن.
3) سبتة : إستوطن بلاد العرب.
4) رعمة : إستوطن بلاد عمان
5) شبا : إستوطن بلاد البحرين غرب بحر العجم
6) سبتكا : إستوطن بلاد حضر موت.
7) نمرود :مملكة بابل وأرك، وآكد وكلنة في أرض شنعار
8) دادان : إستوطن جنوبي غرب بحر العجم
9) أشور : بني نينوي ورحوبوت عير، وكالح، رسن، بين نينوى وكالح

---

(99) تك 10 : 21 : 31 .
(100) تك 10 : 1 ـ 26.
(101) تك : 10 : 25 وعند ابن خلدون فالغ 1 ـ 58/2، ثم راجع الحضارة المصرية لجوستاف لوبون ص12 ط مصر.
(102) تك 11 : 31 ـ32 وصدى النبوات لأرسناي 34 ـ40 ط 1951.
(103) راجع تك 10 : 6 ـ 20.

مصرايم: قدم من العراق الى مصر عن طريق برزخ السويس ومن نسله

1) لوديم : إستوطن طرابس الغرب.
2) عناميم : إستوطن الواحات بين جغبوب وسيوة
3) لهابيم : إستوطن بلاد برقة
4) نفتوحيم :إستوطن جهات الفيوم وما حولها.
5) فتروسيم:إستوطن بلاد النوبة ما بعد أسوان الى حلفا
6) كسلوجيم :إستوطن بلاد الوجه القبلي من مصر، وعند إبن خلدون أن ولده بر 6/ 185 ـ 86
7) فلتشيم: إستوطن شبه جزيرة سينا. من أرض مصر.
8) كفتوريم :إستوطن الوجه البحري والدلتا من أرض مصر.

فوط :

هو الذي إستعمر شمال إفريقية، غرب طرابس تونس والجزائر والمغرب(104)

هو الجد الذي استعمرالساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من جهة فلسطين.

---

(104) أرمياء : 46 : 8 ـ 9 حزقيال : 27 : 10 غ 30 : 5 ودانيال 11 : 13 راجع الجمهرة لابن حزم، 495 ط مصر 1971 وما نقل عن يوسف الوراق من أسماء البربر الذين ارتفع بهم إلى بديان بن كنعان، كما أقحم ابن عذاري حديثا رفعه ثم نسب بناء مدينة سبتة إلى ما قال عنه سبت بن سام بن نوح، راجع البيان المغرب 203/1 في حين أن سبته هو ابن حام، وقد استوطن بلاد العرب كما تقول مصادرهم مما يستفاد من أن استعمال التوراة بطريقة النقل المشوه توقع في الخلط، راجع تك 10 ـ 6، وقد حصل لابن خلدون نفسه لأنه لم يستعمل التوراة ولا ماورد فيها كنص يستشهد به في مجال التاريخ، وقد اعتمده الدارسون للتاريخ من المعاصرين اليوم، مثل السابقين راجع صدى النبوات لحليم أرسناي ص 34 ـ 40 ط 1951 ، بالفجالة مصر، والمحاضرات لأبي على اليوسي، ص : 266 ط 1976، ثم خطط المقريزي ج 1/ 33 ط. مكتبة إحياء العلوم بدون تاريخ وقد روى المقريزي عن إبراهيم بن وصيف شاه أن مصرايم بن حام لما حضرته الوفاة قسم مصر وما دونها على أولاده، ومنهم من سماه فارق، الذي خصه برقة وما دونها غربا فهو كما قال، صاحب إفريقية، وولده الأفارق، لكنه لم يذكر لنا مصدرا مع أن أولاد مصرايم الثمانية لم تذكر التوراة بينهم فارق، راجع ما سبق مما هو في الخطط المشار إليه ص :347. روى عن الهمذاني أن كنعان بن حام تزوج أرتيب بنت شاويل بن ترس بن يافث، فولد له حقا والأساود، نوبة، وفزان، والزغاوة، وأجناس السودان، ونجد عند المقدسي في كلامه عن البربر ج 69/4 ط باريز 1916 وفي حافاتهم أصناف من السودان يقال لهم زغل وزغاوة، ثم راجع بتحفظ تحفة الزائر لمحمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، ص 29 – 31 ط 2 / 1964 ، ودائرة المعارف للبستاني 2/ 457. فقد ورد فيها : أتريب بن قبط بن مصر، «بن بيصر؟» بن حام، بن نوح، وهو عنده الرابع من ملوك مصر بعد الطوفان تولى الملك بعد أخيه أشمون أو أشمن، وإليه تنسب مدينة أتريب، ولم يذكر لحام بيصر كما رأينا كذلك، راجع =

كنعان :

ومنه خرج صيدون ومن نسله :1) حثا. 2) واليبوسي. 3) والأموري. 4) والجرجاشي. 5)والحوى. 6)والعرقي. 7)والسيني. 8)والأروادي.9) والمصماري. 10) والحماتي. وأورد ابن حزم إسم بديان بن كنعان كأب أعلى للبربر، وهو أن كنعان الجد السابع لشانا بن يحيى بن صولات، والعدد غير مقبول زمنا.

هذه أصول البشر كجنس وسلالة يرجعون جميعا الى أصل واحد وهناك تقسيم آخر الى أصناف أقاموها على اللون والشكل منها :

1)الزنجي أو الأسود. 2)الأصفر والمنغولي أو الطوراني وأصنافه الثلاثة. 3) الأبيض وأقسامه الثلاثة.

الأول وهو الأثيوبي ووطنه أواسط إفريقيا وجنوبها.

1) الصينيون واليابانيون وسكان آسيا الشرقية

2) التتر والمنغول وغيرهم من سكان أواسط آسيا وشمالها وسكان شرق روسيا

3) الترك والمجر أو الهنغاريون والفرس والهنود إلخ.

= تك 10 ـ 6 ـ 19.

وهناك نظرية تقول بعدم سامية بعض الشعوب التي ضمها سفر التكوين الى السامية، مثل الليديين والعيلاميين كما تقول بعدم حامية الفنيقيين، وإنهم من أصل سام، وما أبعدوا إلا بسبب ما كان بينهم وبين العبريين من عداء وحروب ولاختلافهم في النظم الإجتماعية وشؤون السياسة والدين، مع أنهم من أخلص الساميين وأقربهم رحما الى العبريين أنفسهم ، راجع فقه اللغة لعبد الواحد وافي ص :2 ط : 1945، ولهذا السبب لم أتطرق الى الخوض في الموضوع بصفة عامة و اقتصرت على معرفة أصل المغاربة أولا و البربر ثانيا، وإذا تعذر علينا إثبات البربرية اليوم، فبالأحرى غيرها، لأن الموطن قد اتفق المدركون أنه لم يحتفظ بأهله الأقدمين، خصوصا وقد عرفنا التاريخ نسبيا على الهجرات الضاربة في القدم، تلك التي عرفت بها الشعوب السامية أكثر من غيرها، راجع المصدر السابق ص 8، على أننا نعود فنقول عن الجنس العربي ما قيل عن لغته التي وقع شبه اتفاق بين العلماء أنها أقدم لغة سامية، راجع الكتاب السنوي، للمجمع المصري، ص 137ط 1930، وكتاب الكنز في قواعد اللغة العبرية لمحمد بدر ص 1 ـ 20 المطبعة التجارية، بدون تاريخ، وبالتالي نجد إبن حزم يرفع نسب جانا الذي هو عنده جد زناتة أو بالشين شأنا الى حام، فهو بن يحيى، بن صولات،بن ورساك، بن ضري، بن زحيك، بن فاغش، بن بربر،، وفي رواية أخرى عنده كذلك أن ضري بن شفعون، بن نبد واد، بن تملا بن مادغش، بن هرك، بن برسق، بن كداد، بن مازيغ، بن هراك، بن هريك، بن بديان، بن كنعان، بن حام، بن نوح.وهناك رواية أخرى ترد زناتة الى قيس غيلان أي من العرب العدنانية، راجع نهاية الأرب للقلقشندي، ص : 273 ط القاهرة 1959م. على أنه لا تفوتنا الإشارة الى ما يعتقده الكثير من الباحثين أن موسى عليه السلام لم يكتب التوراة، بل قيل أنها منحولة عليه منسوبة إليه فقط، وآخر رأي ظهر في هذا الأمر للأستاذ نوط إذ نسب الى يوسف الصديق أنه كتب سفر التكوين. راجع قصة الطوفان وتطورها في ثلاث مدنيات قديمة لإسماعيل مظهر، ص 24 ط : 1929، ثم راجع مادة أسفي) في الروض المعطار للحميري، م.خ. نا مما يؤكد لنا أنه كتاب تاريخ...

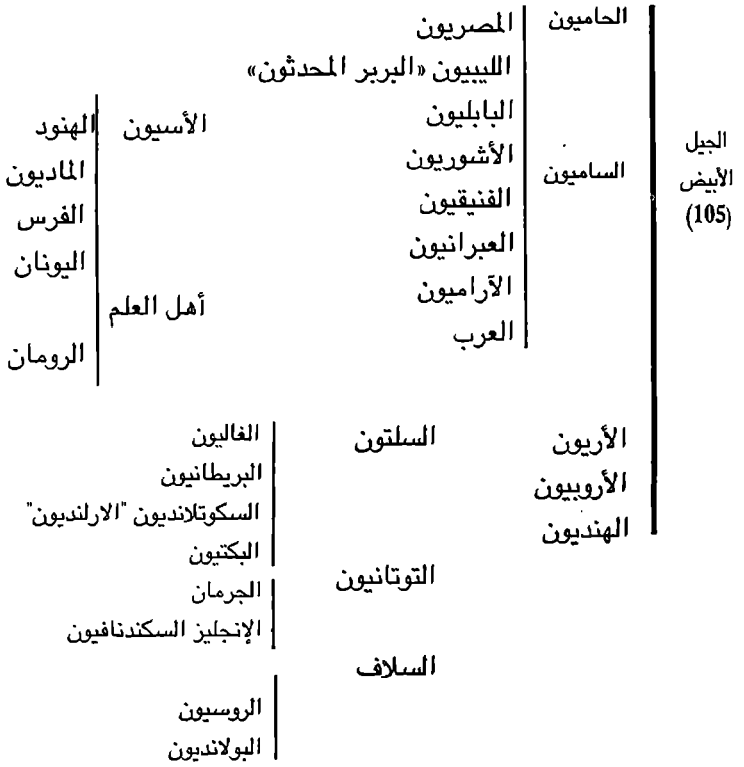

هذه أصول البشر وأصول المغاربة القدامى بين البشر، ولقد رأينا أن ابن حزم في جمهرته بعد ما نفى يمنية البربر وحميريتهم أورد لبعض نسابة البربر(106) ما جاء به في حق زناتة وجدهم الذي هو شانا(107) من الآباء الفاصلين بينه وبين كنعان بن حام ستة

(105) راجع التاريخ العام فان نس مير ص 8 –9 ط بيروت 1912 .

(106) الجمهرة ص: 495 ط : 1971 دار المعارف. مصر.

(107) وعند إبن خلدون بالجيم ج 185/6، وعن التوراة، راجع معالم تاريخ الإنسانية حيث أورد ولز ملخصا للتوراة المشار إليه، كما لخصه أحمد أمين في كتابه قصه الأدب في العالم ج79/1 ـ 112. ط 1943، ثم قصة الحضارة لول ديورانت ج 3م4. ص : 1 ـ 141، ولنا ملاحظة علي الجداول التي أورد الأستاذ أبو الفوز محمد أمين السويدي، في كتابه «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» ذات المجهود الكبير والتي لو وضعت جداولها بشكل آخر لافادت أحسن. والتي صعد بها الى آدم عليه السلام ولا مصدر قبل في هذا المجال غير التوراة، ومع ذلك لم يعتمد التوراة كنص تاريخي، ولو رجع اليه لما قال بما أورده عن النفي، في «بحر العلوم» من أن آدم كان يتكلم بألف لسان؟! دون الإعتماد على نص، بل أقحم في قوله تعالى : "وعلم آدم الأسماء كلها « مالم يتحمله معنى الآية الواضحة =

عشر وهو أكثر مما أورد ابن خلدون لصنهاج جد صنهاجة، وذلك نقلا عن ابن الكلبي، حيث أورد لهم ثلاثة عشر، وإذا نحن أخذنا بقول ابن حزم، تكون المدة الفاصلة خمسمائة وخمس وثلاثين سنة، ويقول ابن خلدون، أربعمائة وخمس وثلاثين سنة حسب ثلاثة أجيال لكل مائة، كما نص هو نفسه على ذلك، هذا في الوقت الذي نجده وغيره يخوضون في زمن قدوم البربر الى المغرب ويحددونه بزمن داود، وزمن تولي داود الملك ووفاته، معلوم، وهو ما بين 1055 ـ 972 ق.م ، كما أشرنا و هو ما سيعترضنا حين الكلام على أصول البربر، كما نجد شبه دراسة مستوفاة لآل مؤاب وبني عمون بشرق وجنوب شرق الأردن، وأنهم أصلا من سلالة لوط من ابنتيه اللتين خلفتا من أبيهما كما تقول التوراة، فمؤاب ابن الكبرى كما أن ابن عمي هو ابن الصغرى"تك 19: 30ـ37" وللمؤابيين في التوراة تاريخ مطول بسبب ما حصل من ملكهم بالاق بن بصور، وكذا ملك العماليق، وكيف استعرت الحروب بين العمونيين وبني إسرائيل في فلسطين، ولما أراد ناحاش العموني ويفتاح الجلعادي، أن يبرما صلحا بينهما أوائل ملك شاول بن قبيس 1095ق.م. اشترط ناحاش أن يفقأ كل عين يمنى في إسرائيل، ومن وقتها والحروب لم تنقطع بين الطرفين الى زمن داود بن يسي1085ق.م الذي أهين في رسله بالتعزية لحانون بن ناحاش الذي حلق لحاهم وكشف عوراتهم كما أشرنا. بعدها انتقم داود فهزم العمونيين، وفي هذه المرحلة رحلوا الى شمال إفريقية. راجع صمويل 2 : 1ـ 9 ثم 11: 10 ـ 12 ـ 26 ـ 30" .

ومن التوراة يستمد أن العبرانيين كانوا بالجزيرة العربية وما حولها، وأنهم قدموا منها عبر الصحراء ثم عبروا الأردن ونزلوا فلسطين. أرض الكنعانيين، ويقال إن النزوح كان حوالي 1400 ق م كما نزح الأراميون بعدهم حوالي 1300 ق م كما نزحت طائفة منهم الى العراق حوالي القرن العاشر ق.م. وطائفة نزحت الى الشام وقضوا على الحيثيين. وحين كلامنا عن العرب وطبقاتهم سنتعرف على أصولهم وأين يتصلون بالبربر في

= للدلالة . راجع السبائك من ص 10 ط المكتبة التجارة الكبرى بمصر سنة 1329هـ، كما.

نشير الى أن بعض المغاربة تأثر بغلو بعض المشارقة في الصعود نسبا الى آدم، وهذا ما فعله محمد بن المامون البلغيثي في شجرة نسب المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن مخطوطة خزانتنا، مع أن النبي صلى عليه وسلم قال : "لا ترفعوني فوق عدنان" إلخ..

أصولهم الضاربة في القدم. والتي يعجز التاريخ عن تبيانها والقول الفصل فيها، رغم ما اندفع إليه بعضهم، مثل ابن أبي زرع وصاحب الاستبصار وغيرهما، كالمسعودي الذي أرجع بعض البربر الى غسان، كما أرجع غيره بعضهم كصنهاجة الى اليمن، وتلك آراء سوف لانخوض فيها أكثر لأن العلم لا يوافق عليها، وهذا ما ذهب إليه عميد المؤرخين المغاربة المتأخرين بعد ابن خلدون، وهو أبو القاسم الزياني، الذي يؤكد ما ذهبنا إليه، بل الذي يرفع نسبه الأمازيغي الى أصول لم نعرف لغيره أنه حقق في ذلك خصوصا المتأخرين، فهو كما قال عن نفسه : أبو القاسم، بن أحمد، بن علي، بن إبراهيم، بن نوح النسابة، بن إبراهيم بن علي، بن الحسن، بن قاسم بن يحيى، بن عيسى، ويحيى هذا يقول هو أبو فخذنا من قبيلة ، زايان بن نوح ، بن فاضل ، بن علي ، بن زيان ، وهو أبو القبيل بن مالو، وهذا هو جد جماعة آيت أمالوا، بن يحيى، بن زقا، وهو أبوزمور، وبنو حكم، بن دهمان، بن علي، بن عجلان، بن واحي، بن حامد بن أويس، بن إليسع – الذي أسلم وقد كان على عهد عبد الملك بن مروان، وقبيله إذ ذاك بفزان من أرض الصحراء، قبل أن يدخلوا لسجلماسة– بن مدرار، بن علوان، بن سابور،بن رياح، بن سجفو، بن قرماط، بن ناجي، بن سليمان، بن بخت، بن علوان، بن ناجم، بن سجفو بن صنهاج، جد قبائل صنهاجة كلها. وهذا العمود – يقول الزياني – من إليسع الذي أسلم إلى صنهاج ذكره سابق بن سليمان المطماطي، في تاريخه في ذكر من أسلم من قبائل صنهاجة، ومن مالوا إلى اليسع ، ذكره التادلي في تاريخه عند ذكر قبائل صنهاجة وعنه نقله الجد علي بن إبراهيم، ومن الجد الى مالوا، من إملائه نقلته من خطه رحمه الله، عام سبعين ومائة وألف، ومن صنهاج بن عاميل إلى كنعان، بن حام. بن نوح عليه السلام مشهور مقرر في كتب التاريخ، كابن خلدون في ديوان العبر، وإبن حزم في الجمهرة عن الطبري، شيخ المؤرخين، قال الجد رحمه الله في التقييد إن السبب الحامل على رسم هذا العمود إلى صنهاج ثم إلى نوح عليه السلام، ما رأيته من بعض طلبة الوقت الذين عرفنا أصولهم وفروعهم ينتمون الى النسب العربي وهم ليسوا منه ويأنفون الانتساب لنسبهم البربري، ويقولون إن صنهاجة من حمير، وهم من صحيح قبائل البربر، وأن زناتة البربر يرفعون نسبهم إلى القيسية من مضر، وهم من صحيح قبائل البربر، وسبب انتساب صنهاجة

إلى حمير دخول طائفة من حمير في البربر(108) ...إلخ

ومهما يكن، فإن أصول البربر القريبة هي غير أصول المغاربة القدامى، هؤلاء يرجعون إلى فوط بن حام بن نوح، والبربر يرجعون إلى كنعان بن حام كذلك، وبالتالي فهم أبناء عمومة يجمعهم حام، ولقد نظم بعض المؤرخين ذلك حيث قال في خلط:

العرب والروم وفارس إعلمن ... من نسل سام فيهم الخير سكن
والقبط والبربر والسودان ... من نسل حام ذا له برهان
ياجوج والترك مع الصقالبة ... من يافث لا خير فيهم قاطبة

(108) عن الترجمانة الكبرى، مخطوط خزانتنا رقم 47 ص 175 ـ 176 ، ثم راجع نسب الزياني نفسه في نفس المصدر ، ص: 175 . ومن هذا يستدل على ماكان للعنصر العربي من شأن في عهد المولى إسماعيل الذي كان جد الزياني معاصرا له وإمامه في الصلاة وكيف كانوا ينكرون على السابقين ادعاءهم مثل صنهاجة المرابطين وزناتة الريفيين.. إلخ

الفصل العاشر

أصول البربر(109) وقبائلهم وتاريخهم القديم وممالكهم في المغرب الكبير

أصل المغاربةكما أثبتنا من (فوط) بن حام بن نوح، وأصل البربر من كنعان بن حام بن نوح، والذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى فلسطين حوالي بدء الألف الثالث(ق.م) ويخبرنا التاريخ المصري القديم لعبد القادر حمزة باشا ص 212ط 1940" أن قبيلة من كنعان وفدت إلى مصر في عهد الأسرة الثانية عشر في نحو سنة 1900ق م. وفدت من أرض كنعان مؤلفة من37شخصا بين رجال ونساء وأطفال حيث أمر الأمير «خنومهوتبو»

---

(109) إسم البربر أطلق على عموم سكان المغرب من طرف اليونانيين أيام قوة سلطانهم ومرضهم بوهم حب الذات كما أشار لذلك توينبي في كتابه : مختصر دراسة التاريخ ج 1/ 61. ط 1960 القاهرة وتبعهم في نفس الإطلاق الرومان كذلك ومن أتى بعدهم كما سنرى بعد.

أما الأقوال الواردة عند المؤرخين العرب والعجم عن البربر والتي تعرض لها القلقشندي في نهاية الأرب في معرفة أنساب ـ العرب فهي كما يلي :

البربر بباعين موحدين بينهما راء مهملة وراء ثانية في الآخر : جيل عظيم من الناس ببلاد المغرب وبعضهم بمصر وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا، فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم من العرب ثم اختلف في ذلك فقيل : أوزاع من اليمن، وقيل من غسان وغيرهم تفرقوا عند سيل العرم قاله المسعودي

وقيل خلفهم إبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن حين غزا المغرب،

وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبأ بعث سرية من بنيه الى المغرب ليعمروه فنزلوه وتناسلوا فيه، وقيل من لخم وجذام كانوا نازلين بفلسطين من الشام الى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجأوا إلى مصر فمنعهم ملوكها من نزولها فذهبوا الى المغرب فنزلوه، وذهب قوم الى أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وأنه كان قد ارتكب معصية فطرده أبوه وقال البر، البر إذ هب يابر، فما أنت بر. وقيل هم من ولد بربر بن ثميلا بن مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وقيل من ولد بربر بن كسلا جيم بن حام بن نوح، وقيل من ولد ثميلا بر ما راب ابن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح، وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح وقيل أخلاط من كنعان والعماليق، وقيل من حمير ومضر، والقبط ، وقيل من ولد جالوت ملك بني إسرائيل، وأنه لما قتل داوود عليه السلام جالوت تفرقوا في البلاد فلما غزا إفريقش المغرب نقلهم من سواحل الشام فصاروا الى المغرب إلخ

راجع المصدر المذكور ص 118 ـ119 ط القاهرة 1959 وصبح الأعشى1 : 360 –366 والعبر 6: 98.99.

بتصويرهم على جدران القبور، وقد أورد المؤلف الصورة في ص 58 ، وأول من أذاع الصورة هو شامبليون الذي فك رموز الحروف الهيروغليفية وهي مكونة من ثلاث أشكال رسمت على القبور، والقافلة الكنعانية التي وجدت صورها في قرية بني حسن من صعيد مصر قيل إنهم جماعةمن «الأمو عدد 37 جاؤا يقدمون للأمير حاكم الإقليم "خنومهوتيو" مسحوق الأنتيموا من البلاد الجرداء والمراد بالأمو الأسيويون البدو :بالبلاد الجرداء الصحراء، والآمو واضح أنها العمونيون، وأصل البربر من بني عمون، ومعنى هذا أن العمونيين عرفوا الهجرة غربا منذ عهد الأسرة 12 الفرعونية وملكها أوسيرطاسن، ولهذا فنحن لا نعدم ما يتصل بتاريخ البربر في تاريخ مصر الفرعونية، لو أن ذوي الإختصاص تمكنوا من البحث في الموضوع من خلال وثائق مصر القديمة، التي لم يتناولها أحد من هذا الجانب، وذلك أن الدارسين لتاريخ العبرانيين زمن الفراعنة استطاعوا أن يكشفوا لنا من خلال تلك الوثائق أن فرعون الذي إشترى يوسف(عليه السلام) هو طوطميس الثالث من الأسرة 18، وذلك عام 1729ق م، وأن أباه يعقوب (عليه السلام) نزل مع إخوة يوسف 12 إلى مصر عام 1706ق م وأن يعقوب مات عام 1689 ق م ويوسف مات عام 1635 ق م وتاريخ تعدد هجرات البربر كان في بداية الألف ق. م. وهو عهد كان الإنسان فيه قد تطور بالقدر الذي يكفي أن يكون المعنيون قد اهتموا بتدوين أسباب ودوافع تلك الهجرات بطريقة ربما تكون أكثر بيانا مما ورد في الكتاب المقدس المشار إليه أعلاه، خصوصا وأننا نجد في تاريخ مصر ولغتها ما يعرف ب "هيك سوس" أي الملوك الرعاة، لأن "هيك" كانت تستعمل عند قدماء المصريين بمعنى الملك، ومعنى "سوس" ، الرعاة ، إذا زاد عليها واو سوس فهي في لغتهم تعني "العرب" وفي المغرب الأقصى إقليم يسمى بـ "سوس"، والنسبة إليه « سوسي» وفي الجبل الأخضر بليبيا مدينة أطلقوا عليها "سوسة" ومثلها في تونس وفي المصادر العربية يتقدمها الروض المعطار للحميري من المؤرخين والجغرافيين، لم يعرفنا أحد على ما تعنيه كلمة "سوس الإقليم" ومن عرفه بهذا الإسم الذي أطلق عليه قبل الفتح العربي، إلخ...

والبربر أيضا يمكن الرجوع في البحث عنهم إلى ما ورد في التوراة سفر عاموس 9/2 وسفر العدد 33/13 ولو للإستئناس، مع أن تاريخ البربر لم يعد خافيا وقد تعددت

خريطة مواطن البربر قبل هجرتهم

مصادره من عهد الإغريق الى عهد الرومان والعرب، وقد قال عنهم ياقوت 574 ـ 626 هـ وأظنه نقل عن فتوح البلاذري ت 279 هـ لأنه جاء بعده بمآت السنين، وقد ورد عنده نفس الخطأ الذي لم يتفاداه المحقق لفتوح البلدان في كلمة :"عمون" التي وردت بالدال. يقول ياقوت :«البربر إسم يشتمل قبائل كثيرة في جبال المغرب، وأولها برقة ثم إلى آخر المغرب والبحر المحيط، وفي الجنوب الى بلاد السودان وهم أمم وقبائل لا تحصى.. وأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب وهو بهتان منهم وكذب ، والأكثر والأشهر أنهم بقية قوم جالوت، لما قتله طالوت هربوا الى المغرب فحصلوا في جبالها، وإنما هم من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين، وهم أهل عمود (كذا) فلما أخرجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا به وأقاموا في جباله، ثم أتى على أسماء قبائلهم، وعند المقدسي في البدء والتاريخ 73/4 . أن المغاربة هم سكان الحضر، والبربر وصفهم بدو المغرب، ومثل هذا عند الهمذاني في كتاب البلدان ص : 83 ط إبريل1303 هـ، وبالمثل اقتدى صاحب العبر.

ويقول هيرودوت 484 ـ 425 ق م الذي يطلق كغيره من المؤرخين اليونانيين إسم ليبيا على ما يعرف اليوم بإفريقية أو شمال إفريقية إذ يقول 42/4 ـ 4/ 181 ما خلاصته : إن صحاري ليبيا تمتد من ثيبة مصر إلى أن تبلغ أصنام هرقل، والراحل من ثيبة في الصحراء على مسيرة عشرة أيام واحا يقطنه الأمونيون. ثم قال 182/4 " وبعد مواطن الأمونيين بمسيرة عشرة أيام واح أو جلة ونخيله لقبائل الناسامون"وذهب ابن الوزان الى أن أصل التسمية للبربر هو : الفعل العربي بمعنى همس لأن اللهجة الإفريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات، ويقول : "إن البعض الآخر يرى أن بربر مكرور " بر" الذي هو الصحراء باللغة العربية، ثم جاء بقصة إفريقش الحميري الذي انتهى به المطاف الى إفريقية كما زعموا ولما استشار قومه قصد النجاة : أجابوه صارخين "البر : بر" أي الى الصحراء، راجع وصف إفريقية ج1 : ص 34 ط 1897 و قصة إفريقش قال عنها بعضهم غير صحيحة وهناك من يقول في كثير من التأكيد إن انتقال البربر إلى المغرب كان عن طريق باب المندب حيث اتخذوا طريقهم عبر الصحراء، شرق السودان وشماله ثم النوبة ومنها دخلوا ليبيا أول موطن لهم في أرض المغرب، ولعل هذا القول هو الأقرب الى

الصواب، غير أن صاحبه لم يستعمل من المصادر ما يزكي قوله ويؤكده ، وهو ما ذهبنا إليه اعتمادا على مصدر لم يستعمل قبل بالطريقة التي استعملناه بها. وهو كتاب التوراة العهد القديم كما سبق استعماله في معرفة أصول المغاربة قبل البربر.

حتما إن من يريد الخوض في تاريخ البربر اعتمادا على ما عرف من فروض غير مركزة ولا هي معتمدة على نصوص موثقة، كمن يسبح في بحر متلاطم الأمواج بعيد الغور ممتد الشواطي بحثا عن اللؤلؤ، وهذا ما فعله جل الذين قالوا عن البربر ماذا ع وانتشر من أقوال لا تبعد عن الفروض والاستنتاجات التي يمكن القول أنها تقرب الفهم، لكنها لم تضع حدا للمجازفات التي عرفها التاريخ لأجناس البشرية، ولهذا ولكي نمهد الدخول إلى تاريخ البربر الحق، إرتأينا أن نستعمل بالإضافة الى كل ما عرف من أقوال المؤرخين مصدرا لم يستعمله المؤرخون استعمالا علميا، وهو التوراة كما ذكرنا، فهو المصدر الوحيد القديم الذي يعتمد في أن البربر لا يرجعون أصلا إلى سام بل إلى حام الذي ينسبون إليه الخطيئة ضد أبيه، وهو ما لا يقبله عقل، والتي تعتبر في حقيقتها شبيهة بمعرفة أصل الإنسان عند الأخرين، وإذا كان التاريخ لا يضبط معرفة اللغة التي كان الكنعانيون يتكلمون بها فكيف حفظت لنا تلك الخطيئة التي ارتكبها حام في حق والده نوح حين كشف سوأته؟ وهي فيما يظهر لنا من صنع الناقمين العرقيين بعد، وأنها واضحة الإفتعال.

إن تلك الحقب من التاريخ الخاصة بحياة نوح الأولى قد ماتت موتا نهائيا، وما يثار حولها لايزيد عن تخمين لا يحسب ضمن الحقائق التاريخية، وكل ما يقدمه لنا "المؤرخون" في هذا المجال البعيد بعد آدم عن القرون المتقدمة عن حضارة النهرين أو الفنيقيين بصور، وصيدا، وقرطاجة، وكذا عن حضارة نهر النيل إنما هو تفصيلا وترتيبا من قبيل الغوص في بحر لجي بلا أمل في الحصول على مكسب يفيد ويجدي ما لم يعتمد على ما اكتشف من الوثائق والحفائر وما يحققه العلم بواسطة التنقيب المبني على المعرفة. إن كل ما ورد من ذلك فيما كتبه هيرودتس، وكذا ما ورد في أسفار الكتاب المقدس عن تلك العهود الموغلة في القدم لا يزيد أكثر عن مادة استئناس وعظة، وأما ما قرب من ذلك فإننا نلمس فيه تاريخا يفهم. يقول ابن خلدون نقلا عن الصولي والبكري : إن الشيطان

نزغ بين بني حام وبني سام فانجلى بنو حام إلى المغرب ونسلوا به، وقال أيضا: إن حام لما اسود بدعوة أبيه فر إلى المغرب حياء، وتبعه بنوه وملك أربعمائة سنة وكان من ولده بر بن كسلاجيم فنسل بنوه في المغرب (110) وهذا قول مرفوض بتحليلنا لما ورد في التوراة حول لعن كنعان وترك حام .. إلخ (111) .

وهكذا نجد أمثال البكري والصولي وغيرهما يقعون في خلط لم يكن له أساسا ولا هو موجود في المصدر المأخوذ منه، والذي أصبح كسلاجيم وبنوه هم الذين سكنوا المغرب بدل فوط وبنيه، وقد أثبت البحث أن فوط بن حام شقيق كوش، ومصرايم، وكنعان، وأن أبناء فوط هم الذين يوجدون في المغرب، في حين أن أبناء كنعان إستوطنوا بعد أبيهم الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من جهة فلسطين، ومنه خرج صيدون الذي سميت باسمه صيدا أصل الفنيقيين، ومن نسله حثا واليبوسي، بقية العشرة المذكورين قبل من نسل كنعان، والذين تنسب إليهم قبائل كنعان بن حام التي منها آل عمون أصل البربر، على أننا نجد من يقول إنهم أصلا من شالح حفيد سام، والذي هو شالح بن أرفشكاد، بن سام، بن نوح، وهذا ما لم يتحقق، ولم يقبله ابن خلدون نفسه، وربما الذي أدى به إلى هذا الرفض هو اعتماد التوراة قبل غيرها وإن كان لم يفد منها بالطريق الصحيح، ونعود إليه لنرى ما فيه مما أورده ابن خلدون(112) عن غيره مما أخذ عن الترجمة السبعينية للكتاب المقدس، وهي كثيرة الأخطاء في الطبعات المتعددة، ونحن نعتمد الطبعة الأمريكية 1938 المترجمة عن الكلدانية والعبرانية.، فقد ورد في سفر التثنية 13/3" كان كل أرض باشان هذه تسمى أرض الجبابرة"وهي من أرض كنعان واقعة

(110) راجع العبر6/ 185–186 وكيف أنه شوه ما هو مدون في كتب الذين أفادوا من التوراة (العهد القديم)

(111) تك 10 : 25.

(112) أظهر الدكتور طه حسين رحمه الله شكا في نسب ابن خلدون نفسه وهو في هذا غير مصيب لأنه لم يراجع ما أورده ابن حزم في الجمهرة ص 460 ـ461 ط مصر 1971م كما أن الدكتور أهمل أن الرجل بسلوكه سبق ما كيافلي وأنه كان في عهد دولة بني مرين التي كان على المهاجر من تونس حيث عدوه ابن تافراكين أن يتملق ويبالغ في التملق للبربرية وهو على حساب العروبة حتى يتمكن ويثير الأقوياء ضد الخصوم الأغبياء إلخ. راجع الفلسفة الاجتماعية، ترجمة عنان ص 9–10 ، ثم راجع سبائك الذهب للسويدي الباب 8 ص ، 102 – 103 ، الفجالة.

ولعل بعض ما قاله طه حسين عن ابن خلدون سبق به أبو القاسم الزياني الذي بالغ قدحا في ابن خلدون من أجل ذلك مع أن ابا القاسم الزياني بربري حتى النخاع.

شرقي الأردن، بين جبلي حرمون وجلعاد، وكانت تشتمل حوران والجولان واللجاه، يحدها شمالا أراضي دمشق، وشرقا بادية سورية، وجنوبا أرض جلعاد، وغربا غور الأردن، ويخترق جانبها الشرقي جبل باشان القديم، وهوالمعروف اليوم بجبل الدروز.

ولعهد يوشع بن نون " 1215 ق م الذي تعرض له الزياني في الترجمان، كان ملك باشان الجبار عوج وفي سفر التثنية3/11"عوج هذا هو وحده بقي من الجبارين، وسريره من حديد لم يزل في ربة بني عمون ، طوله تسع أذرع وعرضه أربع أذرع بذراع الرجل "، وفي سفر القضاة أن رئيس جيش ملك كنعان ورد عنه في 3/4" كانت له تسع مائة مركبة من حديد وقد ضيق على بني إسرائيل بشدة عشرين سنة" ثم راجع سفر الملوك1/13وصمويل1/13كذلك، ونجد في التوراة ما يستدل به على وصف الكنعانيين أنهم رجال حرب دامت بينهم وبين الذين كانوا يهاجمون ديارهم ومراعيهم طيلة خمسمائة سنة، وأنهم كانوا أهل بادية وحضارة كما ورد في سفر التثنية 3/4 ـ5 . من أنهم كان لهم من الحواضر ستون مدينة" كلها مدن محصنة بأسوار شامخة وأبواب ومزاليج" وقد نقلوا معهم هذا النوع من العمران إلى ربوع شمال إفريقية والمغرب الأقصى بنوع خاص، حيث نجد القلاع والحصون بدلا من الكهوف المنحوتة في الجبال والتي كان يسكنها المغاربة القدامى قبل البربر(113) والتي يوجد بها أثر هنا وهناك خصوصا في جبال الأطلس المتوسط. وهناك قصة أخرى يمكن أن يكون لها تأثير في نزوح العمونيين هي قصة تمرد أبشالوم إبن داوود على أبيه ورغبته في أن يحل مكانه في الملك ومن أجل ذلك استمال أبشالوم كثيرين من الشعب ضد أبيه بعدما ألبهم عليه بسبب قصة «بتشابع» زوجة القائد «أرياء، وأم سليمان ، فهرب داود من ولده أبشالوم، ولجأ الى العمونيين الذين نظم منهم جيشا كسر به شوكة ولده أبشالوم ثم قتله، وإذا كان الذين انتصروا لداوود هم العمونيون فإنهم كانوا ينتظرون الجزاء لكن داوود تنكر لهم مما دفع

(113) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر 501/3 ثم البستاني 276/5 وهذا ملخص ما ورد في العبر 175/6 وقد شوه التلخيص في ما يرجع للبطون و المواطن ، وقد أخذ عنه حرفيا بتشويه أكثر صاحب « قبائل المغرب »الجاسوس المشهور ، عبد الوهاب بن منصور حرفيا ولم يذكره دون مراجعة للعبر ، ثم أخذ مادة اريانة في البستاني 269/3 ، وعن البربر وأصولهم راجع الروض المعطار للحميري ، ج 129/2 مخطوطة خزانتنا رقم 103 ، على أن بطون البربر تصل إلى أكثر من نحو 800، وعن أصولهم أيضا راجع ولز 183/1 ط 1967 و الفنيقيون وركاز الذهب : عبد الله بن يوسف النحاس ط 1960 ونهاية الارب وصبح الاعشى و الجمهرة .

بهم إلى النقمة عليه لكنه حاربهم وأخرج الفلول منهم طردا من البلاد فدخلوا مصر ومنها بقية شمال إفريقيا .

ومهما يكن فقد اتفق المؤرخون على صحة نسب البربر ورجوعهم لآل عمون وهو ما قال به البلاذري « ت 279هـ 892م» صاحب أول مصدر عربي هو فتوح البلدان المشار إليه . وقد قسم علماء الأنساب نسب البربر إلى قسمين ، ولعلهم في ذلك اقتدوا بالعرب في إرجاعهم إلى قحطان وعدنان ، وما قيل عن رجوع برنس ومادغين إلى أب واحد موضوع لا يستحق البحث مادمنا قد علمنا أن أصول البربر قديما وحديثا يرجع إلى شعوب مختلفة ومتعددة ناهيك وأن ما أورده ابن خلدون من رواية ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد، ثم الوراق، و المطماطي، وهاني بن مسرور الكومي ، وكهلان بن أبي لوا، وهو نسابة البربر، يبطل ذلك كما أبطله ابن خلدون ضمن ما فند من رجوع بعضهم كتامة وصنهاجة إلى اليمانية وغيرها . جـ 175/6 مما يدفع إلى القول أن ابن خلدون وقع في خلط وتناقض ، كما نسب ابن حزم اعتمادا على نسابة البربر كلا من سدراتة ، ومزاتة ، ولواتة إلى القبط ، راجع الجمهرة ص 497 – 98 . ط المعارف – مصر 1971 .

وهذه أصولهم التي اصطلح عليها المؤرخون، واسم أبتر وبرنس لا تعني في نظرنا الأب الأعلى لكل فريق من الفريقين، ما دمنا قد عرفنا أنهم شعوب كثيرة ومتفرقة

أصول البربر: البرانس، ومنهم 1) إزداجة 2) ومصمودة 3) وأوربة4) وعجيسة5) وكتامة 6) وصنهاجة 7) وأوريغة 8) ولمطة 9) وهسكورة 10) وجزولة . ويصل مجموع هذه الأصول مع البتر إلى نحو ثمانمائة من الفروع(114)

(114) راجع العبر 175/6 – 178 ط . بيروت ، و لقد عثرت على ما نشر باسم التقي العلوي من دراسة في هذا الموضوع هي أصلا من إنتاج أستاذنا المرحوم الطيب العلوي تعرفنا عليه وأن أصولها تكون عند أبنائه ورغم ذلك فقد نسبها التقي المذكور لنفسه بلا خجل ، راجع مجلة البحث العلمي عدد 25 ، سنة 13 ، ص 61 ط يناير 1976م وبعض دراسات أستاذنا المرحوم الطيب العلوي سبق أن نشر بعضها في جريدة الرأي العام التي كانت تابعة لحزب الشورة في الخمسينات ، وبعضها لا يزال يحتفظ به بعض أبنائه ومنها مذكراته التي انتهت إلى نجله الدكتور أحمد الأستاذ بكلية الأداب و التي علمت من شقيقه الدكتور جمال الدين أن الهاشمي العلوي بقسم الشكايات من الديوان الملكي استعارها منه ولم يظهر لها بعد أثر، وهكذا صدق من قال « كلب حي أقوى من أسد ميت » لكن عظمة العالم الجليل والسلفي العظيم باعث الوطنية في الأطلس المتوسط أستاذنا الطيب بن أحمد العلوي لا تتأثر باختلاس التقي ولا بعمل الهاشمي العيساوي اللذان استغلا ظروف أبنائه رحمه الله .

البتر من مادغيس ومنهم	– نفوسة – أداسة – وضريسة – وبنولو الأكبر .

إن أصول البربر كما عُرفت قبل في المغرب الكبير، والتي تفرعت منهاجميع البطون والأفخاذ التي سوف نتعرض لبعضها من مصر وواحة سيوة وبرابرة جنوب مصر، وحتى الذين هم في تخومها من الذين رحلوا اليها في العهد الفاطمي ومن الجغبوب والكفرا وبرقة ثم غريان، وفزان، وجبل نفوسة بليبيا، ثم جزيرة جربة ومطماطة بتونس، وأما في الجزائر والمغرب الأقصى حيث كانت الكثرة الكثيرة بجبال الأوراس وبلاد القبائل الصغرى والكبرى، وما جاور سطيف، وغالمة، والمسيلة، وقسنطينة، ثم الأطلس الكبير والمتوسط والصغير وبقية المغرب شمالا وجنوبا إلى ما بين جنبات الجهات الممتدة عبر سجلماسة والسوس ودرعة ثم الساقية الحمراء إلى شنقيط، حيث انتشروا وتكاثروا بشكل جعل ابن خلدون يطلق عليهم أمما وشعوبا وكما قسمهم أبو القاسم الزياني إلى طبقات(115) هي:

الطبقة الأولى: من صنهاجة(116)وهم كتامة ولواتة، وغمارة، وزوارة وكراوة، وبرنوسة. وغياثة ، ويازغة وكبدانة ، وقلعية ، وكل هذه البطون وغيرها سوف نتعرض لذكرها بعد.

الطبقة الثانية : المصامدة : وهم رجراجة، وحاحة، ووركيسة، ومتوكة، وقدميوة، وسكتانة، وهشتوكة، وماسة وجزولة، ودكالة وزناتة، ومنهم مغراوة ويفرن، وتوجين، وراشد، ومرين، وبني عبد الواد، وعند الزياني. كل ما لم تسمعه من بني فلان فهو زناتي،

(115) راجع الترجمان المعرب 200/1 – مخطوطتنا – خ ع 658د.

(116) وقسمها إبن خلدون إلى سبعين قبيلة أم ومن ملوكهم بالصحراء تيولوتان بن تيكلان، الصنهاجي المتوني، راجع العبر 309/6 ـ 312 وملخص روضة النسرين لابن زاكور مخطوط ص 11 والروضة السليمانية للزياني 330 م خ نا رقم 106.

وهو بذلك يخالف ابن عذاري(117) والذي زعم نسبتهم إلى بربر قيس بن إلياس بن مضر.

وأما قبائل صنهاجة، فهي: صناكة، ولمطة، ولمتونة. وكدالة، وأوربة، ومغيلة، ومسوفة وتاركة ولزيغة، وزغارة، وزكارة، وتاجرة.

وكل هذه القابئل متفرقة بين جنوب مصر وتخوم المغرب الأقصى إلا المصامدة فكلهم بالمغرب الأقصى.

الطبقة الثالثة: من صنهاجة هم:أهل فازاز من درن(118) وهي قبائل زليت ومرموشة، وقبائل يدراسن، وقبائل مالو ، وقبائل زك، وقبائل مكدول، وتوروك، وقبائل يسري ممتدين إلى صناكة بالسوس، وأما قبائل لواثة فهم مجاورون لقبائل غمارة بساحل البحر إلى الريف.هذه قبائل البربر التي كان لها من الملوك ما أورد الزياني في الترجمان، وهم كما يلي بالتسلسل، وقد اخترنا ما عند الزياني لأن بعض الجداول التي أوردها ابن خلدون في العبر تظهر وكما عبر عنها المصحح مخالفة للنص ج "182/6"في كثير من المواضيع عربية كانت أم بربرية، ولذلك اخترنا ما أورده الزياني في المصدر المذكور،

. (117) يقول في البيان 200/1 إن زناتة مذهبهم عرب، وإنما تبربروا بالمجاورة والمحالفة وأصلهم بربر قيس بن إلياس وهذا مردود عليه بما أورده ابن خلدون وتبعده رواية ابن عبد البر صاحب التمهيد في الأنساب، راجع العبر 186/6 ـ 189 وفيه ما نسب لتماضر من شعر وهي أخت قيس ومثله لبعض علماء البربر، راجع الفصل 53 بعد من هذا الكتاب .

(118) الأطلس الكبير، وقدأدى البحث عند بعضهم الى أن صنهاجة من أصل عربي بحكم الشبه الذي قيل عززته الحفريات أواخر القرن الماضي بمصر، وأنهم قدموا زمن الدولة الوسطى والأسرة (12) التي أسسها أوسيرطاس الثالث صاحب ثيبة من عام2160 إلى 1491 ق م. بل منهم من حدد زمن النزوح 3064 ق م، وهذا يحتاج إلى سند صحيح، ثم راجع على هامش التاريخ المصري القديم : عبد القادر حمزة لوحة 8، مقابل ص 58 وتفسيرها ص 212، ط 1940 ، والصور 3 تمثل قبيلة من "الأمويل العمونيون وهم من كنعان قدموا مصر في سنة 6 من حكم سنوسريت 2 الأسرة 12 أي نحو 1900 ق م القبيلة مكونة من 37 شخص جاؤا يقدمون للأمير مسحوق الأنتيمون من البلاد الجرداء»الصحراء وفي الصورة الثانية بعض رجال القبيلة يحملون قسيا وسهاما ومعهم تيس ثان وحمار يحمل أمتعة وصبيين، وفي الصورة الثالثة أربع نساء يتقدمهن صبي يحمل سهما ومن خلفهن حمار يحمل أمتعة ورجل يحمل آلة موسيقية يوقع عليها وهو ماش ثم رجل آخر يحمل قوسا وسهما. وقد كان شامبليون أول من أذاع هذه الصور الثلاث بعد أن نقلها من مقابر بنى حسن في مصر وذهب إلى أن القبيلة قدمت إلى مصر زمن اليونانيين الأقدمين ولكن بعض العلماء خالفوه وقد قيل في هذه القافلة أقوال شتى راجع ص 113 ثم راجع من هذا الكتاب ما نقلناه عن الزياني في الترجمان.

خ.ع 658 دص:200 أما ما يتعلق بعمود النسب البربري قبل دخولهم الى المغرب فقد أورده في ص 441 وأما إذا نحن اعتمدنا القول برجوعهم لآل عمون وهو الأصح فخير مصدر يعتمد في هذا المجال هو : التوراة (العهد القديم)، والذي لم يستعمل قبل بالطريقة التي استعملناه بها في هذا الموضوع، أما أصول البربر فهم من :

مازيغ

بن

بربر هو جد صنهاجة

بن

هرك

بن

هريك

بن

مازيغ هو جد الطبقة الأولى من البربر وهو أبو صنهاجة وأول من حارب العماليق.

بن كراد

بن هرسق

بن هرك الثاني

بن ماذغيس الأبتر وهو الجالوت الأعظم وكان في زمن سيدنا موسى (عليه السلام)

بن

يملي

بن

نبدواد

بن

منفقود

بن
ضري وفي زمنه كانت واقعة نبي الله يوشع بن نون والبربرثم خرجوا من الشام لبرقة، راجع الأصحاح من 10 الى 14 يوشع.

بن
ورسياك

بن
صولات

بن
يحيى

بن
جانات هو أبو زناتة وفي أيامه كانت واقعة داود وقتله لجالوت ملك فلسطين. ولحقوا بالبربر إلى برقة ونزلوا صعيد مصر.

بن
برنس

بن
أيلان : ويقال في أيامه غزا إفريقش الحميري الشام ومصر وملكهما وتوجه بالبربر لغزو إفريقية..؟

بن
مصمود هو الذي توجه مع إفريقش لغزو المغرب كأمير على البربر وهو جد المصامدة، كما قيل، وهي رواية الطبري عن ابن الكلبى غير المصححة رغم اعتناق ابن عبد البر لها

وعند ابن حزم وأبي المجد المغيلي وغيرهما، أن زناتة هم أولاد جانا بن يحيى بن ولات بن ورتناج بن ضري إلخ

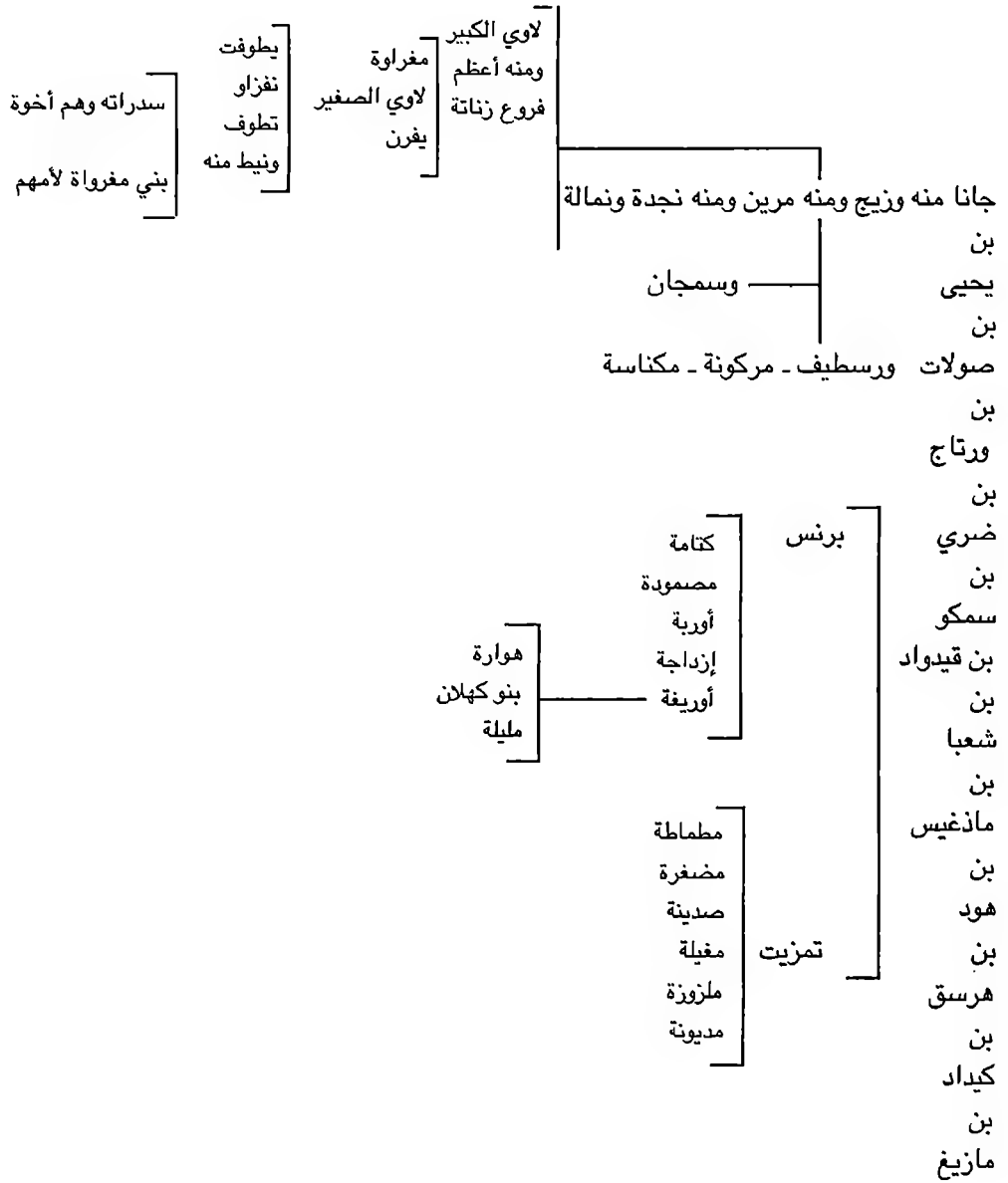
جانا منه وزيج ومنه مرين ومنه نجدة ونمالة
لاوي الكبير
ومنه أعظم
فروع زناتة
مغراوة
لاوي الصغير
يفرن
يطوفت
نفزاو
تطوف
ونيط منه
سدراته وهم أخوة
بني مغرواة لأمهم
بن
يحيى
بن
صولات
وسمجان
ورسطيف ـ مركونة ـ مكناسة
بن
ورتاج
بن
ضري
برنس
كتامة
مصمودة
أوربة
إزداجة
أوريغة
هوارة
بنو كهلان
مليلة
بن
سمكو
بن قيدواد
بن
شعبا
بن
ماذغيس
بن
هود
بن
تمزيت
مطماطة
مضغرة
صدينة
مغيلة
ملزوزة
مديونة
هرسق
بن
كيداد
بن
مازيغ

وأما ممالكهم قديما فهي :

1) مملكة بني ماور في منطقة تامسنا المعروفة اليوم مابين المحيط الأطلسي ونهر ملوية.

2) مملكة بني مازيسيل وملكها سفاكس في المنطقة ما بين سرتة ونهر ملوية.

3) مملكة بني ماسيل شرقا وهي مملكة هسينيسا.

وهذه بعض بطون البربر كما سجلها التاريخ:

أورد السويدي في السبائك أن البرانس : بطن من البربر وهم بنو برنس بن بربر

البلادية: بنو لواتة: ويقال لهم لواته باسم أبيهم من البتر من البربر، وهم بنو لواته الأصغر بن لواته الأكبر زحيك بن مادغش بن بربر

بطن من لواتة من البربر

بنو كورة قال الحمداني وهم يقولون إنهم من قيس عيلان

بطن من لواته من البربر وقال بعض النسابين إنهم من ولد بر بن قيدار بن إسماعيل عليه السلام وقيل غير ذلك وهم بطون كثيرة

بنو أبي كثير: بطن من لواته من البربر

بنو الحاج : بطن من مزورة من لواته من البربر.

بنو الجلاس : بطن من جد وخاص من لواته من البربر.

بنو الحلاك : بطن من جد وخاص من لواته منازلهم البهنسا من الديار المصرية.

بنو الحكم : بطن من مزورة من لواته من البربر (السويدي والحمداني) ثم بنو الحكم بطن من سعد العشيرة وعند الحمداني 61 من مصر بأعمال المنوفية

بنو الشعرية : قال الحمداني هم من أحلاف لواته البربر

بنو أوربة : بفتح الهمزة والراء المهملة والباء الموحدة بطن من البرانس من البربر وهم بنو أوربة من برنس بن بربر غلب عليهم إسم أبيهم فقيل لهم أوربة

بنو أوريغ : بطن من البرانس من البربر ويقال لهم أوريغة

أولاد زعازع: بزاعين معجمين وعين وعينين مهملتين عند السويدي بطن من لواته من البربر (وعند القلقشندي فضلا عن الحمداني115) و قيل من قيس عيلان و مساكنهم البهنساوية من الديار المصرية

الحساسنة : بالسين المهملة بطن من بني زريه من لواته

الضياعنة : بطن من بني زريه من لواته

القراططة : بطن من بني مزديس من البربر

بنو بركين : بطن من لواته من البربر وعند القلقشندي كذلك من قيس عيلان على خلاف

بنو حماد: في السبائك بطن من لواته من البربر وعند القلقشندي235 ـ 36 بطن من بلى من الفحطانية ومساكنهم ببلاد منفلوط من أرض مصر وعند صاحب البيان والاعراب ص 37

بنو ديمان : بطن من مكلاته من البتر من البربر

بنو روحين : بطن من لواته ذكرهم الحمداني، و عند القلقشندي مساكنهم بلاد البهنساوية من الديار المصرية

بنو زريه : بطن من لواته وعند الفلقشندي مساكنهم بالأعمال البهنساوية من الديار المصرية

بنو زمور : بطن من البتر من البربر

بنو زناتة : بطن من البتر من البربر ويقال لهم زناته بإسم أبيهم «جانا» وقيل «شانا» بني حمير بن صولات بن ورسياك بن ضري بن زحيك بن مادغس (جمهرة 462 قلقشندي 273.)

بنو زنارة : يقال لهم زنارة بإسم أبيهم بطن من لواته

بنو زوارة : بطن من كتامة من البرانس من البربر، وبنو زوارة يقال لهم زوارة باسم أبيهم بطن من ضريسة من البتر من البربر.

بنو زواعة : ويقال لهم زواعة باسم أبيهم بطن من ضريسة من البتر من البربر

بنو زيد : بطن من زربة من لواتة

بنو زيري : بطن من صنهاجة من البرانس من البربر كانوا عمالا للعبيديين بافريقية ولهم بقايا في الأندلس عند ابن خلدون

بنو سدراته : بطن من لواتة من البربر

بنو سوماته : بطن من البتر من البربر ذكرهم في العبر

بنو شهلان :بطن من لواته.

بنو صالح : بطن من زنارة من البربر من كسر بلاد المغرب (قلق 311)

بنو صنهاجة : بطن من البرانس من البربر ببلاد المغرب وهم بنو صنهاجة بن برنس بن بربر . قلق 317.

بنو ضريس : بطن من البتر من البربر ببلاد المغرب وهم بنو ضريس بن رحبك بن ماذغس بن بربر .

بنو عامر : بطن من لواته :

بنو عبد الحق : بطن من بني مرين من زناتة من البربر وهم بنو عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن ورزير بن فكوس بن كوماط بن مرين (قلق 336) .

بنو عبد الواد: بطن من زناتة من البربر وجاء في مخطوط خ.ع رقم 771هـ ص43 أنهم من عرب قيس غيلان . وهو غير صحيح بل من المؤرخين من تملقهم فنسبهم لآل البيت .

بنو عبيد : بطن من لواته من البربر وفيهم خلاف (قلق 347) .

بنو عجيشة : بطن من البرانس من البربر ومثلهم بنو عجيبة (قلق 351) .

بنو عرهان : بطن من زنارة من البربر .

بنو علي: بطن من لواتة من البربر (سبائك 502) وقيل من قيس مساكنهم بالبهنساوية مصر (قلق 369) .

بنو غرواس: بطن من مزورة من لواته(سبائك102) وقيل من بنو غيلان(قلق 401)

بنو عمارة بن مصطح بن قليل:بطن من مصمودة من البرانس من البربر (سبائك102)

بنو عمارة : بطن من معمورة من البرانس من البربر .

بنو قطران: بطن من هوارة من البربر ومن حمير على الخلاف (سبائك102، وقلق401.)

بنو قطوفة : بطن من لواته (سبائك 102) وقيل من قيس غيلان (قلق 401) منازلهم البهنساوية وعند الحمداني مقطوفة تجمع مغاغة وواهلة

بنو كتامة بطن من البرانس من البربر (سبائك 102) وعند (قلق 405)نقل عن صبح الاعشى 1/361 أنهم عرب

بنو كريب : بطن من هوارة من البربر (سبائك102)وقلق 405 وعند الحمدانى مساكنهم بالجيزة من الديار المصرية .

بنو مجدول : بطن من لواتة من البربر (سبائك 102).

بنو مجريش : بطن من هوارة من البربر .

بنو مختار : بطن من لواتة (سبائك 102).

بنو مرين : بطن من زناتة من البربر و هم بنو مرين بن ورتاجة بن ماخوخ ، بن وجريج بن فاش بن بدر بن يخفت بن عبيد الله بن زرتبيص بن المعز بن ابراهيم بن رحيك بن واليس بن نصيب بن سراء بن احيا بن ورسيك بن اديت بن جانا وهي زناتة.

بنو مزانة : بطن من لواتة الأصغر بن لواتة الأكبر .

بنو مسلم :بطن من زنارة من البربر ذكرهم الحمداني وأن مساكنهم البحيرة من أرض مصر .

بنو مصفونة : بطن من مردبيس من زنارة من البربر .

بنو مصلة : بطن من لواتة من البربر(السبائك 103) وقيل من العرب (قلق 422).

بنو مصمودة : بطن من البرانس من البربر سبائك 503 وقلق 422) وفي العبرهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم عددا وأوسعهم شعوبا ومنهم دولة الموحدين

بنو مغيلة : بطن من بني فاتن من ضرية من البتر ذكرهم في العبر.

بنو نزار : بطن من بني بلال من لواته (سبائل 102) وقيل فيهم خلاف بين البربر والعرب أنهم من قيس عيلان

بنو هسكورة : «هنتاته» بطن من البرانس من البربر وهم هسكور بن برنس من البربرأخو صنهاجة

بنو هنتاته : « هنتاته بطن من مصمودة من البربر منهم أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت .

بنو هوارة : بطن من أوريغة من البرانس من البربر وهم بنو أوريغ بن برنس من البربر وذكر الحمداني أنهم من ولد بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وقال ابن خلددون في العبر- وهو ما أبعده أبو القاسم الزياني : إن بعضهم يقول إنهم من عرب اليمن، فتارة يقولون إنهم من عامله إحدى بطون قضاعة، وتارة يقولون إنهم من ولد المسوربن السكاسك بن وائل بن حمير، وتارة يقولون إنهم من ولد السكاسك بن أشرش بن كندة، وبالمغرب منهم الجم الغفير، ومنهم بطون كثيرة عد الحمداني بعضها.

بنو واهلة : بطن من لواته

بنو يحيى : بطن من لواته ذكرهم الحمداني : الوسوه ويقال السوه : بطن من لواته.

بنوبلال : بطن من لواته ومنهم بطون كثيرة بنو جد وخاص : بطن من بني بلال من لواته وقد غلب عليهم اسم أبيهم فقبل لهم جد وخاص.

بنو جديدي : بطن من لواته (119).

---

(119) راجع السباتك في معرفة قبائل العرب للسويد 102 ـ 103.

تمثال رجل بربري من لبرونز القديم

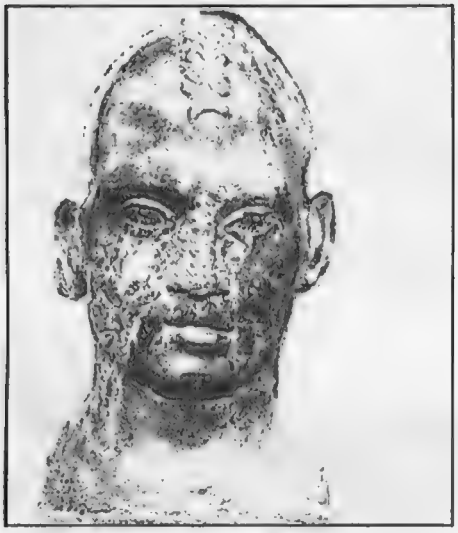

بربري

أصل هذه الغديرة التي هي عبارة عن
شعيرات تتدلى وسط الرأس وأحيانا من يمينه
ورثها البربر من الفنيقيين كما كانت عند قدماء
المصريين زمن توت عنخ آمون

الفصل الحادي عشر

من هم البربر اليوم في المغرب الكبير

تلك هي أصول البربر وفروعهم، بل وأماكنهم كما دونها المؤرخون، لكن هل بقيت القبائل البربرية متميزة ومعروفة بأصولها، معرفة حقيقية، أم اعتراها ما اعترى الأجناس الموجودة في هذه الأقطار من اختلاط وانصهار لم يعد معه مجال للتحديد، سواء من حيث الجنس أو الموقع؟

هذا ما حصل بالفعل، والذي نعنيه حين الكلام عن قبيلة أو بطن من بطون البربر في أماكن نذكر تاريخها إنما نعني ما كان لا ما هي عليه اليوم من واقع القبائل والبطون، وسواء اعتبرنا ما قيل عن سكان المغرب والشمال الإفريقي، بما فيه مصر هل تفرقوا من أقصى المغرب أوأدناه، أم نزحوا من المشرق إلى المغرب ومن الأطلسية أو بحر إيجة فإن أقوال المؤرخين وواقع الأصول الضاربة في القدم تجعلنا نقرر فكرة رجوع الأصول إلى المشرق، سواء في ذلك الأصول التي ترجع الى فوط بن حام، أو كنعان بن حام، كما نقرر أيضا أن البربر في المغرب وشمال إفريقية لم يكن وجودهم هو أول وجود للإنسان بهذه الديار، بل حتى أولئك الذين عرفوا قبل في برقة، وواحة سيوة، والكفرة، وفزان، وغريان، ثم أطلقوا عليهم "النسامون" وهي ناس عمون عند هيرودوت المشار إليه قبل و"البيسل" و"الماكسي" على الساحل التونسي، والمسولان ":النوميديين" في المغرب الشرقي على حدود الصحراء الكبرى والهضاب المرتفعة، أو المورو في المغربين (120)

(120) راج د الإسلامية 3/501 ـ 503 ـ 5/ 276 ـ 284 ، ثم البستاني وقد أخذ من العبر 6/175 ـ 239. ط1959 ، والموسوعة المغربية معلمة الصحراء ص 55 ـ 125 ط 1976.

ولقد استعمل هذه المادة بطريقة مكشوفة ومشوهة الجاسوس المشهور عبد الوهاب بن منصور فيما كتب مما أسماه قبائل المغرب والتي كلها سرقة مما صادرته السلطة الباغية من خزانة المؤلف 1968/6/14 ومنها كتب لم يذكر أرقامها مثل دائر البستاني و الإسلامية ومن الجغرافية السياسية للدكتور رفلة حتى جد اولها حرفيا إلى درجة أنه شوه تاريخ هذه الديار بطريقة تدعو الغيور لكشفه وفضحه وكما سنرى بعد في مواضع مختلفة ما جره هذا العميل الاستعماري القديم من إساءة لا لتاريخنا فحسب بل لمقدساتنا بتطاوله على تراث ومقدسات الآخرين ، مما دفعهم إلى رد الفعل..

هؤلاء لم يفعلوا أكثر من ترجمة ما نسب لهيرودوت "484 - 425ق.م" و ديودورو"21 ق م"، وأكثر منهم قربا الى الصواب أولئك الذين يربطون بين المغاربة وسكان المكسيك، والذين يتخذون لربطهم وسيلة التقارب بين الفنون وأشكال البنايات وبعض المظاهر، والتي نجدها أكثر وضوحا وجلاء في مدينتي شبام وكوكبان في اليمن، كما نجدها في حضرموت وجنوب الجزيرة العربية والحبشة، بل أقرب شبها بالطابع البربري والعربي السائد في شمال إفريقية غربا وشرقا، وكل هذا لا يخرج منه المؤرخ برأي سديد، وإنما هي فروض واستنتاجات أضيفت إلى ما سجله قدماء الإغريق من رؤوس أقلام لم نجد معها ما يزيد تسجيلهم وضوحا أوبيانا، خصوصا إذا علمنا أن كل ما راج من كلام المؤرخين كان حول الساحل الشمالي وما يقرب منه، في حين أن الدراسات التي لم يتعرف عليها السابقون أثبتت أن ما بين السودان والبحر الأبيض المتوسط. كان يزخر بالعمران والمدن، وهو كما أشار ابن خلدون(121) وأن الصحراء كانت على غير ما هي عليه تقطع بحمار كما يقول ولز، حيث كانت عامرة بالأشجار ومختلف الزراعة، آهلة بالسكان الذين نزحوا عنها الى المرتفعات الأطلسية، وبعد تحول الطبيعة وتبدل المناخ الأمر الذي يبعد بنا عن تحديد السلالات وتمييز الأجناس في ربوع القارة الإفريقية والشمال الإفريقي، ومهما يكن فإننا تقريبا للأفهام وبعد تقدم الزمان وتعدد الفتوحات نساير المؤرخين في إجماعهم أن الشعب المغربي يتكون من العناصر المشار إليها قبل، والأكثر وضوحا هما العنصرين البربري والعربي، واللذان يرجعان الى أصل واحد، وأن البربر الذين عرفوا بهذا الإطلاق الذي لا يعطينا صورة عن الأصل بقدر ما يطلق على النطق فقط، إنما هو إطلاق مصدره أقوال متعددة كماسبق، قيل إن الذي أطلقه عليهم إفريقيش الحميري بسبب رطانتهم لما غزا المغرب؟ وقيل هم اليونان الذين أطلقوه على كل من ليس أصلا من إسبارطة أو أثينا، بل على كل من لم يشاركهم حضارتهم ولغتهم، ومثلهم فعل الرومان مع كل من رفض حضارتهم ولم يندمج فيها، بل أطلقه العرب

(121) العبر 269/2 ، وسكان هذا الكوكب للدكتور محمد عوض ط 1936 ، وتاريخ السودان ص 87 ط 1903 ، ومعالم تاريخ الإنسانية لولز المذكور ، ثم راجع جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ص 244 ط القاهرة1956 ، وقد جعل البربر خليطا مصدرهم الشرق وكفى.

أنفسهم على كل متصف بالرطانة(122) واختلاط الأصوات، بل نجد بطنا من أعرق بطون العرب يطلق عليهم البرابرة بين عشائر العراق (123)، وهم بطن من الدغمان من الروالة من مسلم من عنزة ، أكبر قبائل العرب ، وإذا كان الموطن وظروف العيش قد طبعت البربر بطابع بالغ ابن خلدون في تكريمه تملقا، بالقدر الذي حط من شأن العرب ، فإنه وقع في خلط حين أبطل كل أقوال المؤرخين والنسابين ثم ردهم إلى كنعان وهو الأنسب عنده ، لكن فاته أن ما يجرى على المثل يجرى على المماثل ، ما دام العرب و البربر يتصلون في الأعلى. وإذا لم يكن الأقرب، يكن الأبعد ، ولقد تصدى الزياني للرد على ابن خلدون وهو البربري الذي يعرف أصله الذي رفعه الإسلام الذي وحد بين بني البشر لافضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ومهما يكن ، فإن المؤرخ الثبت لا يستطيع اليوم أن يحدد حتى أمكنة القبائل في المغرب وموقعها إلا من خلال ما سجله بعضهم قديما عن تلك الأماكن ، بل ولا عن قبيلة من القبائل المعروفة اليوم بمواقعها، أعربية هي أم بربرية لحما ودما، إلا ما كان مما يظهر وحسب الترجيح ، ذلك لأن المغربين الأقصى و الأوسط وهما اللذان انحازت إليهما قبائل البربر أكثر قديما ، هذين القطرين عرفت القبائل فيهما قديما تنقلات ومصاهرات لم تعرف بشكل أكثر في كل من تونس، وليبيا، ومصر، والسودان، حيث ساد العرب سيادة قضت على جل

---

(122) العبر 176/6 ط. 1959.

(123) عشائر العراق للعزاوى ص :280، وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة 171 ، ومعجم القبائل لعمر كحالة 71/1 ، ثم راجع البلاذرى فتوح البلدان 321 – 322 ط 1957م هذا وقد ربط بعضهم بين الملثمين الذين هم من صنهاجة و العرب في بادية الشام باللثام ، وهي من العادات الموروثة عن السلف وأن أصلهم كنعاني يرجعون جميعا إلى أصل واحد ، وقد قال ذو الرمة :

قليل على أكوارهن اتقاؤنا صلا القيظ إلا أننا نتلثم

وقال المتنبي: شديد ثياب الطرف والنقع واصل إلى لهوات الفارس المتلثم....الخ

ولعل الدارس لتاريخ أوربا يعرف هذا حين دراسته لأصول مجتمعاتها وما يطلق عليه الكلت أو الرومان أو الجرمان ، إذ يرجع الى الكلت كل الأجناس البشرية القديمة الموجودة بأوربا الوسطى و الغربية التي منها : البريطانيون الأصليون سكان الجزر المعروفة بهم ، و الايبيريون سكان شبه جزيرة إيبيريا ، وقد حلت الأجناس الجرمانية محل الكلت واختلطت بهم ومن ذلك الخليط نشأت الشعوب الانجليزية و الفرنسية...الخ راجع الاقطاع و العصور الوسطى ل.ج.و. كوبلاند ص 4 ط. 1946م ، ترجمة محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة.

مقومات البربر ، وسبب ما حصل في المغربين الأوسط والأقصى هو خضوعهما من بجاية إلى تلمسان وفاس ومراكش، وفي فترات متعددة إلى سلطان موحد منذ عهد الفاطميين والمرابطين ثم الموحدين وبني مرين في المغرب ، وكذا الحفصيين وهم مغاربة أيضا والذين آمتد سلطانهم زمنا من تونس إلى تلمسان وفاس وسجلماسة ، كما آمتد سلطان السابقين لهم على ربوع المغرب الكبير ، فنقلوا وحولوا ولم يتركوا قبيلة قط في مكانها.

في هذه الفترات حصلت تنقلات قبلية ، تارة عربية من المشرق إلى المغرب بنو هلال«443هـ» وبربرية من المغرب إلى المشرق زمن جوهر في عهد الفاطميين قبل ومن الشمال إلى الجنوب وبالعكس ، حيث حلت قبيلة عربية مكان بربرية وبربرية مكان عربية ، بل في المغرب الأقصى وفي الأزمنة القريبة نجد عبد المومن بن علي قليل هي القبيلة التي تركها في مكانها، كما نجد السلطان إسماعيل العلوي حول أكثر من قبيلة إن لم تكن قبائل من آيت امالو بالأطلس المتوسط إلى جوار مكناس ، وتلك هي قبائل كروان وتولال بعد ما قطع من رؤوس رجالها12 ألف عام 1104هـ/ 1692م ، ولم يترك منها فردا واحدا في مكانه الأصلي ، فحلت محلها قبائل ايت إزدك " الخليط " الذي تكون من أصول مختلفة، بل نجد في ليبيا مثلا قبائل هيب ومرة وغيرها من أشهر قبائل العرب تعرف بالدرسة و الحاسة ولبراعصة ولعبيدات وفي الجزائر نجد التلاغمة وبني عبد النور وزواغة قد اندمجت في قبائل زناتة حول سطيف وكالمة ، كما اندمجت أولاد اخيار ولحراكتة بسكان العين البيضاء من النمامشة ، ومنهم من انتقل إلى جوار تازة وأرض زعير بالمغرب مثل أولاد اخيار ، ويعرفون ببني خيران ، وفي تونس قرب نابل ببني اخيار. وفي ناحية وهران حيث بنو زعتيت وبنو يعقوب و المراشدة ناحية لبليدة ، وبنو مر بين شرشال وملیانة وأصلهم من مصر حيث لاتزال لهم بقية بصعيدها قرب منية القمح يعرفون بني مر، و «ومنهم جمال عبد الناصر» «قبل أن تنزح أسرته إلى الاسكندرية حيث ولد بغيط العنب رقم 84» وبنو بوخنوس و الأعشاش وبنو سنوس وآيت بوسعيد و الأحلاف على الحدود المتاخمة للمغرب غرب الجزائر، بل وبني حسن المقسمة ما بين مصر و المغرب.

هذه القبائل قد اختلطت بشكل لا يقبل التمييز فيما بينها ، بل هناك أسر من آل البيت الأداوسة ، وسلالة محمد بن سليمان أخو إدريس الأول ، امتزجت بهذه القبائل

وأصبحت تعرف باسمها. مع قرب الزمن الذي هو اثنى عشر قرنا فقط. فكيف يمكننا والحالة هذه أن نقول إن هذا بربري أو هذا عربي ، لم يتغير منه المخبر ، وإن كنا نميزه من حيث المظهر ، ولربما بواسطة لهجة طارئة. هذا في الساحل وما حول الساحل ، أما في القبائل المتاخمة للصحراء جنوبا من نهر السنغال إلى واحة سيوة شرقا ، والممتدة عبر الصحراء الكبرى من شنقيط و الداخلة ثم الساقية الحمراء ، وما حول سجلماسة إلى ريغ وورگلة ، ثم واحة مزاب إلى الأغواط وقصور بوسمغون ، بل ريف المغرب شمالا وقبله الشاوية وتادلة ودكالة ، وذوي حسان في السوس ودرعة حيث نجد بطون الخلط وقد تبربرت في كل ما ذكر لا يمكن للدارس أو المؤرخ المتثبت أن يقول : إن هذه القبيلة بربرية تنتمي لطبقة من طبقات البربر أو أصولهم بترا وبرانس، ولا عربية تنتمي إلى سليم معقل أو هلال ، ما عدا البعض من المغاربة وهم الأشراف من آل البيت في جهات معينة وليس في كل الجهات أولئك هم الذين كان لهم نظام مكنت له كل الدول التي أعقبت دولة بني مرين حافظت به على أنسابهم وسلالاتهم. إلى عهد قريب وأما اليوم فقد اختلطت الدماء و ضاعت الأنساب ، وتلقح المجتمع بعناصر ملوثة فلا أحد يمكنه القول بحقيقة أصولهم وهو جازم هذا في نسب آل البيت فما بالك بغيرهم من الذين لم يعرف لهم نظام ولا نقباء لحفظ الأنساب ، ولوكما حصل للسابقين من المؤرخين كسابق بن سليمان المطماطي أو ابن الكلبي بل ولا حتى وثوق ابن خلدون في القرن الثامن الهجري بل ولا حتى الزياني في الثالث عشر ، خصوصا إذا علمنا أن بعضهم ادعى النسب تحت ضغط واقع المجتمع المغربي الذي كان قبل يحافظ على تلك التقاليد التي لا تكرم السلطة و الجاه تكريمها لآل البيت إلى عهد ما بعد الاستقلال.

ولعل هذا ما جعل كبار المؤرخين من المغاربة يتركون في الكثير الغالب تحديد أماكن البطون من القبائل ويكتفون بذكر بعض أماكن الأصول كما يفعل ابن عذارى والزياني ، وابن أبي زرع ، إلا قليل يعين فيه الثاني مواقع بعض القبائل. كما سنفعل نحن كذلك حين كلامنا عن المقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي.

إن بعضهم في المغرب اليوم بل وفي الجزائر اقتداء بما خلفه المستعمرون من كتابات فجة في الموضوع كثيرا ما يؤرخون للقبائل المعروفة بأماكنها اليوم ، ويقولون هذا

بربري العنصر لأنه يوجد حيث كانت توجد قبائل وبطون تسود فيها اللهجة البربرية، مثل الريف والسلاسل المختلفة لجبال الأطلس وسوس ، بل وفي أزمور وما حول مدينة مراكش من جهاتها الأربع مارين على سجلماسة ودرعة إلى فجيج ثم بني يزناسن ، لا يمكن ولا حتى « لأهل مكة » الذين هم أدرى بشعابها وبطون قراها أن يقولوا قطعا إن هذا البطن أو الفخذ يرجع إلى قبيلة معينة ، إلا بالقدر الذي هو واضح ومؤيد بما بين أيدينا من الوثائق التي لا علاقة لها مع الأجانب المقتدى بهم ، خصوصا الذين كتبوا زمن الحماية والاستعمار ولفائدة تركيز الحماية و التمكين للاستعمار(124).

وليس هذا خاصا بالبربر، بل بلاد العرب تهامة ونجد و الأحساء ، وعسير، والحجاز و اليمن، ومثلها العراق ، والأردن، بلاد العشائر والفصائل وموطن الأصول العربية ، لا يمكن لأحد مهما أوتي من القوة و العزم أن يحدد لنا إن كان هذا البطن من بطون العرب وفي موقعه اليوم يرجع أصلا إلى قبيلته المعروف بها في الجاهلية ، أم أن قبيلته زالت وحلت أخرى مكانها بنفس الموقع ثم أخذ هو نفس الاسم و اللقب الذي عرفت به الثانية ولعل هذا شيء تعرف عليه علماء اللغة القدامى، أولئك الذين كانوا يقصدون القبيلة للتعرف على لهجتها ، فيتبين لهم أنها نزحت وحلت بموقعها أخرى أخذت اسم النازحة، وبنظرة خاطفة لتاريخ القرنين الأولين من تاريخ الإسلام نتبين صواب هذا الرأي، وأكثر بعد ظهور الفاطميين واستيلائهم على مصر بعد ومعهم عشرات الآلاف من البربر ، ثم دفعهم أربعمائة ألف عربي من هلال وسليم ومعقل لغزو شمال إفريقيا بعدما زودوا كل واحد بعيرا ودينارين زمن المعز. ولما وصلوا برقة ودمروا حضارتها وما تبقى من أثر اليونان والرومان فيها أخذت القبائل تفر من وجوههم إلى أن قويت جموعها ثم أوقفتهم أودفعت بهم إلى الخط الممتد جنوبا عبر الجريد، ولذلك نجد قبائل العرب بقيت في الخط الممتد من شنقيط غربا إلى واحة الكفرا وسيوة شرقا.

وشيء آخر هو أن بعض القبائل البربرية تعربت وأخرى عربية تبربرت ، بل من الأدارسة المعروفين في المغرب الكبير معرفة واسعة من وجدوا ضمن منطقة تتكلم اللهجة

(124) كتب حول البربر و المخزن «روبير مونطان» ، كما «كتب ريبو» عن الجماعات البربرية ، «وفكتوربيكية» عن تاريخ المستعمرات الفرنسية ، «وتيراس» حول تاريخ المغرب... الخ وكلهم لغرض ساقط طبعا.

البربرية أصبح لسانهم لا يعرف غيرها. وقد حصل هذا في زمن معروف ولقوم يعرفهم التاريخ كما يعرفهم قليل من الناس اليوم ، فمثل الأولى التي تعربت، دكالة وتادلة والشاوية أصل البرغواطية ، ومثال الثانية آيت ولال فرع من آيت عطا التي منها أحمد بن يعقوب الولالي(125) دفين ضريح السلطان إسماعيل بمكناس.الذي نص في مقدمة كتابه «شرح السلم » في المنطق على أن آيت والال من قريش ، وكذا آيت صغروشن التي حل بها أولاد على بن عمرو بن إدريس ، وآيت حديدو التي حل بها أولاد عيسى بن إدريس ، ومصمودة التي حل بها وبسوس وفاس ، أولاد عبد الله بن إدريس ، هؤلاء جميعا لا يعرفون العربية ، ونسبهم الصحيح السليم ملئت به كتب التاريخ مثل إخوتهم الوادغيريين أهل فجيج الذين يرجعون إلى أحمد بن محمد بن إدريس ، وغيرهم من أشراف القصور الستة الأخرى ، ولهجة زناتة هي لسانهم الذي يتعاملون به ، ثم شرفاء واد زيز المعروفين بالبوكيليين. ومثلهم في الريف شمالا كثيرون جدا .

هذا الاقتناع يدفع إلى عدم القول بتحديد الفاصل بين الأصول البربرية و العربية في المغرب ، بل ولا حتى بتحديد الأماكن ، ولهذا سيكون كلامنا عن « البربر » كسكان للمغرب الكبير عموما و الأقصى بالأخص ، لا يهتم كثيرا بتحديد أمكنة القبائل أو البطون ولا مواقعها إلا ما يرد عرضا أو ما يقتضيه واقع الحال ، ولا يكون إلا بالنسبة للقبائل العربية المستجدة الاستطان ، و التي يرجع تاريخ القديمة منها إلى زمن الفتح العربي ، وهو زمن قريب بالنسبة لتاريخ المغاربة القدامى ، بل حتى البربر مثل زناتة الذين قيل إن جدهم جانا وهو الجالوت الذي قتله داوود عليه السلام 1055–972ق م ، أو الذين تحدث عنهم التوراة وأنهم قدموا إثر الفتن و الحروب التي حصلت زمن يوشع بن نون « الأصحاح10-16». هؤلاء وأولئك من الذين عرفوا بعد باسم البربر أين هم ؟ ومن يتعرف عليهم ؟ وقد عاشوا منذ آلاف السنين في حروب لم تنقطع فيما بينهم أولا ، ومع الدول التي استعمرت البلاد مآت من السنين قبل الإسلام.

إن فكرة البربر خرافة ، إن لم تكن فقرات ملهات يرددها الفاشلون والمهمشون من بقايا العهد البائد والعهد المريض الجديد. لغاية ظهر وانكشف ما يقصده المندفعون

(125) راجع فصل : عروبة عطا وأعنف معاركهم في جبلي يوكافر وصاغرو ضد الغزو الفرنسي 1933 .

لها(126) بالامتيازات الطبقية القائمة على الاستغلال المادي أكثر من أي اعتبارات أخرى ، بدليل أن بعضهم اليوم تفرنس لغة ومصاهرة ثم انفصل عن أصله الوضيع وليس الرفيع من أجل ذلك الاستغلال الذي تميزت به الطبقة الجديدة التي لها من وسائل الاستغلال اليوم أكثر مما كان لها ولساداتها قبل وفي عهد الحماية لأنها وافقت هوى المندسين والمسيطرين المتسلطين على الشعب المحروم المفترى عليه وعلى دينه وخلقه واستقراره.إن الطبقة الجديدة المندسة في المجتمع المغربي والتي تريد له التمزيق والانهيار، هي تلك التي لم يكن لها من قصد فيما تنادي به وتدعو إليه من تمييز بين العرب و البربر غير أنها تحقق أغراض الاستعماريين الفرنسيين الذين أخذوا العهد عليهم بذلك كشرط تلقائي حتى يقبلوا مصاهرتهم ، والامتزاج بدمائهم التي اختلطت بدمائهم الفاسدة ، أولئك بقايا عهد الإذلال والارهاق الذين أصبحوا قوة في مغرب ما بعد الاستقلال، على حساب المغاربة الذين ربط بينهم الدين و التاريخ المشترك ، ثم جعل منهم قوة لم يعرفوا بها قبل أن يكونوا مسلمين ، بل ذلك هو واقع المغرب المسلم الذي ما عرف العزة والقوة والمناعة وسلامة البيئة إلا بالإسلام وفي ظله ، وأما عن البربر من هم؟ فإذا كان الحديث النبوي الشريف كما سنرى قد أبان أن العربي هو من يتكلم العربية، فإن البربري لم يكن غير ذلك ، وهل كل من يتكلم باللهجة البربرية بربري ، بل هذه أصبح بعد يتكلم بها العموني ، والقبطي، والفنيقي، والروماني، والوندالي، والبيزنطي، والعربي، وحتى اليهودي، وغيرهم من الطارئين في عهد الاستعمار الجديد والقديم.

ومهما يكن ، فإن واقع المغرب الذي لا يختلف حوله رأي من واحة سيوة إلى تخوم وادي نول ، هو أن التمازج بين السلالات البشرية ، وربما حتى بين الحضارات التي هضمها الفكر المغربي ثم حولها إسلامية عربية، قد انصهرت وأصبحت تعرف بشعب المغرب الكبير رغم ما قيل من دهاقنة الاستعمار عن نسبة البربر في أقطار المغرب الكبير من أرقام أوردها الأوربيون في كتاباتهم التي قالوا عنها أن نسبتهم في ليبيا 0.5٪ وفي تونس 5٪ وفي الجزائر27٪ وفي المغرب 60٪ ، راجع كتاب وجهة الإسلام لجب

(126) راجع الحركات الاستقلالية ع ف 161 – 164 ط 1948 وحول موضوع البربر الذين تعربوا في الأندلس راجع الجمهرة لابن حزم مصدر سابق 498 – 502.

و"ماسينيون"(127) ص 62 – 63 ط القاهرة 1934 و في هذا دلالة على السطحية التي تناول الكاتبان بها الموضوع إذ لم يدركا أن من القبائل المستعربة في ليبيا التي وضعوا لها نسبة 1.5٪ قبيلة فزارة التي منها ما يعرف بـ : أولاد محمد ، و المساورة و المكاشر، والمواجد ، والمواسى ولحساسنة ، والنحاحسة والشنفة والشعوب ، ومن بطون لبيد بن سليم بن منصور ما يقرب من الثلاثين، راجع العبر6 ، ونزهة المشتاق والمؤنس وغيرها من المصادر المشار إليها قبل.

يهودي مغربي بربري

(127) سماه الدكتور محمد البهي بـ «طريق الإسلام» وذلك حين كلامه عن الفكر الإسلامي الحديث والاستعمار، والذي رتب فيه «لويس ماسينيون» ضمن المستشرقين المعادين للإسلام في الوقت الذي نجد لأفكاره دعاة ومتحمسين جلهم من مرضى الانحراف و الشذوذ و الذين أقبلوا عليه وعلى أفكاره أول عهد الاستقلال جاهلين أنه الذي صرح أنه حمل الرسالة من أجل تنصير البربر ، كما سلمها له دوفوكو حسب قوله كما سنرى بعد.

حارة اليهود قبل في فجيج

التوارق وهم الملثمون

هكذا كان القوم منذ مآت السنين ولا يزالون
حلاق من تينغير بالأطلس المتوسط

طفل بربري والغديرة عراقية

يهودي مغربي

الفصل الثاني عشر
المغاربة والمظاهر الغامضة
في تاريخ حضارتهم

أول من ذكر البربر بصفات قيل إنهم يتميزون بها هو ابن خلدون الذي وصف بعض مظاهر الحياة في أقاليم المغرب وشمال إفريقية ، ثم قال عنهم : يتخذون البيوت من الحجارة و الطين ومن الخوص و الشجر ومن الشعر و الوبر ، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة ، ولا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ، ومكاسبهم الشاء و البقر و الخيل في الغالب للركوب و النتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب »(128).

من هذا يتبين لنا أن ابن خلدون وصف ماعاش ورأى من مظاهر المغاربة في حياته، وأن ما قاله لا ينطبق على البربر وحدهم في ذلك الزمان ، بل كان هو الوصف الغالب على حياة المغاربة حسب الإطلاق القديم من جنوب مصر إلى نهر السنغال ، بل كانت حياة العرب في الجهات المماثلة للمغرب في الطقس و الوعر مثل اليمن وبادية الشام(129) و غيرهما من بلاد ما وراء النهرين ، مما لا يقتصر على البربر في شمال إفريقية، والذين عرفوا بخليط من المظاهر التي لا تعتبر خاصة بهم دون غيرهم، بل لقد عرفوا من المظاهر أشكالا وألوانا ترجع في غالبها إلى المشرق ، بل وإلى ما استوردته

(128) العبر 175/6 ، ودائرة المعارف الإسلامية جـ 13 ص : 34.

(129) بل إن الجمل لم يصبح من دواب النقل و الركوب بإفريقيا الشمالية إلا عقب الفتح العربي في القرن 7م كما يقول ولز1/186 ، ويقول المقدسي في كتابه البدء و التاريخ ج 4/68-69 : وأما البربر فإنهم من العمالقة الذين كانوا نزولا بأرض الشام وفلسطين ، فلما قاتلهم يوشع بن نون وقتل منهم من قتل انحازت بقيتهم إلى أعالي المغرب ، فهم اليوم نزول بين قصربن بيان إلى برقة وقيروان ، في الرمال و الجبال و السواحل ؟؟، أصحاب قناطر وأعمدة وفيهم جفاء وجلادة ، ويقال إن جالوت الذي قتله داود النبي عليه السلام كان منهم وفيهم شرك وإسلام ، والسبي الذي يجلب من دار شركهم ، وفي حافاتهم أصناف من السودان يقال لهم زغل وزغاوة ، راجع ط باريز 1916.

الأجيال القديمة أثناء هجراتها التي لا نعرف عددها مدا وجزرا .

لقد سجل تاريخ «الحفائر اتصال المغاربة القدامى بالفراعنة في مصر ، حيث كانوا يقومون تارة برحلات ، وأخرى بهجمات متعددة ، خصوصا سنوات القحط الذي كانت تعرفه بلادهم دوريا ، وبذلك استمدوا عادات وتقاليد وعقائد نشرت بين اللوبيين منهم ، وإذا كانت الشعوب حسب علم الوراثة تتميز بعاداتها وتقاليدها وأعرافها التي تبقى وتستمر مدى الدهر ، بل والتي لا تتغير ولا تتبدل بالقدر الذي يزيل المعالم ، خصوصا إذا كانت تستمد من أصول قارة وثابثة ثبوت الإقليم ومقومات الذات و الحياة ، فإن البربر المشارقة من كنعان آل عمون و المغاربة أبناء حام وفوط ، الذين عرفوا بعادات وتقاليد وأعراف تستنتج مما سبق ذكره كانت لهم في مواطنهم الأصلية . و التي منها ما كان سببا في نزوحهم بعد قتال طويل انتهى بانتصار آل داوود . فإنهم لم يفقدوها كلية .

لقد أصبح المتعارف عليه حول سكان المغرب القدامى ومنهم البربر الذين عرفنابهم قبل، أنهم لم يتركوا وحدهم ، وإنما عرفوا الامتزاج و الاختلاط ، أي اختلاط الأجناس التي لا يمكننا حصرها مهما حاولنا ذلك، وهذا شيء طبيعي واضح الظهور إذا ما عرفنا الأطوار التاريخية التي مر بها المغرب، ويتجلى ذلك إذا نحن قارنا بين مختلف الجهات، خصوصا الساحلية في الشمال الشرقي، ثم الوسط حيث امتداد الأطلس، والجنوب المتصل بالصحراء الكبرى، فكل من الجهات المشار إليها يختلف عن الآخر اختلافا واضحا لا في الأشكال و المقاييس المصطلح عليها، بل حتى في العادات والتقاليد، وإن كان الكل في نظر التاريخ يرجع إلى حضارة وسلالة الأبيض المتوسط، أو ما قيل عنه الحامية في جانب ، والسامية في آخر، وإن كنا نحن في الواقع نبتعد بهذين الإطلاقين عن أية دلالة جنسية دقيقة ، بل هما فقط يمثلان فرعين من السلالة القوقازية، سلالة الأبيض المتوسط «المتواجدة» في المغرب كما هي متواجدة في كل أقطار الشمال الإفريقي، بدءا من مصر ثم ليبيا، والتي لاشك منها تفرعت عن العناصر التي عرفها المغرب الكبير مدا وجزرا، منذ عهود بناة الأهرام وعهدي الإقطاع الأول والثاني، إلى عهد الهكسوس والإغريق والرومان، ثم العرب، ومن هذه العهود تكون الاختلاط وما تبعه من اختلافات محلية ، سواء في التكوين الجنسي ، أو في العادات شيئا طبيعيا في حياة

المغرب ، كما هو في حياة غير المغرب ، نحن لا نجد في المغرب شعبا حل مكان شعب كما هو الشأن في بعض الأقطار ، وإنما كان هناك هجرات ، وغزو غير شامل ، إنما فقط للناحية الشمالية و الساحل ، تارة كما رأينا قبل زحفا تجاريا فنيقيا أو حربيا رومانيا ووندواليا، وبيزنطيا، وغيره توتوني عابر، ولذلك كان الاختلاط مقتصرا على الشمال والساحل أكثر حيث نجد التأثر الجسماني المختلف عن البربر ، وما عرفوا به من طبائع . بل أخذت طبائع الإقليم المستوطن ، ثم تأثرت بما جدّ من الحياة ،وقد بقي الكثير منها مخبوؤا إلى زمن الفتح الإسلامي العربي الذي صهرهم ، خصوصا وأنهم بعد الهزات المتعددة بعنف ضد سلوك ولاة الفاتحين و التي لم تنجح ، عرفوا اختلاطا إراديا واندفاعا نحو أخلاق وتقاليد استهوتهم بما وجدوا فيها من توافق وتطابق في العمق ، تلك هي الأخلاق والعادات و التقاليد العربية التي آستطاعت أن تفعل ما لم تستطعه أخلاق وعادات الدول التي حكمت المغاربة قبل ، ولذلك يمكن القول أن من أراد المقارنة بين عادات البربر وتقاليدهم ، من النوبة شرقا إلى وادي نول غربا بدراسة عادات وتقاليد البلاد العربية ، خصوصا جنوب الشام وشمال الجزيرة ، بل و العراق وما حوله كفارس ، بل في بعض عادات البربر ما يتفق مع الأفغان و قبائل الباثان و الباكستان حيث انتشر العرب قديما، وكذا عادات ومظاهر بادية الشام التي نجدها أكثر وجودا في شمال المغرب الأقصى وبعض الجنوب، والتي بقيت في مظاهر متعددة حتى في اللغة بين زناتة ومصمودة في تلك المناطق التي عرفت أكثر من غيرها تجمعات الفاتحين العرب من الجزيرة والشام، واليمن، والعراق ، زمن بني أمية وقبلهم ، ذلك لأنها متصلة بالماضي البعيد عن هؤلاء وأولئك، وهذا بالنسبة للماضي القريب . أما الماضي الضارب في القدم ، فإنه لا أحد يستطيع أن يحددلنا وبوصف دقيق لباس المغاربة القدامى قبل البربر ، وحتى إن فعل أحدهم لا يخرج بنا عما اعتاده الواصفون لأهل تلك العصور الخوالي ، وأنهم كانوا وحين تحضروا – طبعا – يسترون عوراتهم بجلود الحيوانات ، وأنهم انتقلوا بعد ذلك إلى لبس عباءات الصوف، وأن سلاحهم كان عبارة عن دبوس تحول إلى سيف ، ثم إلى قوس ورمح وحربة ، وحين بلغوا حضارة أعلى، عرفوا ما يشبه الترس و الدرق ، وأما ما عرف لهم من حلي كما وصف الواصفون من بعيد وحسب معطيات بعض ما وجد في

الأحافر ، فقد كانوا يتزينون رجالا ونساءا بأقراص في الآذان وقلائد في الأعناق وخلاخل في الأرجل ، وأسورة في المعاصم ، وأن كل ما كانت الأسرة تملكه من أثاث المنزل المشيد من خوص . أو من حجارة مرصوفة ، عبارة عن أقداح من طين مصنوع بطريقة بدائية ، وعند الرحل من خشب ، ثم بعد من النحاس و الحديد ، ولم يعرف كل ذلك نوعا من الترف إلا بعد ما عرفت المرأة الاستقرار ، ثم عرفت النسيج الذي جملته بالألوان الزاهية ومختلف أنواع الهندسة التي تعتبر بحق المخترعة لها ، وصاحبة الفضل في تطورها وتنوعها واستمرارها من بربرة بالسودان وواحة سيوة إلى تخوم المغرب الأقصى ووادي نول .

أما عن البربر والدين فإن مصادر الدين قديما كما قيل الخوف أو الدهشة وأحلام النفس الروحانية، ولكل هذه المصادر طقوس إختلقها الإنسان حسب الدوافع وظروف العيش، وما كان لهم من عبادة.

يقولون إنه كان للمغاربة القدامى وبعدهم البربر ديانات كالتي تعرف بها الشعوب البدائية، وهذا غير مرفوض، أما وأنهم تأثروا بديانات الدول القريبة العهد كالفنيقيين وما كان لهم من عبادة البحر أو آلهتهم، بعل وملكارت، وعشتروت وأدونيس وغيرها من ديانة اليونان والرومان، والوندال، فهذا لم يكن بالقدر الذي يدخل في حياة عموم البربر بشكل يدفع الى الخوض كثيرا في ما خلفته تلك الديانات من أثر في النفوس وفي العادات والأخلاق، لقد عرف البربر من الديانات ما ثبت أنه كان منتشرا بينهم من المجوسية والوثنية والطوطمية، عبدوا الشمس والنجوم، كأرواح، والطبيعة، كالجبال والمغارات، والأشجار، ثم الحيوانات، مثل الذئب، والكبش، والماعز، والغزال. والحشرات السامة كالأفاعي، وعبد البربر حتى الإنسان في شخص ملوكهم وأسلافهم، كما عرفوا بعد، وبشكل غير مركز ولا عام، الديانات السماوية اليهودية والنصرانية. ولكل ما ذكر وجود أثر لم يختف من مظاهر حضارتهم وحياتهم حتى اليوم، وبقليل من الدراسة والتحليل نقف على حقيقة هذا الرأي الذي ربما يراه بعضهم فيه شطط(130) ففي المغرب اليوم ونحن في سنة 1380 هـ قبور تزار ويطلب منها العطاء، ومنها ما يرجع إلى أخس

الحيوانات كالحمارة(131) التي لها قبر محاط بسور، وكما ذكر الضعيفي السوسي ثم الرباطي في تاريخه ص 228 م.م.نا. "مسمر طرحة" وتعني الأربع صفائح التي تركب للحصان والبغل والحمار سمي به مقبور شيد عليه ضريح، و طرحة في اصطلاح أهل بادية المغرب تعني الأربع صفائح التي تسمر في أرجل الدواب، وفي المعسول " سيدي بيبي" وأحيانا نجد عينا جارية يحكى عنها "المعجزات"، ويقيد حولها رجل ينعت بالبركة ويفعل ذلك حتى اليوم ولا يفك قيده إلا بعد أن تفور بالماء في زعمهم أكثر(132)، وفي دكالة كهف مطل على البحر يقصده العواقر بأزواجهن قصد الإنجاب، بل في عصر التجوال على الكواكب،تعود الوراثة الوثنية فتتحرك في نفوس بعض المغاربة وحتى المسيرين منهم يلتفون حول القبور في المواسم وتشجع على القيام بذلك الإدارة حتى اليوم(133) حيث

(130) سنرى بعد أنه لولا تفرق الأدارسة بعد زوال دولتهم لكان الدين في المغرب أقل سلطانا وأضعف وجودا عما وجده المرابطون وعبد الله بن ياسين بين أهل لمتونة قبل معرفتهم بهذا المصلح العظيم، فقد أخبرنا البكري ص161 أنه كان بالأطلس الكبير زمن قيام دولة المرابطين قوم يعبدون الكبش، ولقد عمل محمد الخامس برأي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي الذي تجند مبكرا لمقاومة الخرافات والطرق الضالة حتى إننا لنجد محمد الخامس يعتز أنه قضى على الخرافات والطرق الضالة. وبذلك كتب لرئيس الجمهورية فانسان أوريول يوم عمل الجنرال جوان بكل الوسائل ضد محمد الخامس أيام جهاده من أجل تحقيق الإستقلال الذي كان ضمن قافلة مناوئيه الخائن المجرم الضال المنحرف عبد الحي الكتاني، راجع كتاب التحدي ص 405 سطر 5 ـ8 ط 1983 وفي عهد الإستقلال قام أحد المندسين بمقاومة تلك الروح والعودة الى الشعوذة والخرافات ومحاربة سلامة العقيدة ذلكم هو محمد ولد أحمد بن عبد القادر الغريسي من خناثة الشركية المعروف بأحمد العلوي والذي سوف يرى من الله نتيجة محاربته للدين ونشره للرذيلة بين المواطنين بطريقة مكشوفة لم يتجرأ عليها حتى الغزاة قبل.

(131) يوجد قبرها ولايزال على بعد 13 كلم من مدينة الجديدة في تجاه آزمور.

(132) عين ألدون بقصر أبو عياش قبيلة آيت ازدگ دائرة ميدلت عمالة تافيلالت " خنيفرة اليوم"

(133) راجع معالم تاريخ الإنسانية 123/1، وقد كان هيكل أملكار قديما عند الفنيقيين يعرف من الضحايا الأطفال ما كان يتقدم به القرطاجيون قربانا، كما كان الكنعانيون يقدمون نفس القرابين البشرية إلى إلاههم "بعل" الذي أصبح يعد مرادفا للشر. وقد بقيت عادة تقديم الولد البكر ليذبح في المعبد إلى سنة 230م كما يرى العالم المسيحي ترتوليانوس الذي ولد بقرطاجة سنة 160م وتوفى نحو 245م راجع فينيقة مصدر سابق 28 ـ 29. بل حتى اليوم وقد مضى على ظهور الإسلام أربعة عشر قرنا لا تزال بين البربر عادات شرك قديمة، فعند الطوارق عادة جمع الملح الصخري ليلة القدر؟ وتقديم العريس سكينا من حديد ليلة الزفاف تحتفظ به سبعة أيام، حتى لا يمسها الجن..إلخ بل في بلاد الطوارق اليوم أكتشافات تدل على أن مراكز الحضارة بغرب شمال إفريقية بعاداتها لم تعرف بعد. بل إن في المغرب حتي اليوم مناطق لا يزال أهلها يعيشون تحت وطأة الجهل الثقيل إلى درجة عبادتهم الأرواح الخفية التي يتقربون إليها بما يعرف في الشرق بالزار بلباس بعض الثياب ذات الألوان، وإستعمال أنواع من البخور، وهؤلاء في عهد الإستقلال الذي تبنى فيه المسؤلون كل الذين جردوا السهام لنشر الضلال بهدم الدين والإفتراء على =

أصبحنا نرى القرابين تقدم للقبور في أشكال مضحكة منها عجل بني إسرائيل الذي يزين من قرنيه الى الذيل بمختلف ألوان الثياب تحيط به مآت من البشر وهو في طريقه الى المذبح، إما بضريح بنعيسى الحسناوي أو علي بن حمدوش أو أبو العباس السبتي، أو ناقة عبد الله بن احساين المفترى عليه.

وهكذا نشأت الديانة الوثنية في أذهان الناس مع بداية الزراعة، وإن كنا نجهل طقوس تلك الديانات إلا ما كان مما تخلف من أثر السحر ومواكب التعلق بمظاهر الطبيعة المتمثلة في العيون والكهوف والأشجار، وما يلاحظ من تلك الأدوات والحلي ومختلف الوسائل التي يتقرب بها للجن حتي اليوم عند بعضهم اسم «الجيلالية والقناوية و العيساوية و التي ترجع أصولها إلى مثل ما نجده حتى اليوم في قبور السابقين "تيموليس"ومنها ما قيل إنهم كانوا يلونون الميت بالغمرة، وكذا حرق بعض الجثث لموتاهم، إلى غير ذلك مما يدخل في آعتبار أنهم كانوا يؤمنون بحياة أخرى بعد هذه، وقد بقيت كثير من العادات المتصلة بخصوبة الأرض التي كانوا من أجلها يقدمون الضحايا قربانا، من بينها فتيان وفتيات كانوا يذبحونهم تكريما للآلهة في المواسم وما ينسبون لذلك من قوة خفية تمكن الإعتقاد فيها من أذهان أغلب المغاربة قديما، وحتى اليوم أصبحوا يعبدونها دون معرفة أو تفسير لذلك، حتى دخلوا في باب الشرك الذي قاومناه في عهد الحماية التي كانت إدارتها تشجع تلك المظاهر كمحافظة على الدين باسم البند

= الشعب والدين لهم من الحرية ما لا يتوفر عليه الذين يريدون الحيلولة بينهم وبين ما هم فيه من ضلال، حتى إن من تطوع لإلقاء دروس في الموضوع يستنطق ويبحث في مراكز الشرطة رغم المراقبة الشديدة ونحن في نهاية العقد التاسع من القرن العشرين.

وإذا كان محمد الخامس رحمة الله عليه قد أصدر من التشريع مامنع به عمل الطوائف الضالة بإسم التصوف عام 1933 ـ 1934 ثم بقي يعتز بذلك في خطب العرش مرة تلو الأخرى. وكان ذلك من نجاحات شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي كما سنرى بعد حين كلامنا عن السلفية والحركة الوطنية. فإنه بمجرد موت محمد الخامس 1961 وشيخ الإسلام 1964 ، عادت حليمة إلى عادتها القديمة، وكان السبب في ذلك وعودة الضلال بإسم «الفولكلور» هو وزارة السياحة التي أسندت الى شخص جاهل بالدين وبالقيم مبتلى بالإنحراف وبشتى ألوان الرذيلة فكان الذي يعنيه هو أن ينغمس الكل فيما هو مبتلي به من الرذائل التي عمل على نشرها بلا خجل ولا وجل رغم تذمر الشعب ومحاولة بعض المصلحين مواجهة التيار، فكان جزاء المحظوظين منهم التهميش، وغير المحظوظين الظلم والتسلط والحبس والاعتداء، وذلك ما يحفظ التاريخ المعاصر منه الصفحات المتعددة وصدق الله العظيم إذ يقول «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون».

الأول من عقد الحماية وكنوع من "الفولكلور" عادت اليوم وفي عهد الإستقلال تلك المظاهر أشد كنوع من المسكنات والتخدير، وللبعد بالناس عن معرفة واقع التطور المطلوب في عهد الإستقلال فإلى الله المشتكى، وفيه الرجاء حتى يرد كيد المفسدين الجدد على أن ما عرف من عادة الذبائح على الأضرحة إنما هي من بقايا عهد الفنيقيين التي تطورت عن تقديم أهل قرطاجنة أطفالهم ليحرقوا أو يذبحوا قربانا لعشتروت، أو بعل إله الكنعانيين نقلا عن المصريين في عهد سينفرو "2840 ق م"وعبادة توت التي تحولت عشتروت(134) ومولوك إله عمون عند الفنيقيين الذين كانوا يوقدون تحته النار ثم يضعون الأطفال بين يديه ومن السر العجيب أن ما كان الإنسان يعتقده في عهد الطوطمية كيفه المغاربة ثم أدخلوه في الإسلام فمثلا بقي الى عهد قريب في قبيلة سكورة بوارزازات وكذا قبائل آيت عطا طقوس وعادات يرجع تاريخها الى عهد الإنسان الإفريقي بالطوطمية. وذلك حين كان المتاع يترك في حماية الطقوس الدينية التي كان الإنسان يعتقد أن لها من القوة السحرية ما يجعل الشيء المراد الاحتفاظ به خطرا على أي شخص يمسه خلاف صاحبه. مثل ذلك بقي إلى عصرنا الذي نحياه حين كان يترك أفراد قبيلة اسكورة أعز ما يملكون معلقا في قفة بجامع القرية، وقد عرفت كل أسرة قفتها وما يخصها من المتاع الذي يبقى محفوظا بالجامع الذي له باب بلا مزلاج، وليس هذا إلا دليلا على سلامة العقيدة الإسلامية وحرمة الجامع الذي هو بيت الله لا كما هو اعتقاد عند الآخرين في أن الذي يحرس الجامع هم الجان وما يتبع ذلك من اعتقاد في السحر وطقوسه.

---

(134) راجع تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج 1/20 ـ 24 ط 1889 المقتطف والنحل للشهر ستاني.

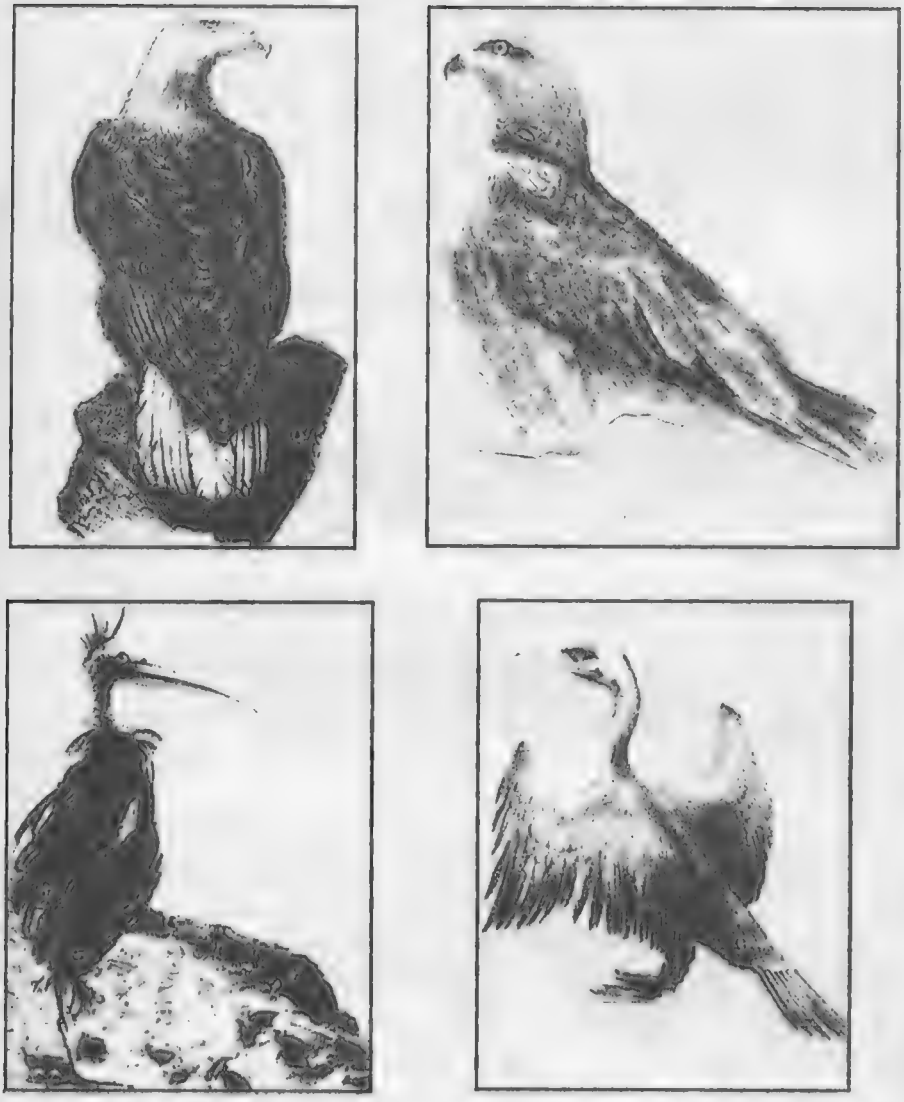

لقد كان المغاربة قبل التاريخ مثل قدماء المصريين يعبدون الطيور

كما عبد المغاربة القدامى الحيوانات والأفاعي

كما عبد المغاربة القدامى الأحجار العظيمة

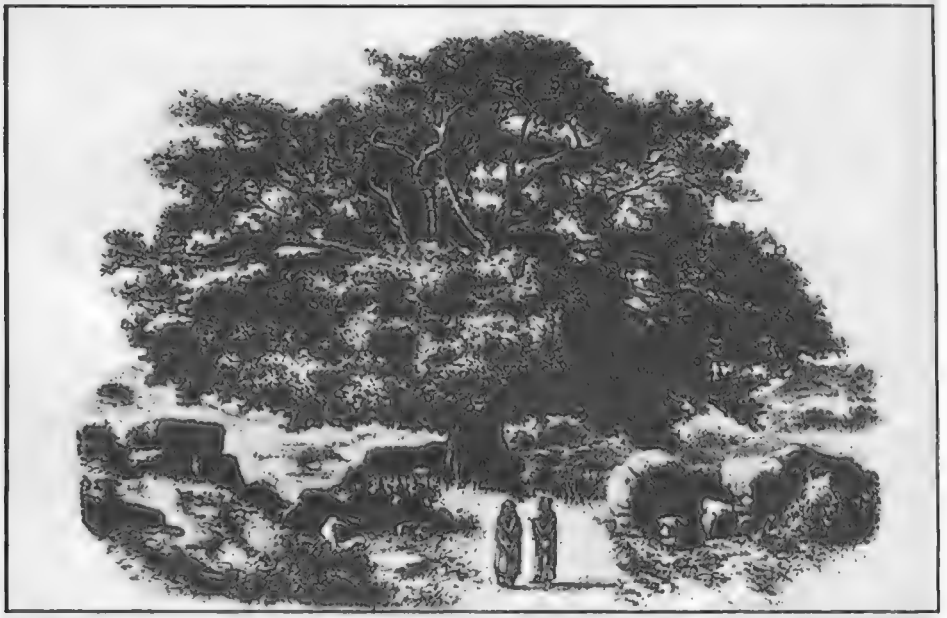

مما عبده البربر الأشجار الضخمة

مما عبده البربر الأشجار الضخمة

ومهما يقال في هذا الجانب الذي لم يكن أحد يتصور آستمرار المغاربة ضالين مضلّلين فيه حتى اليوم، ولغاية لم تعد خافية، فهو بشكل أو بآخر لا يختلف عما عرفت به كثير من الشعوب، ومنها العربية الإسلامية في كل من إفريقية وآسيا وما تقلبت فيه أيام بداوتها من أساطير وخرافات تعرف في أرض العراق أكثر، حيث مزار بهلول مضحك هارون الرشيد، والتي يلبس فيها اللون الأزرق آتقاء للعين الحاسدة والاستغاثة بمدفع القلعة المسمى "أبو خزامة" إلخ، إلى غير ذلك من الخرافات لكنها لم تستمر عن قصد، مثل ما يحصل في المغرب المضلل حتى اليوم والذي هو بحكم تصرف بعض حكامه نحو الدين المفترى عليه في طريق الإفلاس الديني حسا ومعنى، ما لم يتراجع المندفعون نحو الضلال والإسراف في الإنحراف عن الدين الحق وإذا كانت المرأة في كل مجتمع كثيرا ما تكون مصدرا للدراسة في مجال المحافظة على الطقوس المتوارثة، وفي مجال العادات والتقاليد، بل والأخلاق في بعض الجوانب، فإنها في المغرب وفي مختلف جهاته شمالا وجنوبا تمثل الكثير من الرواسب التي مصدرها ما آستقدم من المشرق في أزمنة مختلفة وظروف أشد اختلافا، فمثلا في الجنوب أي جنوب شمال إفريقية من واحة سيوة إلى وادي نول. تكاد المرأة تكون هي هي في كل من مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب سواء في عادات المواسم والأعياد، وتعلقها بالخرافات التي لا تقف عند حد تعلق المرأة بالتمائم والمزارات والملابس الواقية من شرور الأرواح، والإعتقاد فيها، ثم التقرب إليها بقرط في أذن الوليد الوحيد مثلا، والتي هي من العادة التي يعرف بها آبن زواج المتعة عند الشيعة في العراق وبلاد فارس، أو ترك شعيرات وأحيانا جدائل طويلة وسط الرأس أو في جانبيه، وهو ما قيل عنه من أثر البونيقيين.. إلخ. كما عرفت المرأة البربرية قديما بتصفيف شعرها في جدائل تدمج جانبا بدلا من سدلها في ضفائر كلما تقدم بها السن. أو تصفف الشعر بواسطة حلق من فضة شبه مجوفة بها ثقب في الوسط تصفف تصفيفا خاصا وتعرف في تافيلالت بـ"الفشوش" وقد انتقلت من المغرب إلى إمارة الكويت مع أسرة أمرائه الذين آنتقل عميدهم زمن السلطانين محمد بن إسماعيل ومحمد بن عبد الله بن إسماعيل، إثر حادث سياسي كما سنرى حين الإشارة إليه، وذلك أواخر القرن الثاني عشر الهجري1197هـ ـ 1782م، وأما حلي المرأة البربرية إلى جانب الأسورة الفضية

ومنها ما يعرف "دك ابروج" والخلخال والعقود المرجانية، وعقود "اللوبان" عند المرأة المرغادية، إلى غير ذلك من مظاهر الوشم وخلالتي المئزر المرتبطتين بسلسلة فضية تصل بينهما، وكذلك الألواح ذات الأصابع الخمس للوقاية من العين والتي وردت على المغرب من أثر الفرس عن طريق البغداديين الذين هم أول من اتخذها كشعار من مظاهر التشيع، والتي تعبر عن التمثيل بالحسين بن علي وآله في كربلاء، إلى غير ذلك من المظاهر الغامضة في حياة البربر التي لم نجد لها دراسات مستوفاة، ولا قريبة منها نستدل بها على أصولها وجذورها وأزمنة ظهورها، إلا ما كان مما يمكن لدارس التاريخ أن يستلهمه بواسطة المقارنة مع ما يعرف في البلاد ذات الحضارات القديمة والتي يفترض أنه كان لها بالمغرب إتصال حسب معطيات المصادر التي آستعملناها ولأول مرة بالنص كمصدر لتاريخ المغرب والإنسان المغربي الذي عرف بالبربري، بل إن وثنية البربر لا نعرف عنها وعن طقوسها ما عرف عن وثنية الآخرين وطقوسهم، بل ديانة برغواطة وما جاءهم به صالح بن طريف وأحوالهم الشخصية التي لا حق للمرأة فيما يخلفه الأب أو الزوج مع أن للمرأة في حياة البربر أثر مادي لم يعرف لغيرها في كثير من المجتمعات، وقد بقي ذلك الحرمان معمولا به إلى عهد حماية فرنسا التي ركزته ثم جعلته تشريعا بواسطة المجالس العرفية كما سنرى، هذا مع العلم أن المرأة البربرية عرفت عبر التاريخ بمشاركتها للرجل في كل أعماله الإقتصادية، بل حتى حمل السلاح والدفاع زيادة على ما عرفت به من خدمات منزلية، بل ثمة مظهر من مظاهر البربر هو النسب حيث نجدهم في كل جهة وعبر التاريخ يعتزون بالقبيلة التي هي عندهم كما عند العرب درجة عليا دونها الفصيلة، والعشيرة، والفخذ، والبطن، والعمارة، ثم بعدها الشعب والحلف.

وبمقارنة ما ورد عند النويري 284/2 ثم بلوغ الأرب للألوسي 188/2 مع ما سبق ندرك حقيقة الغموض حول عادات وتقاليد المغاربة ومظاهرهم، بل إن من استوعب بعض مظاهر البربر التي ترجع أصلا إلى الوثنية خصوصا في حياة المرأة التي قيل في حقها من طرف بعضهم وهم العكاكزة، وأنها "كالسجادة صلي وأعط أخاك يصلي" «م .خ .ع 1220 ص173» ليحتار المرء كل الحيرة أمام هذه المظاهر التي بقيت بين بعضهم خالدة ومتمكنة بشكل واضح وجلي، وأنها في بعض الجهات لا زالت باقية بخرافاتها كما كانت

في العهود الخوالي عادية فيهم، ذلك أنه كما قيل : الظواهر إذا كثرت في الشيء أفادت القطع به .. إلخ.

وهكذا من يتتبع الكثير من عادات المرأة العراقية والشامية يجدها تتصل بما تحتفظ به المرأة في المغرب، وربما يقال بأن هذا راجع إلى عهد الإتصال بالفاتحين وبالخوارج وما تبعهم من الفاطميين في الجنوب المغربي سجلماسة والمهدية حيث عرفت المرأة نفس المئزر، وقربوس الرأس، و الحلق ، التي تزين بها الشعر وكبر الأقراط ودمج شعر الرأس، مما قيل إنه ورد مع الفاطميين كما يظهر لبعض الملاحظين من فقهاء البلد القدامى مما نجد له أثر في بعض الفتاوي الفقهية بل تلك مظاهر ضاربة في القدم ربما منها ما يرجع الى عهود الكنعانيين الأولى، كما تؤكد ذلك مظاهر النساء اليهوديات في تافيلالت بحيث بقين محافظات حتى على نفس المظهر في اللباس الكنعاني الذي عرفت به المرأة بعد ما آقتبس من بابل، من قربوص الرأس الذي طوره الرومانيون، إلى المئزر كما كان الشأن قبل، وحسبما بقي إلى عهد قريب، في كل من ندرومة وتلمسان وبجاية والقيروان ودمشق والقدس وغيرها، وأحيانا يكون من عليه ثياب تضعه المرأة على رأسها.

وشيء آخر كان يتميز به المجتمع «البربري في المغرب، وقد أقره آبن خلدون مما نعتبره صفات مشتركة بينه وبين أخيه العربي في المشرق، وهو الذكاء والكرم، وللمرأة فيه نصيب، كما يتصف البربري بحيوية جرت عليه كثيرا من النعوت الساقطة ومع ذلك لا يخلو بعضهم من وفاء، فقد رأينا البربري وقد آنتظم بالتزام داخل القبيلة وتشريعها الذي يسمونه "تعقدين(135) الذي حدد لها الحقوق وبين لها الواجبات، وهي قوانين يحنون إليها وتتزاحم أحيانا في أذهانهم حتى اليوم في المغرب مع التشريعين الإسلامي والوضعي، وكثيرا ما يحلون مشاكلهم بواسطتها فيما بينهم، خصوصا بعد ظهور محاكم الجماعات التي شرعت بعد 1978؟!.

---

(135) بلهجة آيت عطاالعربية وهي مجموعة من التشريعات لقبائل صنهاجية وعربية بالأطلس الكبير وآيت عطا، عرفت بأعنف حروبها القبلية وعنادها، كما قاومت الإستعمار قبل في (توات) وبعد فرض الحماية في صاغرو وبادو حيث آنضمت بطون منها الى قبائل تافيلالت في حروبها التي لم تنته إلا يوم 1932/3/20 . وفي صاغرو 1933 وبادو بعدها 1934 كما سنرى.

أربعة من اليهوديات مغربيات بلباسهن القومي
ناحية سوس

يهوديات مغربيات بلباسهن القومي
من تافيلالت

يهوديات مغربيات بلباسهن القومي
من تافيلالت

فتاة يهودية من تافيلالت
بلباسها القومي

المرأة في قبائل مصمودة

المرأة في قبائل مصمودة

يقول الحميري 32/2 مخطوطتنا عن مدينة سوس. ووصل عقبة ابن نافع إلى هذه المدينة عند دخول بلاد المغرب ففتحها فاخرج منها سبيا لم ير مثله حسناء، فكانت الجارية الواحدة تباع بألف دينار وأكثر لحسنها وتمام خلقها..

راجع الحميري ج 32/2 حول المرأة بسوس. لما دخلها عقبة بن نافع. وانه أخذ منها ما لا يحصى، وما صدر منها إلى المشرق في عهد الأمويين.

فتاة من بقايا مصمودة بالشمال

المرأة في الشمال حيث قبائل زناتة

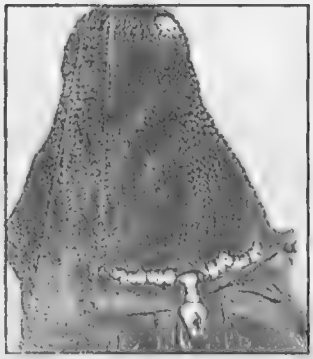

المرأة من صنهاجة الشمس آيت عطا
وقد نقلت هذه الضفائر الى الكويت
من المغرب سنة1197 هـ اثر واقعة
حصلت لبعض سكان اقليم تافيلالت
مع المولى محمد بن عبد الله رحل
اثرها آل الصباح الرحلة الثانية

المرأة من قبيلة صنهاجة الظل بالأطلس المتوسط

مرغاديتان

لباس المرأة في اقليم درعة

المرأة المرغادية صنهاجة الشمس

آيت مرغاد

آيت احديدو

فتاة من آيت احديدو بالأطلس المتوسط

امرأة عربية من الشاوية

زي المرأة الفاسية قديما

ولعل الذي الجأهم قبل إلى وضع ما لهم من تشريع في هذا المجال هو استقلال القبيلة وزوال سلطان الدولة الذي كان يختفي في فترات متقطعة من التاريخ، ولولا تخلف المغرب المستمر عن جهل، لكان لبعض تلك القوانين اعتبار قبل ما يستورد بالإقتباس من الأجانب، خصوصا في مجالات جوانب حياتهم المتعددة التي وضعها عقلاؤهم القدامى والتي لا تخالف الشريعة الإسلامية، ناهيك وأنها أحاطت بالجزئيات مستوعبة حياة الفرد اليومية وعلاقته بالمحيط، وحلولها لا تخلق تعقيدات فردية تسيء إلى المجتمع، ولا تهدم ولا تفصله مع مضي الزمن كما تفعل القوانين المستوردة خصوصا من فرنسا، والتي لم تستطع توحيد المجتمع الفرنسي نفسيا بل والتي يعتبر العمل بها في بعض المجالات استمرار لروح الإستعمار الثقافي المنهك والقاتل للشعور الوطني والإعتزاز بالذات.

وبالتالي فقد كان " للبربر" عموما من المغرب الأقصى الى واحة سيوة شرقا صفات لا يختلفون فيها عن غيرهم، وكما عن لابن خلدون أن يقرر، خصوصا صفات الإقدام التي مصدرها أثر الدم والإقليم وما عرف به من وعورة تكل المرء إلى جهود نفسه ومواجهة واقعه، وما قيل إنهم يبادرون بالإنتقام لا يكون هذا إلا إذا تدخلت فيه المرأة بتأثيرها ضد العدو المعتدي كما يقرر التاريخ، وقد كان هذا منهم مع الغزاة الغاصبين من الروم رغم عدم تكافؤ القوة، فهم يقدمون ويندفعون بلا حساب للعواقب، ولو كانت النتيجة عكس ما يتصورون، وقد حصل هذا قبل الإسلام وبعده، مثل ثورة تاكفراس البربري ، التي دامت سبع سنوات استغلها بونيفاس 427 ق. م ويوغورطة مع الرومان والوندال الذين داموا مائة وسبع سنين، كما استغلوا ضعف الرومان قبل، وفي عهد الإسلام ثورة الكاهنة وكسيلة وثورة الاشراف بسبتة122هـ والبربري لا يقدم إلا إذا كان قويا بسلاحه وعشيرته، أما إذا كان غير ذلك فهو أكثر الخلق انسياقا وخضوعا للحاكم، ذلك لأن البربري عاش بعيدا عن الحضارة بمعناها العلمي فهو عبر التاريخ لا لغة له راقية ولا ما ينشأ عن اللغة من علم وتقدم وحضارة ، وهذا موضوع يجب تناوله لأن بعضهم اتخذ من زعيق المستعمرين حوله سمفونية حاول أن يكون لها جوقا يرددها أمام الصم والبكم الذين لا يدركون كما أن الذين لا يريدون لهذا الشعب أن يتقدم كثيرا ما يزينون لدعاة التفرقة حتى يصفو لهم الجو مع لقيطات مواخير باريز وروما ومدريد

وغيرها أولئك الذين ركزوا على اللغة البربرية كوسيلة أقوى من أجل التمكين لما يقولون عنه العنصر البربري، ولو أنهم اتخذوها كلون من ألوان التراث الثقافي لكان الموقف غير هذا، ولعله بشيء من التجاوز يتناول الموضوع من وجهة نظرنا.

في الأطلس المتوسط

الفصل الثالث عشر

البربر واللغة

اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وقد قيل اللغة البربرية أصلا تعدمن الفصيلة الحامية لكنها اليوم لهجات متقطعة هنا وهناك وهو ما يطلق عليه لغة منعزلة، أو كما يقال : غير مرتفعة بل هي : لغة غير مرتقية كما سنرى حين كلامنا عن اللغة في تاريخ العرب، فلغة البربر الحامية تندرج ضمن اللغات غير المرتقية كلغة الصين والزنوج، وإذا كانت اللغة هي وسيلة التأثير والتأثر بين بني الإنسان، فإن لهجة البربر التي عاشت قاصرة عليهم، لم تعرف شيئا من ذلك، بل لهجة البربر هي الوحيدة التي ربما لم تعرف كتابة لا بالرموز ولا بالحروف منذ آلاف السنين والدليل هو أننا عبر التاريخ لا نجد أثرا مكتوبا بالبربرية رغم كل البحوث وما قيل عن حضارة الصحراء، وحتى الذين كتبوا من البربر قديما أو نقلوا ما كتبه غيرهم، كان بلغة الآخرين وحروفهم ، مثل رحلة حانون وشذرات من كتاب ماجو في الزراعة، حتى القديس أوغسطين الذي يؤكد لنا في شيء من الغموض يقول ول ديورانت في قصة الحضارة(136): "أنه كان في قرطاجنة ـ بعض أبناء البربر الذين خلدوا كثيرا من الأشياء التي خلدت ذكراها في عقول بعضهم، لكنها في نظرنا لا تتصل بحياة البربر الذين نفروا حتى من الفنيقيين إخوانهم القدامى إذا صح الخبر، ومثل هذا يقال في حق أثريوبا ربيب الثقافة الرومانية، رغم قوته الشخصية وثقافته العالية، كما قيل.

وحتى يتعرف إن كانت لغة البربر من اللغات المتصرفة أم لا؟ وجب أن يرجع الباحث إلى ما صنعه علماء اللغة وما توصلوا له من أبحاث لم يتركوا جهة من جهات الأرض إلا وخصصوا للغة أهلها قليلا أو كثيرا من البحث، بل حتى اللغة التي تفرعت

---

(136) ج 1 من م 9.

الى لغات، والفرع نفسه يتفرع إلى لهجات وتغيرات بخلق مفردات، مثل ما حصل للشعوب الآرية، بل دونوا كل ذلك بنوع من التحليل والإستقراء، وأخيرا توصلوا إلى تقدير أن لغة ما حين تكون مشتركة بين أجناس مختلفة، لا تنم على وحدة الأصل لتلك الشعوب، مثل الزنوج الذين يتكلمون الآن الأنجليزية أو الإرلنديين الذين لا يتكلمون لغة الأرس القديمة، إلا حين يرغبون في القيام بمظاهر سياسية كما يقول ولز(137) بل حتى اللغة الآرية الأصلية نفسها التي ربما كانت حديثا يتعلق به الناس عام "6000 أو 5000 ق. م " كانت لها صيغ نحوية وطرائق لصياغة الأفعال على شيء من التعقيد(138) وهذا الاستنتاج طبعا نتيجة معرفة لأصل تلك اللغة ومثلها اللغة السامية والحامية، وعلاقتها البدائية مع سابقتها، والتي ترجع إليها. أي إلى الحامية ، اللغة المصرية القديمة والقبطية،

---

(137) 141/1. ثم راجع جدول تقسيم اللغات بعد من هذا الكتاب الباب 4 ف 22.

(138) نفس المصدر ، كما استمر التوارك دون بقية البربر على أستعمال حروف هجائية يسمونها "تيفناغ" أو "تيفناج" وهي الكتابة البربرية التي قيل يرجع زمن محاولة تأسيسها إلى عهد قرطاجة، وقد قال بعضهم وهم طبعا ينحازون إلى تصديق ما يقوله غير المغاربة، إن هذه الحروف شكل قديم للحروف الأبجدية القرطاجية؟ أو الفنيقية؟ وهي قريبة الشبه من الأبجدية المستعملة في الكتابة الحميرية؟ التي في الجنوب من جزيرة العرب في حين لم تكتشف هذه الكتابة إلا في سنة 1822 م وهي ناقصة الآن عندهم لخلوها من الحركات بالمرة، راجع كتاب إنتشار الخط العربي لعبد الفتاح عبادة ص 71 – 80، ط 1915 ، ثم المصدر المشار إليه " كتاب التبيان في تخطيط البلدان :لإسماعيل رأفت بك ط مصر 1929 على أن لحروف"تيفناغ" ما يشبهها في الوضع كحروف البونيقية وغيرها، راجع الكنز في قواعد اللغة العبرية لمحمد بدر، ص 16.

وقد طلعت علينا الأبحاث أن علماء الآثار في جامعة شيكاغو يقومون ببحث حوالي أربعة آلاف لوحة مسمارية تم العثور عليها في سوريا 1975م وأنها بعد التوصل إلى ما ورد فيها ربما ستكتشف دراستها عن معرفة تاريخ منطقة ما بين النهرين قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وذلك على ضوء لغة سامية جديدة يطلق عليها "إبليت"، وربما نسبة الى المدينة التي عثر فيها على عشرين ألف لوحة من نفس النوع، والتي تعرف بمدينة " أبلا" والتي قيل ربما كانت من أهم المدن حضارة بين النهرين، خلال الفترة ما بين أنتهاء الحضارة السومرية وعصر بداية النهضة في مصر، وهذا رأي"روبرت بيجر" الذي قال إن اللغة الجديدة ليس لها علاقات محددة مع التوراة العبرية وأن اللوحات الأولى تصور الحياة الثقافية والتجارية في مدينة "أبلا"، بالإضافة الى علاقاتها بصفة خاصة مع سوريا وفلسطين، وبلاد ما بين النهرين، وقبرص وتركيا، ولو أن وزارة الثقافة في المغرب قامت بحفريات في المدن البربرية الأصل والتي أوردها الحميري والبكري وأبن سعيد وأبن الوزان وعدها الزياني في الترجمانة الكبرى ص 77 ـ78ـ 79ـ 80 ط 1967 لأمكن الحصول على مايكشف الغموض ويفيد منه تاريخ المغرب في هذا المجال، لكنه رغم ذلك سوف لا يوجد للبربر لغة مهما حصل، وهكذا يمكننا القول مع المختصين في هذا المجال أن اللهجة البربرية اليوم تدخل ضمن اللهجات الإفريقية، =

بل ولغة البربر التي هي لغة الطوارق الملثمين، ولغة الأثيوبيين، بما فيها من كلام الجالا والصوماليين، فقد اكتشف الدارسون وحسب الرأي الذي أبدوه أن العلاقة بين اللغات الثلاث التذكير والتأنيث المشترك بينهما، وهو على علاته يرينا مدى بحث العلماء في مجال اللغات وعلاقة بعضها ببعض، فاللغة الصينية الخاصة بمدينة بيكين يقولون، يوجد بها قرابة 420 مقطعا أوليا، لأن هذه اللغة تتكون من مقاطع مفردة خالية من علامات الإعراب و الصرف ، تقوم فيها نغمة الصوت المستعملة في نطق الكلمة ، بتحديد المعنى المراد بها ، وقد عرفوها بذات المقطع الواحد ، وتشمل لغات سيام ، وبورما ، و التبت ، فما بال اللغة البربرية لم يصلها شيء من عناية الباحثين ليكشفوا لنا عن وجودها في غير اللهجات المختلفة بين زناتة وصنهاجة ومصمودة بل بين قبيلة وأخرى إلى درجة الانغلاق ، في مثل لهجة آيت احديدو التي لا يمكن لسكان الريف بل ولا المصامدة أن يتجاوبوا معها، وأحيانا جيرانهم كآيت ازدك وآيت مرغاد يجدون صعوبة في فهم بعض المفردات منها.

وحتى نتعرف على اللهجة البربرية ومدى قدرتها على المشاركة في الحياة العامة

= مثل لهجة النوبة التي منها الفولجة في غرب إفريقيا والزنجية في أواسطها وغربها، ومثل اللهجة البانية "البانتو" في شرق إفريقية وجنوبها، بل إذا نحن جردنا هذه اللهجة مما طعمت به من مفردات عربية وغير عربية لا نجد شيئا يذكر، ورحم الله أبا علي اليوسي إذ يقول عن أهل تاكنيت بإقليم درعة.:

قوم عجاف سكنوا بتاكنيت ومن خوف الضيافة كسبوا تيكيديت

وصلنا عندهم وقت تينوتش و كـل من معنـا اكنوروتـــش

ففي البيتين ثلاث كلمات بربرية هي : تيكيديت : = كلبة ، تينوتش = وقت الغروب . اكنورتش = جياع . (بات بدون عشاء) أي لم يضيفوا من قبل هذه القبيلة الشحيحة.

هذا مع العلم أن للهجة البربرية مجالات في الهجو ، و الغزل ، والتصوف ، بطريقة قريبة من الشعر عندهم ، خصوصا لهجة تاشلحيت بسوس ، ولهجة صنهاجة بالأطلسين : المتوسط و الكبير ، مما يمكن القول معه إن لهذه اللهجات المتعددة في المغرب الكبير ألوانا من الثقافات كما للزنجيات في مواطنها ، وهي ثقافات تحفظ بالتوارث الذهني الذي هو الوسيلة الوحيدة لاستمرارها ، والتي قط لا نعرف لها مجالا غير القرية وما حول القرية ، وما يقال عن رجال أسهموا في تاريخ الحضارة بإمكاناتهم الواسعة وعبقرياتهم ذات الاعتبار ، هؤلاء لم يحققوا شيئا مما سبق إلا باللغة التي اندمجوا في أهلها وأصبحوا يعرفون بها وبثقافتها ، سواء كانت عربية شرقية أم أوربية غربية ، أما عن الذين يريدون تمييز الشخصية البربرية ويدعون أن لها ثقافة أو حضارة ذاتية ، فهؤلاء في واقع التاريخ وسلامة الحس عديمي الحس و الإدراك ، أو بالنسبة لماضي المغرب و المغاربة وحضارتهم وهويتهم وذواتهم بعيدين عن الدوافع المغرضة ، فإنها لم تكن غير عربية إسلامية وهكذا ستبقى فكرة التحدي مطروحة إن هو أحد استطاع أن يؤكد لنا وللتاريخ أن المغرب عرف ذاتية مركزة وجامعة لشمل وشتات سكانه غير الإسلام ولغته العربية .

بعلومها القديم منها و المستجد ، نورد هذه المفردات الدالة على الاختلاف والاصطلاح الذي تقرر بالاستعمال الذي لا يعرف أحد متى وأين وجد ، وهي منطقة صنهاجة « أيت ازدك » « الخليط » وهي تشمل بعض الأفعال و الأسماء :

في الأفعال :

بربري :	عربي :			
أل =	إصعد	ماخ	=	لماذا
إكّـز =	أنـزل	مـاي	=	أين
فـيّ =	إركب	أوا	=	هـذا
أسـي =	احمـل	تـا	=	هـذه
شـاس =	أعطـه	شيين	=	أنـت
شاسن =	أعطـهم			
شاست =	أعطهـا			

في الحيوان :

أعلوش =	الخروف			
تيخصي =	النعجة			
تارغاة =	المعزة	في النبات :		
تيغطين =	الماعز	بربري		عربي
ألغـم =	الجمل	اردن	=	القمح
الغمان =	الجمال	تيمزين	=	الشعيـر
إباون =	الفول			
الحمـز =	الحمـص			
أسكلا =	الشجـرة			
إسكـلان =	الشجـر			
أدوم =	الوجه	في الألوان :		
تـط =	العيـن	أمـلال	=	الأبيض

ألــن	= العينين	ابخــوش	= الأسود
تكنزار	= الأنف	ازكــاغ	= الأحمر
أمزوغ	= الأذن	أزكــزا	= الأخضــر
إمجان	= الأذنين	أوراغ	= الأصفر
أقـــم	= الفم		
توغماس=	الأسنان	أدسيردخ	= هات اغسل
انشوشن=	الشفتين	أمان إحمان	= الماء الساخن
تمارت	= الدقن	أمان إقرفن	= الماء البارد
تمكرت	= العنق	إيسيغ أسادي=	أوقد الضوء .
أفوس	= اليـد		
أفاسن	= الأيدي		
إدمارن	= الصدر		
تاديت	= البطن		
تازوكت	= الفخذ		
أفود	= الركبة		
ألغ	= الســاق		
أدار	= الرجــل .		

وأما لهجة زناتة بفجيج ، و التي بقيت على أصلها في الغالب فهي كما يلي :

عربي :	بربري:
الوجه =	أغنسوا
العين =	تط
العينين =	تطاوين
الأنف	تنزار
الأذن =	تمزوغت
الأذنين =	امزغان
الفم =	أقم
الأسنان =	تيغماس
الشفتين =	انشوشن
الذقن =	اعسمار
العنق =	منجي
اليد =	أفوس
الأيدي =	أفاسن
الصدر =	الكاشوش
البطن =	تاديست
الفخذ =	تامطات
الركبة =	فود
الساق =	تينزرت نوضار
الرجل =	أضار

عربي :	بربري:
الخروف =	ازمر
النعجة =	نيلي
المعزة =	تغت
الماعز =	تيغطن
الجمل =	الغم
الجمال =	الغمان
اصعد =	أل
انزل =	أهو
اركب =	ني
احمل =	أسي
اعطه =	أشاس
اعطهم =	أشاسن
اعطيهن =	أشاست
لماذا ؟ =	ماغرا
أين =	ماني
هذا =	وو
أنت =	شك

في الألوان :	في النبات :
الأحمـــر : ازكاغ	القمـــح : إردن
الأخضـر : أدال	الشعيـر : تيمزين
الأصفـر : أوراغ	الفول : إيباون
الأزرق : أزيزا	الحمص : الحمـــز
الأبيض : أملال	الشجرة : آشجرت
الأسود : أبرشان	الشجر : . . .

وتبين من لهجة زناتة أن كل اسم يذكر بالألف ويؤنث بالتاء .

لهجة مصمودة :

عربي : بربري :	عربي : بربري :
الوجـه :	البطن :
العين :	الفخـذ :
العينين :	الركبة :
الأنف	
الأذن :	الألوان :
الأذنين :	الأحمر : ازكاغ
الفـم	الأخضر : أدال
الأسنان :	الأصفر : أوراغ
الشفتين	الأزرق
الذقن	الأبيض :
العنق	الأسود :
اليـد	الأيدي : الصدر :

على أننا لا نذهب مع المجترين الذين حاولوا أن يقحموا في اللهجة البربرية ما ليس فيها ، ويكفي أن نقول إنها فيما رأينا من مفردات لا تتوفر على ما تتوفر عليه أية لغة ، حتى أدوات التعريف .... الخ .

تلك هي بعض لهجات البربر الثلاث بالمغرب الأقصى ، صنهاجة ، وزناتة ، ومصمودة ، وهذه الأخيرة كانت لهجة جل أهل البادية قبل الفتح العربي ، وبها يتحدث اليوم في الناحية الغربية من مدينة مراكش ، وفي الشمال ، كما أن لهجة صنهاجة بها تتحدث قبائل آيت عطا وآيت مرغاد وغيرها ، في كل من الأطلسين الكبير والمتوسط وبين قبائل الطوارق ، أما لهجة زناتة التي كانت اللهجة التي اختارها الموحدون فإنها التي يتكلم بها سكان الشمال الشرقي من المغرب وفجيج ، وكذا سكان الواحات وقد قيل والقائلون هم : الإستعماريون طبعا: أن نسبة التحدث بالبربرية في المغرب نحو 60٪ وفي الجزائر 29٪ ، و في تونس 10٪ و عندهم– و هو زعم يسفهه التاريخ –أن الرجل البربري قابل اللغة العربية قبل بمثل ما قابل به مختلف اللغات التي عرفها شمال إفريقيا، فينيقية ويونانية ورومانية ، ويعتمد رأيهم حول هذا الموضوع على ما آنطبع عليه البربر من سذاجة وبداوة ترفض التعقيد وتأبى التراكيب الحضارية المضنية ، وإذا ما كان البربري يقبل على كل ما يقدم fi باسم الدين فإن اللغة العربية لن تقدم إليه كذلك ولا كوسيلة لحياته اليومية ، بل كأوامر ينفذها، وأحيانا بواسطة الترجمة من الحاكم ، مما أبقاه بعيدا عنها وعن الاعتزاز بها كلغة القرآن و الدين و الحياة ، بل أغلب ما نقل إلى الرجل القبلي لم يكن بأمانة ، وإنما كان مشوها ولا زال منذ عهد الفاتحين و سياسة بني أمية كما سنرى وحتى الآن ، ويزعم من يقول إن الرجل البدوي كان محل عناية من حكامه في مختلف أقطار المغرب الكبير ، خصوصا في ما يتعلق بتعليمه وتثقيفه ، ولعل بعضهم يحتج على ذلك أن « البربري » دائما كان يستعصي على الإنقياد ، وأنه كان يلجأ إلى الوعر ، فهذه حجة أبلغ على عدم آرتياحه لحكم القهر والاستبداد الذي عومل به على مر السنين وكما سنرى في بعض الحالات بعد .

لقد وجد العلماء لبعض اللغات المنقرضة رقاعا ليس لها أي ارتباط بأية لغة أخرى، مثل مجموعة لهجات البشكنس أو الباسك وهم الذين يعيشون الآن في منحدرات جبال

البرانس الشمالية و الجنوبية، وربما كان عددهم يقول ولز قرابة 600.000، ولغتهم تامة التطور لكنها متطورة على أسس تخالف كل المخالفة جميع الأسس التي تقوم عليها اللغات الارية المحيطة بها، وقد جمع المستر هـ كين في كتابه « الإنسان في ماضيه وحاضره » أدلة تربط في زعمه ولو من بعيد – لغة البشكنس « باللغة البربرية» في شمال إفريقية ، وتصلها عن طريق البربر بكتلة اللغات الحامية العامة ، وقد لقي هذا القول، معارضة، وأن لغة البشكنس أكثر شبها ببعض بقايا لسان متخلف معزول مثلها، يوجد في جبال القوقاز، ويجنحون إلى اعتبارها آخر عضو باق من أعضاء مجموعة كانت في يوم ما عظيمة الإنتشار جدا، تتكون من اللغات «قبل الحامية»، وقد بادت فيما عدا ذلك من أمكنة.

ويقول هيرودوتس عن الأمونيين الذين هم في الحقيقة نسبة إلى « عمون» لا إلى «آمون» إله المصريين كما يظن بعضهم ، يقول عن لغتهم وقد وجدوا ما بين الأثيوبيين والمصريين : إن لغتهم مؤلفة من تداخل لسان هاتين الأمتين مما يستدل به على أنه إن كانت للبربر لغة في القديم فهي ليست هاته التي تستعمل اليوم كما ظن جوليان وآخرين الذين تناولوا الموضوع بلاوعي ولا فهم سليم، بل إن بعضهم يريد أن يعيد أصول اللغة البربرية في المغرب الكبير بصفة عامة إلى قافلة اللغات الحامية المختلطة بالسامية، وأن جذورها ترجع إلى اليمن وعمان ثم الصومال وشرق إفريقيا ، ومن ثمت تحركت غربا وشمالا إلى السودان و النوبة ثم الصحراء حاملة معها ما عرفت من مظاهر لايزال بعضها مشتركا حتى اليوم في كثير من « الفنون القديمة » ، وكذلك في التعبير عن الأفكار قديما كذلك ، كما هو الشأن في شرق ليبيا ، ومصر بالأخص ، غير أن الذي يريد الاستمرار في هذا الاتجاه لا يستطيع أبدا أن يعيد لنا ولو بالتقريب ، الزمان الذي حصل فيه ما ذكر ، لكن عندما أصبح الإنسان قادرا على التعبير عن أفكاره وتجسيمها بواسطة النقوش على الحجر ، خصوصا تلك التي عرف بواسطتها كيف يصف الحيوان ، أوالتي دفعته للتعبير عن شيء مشترك في وجدان الإنسان مثل ما رأينا في كبش فجيج ، إن صح رجوعه إلى تلك العهود – و ما قيل عن « قرص الشمس » على رأسه ، مثل ما هو على رؤوس أكباش عهد الفراعنة وآلهتهم آمون رع ، و غير هذا من أوجه التشابه

الكثيرة في كل من المغرب الأقصى و الجزائر و تونس وليبيا و مصر، و التي إذا رجعناها في المغرب الأقصى كما يقول بعضهم إلى ألف سنة قبل الميلاد ، تعطينا صورة واضحة عن حاضر الإنسان المغربي ، في الوقت الذي كان المصري و الليبي قد عرفا تقدما وحضارة متطورة ، وهو عكس المشاهد المعاش في عصرنا هذا بحكم قرب المغربي في الساحل الشمالي من الحضارة الأوربية، كذلك كان الليبي قبل ولا يزال قريبا من الحضارة المصرية و الشرقية .

ومهما يكن ، فإنه لا فائدة من العمل على إحياء الميت ، فلغة البربر أصلا ميتة ، لا تراث لها ولا فائدة فيها ، ولو كانت لها فائدة وأثر يسهم في حضارة الإنسان لعمل آخرون من أجل إحيائها كما حصل من أجل فك رموز ألواح بابل التي كان أول من قرأها ألماني هو فردريك جروتفليد ، وبالتالي فإن البربر غير قاصرين على المغرب ، فهناك عند ياقوت الحموي بربر السودان وبربر المغرب كما مر حين كلامه عن مدينة مركة (بالميم وسكون الراء) .

مهما يحاول بعضهم بدافع لا يبين عن حقيقة الهدف المنشود من بحثهم وراء ما يثبت وجود وكيان اللغة البربرية ضمن اللغات الحامية ، فإن هذا لا يعدو أن يكون من قبيل ما يتفرغ له الذين يريدون الاستئناس بأشياء لاجدوى ولا طائل منها للآخرين ، وإنما هو لاستهلاك الوقت وإبعاد الضجر ، مثل ما ظهر أخيرا من كتابات بقايا قدماء المحاربين مع الفرنسيين مما أطلق عليه «أمازيغ» أو «تيفيناغ» وهي أشياء تافهة إن لم تكن تحمل في مغزاها أحقر ما كانت تقوم به في الماضي القريب قوة الإستعمار الفرنسي وما حاول تطبيقه «لويس ماسينيون» و «روكس وبونيفاس» و«دي لاتور» الذي صاهر بني اعلاهم وآيت صغروشن وغيرهم ، أصبح اليوم يقوم به أصهارهم من الأذناب الذين أصبح الشعب المغربي بحضارته الإسلامية وتطلعاته وآمال رجاله فريسة لهم باسم الحرية المزورة لصالحهم ، وإمكانات الشعب التي أوقفت عليهم حتى يقوموا بالدور المطلوب ولو بالتزوير على البسطاء ، وبالقهر و الزجر للنبهاء لكنهم نسوا أن التاريخ لهم بالمرصاد ، وأن الحق لم ولن يضيع مهما بالغ المستبدون وطالت أيام المفلسين .

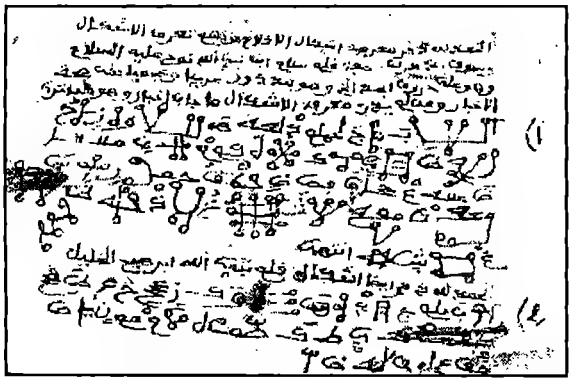

هذا تعليق مغربي لكن من أين للمغرب بهذا؟ وهو من الاثار التي وجدت بمخلفات بعض علماء البربر ونراه قد أطلق على رقم :

1- صفة قلم سام بن نبي الله نوح ع..؟؟ وعلى

2- اشكال قلم نبي الله ابراهيم الخليل..؟! الخ 3-4-5

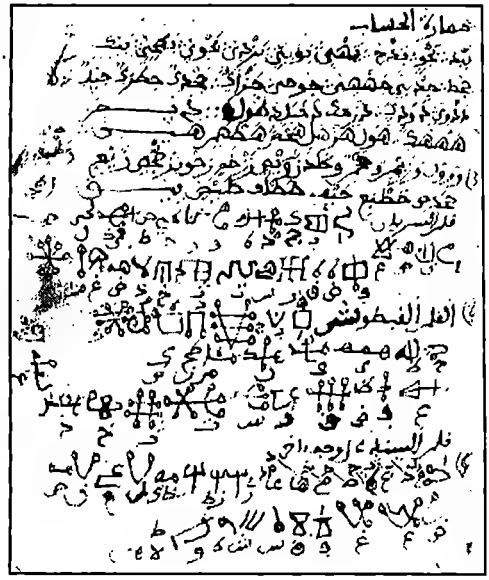

قيل أن هذه من وصايا سيدنا موسى ع

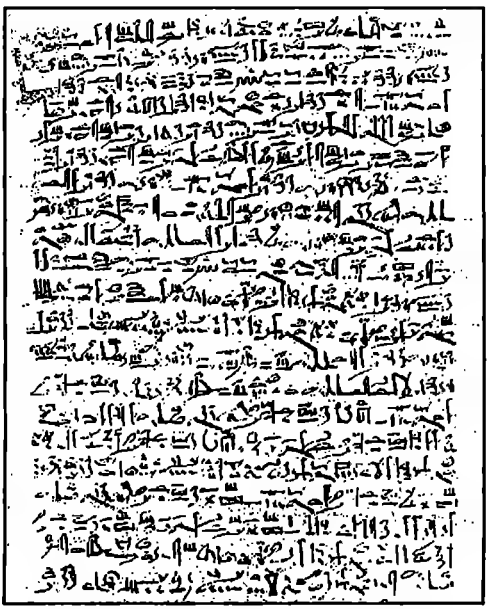

صفحة من الخط الهراطيقي المصري على ورقة
من البردي بخزانة المؤلف

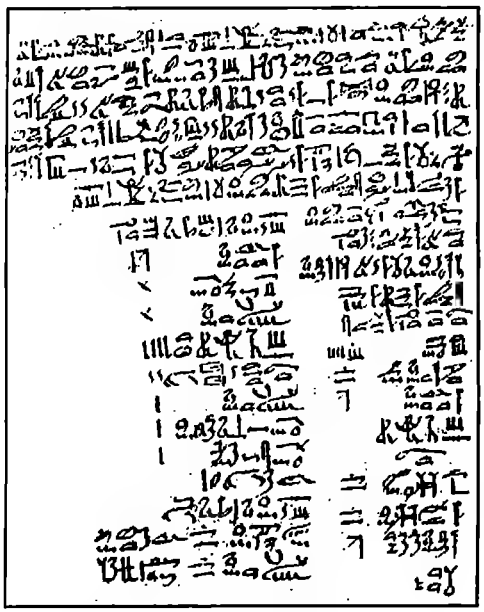

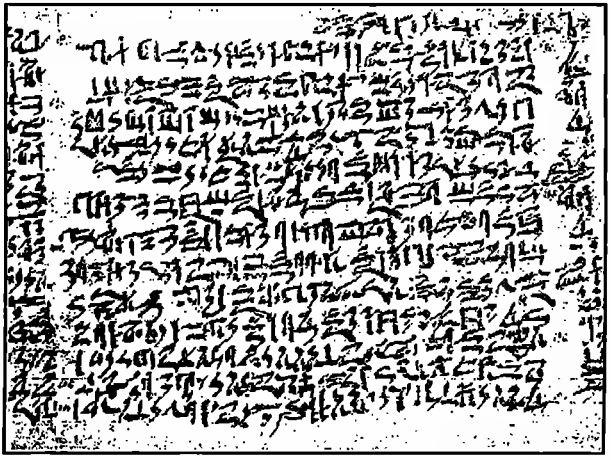

الخط الهيراطيقي المصري صفحة من ورقة بردي
محفوظة في متحف برلين

الخط الهيروغليفي المصري أو الخط
المقدس (قطعة من كتاب الموتى)

مثل من الكتابة القبطية

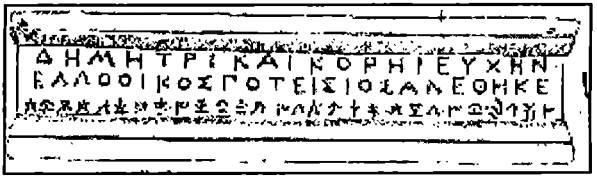

مثل من الكتابة الاغريقية

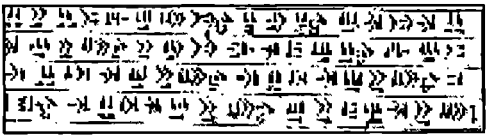

مثل من الكتابة المسمارية

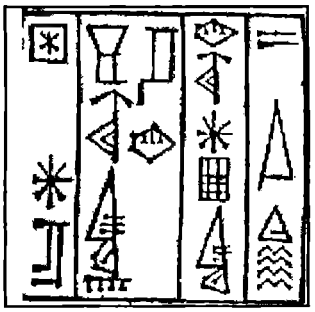

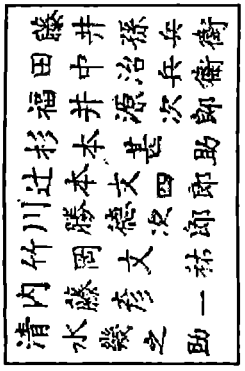

الخط الياباني

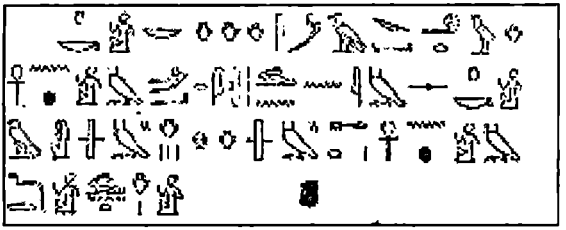

مثل من الكتابة الهيروغليفية

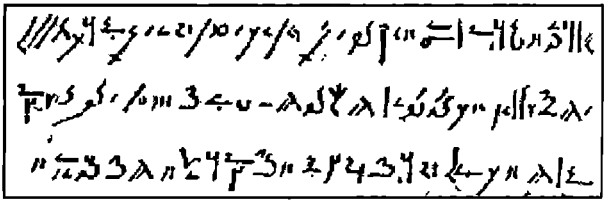

مثل من الكتابة الديموطيقية

a b c d e

مثل من الكتابة الرومانية

مثل من الكتابة العربية الكوفية

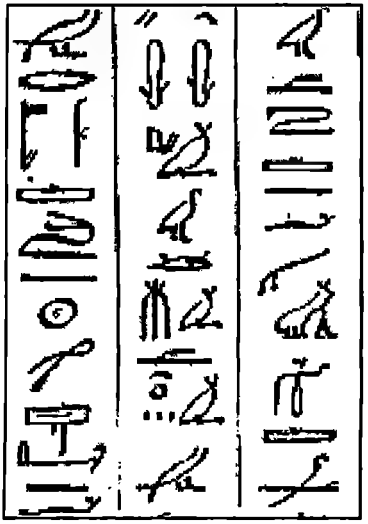

مثل من الكتابة الهيراطيقية

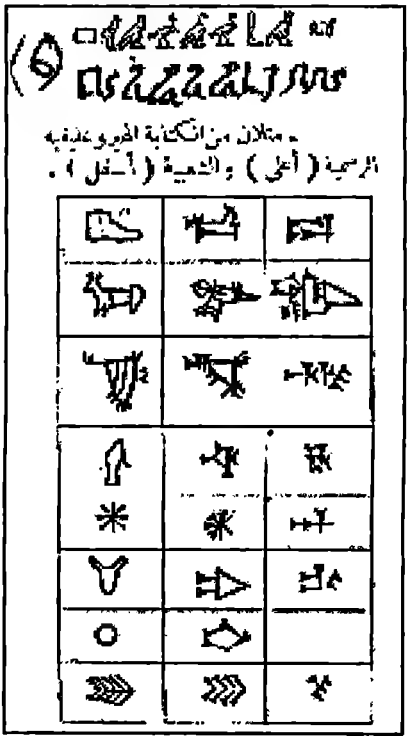

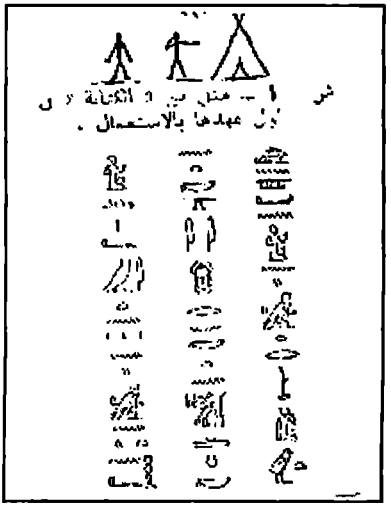

هذه خطوط لغات أهل الأرض قديما وحديثا فأين هو خط لهجة البربر برغم ما يزعمه دعاة الهزيمة من حروف "تفناغ" ليظهروا لنا ولو لوحة مكتوبة بها على أي شكل من الاشكال وتحمل أية فكرة في فن من الفنون

عند كثير من علماء السياسة والاجتماع أن اللغة هي العامل الأساسي في تكوين الوطن و الوطنية، أو هي أقوى العوامل في تكوين الوطن و الوطنية ، لأنها وسيلة الوصل بين الذين يتعاقبون داخل نظام اجتماعي معين يعيش بالذكريات و التقاليد المتوارثة ، ثم يخلص لها ويتعلق بها، ولا وسيلة لنقلها من جيل إلى جيل وتخليدها على مر الأيام وتعاقب الدهور غير اللغة، التي هي بالتالي الوسيلة لتوحيد المفاهيم والمشاعر والاحساس، وإذا نحن قلنا بصحة هذه الاعتبارات التي هي عندهم قاعدة أساسية في تكوين المواطن و الوطنية نكون قد حكمنا باللغو للغة البربرية رغم وجود الذين يتكلمون بها لأنها في مجال التراث مفقودة وغير موجودة إلا في بعض مجالات الفن ومظاهر بعض العمران . مما لا يعتد به كوسيلةمن وسائل ربط الحاضر بالماضي أو الدفع للمستقبل وإنما اللغة التي يتمثل فيها ما سبق من المعاني في ربوع المغرب الكبير هي اللغة العربية...

هناك شعوب شبيهة في الوضع بشعبنا هذا المتواجد ما بين واحة سيوة ونواقشوط وهو شعب الولايات المتحدة ، مثلا و الشعب السويسري كذلك وهذان الشعبان يتخذهما بعض المتناولين لموضوع المواطن واللغة مثالا على أن القاعدة ليست عامة . وأن سكان الولايات المتحدة وهم أبناء دولة واحدة تعرف بامة واحدة أصولهم من جنسيات مختلفة يتكلمون لغات متعددة ولهجات متنوعة ومع ذلك وطنيتهم أقوى ورابطتهم أشد ، وتمسكهم بتاريخ بلادهم هو ما عرفوا به بين الشعوب و الأمم ، بل كل أمريكي أصبح يعتبر نفسه «واشنطن» من فرط حبه لبلاده ، ولعل السبب في ذلك وماعوضهم فعالية الأصول المشتركة ، هو النظام القوي و القانون الأمثل الذي اشترك فيه وفي نتائجه الجميع . ذلك هو ماوحد بين الأمريكيين إلى جانب أن الغالبية فيهم هي الجنس الانلو سكسوني الذي ذابت فيه جميع الجنسيات وفي أخلاقه ما للأقلية من عادات وتقاليد وأخلاق . ومثل الأمريكيين السويسريين الذين يتكلمون ثلاث لغات ومع ذلك فهم أشد شعوب العالم تمسكا بوطنيتهم ووحدة وطنهم لأنهم جميعا ضمهم دستور اتفقوا عليه جميعا . وهذان المثالان رغم قوتهما ، فإن حقيقة اعتبار اللغة العنصر الأساسي و الجوهري في تكوين الوطنية . لا محيد ولا مجال للتراجع عنها . بل اللغة كانت ولا تزال وستبقى الرابطة القوية التي لا انفصام لها .

من الأمثلة القريبة التي يدركها كل إنسان هي أن الأجنبي الذي يعرف بهذا الإطلاق في كل مجتمع هو الذي يصعب فهم كلامه و التفاهم معه ، وأية هوة تفصل بين الناس قبل الجنس و الحدود و اللون غير اللغة . إن الاختلاف في اللغة يحول دون أي اتصال روحي بين الإنسان وأخيه الإنسان باستثناء الدين وما يحدثه في اللحظة الأولى من اتصال روحي مؤقت سرعان ما يضعف أو يزول عندما تشتد المعاناة ولا يحصل التفاهم اللغوي ، وهذا كان يعيشه بعض المتبربرين لغة ولا يزال بعض الذين لم يتمكنوا من هضم الثقافة العربية في المغرب عموما. لأن تراث وحضارة المغرب لم تكن بغير العربية التي ابتلعت كل ما سبق لهذه الديار من أنواع الحضارات. أية غربة وتباعد أكثر مما يشعر به المواطن في الدار البيضاء والرباط وفاس حين يذهب مثلا إلى سوس أو زايان أو بني يزناسن أو الأطلس المتوسط حيث القبائل ذات اللهجات المنقطعة ويحتاج إلى ترجمان ، ومثله إذا هو انتقل عبر ربوع المغرب الكبير إلى واحة سيوة .

فاللغة العربية وحدها هي الوسيلة للتفكير والخلق و التدوين في ربوع المغرب الكبير ومادونها مما نراه كخيال الظل لم ولن يعمر أبدا، العربية هي وسيلة الأجيال الحاضرة والمستقبلة لفهم التراث وحضارة الماضي وما خلده الآباء و الأجداد ،،وهي كذلك الوسيلة للخلق والابتكار و الحفظ و الصيانة و الخلود .

و اللغة العربية كانت ولاتزال هي السلاح الذي يستطيع شعب المغرب الكبير وكما سبق أن يواجه بها كل وسائل الغزو الظالم المتربص لأنها القوة الوحيدة التي أمكنها أن تطبع المغاربة شرقا وغربا بطابع واحد في التفكير و العادات و التقاليد وتلك هي التي كونت البعث الذي دفع لمقاومة الاحتلال الأجنبي من دمشق وبغداد الى مراكش وسوس، ومن الذي بعث الوعي وعرف به هنا وهناك إن لم تكن اللغة العربية .

لقد سهل على المستعمر الفرنسي أن يعرف اللغة البربرية وأن يخاطب من حوله من الذين أوقعهم سوء الطالع تحت حكمه ، لكنه لم يخرج عن الدائرة الضيقة التي كان فيها. ولو أن الفرنسيين الذين حكموا المغرب الكبير من فزان إلى سوس كانوا جميعا يتكلمون العربية لكانت مدة احتلالهم أطول لأن جماعات المتفاهمين معهم ستكون أكثر وأوسع لكن الذي عجل بدفعهم وإبعادهم هو اللغة و الدين .

لو أنك جمعت بين من يتكلم لهجة الريف ومن يتكلم تاشلحيت بسوس ولهجة صنهاجة ثم وضعت لهم جميعا سؤالا واحدا حول فكرة معينة لما كانت أفكارهم حولها موحدة ، وتكون العقدة أعوص إذا أنت جمعت بين هؤلاء وسكان القبائل في أرض الجزائر ثم جربة وفزان وسيوة وبربرة في كل من تونس وليبيا ومصر والسودان وبالعكس لو تقدمت به الي جماعة جلبت أفرادها من الحجاز و اليمن وعمان و الشام وبغداد ومصر والسودان والصومال و المغرب الكبير فإنك لا تجد فارقا في مفهوم السؤال و الجواب عليه لأن اللغة هي التفكير و العادة و الخلق، ولا معنى لتعددها في وطن واحد حاجياته واحدة وأهدافه واحدة، ومقاصده واحدة، سواء في مجال العلم أو الفن أو الأدب، بل وحتى الصناعة و التجارة وكل ما يتعلق بالتنظيم لاصحة ولا سلامة له إذا لم يكن باللغة الموحدة المشتركة ، ناهيك إذا كانت هذه اللغة هي الأداة الوحيدة لفهم الدين الذي له أكبر الأثر في وحدة الأمة و التمكين لسلطانها .

إن القاسم المشترك بين المغاربة في هذا البلد ، هو الإسلام ولغته العربية ،كنت من القائلين ولا أحد يمنع أن تستعمل اللهجة البربرية موقتا بين الإداريين الذي يوجهون الى المناطق كوسيلة العمل والتفاهم في بعض القبائل التي عجز السابقون من مستبدي الدول المتعاقبة عن تعليم أبنائها و الخروج بهم من دائرة المركب الذي يعانون منه كمحرومين متظلمين ، وبالأحرى لم يهتم أحد بتعليم أبنائهم قبل فلو وضع تخطيط زمني قبل لنشر اللغة العربية قراءة وكتابة بين قبائل البربر كما حصل منذ عهد الاستقلال لحصل في هذا الزمن الطويل ، ما يجعلنا نترك هذا الموضوع الذي كان في أهم برامج الاستعمار ولا يزال أصهارهم يتابعون التأكيد عليه تفريقا لما جمع الله ، وتمزيقا وهدما لبنيان أبى الله إلا أن يتم ويكتمل منذ اثني عشر قرنا .

ومهما يكن فإن الشعب المغربي و وطنية المخلصين من رجاله وغيرتهم على الدين الإسلامي، قد قطعت الطريق على الفرنسيين الذين استعملوا كل وسائل القهر للتفريق بين المغاربة باسم هذا عربي، وذلك بربري، أولئك الذين أنشأوا المدارس وفرضوا تعلم البربرية لتحقيق أغراضهم ، وأخيرا وضعوا القانون الذي يرجع إلى11 سبتمبر 1914(139)

(139) راجع فصل فرنسا والسياسة البربرية بعد في هذا الكتاب.

باسم المحافظة على مظاهر حياة البربر ثم كرروه مرات ومرات وأخيرا فاحت رائحته الكريهة بتاريخ 16 ماي 1930 ، وأطلقوا عليه «الظهير البربري» ، فكانت النتيجة رد الفعل من الشعب بقيادة العاهل الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه ، وقد انتهى المغرب إلى استقلال ووحدة ، فهل يريد المرجفون بدعواهم خلق الفرق و التمييز كما كان يفعل الفرنسيون الذين أصبح الدور منوطا بأصهارهم من المخلفين ؟ وأبنائهم الروحيين والمولدين ، ومع ذلك فسنعرف لهؤلاء « البربر » القدامى والمحدثين رجالا وطنيين قاوموا الاستعمار القديم، مثل "ماتو" الثائرو"تاكفراس" الذي حارب الرومان سبع سنوات، والملك "ماسينيسا"، وعمه "سفاقس" و"يوغورطا" و "جوبا الأول"، وولده "جوباالثاني" وغيرهم من الذين لو أدركهم الإسلام لكانوا الأولين في اعتناقه والتمسك به مثل طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي وغيرهم من الذين آمنوا بالإسلام وبما له من ميزة بعيدا عن العنصرية العرقية التي قضى عليها وجعل الناس سواسية لا فضل لأحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، وبالتالي ما هي العناصر التي يتكون منها المجتمع المغربي من غير البربر والعرب؟ والتي لا شك أنها ترسبت فيه من الدول التي حكمت المغرب الكبير، تلك التي جلبت له من الجنود ورجال الإدارة الآلاف، والذين لم يغادروه بزوال الدولة الحاكمة، وإذا من هي تلك الدول التي استعمرت المغرب الكبير ثم شاركت بأجناسها في تكوين مجتمعه القديم.

الباب الثالث
المغرب الكبير ودول الاستعمار القديم

الفصل الرابع عشر

الفنيقيون وبصماتهم في حضارة المغرب الكبير

تعرض المغرب الكبير، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى لموجات بشرية ثلاث انضمت جموع منها إلى المغاربة والبربر، وهي موجات الأيجيين نسبة إلى بحرايجة واليونانيين، والدوريطانيين، لكنهم لم يكونوا بالكثرة مثل الفنيقيين، والرومان والعرب.

لم يصل المؤرخون فيما يرجع إلى الفنيقيين إلى رأى نهائي، وقد وجد تاريخهم فيما سجل لشعوب كثيرة في العالم مصر وإيثيوبيا، واليهودية، والعراق، واليونان، وبلاد الشام، وبلاد العرب والهند، لكن من هم الفنيقيون؟ قبل أن يعرفوا في منطقتهم بلبنان؟ وما أصلهم؟، هذا ما لا يعرفه التاريخ معرفة صحيحة، وإذا كانت أصولهم معقدة فإنها ازدادت تعقيدا بسبب افتراضات المتأخرين الذين قالوا ما لم نجده مفصلا ولا هو مما يقبل، كتأويلاتهم ما عند هيرودوتس، ويوسفوس وديودور الصقلي، ويوستينوس ماركوس، وبلين، واسترابون(140) والذين لم يختلفوا فيما أوردوه عن الفنيقيين لأنهم جميعا بلا شك إستقوا من مصدر واحد هو أولهم.

قال بعض المعاصرين(141) في افتراض أضافه إلى افتراضات السابقين : إن أسلاف الفنيقيين الأول وأصلهم غير محقق، مذ أقصتهم الزلازل أو حدث آخر من أحداث الطبيعة عن الشواطئ الأرتيرية فاستقروا في سوريا، وهذا أمر مؤكد، فكان أصلهم الأول مشتقا من جنس الأطلسيين سكان القارة الأطلسية التي زالت من الوجود، والتي تلقى أفلاطون أخبارها من الكهنة المصريين كما أشرنا، وقد وصف في كتابه " كريتياس" الذي لم يتم تأليفه، ما كان لهذه الأطلسية من حضارة بلغت من التقدم شأوا عظيما،

(140) راجع تراجم هؤلاء في مختلف الموسوعات ومنها العربية ط 1965.

(141) كتاب فنيقية لبنت بطوطة ص : 7 ط : 1965.

وعلى ماجاء من الأخبار التي رواها أفلاطون عن الكهنة المصريين أن زوالها يرجع إلى9000 سنة قبل سولون أو إلى 10.000 سنة قبل التاريخ المسيحي على وجه التقريب كما سبق لنا نقلا عن المصادر المشار إليها قبل.

ونعود إلى التوراة الذي إستعملناه قبل فيما يرجع إلى أبناء حام الذين منهم كنعان وأبناؤه العشرة، الذين استوطنوا بعد أبيهم الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ومنهم خرج صيدون الذي منه يفهم أن الفنيقيين من ذرية كنعان بن حام كما يؤكد ذلك حروف الكتابة في لغة الكنعانيين، مع أن من يقول بهذا ينظمهم في سلك المجموعة السامية(142) على أن أصل لغة ما لا يسفر عن اكتشاف أصول الذين كانوا يتكلمون بها كما سبق أن أشرنا إلى أنه يستطيع شعب ما أن يتبنى لغة أجنبية عنه ويحولها بحكم العادة إلى لغته الخاصة، سواء أكان ذلك بمحض اختياره بسبب اختلاطه، أو اندماجه السلمي بشعوب أخرى أو بحكم القوة الناشئة عن الفتوحات والإستعمار.

والخلاصة : أنه لا علاقة للفنيقيين بالسامية، رغم أنهم عرفوا قارة آسيا وما بين النهرين، حيث أسس الكنعانيون مملكة بابل، وباختصار فإننا إذا نحن أردنا متابعة البحث عن الفنيقيين خارج تاريخهم في المغرب وجنوب لبنان، فسيؤدي بنا البحث إلى أنهم أصل جل الحضارات التي عرفها حوض الأبيض المتوسط حتى الإغريقية نفسهاعلى حد قول بعض الباحثين، ولهذا نعود إلى ما نحن بصدده عن الفنيقيين في المغرب.

لقد قر في أذهاننا أنهم يرجعون الى سلالة كنعان بن حام، وأنهم قدموا الى المنطقة التي عرفت بهم في ساحل لبنان قبل بداية التاريخ.، وفيها أسسوا مدنهم المعروفة حوالي 2800 ق م صور ـ صيدا وغيرهما.

وكذلك فإن ظهور الفنيقيين في شمال إفريقيا، يعتبر بداية التاريخ المدون في هذه الديار بالنسبة لكثير ممن اتخذوا هذه المرحلة بداية، على أن التاريخ عرفنا أنهم انتقلوا إلى شمال إفريقيا حوالي 810 ق.م عندما أقبلت الأميرة "أليسا" التي يسميها اليونانيون

---

(142) فقه اللغة د عبد الواحد وافي، ص : 30 ـ 40 1945م وتاريخ مصر القديم 182 ط 1949، لمحمد عبد الرحيم مصطفى، وعبد العزيز مبارك وه ج ولز 182/1.

البحر الأبيض المتوسط
تونس
ليبيا
مصر
السودان
الصحراء الكبرى
النيل
البحر الأحمر
شبه الجزيرة العربية
اليمن
مضيق باب المندب
إثيوبيا
الصومال
كينيا
جزر القمر
مدغشقر
المحيط الهندي
المحيط الأطلسي
جبل طارق
ليكسوس
ثمياتيريون
الهضبة الصوداء
طريق القوافل
طريق القوافل عبر الصحراء
نهر النيجر
مالي
قرية السينغال
نيجيريا
جبال الكمرون
الطرق الفينيقية

"ديدرون"، وهي أخت "بجمالون" الملك الفنيقي لمدينة صور - على الزواج من خالهاأشرباص، و الذي كان من جملة كهنة ملقارات، والذي أمر الملك المذكور بقتله، فكان ذلك سبب رحلة الأميرة المذكورة ومعها قافلة من المتذمرين من أخيها، فأخذت طريقها مرورا بأوربا عن طريق تركيا إلى أن أرست بساحل شمال إفريقيا، فكان هذا العامل إلى جانب الصراع الذي نشأ بين مختلف العناصر الموجودة في المنطقة، بسبب ضيق المجال والذي تضررت معه تجارتهم وصناعتهم، ثم تعرضت سفنهم للأخطار الناجمة عن الصراع المذكور، مما كان له الأثر في تقلص تجارتهم ونشاطهم البحري، خصوصا عندما انتهت حضارة ما بين النهرين إلى التوسع السياسي والإقتصادي، فامتدت الى سوريا ثم فلسطين ومدن الفنيقيين التي تعرضت لموجات جارفة من الأشوريين والسومريين والأكاديين والبابليين، رغم إستنجاد الفنيقيين بأصدقائهم المصريين في عهد الدولة القديمة3400 –2160 ق م والوسطى3064–2851ق م(143) والذين لم ينجدوهم بالقدر الذي يشد عضهم، خصوصا ضد الأكاديين الذين إكتسحوا إلى درجة أن المصريين أنفسهم تضرروا منهم، بل تعرضوا لمضايقاتهم حين فرضوا سلطانهم على بعض جهات ممتلكاتهم التي فرضوا فيها اللغة الأكادية وخطها المسماري كما تشهد بذلك آثارهم في تل العمارنة(144). فكان ذلك من عوامل هجرة الفنيقيين إلى أن حطوا رحالهم بساحل الأبيض المتوسط وشرق المحيط الأطلسي ومند ق 12ق.م. أصبح لهم مراكز من حدود الجبل الأخضر بليبيا إلى مدينة أغادير وهي : صبراته وسوسة وقرطاج، وتبسة، عنابة، وأوتيكا، والجزائر،وقسنطينة،وشرشال وترشيش، ومليلية، وثمودة وطنجة والعرائش واللكوس، السويرة وغيرها من المدن التي تولدت عن حضارة قرطاجنة التي شيدت مكان «كرت هد شت».

---

(143) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث ط 1889، تاريخ الدهور ليوحنا أبكاريوس، 172، ط1873.

(144) وألواح تل العمارنة قصة نستخلصها من كتاب عبد القادر حمزة باشا «على هامش التاريخ المصري القديم ففي سنة 1877 كشف في صعيد مصر عن ألواح في تل العمارنة مصنوعة من الخزف مغشاة بالكتابة المسمارية باللغة البابلية. وهذه الألواح نقلها الى هناك. أمينوفيس الرابع «خناتون» وقت أن كانت مصر تمتد من الشلال الرابع في السودان إلى ماوراء الفرات وإلى المنطقة التي تعرف الآن بإسم لواء الأسكندرونة ثم إلى أرخبيل إيجه البحر الأبيض المتوسط ، إلخ. =

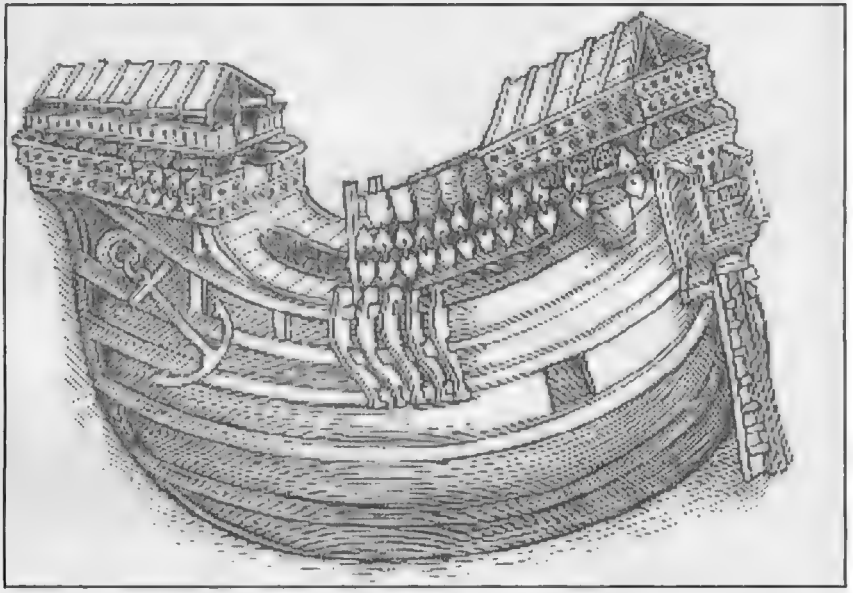

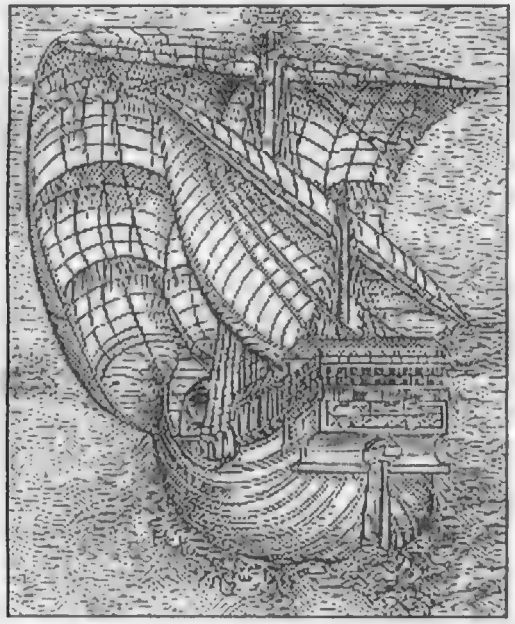

سفن فينيقية

وهكذا فقد عرفت شواطئ المغرب الكبير ولأول مرة في تاريخه القديم روادا جلبوا له ما لم يكن بعد قد عرفه من ألوان الحضارة، سواء في مجال العمران، أو الإقتصاد أو الإجتماع، أو السياسة، أو الحرب. أو العلوم،أولئك هم الفنيقيون الذين شيدوا مدينتهم الأولى شرقا حيث ضمت جميع ما أشرت إليه بنوع من الجودة العالية والتفوق الكبير، وإذا علمنا أن حضارة الفنيقيين أساسها التجارة فقد عرفنا التاريخ مدى قوة وسلطان الحضارة التي يقوم أساسها على الإقتصاد القوي المنظم.

لقد شيدت مدينة قرطاجنة في المغرب ما بين 860 ـ 810 ق م، على غرار ما كان لأهلها في صور، ومن أول عهدها وبعد ماذابت المشاكل التي عرفها النازحون مع أميرتهم، وما كان لهم حتما من صراع مع المغاربة والبربر أهل البلد الذين كان القرطاجنيون يؤدون لهم الضرائب سنويا، وبعد ما تم لهم ما أرادوا وتم الإتفاق، وقتها إستطاع المهندس المعماري الفنيقي أن يتفرغ للإبداع والتخطيط الذي كان خلاصة لتجارب جد عظيمة، عرفها الفنيقيون من كل ما سبق من البلاد المشار إليها، والتي رأينا بعضها فيما استفاده منها سليمان 1005ق م. بن داوود عليهما السلام وذلك في التجارة وفي بناء هيكله «2 صم5:10» تلك الإمكانات التي وصفتها التوراة والتي انتشى بها الملك

= ولما أنشأ أمينوفيس الرابع أو اخناتون الموحد مدينة «أخناتون» ونقل إليها عاصمة الملك أنشأ فيها القصور والمعابد ثم انتقل إليها معه رجال الدولة.. وكانت في طيبة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت في خوتان دار لهذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التي كانت محفوظة في طيبة. وهذه الدار بعينهايقول عبد القادر حمزة باشا، هي التي أدى الاتفاق بمعاولهم الفلاحين من أهالي قرية الحاج قنديل إلى أن تعمل فيها في سنة1877 م وذلك الجدار السميك الذي عثر به أولئك؛ الفلاحون وجعلوا ينفضونه حجرا حجرا ليأخذوا منه ما يصلح لمبانيهم لم يكن شيئا سوى صور قصر الملك محيطا بالقصر وبالدار، وذلك الطوب الذي عثروا عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقية أثرية لم يكن شيئا غير كتب كتبها ملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين إلى فراعنة مصر، المصدر المذكور ص179 ـ180 ط 1940م وفي الرسائل التي كتبها الى فرعون ملوك كنعان الخاضعون إيضاح لتاريخ فلسطين أواخر القرن الخامس عشر إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل المسيح، فهي تشير الى ضعف سلطان مصر في فلسطين وعجز ملوك كنعان المختلفين عن مقاومة الحثيين والخبيرو؟ وقد زعم بعضهم أن «الخبيرو » هم العبرانيون فاعترض على ذلك كثيرون كما ورد في تاريخ فلسطين ج 1/34 ـ 35 المطبعة العصرية بالقدس 1934م.

والمقصود من هذه القصة هو الإشارة الى أن وثائق تاريخ علاقة الشام وجنوب فسطين بشمال إفريقيا بل تاريخ أصول البربر قبل الفنيقيين يمكن كذلك البحث عنه من خلال هذه الوثائق وغيرها وهو ما لم يحاول المغاربة الإتصال به من آثار تلك العصور، ولو فقط للإستئناس والتوسع الثقافي وإثراء المعارف من جانب ولزيادة الربط بين المشرق والمغرب في هذا المجال من جانب آخر. ثم راجع تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج 1/49 وفيه سماه أمونفيس 4 وكذا قصة الحضارة لول ديورانت، ومعالم تاريخ الإنسانية لولز إلخ..

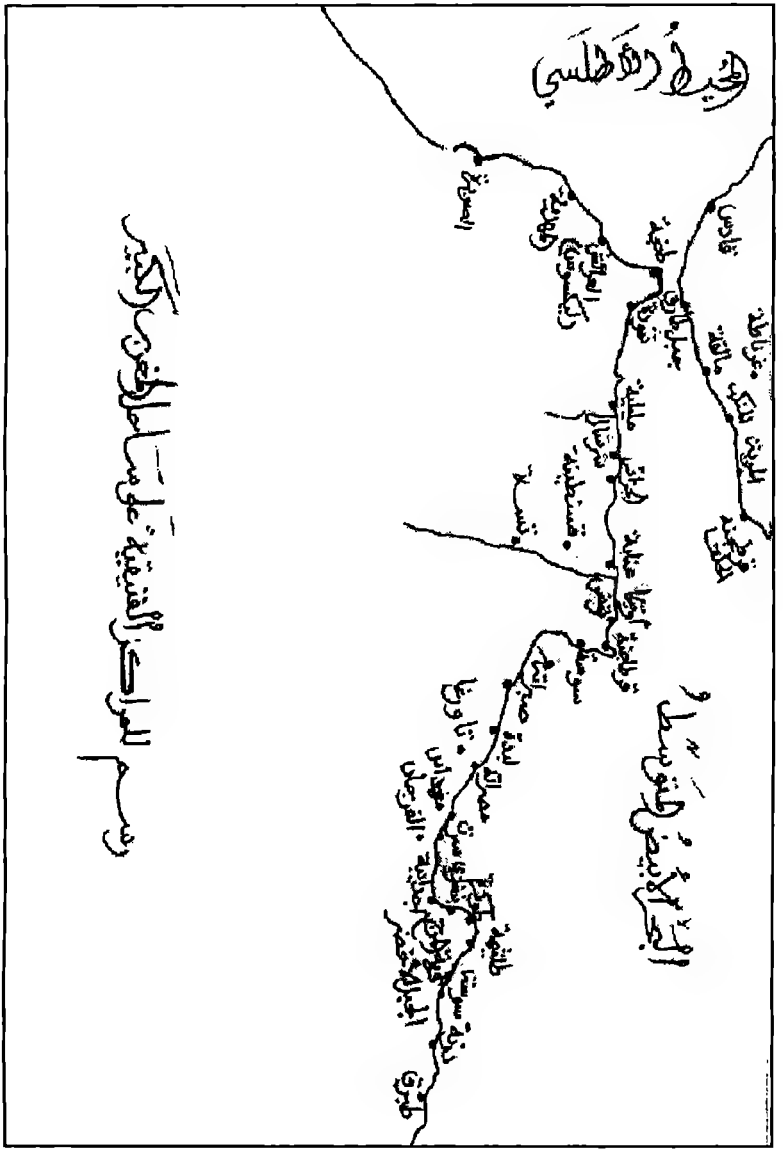
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
رسم للمراكز الفنيقية على ساحل المغرب الكبير

حرام الذي زود النبي سليمان بما كان للفنيقيين من براعة في ذلك العصر، تلك التجارب التي أبدعت ثم أعجزت في قرطاجنة، حتى إن ما عرفت به من عظمة لم يحفظها التاريخ لغيرها من المدن، فمدينة قرطاجنة التي عرفت على شاطيء البحر الأبيض المتوسط، وعلى مقربة من المكان المعروف ب"ترشيش = تونس" والتي عرفت بأسوارها العالية الضخمة الهائلة التي عدت طولا بعشرات الأميال، وعلوا بأكثر من عشرة أمتار ذات الميناء التجاري المستطيل والحربي المستدير، والمحصنة بالأبراج العالية والخنادق العميقة، كما عرفت بأسواقها ومعابدها. بل وبحركتها المستمرة، وتبادلها التجاري مع كل جهات الأرض، وعرف الفنيقيون والقرطاجنيون فيها بدياناتهم القديمة التي ترجع الى آلاف السنين، حيث كان أول معبوداتهم الأنهار والجبال، والأشجار، فكانوا يحجون إلى نهر أدونيس الذي كانوا يسندون احمرار لون مائه إلى اصطباغه بدم أحد الآلهة، على أنه كان لهم عبادة أخص من هذه يوجهونها إلى البتيل أي الاحجار المقدسة المخروطية ، أو البيضاوية الشكل، وكان أقدس الأحجار عندهم ما نزل من السماء ، كالحجر الأسود، المتصل بالكعبة، ثم عبدوا من بعد الأحجار آلهة آخرين تختلف أسماؤها بإختلاف المدائن التي كان سكانها يعبدونها فيها. إلا أنهم كانوا يضيفون إلى هذه الأسماء إسما عاما هو "بل" أي السيد فيقولون ملكارت بل. وهو معبود "مدينة صور" الذي يقال أنه أول من وضع حروف الأبجدية، كما أن القرطاجنيين كانوا يعبدون "تانيت" وهي عذراء كانوا يرسمون صورتها على النقود والمقابر، و"بل همنون" الذي كانوا يسمونه "مولوك"، أي الملك، وكانوا يقدمون إليه القرابين البشرية كلما تهدد الخطر مدينة قرطاجنة، ولم يبق من معابد الفنيقيين والقرطاجنيين أثر. ولكن عرف من البحث أنها كانت عبارة عن فناء متسع تحيط به جملة من المباني، وفي وسطه غرفة من الحجر يوجد بها المعبود(145).

(145) راجع تقويم المؤيد لسنة 1326 هـ 1908، ص150.ط : مصر.

مولوك اله بني عمون عند الفنيقيين

راما ديانتهم فكانت وحشية بربرية أيضا كبعض عوائدهم فكانوا يعبدون الاصنام والمحتويات ومن أعظم آلهتم بعل ويدعى مولوك أيضا اي اله الشمس. واشهر ماقدموا لهذا الاله الذبائح البشرية من الأولاد الصغار فكانوا يضعونهم احياء على ذراعيه المحماتين بالنار. وكان ذلك الاله مصنوعا من نحاس وله راس عجل مكللا بتاج ملكي وذراعاه ممدودتان كانه مستعد لاحتضان من يقدم له. فكانوا يضرمون تحته نارا مهلكة الى أن يحمى فيلقوا الولد التعيس الحظ على ذراعيه لا يلبث ان يموت حالا لشدة الحراة فيالها من قساوة بربرية.

عشتروت الهة السوريين والفنيقيين

الفصل الخامس عشر

المغاربة والبربر بين الفنيقيين والقرطاجنيين

كان الفنيقيون قبل استيطانهم البحر الأبيض أي حوالي2200ق م. قد انتشروا بعد تأسيسهم أرواد صور وجيبيل، ثم بسطوا نفوذهم على قبرص، وكريت، وإيطاليا، وإفريقية، وجزيرتي صقلية، وسردينية، وقرطاجنة بتونس، ورغم تمكن القرطاجنيين فإنهم لم يجدوا من المغاربة والبربر قبولا، كما لم تجده حضارتهم لا من قريب ولا من بعيد، رغم طول حكمهم الذي دام من840 إلى146 ق م، بل رغم مساهمة البربر في حروب القرطاجنيين زمنا طويلا ضد اليونان والرومان واختلاط عدد غير قليل بهم، فإننا لا نجد من آثار الفنيقيين في الحياة الإجتماعية بين البربر غير مظاهر تكاد لا تذكر في بعض الجهات التي كانت موطنا لرجالات القبائل العاملين في صفوف الجند، أو خداما لرجالات الدولة في أحط الوظائف، ولقد وضع المغاربة والبربر بحكم عاداتهم وتقاليدهم سدا فاصلا بينهم وبين الفنيقيين، حفاظا على حريتهم واستقلالهم، حتى إن التأثير الذي حصل لم يتعد الساحل القريب من مراكز نفوذهم، وكل ما عرف من أثر عمراني ينسب للفنيقيين ثم وجد فيه تأثير على البربر بعد، لم يكن في عهد سلطانهم، وإنما كان بعد خراب قرطاجنة وتحويل الكثير من مواد عمرانها إلى جهات مختلفة، وقد حصل هذا زمن الرومان، والوندال، الذين حولوا من أثر الفنيقيين كل ما أمكنهم تحويله لبناء قصور الولاة ورجالات الجيش والإدارة، بل وإلى رومة دون أن يظهر ذلك بشكل يكون باديا للرجل العادي، بل يقول الحميري : إن ما كان في قرطاجنة من رخام لوجمعت لحمله قبائل المغرب لما أتت على نهايته، وإذا علمنا أن طول صورها يقول ابن الفقيه الهمداني في كتاب البلدان يبلغ 40.000 ذراع وهو 34 كم. وعلوه : 13 متر وسمكه 9 أمتار، وعلى تلك الأسوار برج للدفاع يفصل عن غيره بـ 59 م و أن البيوت فيها بلغت ست طوابق، و أنهم

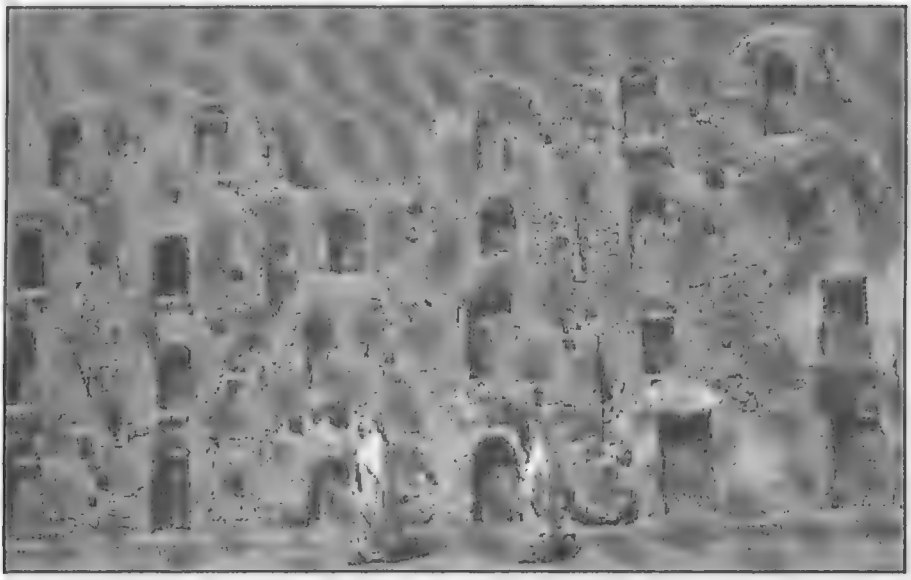

العمارة الفينقية في تونس حيث لا تزال باقية

أتوها بالماء من مسافة ستمائة ميل وبهندسة لا يكاد يصدق انتسابها لذلك الزمان، وإذا تحقق هذا أدركنا ما كانت عليه هذه المدينة من العظمة وضخامة البناء والمسارح والقصور التي انتشرت في مساحات تقدر بما يشك في عدده من الأميال وأن سكانها(146) بلغ تعدادهم 800.000 ومع كل هذا لم تكن بينهم وبين المغاربة والبربر صلات اجتماعية وإدارية بالقدر الكبير حتى تؤثر وتذكر، كما عن لبعضهم أن يقول إنها توجد في اللغة البربرية مفردات كثيرة من لغتهم وهذا وإن كان يرجع له عند علماء اللغات، يمكننا القول إنه كان عن طريق اقتباس بعض المفردات، فإنها لم تقتحم التخوم ولم تعرف بين القبائل بالشكل الذي تبقى مع الزمان بين الناس وفيما يتداولون، بل ولأمكن أن توجد كثرة أو قلة، ولو في بعض الآثار من العمران الذي أقتبس بعضه في السواحل ومن بعض أهل كتامة شرقا بالأخص، وأقرب مثال لذلك ماهو حاصل من اقتباس بعض عمال أرامكو في الظهران لمفردات من لغة الإنجليز التي يستعملها الميركان بدون قصد ولا إدراك وإنما هي المحاكاة، ومثلهم بعض المغاربة مع الفرنسية والإسبانية .

ومهما يكن فإن تأثير الفنيقيين بالمغربين الأقصى والأوسط، كان ضعيفا حتى في سواحلهما إذا استثنينا ماعرف من مراكز الأساطيل والحاميات ومراكز التجارة(147) وقد أسسوا لهم مدينة قرب طنجة هي "تمودة" ثم "المهدية" بخلاف الناحية الشرقية وساحل تونس حيث أسسوا مدينة "طاك" : قابس و"ثبنا" جنوب سفاقس و"حدومارت" التي هي "سوسة" و"هيبوزاريت" بنزرت وطبرقة، وإذا علمنا أن الفنيقيين لم يكونوا يستعملون في

---

(146) توجد 3 مدن بإسم قرطاجنة "قرط حد شت" والقريبة من تونس أو ترشيش، وهي المدينة الجديدة، التي نالت كل العناية ثم أصبحت عاصمة حقق فيها القرطاجنيون ما لا يمكن وجوده في غيرها، راجع عجائب قرطاجنة أو قرط الحداش في الروض المعطار للحميري، 146/2 م خ نا، وقد جاء فيه ما لم يرد في غيره من المصادر العربية مما يفيد في حفريات هذه المدينة حتى اليوم، وقد شيدت هذه المدينة سنة 810 ق م.

(147) يقول بعض الأجانب غيرهذا كما أورد الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في مظاهر الحضارة المغربية، عن :كوتي وسوردون وتيراس : راجع الكتاب 1/1 ـ 16ط 1958، ثم راجع كتاب التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج 18/5 ـ 19، وفيه الحديث عن طبقات المغرب قبيل الفتح الإسلامي وأصولهم، ثم دائرة البستاني 466/2 عمودا، ومدينة المغرب الغربي لأحمد صفر 96 ـ 102 ط تونس 1959 ، وتاريخ إفريقيا الشمالية لجوليان ج 1 ط. الدار التونسية للنشر 1978م ثم موسوعة وجدى ج590/7.

ترحالهم البر أدركنا أسباب عدم تأثيرهم في المغاربة أيضا. حيث لم تكن لهم من طرق البر ما يؤكد ذلك الإتصال.

وقد جاب الفنيقيون بتجارتهم أقطار الأرض يستوردون ويصدرون ، الأمر الذي مكنهم من الثروة ثم جعلهم لا يستعملون المغاربة بالشكل الذي يولد الاحتكاك والانفجار، كما سنرى عكس ذلك مع الرومان والوندال ثم البيزنطيين، بل كانوا يكتفون من المغاربة والبربر بالعمل في صفوف جيوشهم كمرتزقة لصد عدوان الرومان وحروبهم. التي دامت أكثر من مائة سنة والتي بدأت بينهما266 ق م وانتهت146ق م. بسحق قرطاجنة(148) وكما أشرنا فإن عدم تأثير الفنيقيين في المغاربة كذلك يرجع إلى ما عرف به المغاربة أولا وقبل كل شيء من محافظة، بل وإلى ما جبلوا عليه من حب الحرية والإستقلال عن الحاكم كلما وجدوا لذلك وسيلة، ولو كانت في الحرمان من الإفادة مما عند الآخرين، ولا تزال هذه صفات مناطق البربر البتر أو البرانس كلما استغنوا ابتعدوا عن الآخرين ، بل حفاظا على الحقوق يضحي المغربي عموما بحقوقه كما يحفظ التاريخ لسكان الجبال الذين عاشوا حتى زمن الإستعمار الحديث، وأما في عهد الرومانيين فقد حرم البربر أبناءهم من التعلم بدافع عدم الثقة في الأجنبي الذي أظهر أنه يقصد من نشر ما خطط من تعليم مسخ الذات وبث الفرقة بين المواطنين، وسنرى ذلك يتكرر مع الفرنسيين.

ومهما يكن مما قيل وأطلقه الغربيون المحدثون على عموم « البربر » وأنهم سريعو التقلب والتحول وأن مثل هذا كان السبب قديما وكما سجل التاريخ في عدم ارتباطهم وتقربهم من الدول التي حكمت المغرب قديما، هذا القول إن كان ينطبق على البعض فإنه لا ينطبق على البعض الآخر، بل هو راجع إلى الإقليم حسب رأينا، وإلى مدى تماسك القبيلة المعنية وتفككها، وهذا بدوره كثيرا ما يقرره واقع الحياة في ظروف الإقليم الذي توجد به القبيلة ما بين الجبل والسهل، والجنوب والشمال، ودليل رأينا ما عرف التاريخ وما دون من تباين واضح بين مختلف القبائل، خصوصا في مجال الشجاعة والإقدام، فليس كل المغاربة بل و البربر قديما يتصفون بروح الشجاعة والإقدام، كما أطلق ابن

(148) راجع قصة الحضارة لول ديورانت 1 م 3 : 84 ط 1955 . ومختصر دراسة التاريخ مصدر سابق ج 1/155 ـ 58.

خلدون الذي ربما لم يرد أن يفصل في هذا المجال نظرا للظروف التي وجد فيها زمن دولة بربرية هي دولة بني مرين من زناتة والتي عرفت عناصرها في جهات مختلفة شرقا وغربا بسرعة التحول وعدم الوفاء لأسباب ترجع إلى وضعيتهم الإقليمية كما سنعرف بعد، وهكذا فسكان الجبال والمقاطعات الوعرة ليسوا هم سكان السهول والسواحل والأماكن ذات الخصب والعطاء، بل الأولون أشد حدة وشدة كلما تمكنوا لا ينساقون ولايتراجعون بسهولة، بل يستمسكون ويستميتون في الدفاع عن كيانهم خلافا للآخرين الذين يألفون العيش الهنيء في المكان الأحسن، فهم مقابل الحفاظ عليهما ينساقون ويسايرون، وكلما وجدوا وسيلة اندفعوا لمسايرة اللاحق، ولو في أخف الظروف ضد السابق، فإنهم سرعان ما يستجيبون، وبهذه الصفات وهذا الطبع يتعرضون للمسخ المتلاحق وعدم الإحتفاظ بقليل ولا كثير مما يعرفون، ومثال ذلك من القبائل والأماكن ذات التأثير الذي يطبع بالتمسك والتماسك، قبائل المصامدة في المغرب الجنوبي الغربي وقبائل صنهاجة في الجنوب آيت عطا وآيت مرغاد، وآيت حديدو وأيت حمو، وآيت ورا وهم زناتة ومغراوة ثم إخوتهم بنو يرنيان وبنو يعزي، وهؤلاء الأخيرين من بني يصليتن، ويوجدون في المغرب ما بين سجلماسة وگرسيف، وبني وجديجن بالمغرب الأوسط، ما بين يفرن ولواتة في سرسر ومطماطة، وانشريس، وواغمرت، إخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا، كما نجد عكس هؤلاء وهم من نفس الجنس والفصيلة زناتة ناحية قسنطينة الذين نقلهم يوسف بن يعقوب المريني بسبب تحولهم، وبنو وطاط بالجبال المطلة على وادي ملوية ناحية تازة وفاس، وهم الذين استعملهم الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر من بعده، وأخيرا انقلبوا عليه وبحكم تقلبهم ومرانهم على التقلب والأسلوب «الخلدوني» «الميكيافيلي» الذي أصبح نوعا من السياسة عندهم، أصبحوا قوة في عهد بني مرين وارتفعوا إلى مقام الوزارة في عهد أبي يعقوب وأبي الحسن وأبي سعيد ثم أبي عنان كما سيعترضنا بعد :

ولقد أفاد الفرنسيون في الماضي القريب من هذه الصفات وربما قاموا بدراسات لم تنشر في هذا المجال قبل أن يقدموا على استعمال العناصر التي تنساق وتمتثل، فاستعملوها ضمن الجيوش التي تمموا بها استعمار المغرب وكذا في حروبهم ضد الألمان1914 ـ 1939 بل حتى اليوم في استطاعة الدارس المتصل أن يلحظ ذلك إن هو رحل

عبر المغرب الكبير ففيه جهات ومناطق تميز أهلها بالتحول الكثير وعدم الوفاء نمسك عن تمييزها والإفصاح عنها، وقد عرف المغرب اليوم من الأحزاب عشرة يتزعم بعضها خونة الماضي من عملاء الإستعمار الفرنسي وفيها من تلك العناصر التي استمدت سلوكها من بيئتها وطبيعة مجتمعها المتأثر بالوراثة إننا اليوم لنستطيع التعرف بما لدينا من الوسائل على علاقة المغاربة والبربر بالفنيقيين أكثر مما عرف السابقون، فإذا كانت الكتابة في الغالب هي التي تمكن من التأثر فإن المغاربة في ذلك العهد لم يكونوا ليعرفوا ما كان منها متبادلا بين الصفوة دون العامة من القرطاجنين أنفسهم، وهكذا حتى لو أفاد أفراد ما بواسطة الإندماج الذي كان في نطاق محدود، فإنهم عندما تنتهي حياتهم يقبر معهم ما أفادوا وعرفوا، ناهيك وأن حياة المغاربة مع الفنيقيين لم تكن ضمن طبقاتهم التي كانت بعد طبقة الحكام والعسكريين ورجال الإدارة والتجار ورجال الصناعة، بل كانت هي مجرد الجندي المقاتل بأجر أو استرقاق أو مزارع أو راع، ولم يكن للمغاربة وجود في غير مجال العمل الشاق، بل كان المغاربة بالنسبة للفنيقيين والبونيقيين وسيلة غزو وتوسيع في الفتوحات.

لقد أفاد الفنيقيون والبونيقيون المتفرعون عنهم، في جمع الجنود المغاربة والبربر والمحاربة بهم نحو المائة سنة منذ عهد ماجون، وما خاضت بهم أسرته من حروب ضد الإغريق، فكانوا القوة التي مكنت لقرطاجنة وسلطانها ضد النفوذ الإغريقي، في كل من سردينية وكورسيكا، والذي تحول إلى قرطاجنة فترة غير قصيرة، بل كانوا هم القوة التي حارب القرطاجنيون بها سلطان الإغريق كذلك في صقلية.

وما أخبار الحروب البونية المتكررة إلا مثال يفهم منه ما قدمت القبائل البربرية مكرهة من غزير الدماء في الحروب التي قادها هاملكار وابنه هانيبال الزعيم القرطاجني، فالأول تولى قيادة الجيوش في الحروب البونية الأولى في صقلية 246 ق م، ولما قتل هاملكار(149) حل محله ولده هانبيال "حن بعل"247 ـ 128 بعد سنة 228ق م وكان سنه ستا وعشرين سنة حين حل مكان زوج أخته «هازد روبال» الذي كان يقاتل الأسبان222 ق م والذي كان إلى جانبه أبناء البربر الذين استولى بهم على وادي لبو

(149) قتل صريعا في إسبانيا وهو يقاتل الأسبان 228 ق م، راجع الموسوعة العربية ص 1886، والحروب البونية الثلاث كانت على التوالي حسب التواريخ التالية سنة 264 ـ 241ـ 219 ـ 201 ـ 149 ـ 146ق م.

وأفنى قوة الرومان التي إعترضت طريقه، وبهم ركز سلطان القرطاجنيين في الجزيرة الأيبيرية ثم أنشأ فيها المدينة التي سماها " قرطاجنة" كما كانوا بلا شك معه في معركة جبال الإبنين 217 ق م وفي موقعة كاناي التي أحرز فيها نصرا كبيرا سنة 216 ق م، لكنه توقف عن روما بسبب عدم إمداده ، وفي زحفه على روما سنة 207 ق م، كان معه البربر، إذ بلا شك هم الذين قطعوا معه جبال الألب بعد هزيمة سكبيو قائد الجيوش الرومانية، ولولا غروره وعدم إحكام تنظيمه إلى جانب ما حل بالجيوش الفنيقية من ملل التطواف لما هزمت بلاده شر هزيمة بعد إثر وقعة زاما، سنة 202 ق م التي انضم فيها ماسينيسا إلى الرومان206 ق م لكن الأمير النوميدي رغم أنه كان قد بلغ سن 88 فإنه اندفع إنتقاما لاهانة أبنائه الثلاثة وأنصارهم عندأبواب قرطاجنة ، وانتهت المعارك بعدها بصلح مهين لقرطاجنة التي خربت وهدم عمرانها بعد سنة 149 ق.م ، بالجيش الذي كان يضم خمسمائة ألف 500.000 حسب تعليمات وتقرير قاطون لمجلس الرومان، والذي أرسل الجيوش بقيادة شيبيون الأصغر الإفريقي الذي إستعمل كل أنواع القسوة ضد القرطاجيين بقيادة صدر بعل سنة 146 ق.م و لم يعد لها نيبال المنهزم المقهور غير الفرار طريدا إلى أن وضع الحد لحياته بشرب السم فتمزقت قرطجنة وحضارتها بسبب الخلافات الحزبية وتطاحن الأسر ومحاولاتها الإستعمار والتوسع.

لقد كانت قوة وعظمة قرطاجنة العسكرية قائمة على الجند المغاربة كقوة مقاتلة وحامية للحضارة العظمى التي بلغها القرطاجنيون، لكنهم لم يحسنوا معاملة المغاربة الذين كانوا إلى جانب ما يلاقون من مضايقة وإرهاق بالضرائب، يلجأون إلى الارتزاق بواسطة الإنخراط في الجيش، وإذا نحن علمنا أن هذا الجيش كان تعداده مآت الآلاف، وأن قيادته كانت قاسية، أدركنا الدافع للثورة بين 241 ـ 238، وهي الثورة التي فشلت ولم تحقق الهدف منها، وهو التحرر من القيود المرهقة والظلم الذي كان يعانيه المغاربة وقتها، وهكذا إذا علمنا أن القرطاجنيين انتهوا إلى حضارة ورفاهية لم يعودوا معها قادرين على حمل السلاح والقتال، وإذا كانوا قبل كل شيء وفي غالبهم رجال أعمال وتجارة وثراء، وإذا كان الجند من المغاربة وهم القوة الفعالة قد أظهروا التذمر، وروما تتحرش بقرطاجنة تريد أن تنقض عليها، وإذا ما رحل هانيبال فارا إلى آسيا الصغرى ليؤلب

السوريين والمقدونيين على روما ولم يفلح في حروبه إلا قليلا ، رغم الإستجابة التي جرت على تلك البلاد حروبا رومانية انتهت بإحتلال قرطاجنة وزوال دولتها بعد مادامت ستمائة سنة(150) الأمر الذي يؤكد رأينا أن المغاربة ومنهم البربر الذين وإن كانوا يقدمون على العمل في جيش أجنبي بدافع الظروف فإنهم لا يتنازلون عن واجبهم نحو تحرير بلادهم من ذلك العدو الذين هم مجندون معه عندما تواتي الظروف وتحين الفرصة، كما أن ما قررناه من صفات بعضهم كغريزة الإنتقام، ولا شك أن فابيوس وأسكيبو أفريكانوس الأكبر، إستغلا ذلك، وبهذا نكون قد وصلنا الى نتيجة أن المغاربة أثروا بضربتهم القاضية على القرطاجيين ولم يتأثروا بهم إلا قليلا وبالقدر الذي لايعتبر كما ثبت(151) خلافا للعهد الروماني، وأنهم رغم ذلك عرفت بلاد المغرب في عهد القرطاجنيين رخاء وحيوية أكثر مما عرفته في عهد الرومان الذين سنتعرف على ما كان لهم بالمغرب من أثر، و إذا كان ثمة من تأثير ينسب للقرطاجنيين فإنه لا يعدو أن يكون ماديا بسيطا جدا، باستثناء الزراعة التي كان لهم فيها فضل رغم ما استعملوه من قسوة مع الأهالي في سبيل نشرهاوازدهارها و لو بمصادرة الأراضي لتأمين الغذاء لعاصمتهم التي بلغ الكاهن الكبير أدوراس عندما قدم من صور من أجل جعل الصلح بين كهنة معابد الآلهة بعل وملكارت، وعشتروت، وأدونيس، وقتها، واستقدم معه من أغراس الزيتون ما انتشر وأصبح عنوان الأراضي التي كانت تحت سلطان قرطاجنة، كما عرفت أنواعا أخرى من الجبل الأخضر إلى طنجة كلها كروم وزياتين، وقد فعلوا ذلك لانشغالهم بالبحر والتجارة في مختلف بلاد الأرض شرقا وغربا، كما كان لهم بعض الأثر في الملابس والمأكولات، أما فيما يرجع إلى التنظيم السياسي الذي ربما كان قبليا قارا عند المغاربة والبربر الذين عرفوا بديمقراطيتهم الخاصة، فإنهم لم يتأثروا فيه بما كان عند الفنيقيين من

---

(150) راجع قصة الحضارة المذكورة، وقصة الجنس البشري لهندريك فان لون، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد 44/1 ـ 51 ط 1957 والتاريخ العام لفيليب فان نس مير الأمريكي ق 325 ـ 359 ط 1912

(151) راجع قصة الحضارة ولديورانت، ومعالم تاريخ الإنسانية لولز، دائرة المعارف، والموسوعات التاريخية، وتقول صاحبة كتاب فنيقية إنهم لم يجيدوا القتال ولم يتفوقوا فيه إلا عندما أصبحوا قرطاجنيين، بل الروح الحربي الذي برز فيهم اتفاقا وفي وقت متأخر وإنما اكتسبوه من عنصر البربر أو عنصر النوميديين القاطنين في شمال إفريقية ص 24، الجغرافية السياسة لجيمز فيرجريف ترجمة الأنصاري ط القاهرة 1956.

تنظيم بسبب وعورة المسالك، بدليل فقدنا للوحدة السياسية حتى بين البربر أنفسهم عبر التاريخ، وقد بقوا كذلك إلى العهد الإسلامي وكما سنرى بعد إلى عهد الإستعمار الفرنسي الذي حققها ماديا بقوة القهر والاستبداد ثم تجريدهم من السلاح اقتداء بما كان المولى إسماعيل قد فعله زمن التمكين لوحدةالبلادبعدما تفرقت إلى دويلات في المغرب الأقصى كما سنرى.

بل لاتزال كثير من تلك المظاهر حتى اليوم في المغرب الأقصى بين سكان الوعر من الجبال جنوبا وفي التخوم، مثل آيت احديدو، وآيت خباش، من آيت عطا آيت نبكى الذين يقل التجاؤهم إلى المحاكم حتى اليوم والعامل في ذلك هو الموقع الذي طبع النفوس، وبالتالي فإن الشعوب التي كانت تحت سلطة القرطاجنيين والفنيقيين قبلهم لم تعرف من الحضارة والمدنية ما كان لحكامها، وذلك لسببن هما : أولا : الظروف الجغرافية التي حالت بينهم وبين السيطرة على غير الساحل الشمالي الممتد من خليج سرت إلى الشاطيء الأطلسي، وثانيا : لأن الفنيقيين والقرطجنيين كانوا ينظرون إلى الأهالي كشعوب متأخرة ومغلوبة بحيث حكموهم كما حكمت "أشور" رعايا فتوحاتها بيد من حديد، فكانت كلما امتدت امبراطورية قرطاجنة اختفى شعور الود والصداقة بين الوطنيين والتجار، واستبدل به شعور الحقد والكراهية للغزاة، وقد رأينا ما قدر لقرطاجنة أن تواجهه من إمبراطورية أخرى تقوم على أسس أخرى في الحكم ، وتتبع أساليب أخرى في الإنتفاع بالطاقة البشرية في سبيل تحقيق غاية أسمى عجزت قرطاجنة عن مواجهتها، وسقطت لأن القرطاجنيين كانوا أسوأ موقفا، على الرغم من تشابه الظروف الأخرى تقريبا، وعلى الرغم من أن الطرفين كانا قد استعملا بذكاء أساطيلهما وجيوشهما، ذلك أن جنود وجيوش الفنيقيين كانوا كما رأينا مكونين من رجال لم يتبادلوا الود مع حكامهم، بل كانوا ينصرون قرطاجنة وحكامها طالما أجزلت لهم العطاء، وهذه كانت تجمع أرباحها التجارية لكي تصرف منها في هذه الأوجه، وأموالها هي عبارة عن الطاقة التي اقتصدها القرطاجنيون، فلما اختفت تلك الأرباح التجارية فقدوا السيطرة على البحر، وخانهم جنودهم الجشعون، وكما يقول «جيمزفير جريف» إذ لم يتردد في جوانحهم قط شعور بالوطنية، وحين فقدت قرطاجنة سيادتها سقطت نهائيا واختفى الفنيقيون من المسرح، ومن خريطة المغرب ليحل مكانهم الرومانيون.

الفصل السادس عشر

الرومانيون والمغاربة

تكونت روما أو الدولة الرومانية من خليط من العناصر كانوا متواجدين في المنطقة، وهم من شعوب اللاتين والسابين والأتروريين، وقد نسبت الدولة إلى المدينة التي تكونت من اندماج عدة مدن صغيرة ثم اتسعت حتى شملت التلال السبعة(152) وكان الذي أسسها روميلوس سنة 753 ق م . وكان معاصرا لشيشنق الرابع فرعون مصر من الأسرة الثانية والعشرين 980 ـ 810 ق م، ولأ سرحدون ملك أشور707 ـ 667 ق م، وكان نظامها ملكي شورى يتكون من رئيس يستمد سلطانه من مجلس يسمى السناتو، وكان الملك هو القاضي والقائد والحبر والمقدم في المراسيم الدينية، أما ديانة روما فقد كانت متعددة الآلهة في مقدمتهم "جوبتر": "المشتري" ثم "مارس" إله الحرب و"جانوس" ذو الوجهين، الذي قدسوا له شهر يناير "جانيواري" وقد استمر الحكم الملكي في روما نحو قرنين ونصف " 753– 509ق م، بعدها أصبح الحكم بيد القناصل وقواد الجيش حيث كان الأولون يعينون كل اثنين معا، وينتخبان لمدة سنة واحدة، لهما كل السلطات ما عدا السلطة الحبرية، وكان لكل منهما الحق في إيقاف أوامر صاحبه "الفيتو" ولهذا فشل نظام القناصل بعد أحد عشر عاما، فاستبدل سنة 498ق م بالدكتاتورية، وفي سنة451

---

(152) راجع الموسوعة العربية 898، وقصة الحضارة ول ديورانت، ترجمة محمد بدران ج 2 من المجلد 3 ص:50، والرومانيون هم الذين كانوا يقسمون إفريقية الشمالية إلى خمسة أقسام 1) بلاد برقة الواقعة غرب مصر. 2)إفريقيا القنصلية طرابلس الغرب وتونس. 3) بلاد نوميدية: ولاية قسنطينة. 4) موريطانيا القيصرية : قسم من بلاد الجزائر حاليا. 5) موريتانيا الطنجية : المغرب الأقصى، وكانت تمارس سلطانها على هذه الولايات بما ترسله إليها من الولاة والمندوبين والحكام. ثم راجع حضارة العرب غوستاف لوبون 242 ط 1956. ويقول ابن خلدون (عبر 107/6: "إن الذين يطلق عليهم الروم قبل الفتح في أقطار المغرب لم يكونوا أصلا من الروم البيزنطيين بل هم من الفرنكة الأفرنج، وهذا ما دفع ببعضهم لتأويلات استعملها المستعمرون الفرنسيون كثيرا ليلتحموا مع من قالوا عنهم البربر. ثم راجع أيضا الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني ط 1967ص 489.

كون نظام مجلس العشرة الذين أعطيت لهم سلطة مطلقة، وهم الذين وضعوا اثني عشر لوحا من البرونز كتبوا فيها شرائع الحكم والقوانين ثم وزعت على مسارح الخطابة ليطلع عليها الشعب. وفي سنة444 ق.م أصبح من حق أبناء الشعب أن يرشحوا أنفسهم للإنتخاب بمجلس العشرة، بعدما كان وقفا على الأعيان، ويسمى المجلس بمجلس العسكريين، فنشأت الخلافات والإنقسامات إلى أن اتفقوا على المساواة، وفي سنة 462 ق.م أصبحت قرطاجنة دولة قوية بشمال إفريقية وتناصب روما العداء، وقد استمرت الحروب بينهما متوالية إلى سنة 201 ق م حيث انهزمت من إسبانيا بعد انتصارات تعرضنا لها قبل. وفي سنة 149 الى 147 ق م بدأ الرومانيون في استعمار مدن شرق أوربا ومدن شمال إفريقية، فدمروا مدينة كورنثوس في بلاد الإغريق، كما خضعت لهم قرطجنة، فأصبحوا حكام البلاد، بل المسيطرين عليها بقوة قاسية وعنف، وتركز الأحتلال الروماني على السلب والنهب واستعمال سكان المنطقة وأراضيهم وسيلة إنتاج لفائدة روما، وأصبحت مدن شمال إفريقية مستعمرات زاخرة بما نزح لها أكثر من الرومان الذين بدلوا ما كانت عليه هذه المناطق، ولقد بلغ الرومان في استغلالهم بلاد الشمال الإفريقي ضمن بقية الولايات التي كانت تحت سلطانهم شرقا وغربا إلى درجة أنهم أعفوا إيطاليا من الضرائب التي كان يجبى مقابلها من الولايات بالنهب والسلب وأشد أنواع القسوة، لأن تلك الولايات في نظرهم كانت ملكا، وأهلها عبارة عن عبيد، وكانت تطبق عليهم سياسة "فرق تسد" إلى درجة تحريم الإتصال على ولاية بأخرى، كما كان المواطنون داخل الولاية يقسمون إلى طبقات أدناها طبقة العبيد بعد الأشراف والمحميين، وحتى هؤلاء لهم درجات. بل حتى ملوك نوميديا كانوا يعتبرون مملوكين لرومة وتحت حمايتها، ولا قيمة لأحدهم إلا بقدر خضوعه لقنصل الدولة الذي كانت مدة حكمه تدوم سنتين ثم يستبدل(153)، وربما يشرع وينفذ ولا حق لغير المواطن الروماني المستعمر

(153) سنرى بعد أن سليمان القانوني أحد ملوك الدولة العثمانية سيشرع نفس التشريع لولات الأقاليم التي كانت خاضعة لدولة الأتراك العثمانيين فكان ذلك من عوامل انهيار الدولة العثمانية وتمزيق الأقاليم التابعة لها لأن تعيين الوالي لمدة سنتين جعله يغترف ما أمكن بالسرعة المطلوبة قبل أن يحل آخر مكانه. كما كان عليه وحتى يتحقق له ما يريد أن يحسب حسابا لما سيقدمه للباب العالي من هدايا ولا يحقق شيئا من ذلك إلا بالنهب والسلب وإرهاق المواطنين في إقليم ولايته، وما أشبه اليوم بالأمس في الدول المتخلفة التي تنعدم فيها الديمقراطية مثل المغرب الكبير بعد استقلال أقطاره.

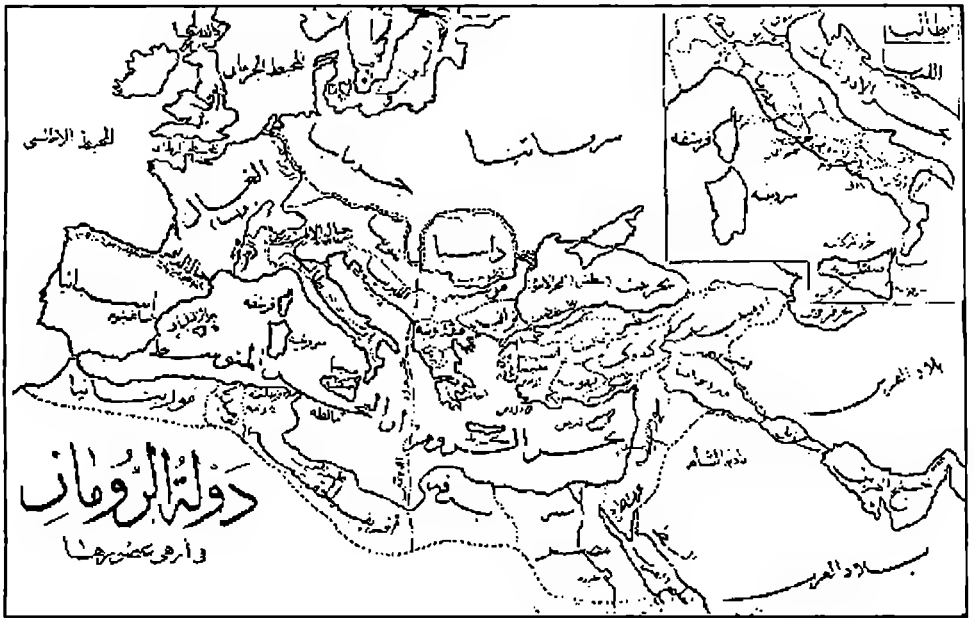
دولة الرومان
وأرض بعضرها

في التظلم من جوره، وهو الذي يفرض الضرائب على الأرض والزراعة والممتلكات والحيوانات والعبيد، لأنه كان عليه أن يرسل السفن المحملة بالمحصولات الزراعية إلى روما، كما كان عليه أن يسهم في صنع التاج للإمبراطور الجديد، وإذا كانت الإدارة بجيشها الكثير من الموظفين إلى جانب الفيلق الثالث الذي كان مخصصا لشمال إفريقيا يرهقان الشعب بضخامة المصاريف فإن كل من أظهر التذمر من الأداء كان مصيره الموت والهلاك حسب حكم الترابنة الذين يجمعون الضرائب.

حقا لقد كانت الحرية والسلام يسودان المدن التي يعمرها المواطنون الرومانيون أما سواها فلم تكن لهم علاقة بشيء من أمن وحضارة روما، إلا بالقدر الذي يربطهم كخدم أو بدفع المال، ولقد وصف هذه الحقيقة الكاتب المحامي شيشرون 106 ـ 43 ق م والذي تولى منصب القنصلية زمنا ثم تصادم مع "قيصر120 ـ44 ق م" وتوفى106 ـ 48ق م وكراسبوس" ت91 ق م"ذلك حين قال في سياق تشهيره بقيريس 120 ـ43 ق م والذي كان مثالا حيا لما كان عليه قناصلة وحكام روما من نهم وشره وخراب الذمة وانعدام الضمير فكانت نهايته كما أراد. قال شيشرون: «إن كل الولايات تندب حظها، وجميع الأحرار يصرخون ويعولون، وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين مهما يكن قاصيا أو خافيا ، لم يشعر بوطأة جشعنا وشرهنا « ولديورانت 27/3/3». وليس معنى هذا أن الروم لم يعمروا ولم يكثروا من العمران والحضارة في شمال إفريقية، بل العكس فقد كونوا بها حضارة عالية عرفتها قرطاجنة التي جددوا بنيانها، وأعادوابناء هياكلها، خصوصا هياكل أملكارت، وكذا مدينة أوتيكا شمال قرطاجنة، التي كانت تمثل المركز التجاري الهام سنة46 ق م حيث كان بها من الصيارفة وكبار التجار بالجملة، نحو الثلاثمائة300 ، وتريبولي "طرابلس" التي شيدها الفنيقيون سنة900ق م(154) . وحضرمنتم" التي كانت مكان سوسة، وليبتس الصغرى وثيبسوس وتكابر قابس وليبتس مجانا الكبرى، وهي البليدة، اليوم مسقط رأس الإمبراطور سبتميوس سفيرس، الذي ولد بها سنة 46 ق م ، وفي المغرب الأقصى المدن المشار إليها

(154) راجع المصادر السابقة، ثم المدن القديمة في الجزائر : منير بوشناقي : نشر وزارة الإعلام : 1978.

برج حربي بحري

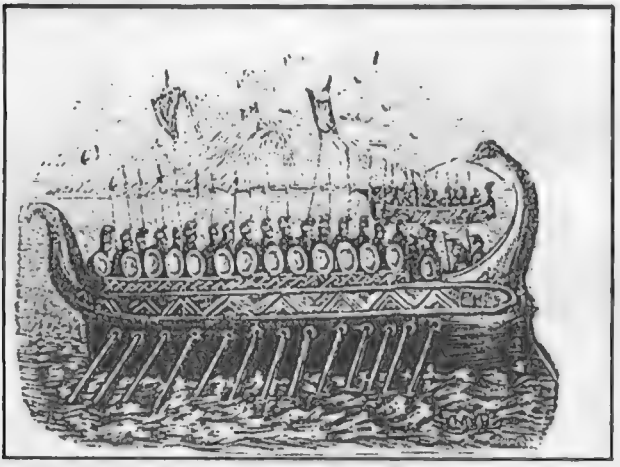

سفينة حربية رومانية

هذه المدن وغيرها عرفت زمن الرومان كما عرف بعضها قبل أنواعا من المسارح، ودور التمثيل، والحمامات، والمكتبات، والمدارس، التي كان يدرس بها علوم البيان، والفلسفة، والطب، والقانون، والخطابة، وتردد عليها علماء من الإسكندرية وأثينا وروما خصوصا منطقة الجبل الأخضر والساحل الليبي التونسي، فتبدلت المدن التي أصبحت عامرة بمختلف الأسر الكبيرة من الرومانيين، الذين وجدوا الجو أحسن والأرض أكثر خصبا وعطاء، ونستدل على ذلك بما تركوه في طبرقة وتالة وطوبربو، ماجوس، ودقة قرب تبرسق، وتيدوس الجم"وماجا" وقرينة شحات، وأبولو. "سوسة"... إلخ مما سيعترضنا بعد أثناء هذه المرحلة ، وما سنرى في هذه المدن من عمران وحضارة، ورغم أن حكم الرومان في مختلف البلاد التي حكموها تميز بتخطيط المدن، ومد الطرق، وقنوات المياه التي اشتهروا بها، والتي كانت أحيانا تمتد عبر الجبال والأنهار على جسور وفي باطن الأرض، منها ما لايزال مستعملا في بعض البلاد حتي الآن من قرية فرطاسة بهليوبولس وليلي بالمغرب، فإن شيئا من تلك الحضارة في المغرب الأقصى لم يعرفه المغاربة، اللهم إلا ما كان في الساحل الشمالي من بعض الآثار التي زالت ولم يبق من معالمها إلا القليل، بخلاف شرق شمال إفريقيا، وإذا كان تاريخ المغاربة مع الدولة الرومانية دام طويلا، فإنهم في عهدها كانوا قوة أمكنها أن تقوم بدورها في الحياة السياسية، بخلاف ماكان زمن الفنيقيين والقرطاجنيين ، أي معنى هذا أنهم لم يعيشوا على هامش الحياة السياسية، ولم يكن لهم سلطان ولا دولة في بلادهم، بل كان منهم ملوك عظام، ورجال فكر أفذاذ فرضوا وجودهم، كان منهم الملك باخوس وولده موعود، وباخوس الثاني(155) وصهره يوغورطا(156) ملك نوميديا وحفيد ماسينيسا "238 ـ 149ق م" كما سنرى ضمن كلامنا على الصراع بين الرومان والبربر، والذي كان قد انضم إلى الرومان في الحرب البونية الثانية، ثم انقلب عليهم، مما يدل على أنه كان يريد تحرير بلاده حيث خاض الحرب ضد الرومان، والتي دامت ما بين116–106 ق م، ولم يغلب يوغورطا إلا بالكيد

(155) أصل الإسم لإله من آلهة الإغريق هو إله الخمر.

(156) ملك نوميديا حوالي 156 ـ 106 ق م، راجع الموسوعة العربية 1987، وقد كان شمال افريقيا وقتها ينقسم إلى مراكز أربعة هي : قرطاجة وتريبولي، وموريتانيا بقسميها الطنجية والقيصرية يفصل بينهما وادي أبي رقراق. وللأستاذ مطر من الجزائر كتاب حول يوغرطة طبع بالدار التونسية للنشر عام 1970.

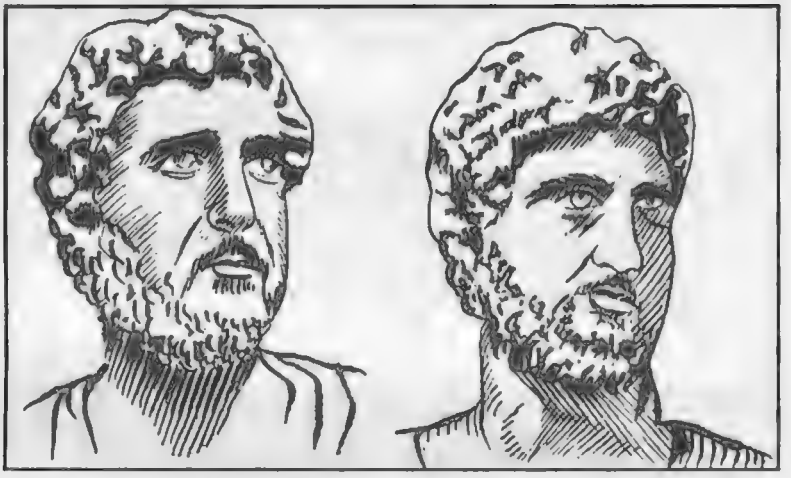

انطونان138-161 كومود 180-192

وهما من أباطرة الرومان الذين كان المغرب في أيامهم تحت الحكم الروماني المباشر

سيبيون (يمينا) من قادة الرومان، وهانيبال قائد قرطاجنة الذي دوخ جيوش الايطاليين مدة طويلة

والدس من أعداء بلاده ومساعدة الخونة من قومه لهم، ثم جوبا الأول 86 -46 ق م الذي كان أشد اعتزازا بمغربته، والذي قضى على نفسه حين انهزم بعد حرب قاسية في معركة ثابسوس ، ثم ولده العالم جوبا الثاني ، الذي توفى عام 18 م ونقله إلى ضريحه ولده بطليموس 20 م ، والذي نشأ وتربى بروما، وقد نصبه أغسطس حاكما على نوميديا، ثم على موريتانيا، وتزوج أولا : كليوباترا سيلانا ابنة أنطونيوس من كليوباترا، ومنها أنجب بطليموس و"دروزيلا" وبعدها تزوج جلافورا ابنة أرخيلاوس ملك «كابا دوكيا» ، وهو صاحب العاصمة قيصرية، أو شرشيل، أو سيزاريا، ومع ذلك لم تتغير شخصية جوبا المغربية، بل زود بلاده بما استفاد واشتهر به من علوم ومعارف الإغريق والرومان، وبمعارف لم يكتب لها الإستمرار بسبب ما عرفت زمن السفاك المعتوه كليكولا الذي حل مكان طباريوس والذي إغتيل بإيعاز من مجلس السناتو وخيانة ربيب نعمته بروتس عام41 .

ومهما يكن فقد ساعدت الظروف الرجل الذي كان لا يشبع من جمع المال، حيث كون من وطنه ومواطنيه ميدانا لنشر المعارف رغم أن حكمه لم يدم إلا خمس سنوات، خلق فيهم نزعة محاربة الرومان ومقاومة استعمارهم واستبدادهم الذي أدى إلى قيام الثورات كما سنرى، وقيل إن له كتبا عرفت في التاريخ والجغرافية والموسيقى والتشخيص وقد توفي سنة 20م وقبره معلوم قرب «شرشال" وهي قيصرية شرق الجزائر ثم تولى بعده، ولده بطليموس الذي كان معاصرا لسفاك روما وهو كاليكولا كما يطلق عليه ثالث إمبراطور من أباطرة الرومان بعد أوغسطوس، ذلك الحاكم المطلق والفاسق المجنون، الذي تولى حكم روما وسنه خمسة وعشرون سنة، عام 37 م والذي كان ضد ظهور القوميات داخل الحكم الروماني، بل والذي كانت شهوته لا ترتوي من جمع المال، ومن أجله قتل بطليموس ابن جوبا الثاني وكليوباترا سيلانا، وملك موريتانيا ونوميديا، وحفيد ملكة مصر كليو باترا صاحبة أنطونيو وأكتافيوس الذي تولى مكان أبيه على عرش موريتانيا سنة18م في عهد تيبريوس قيصر، الذي تولى بعده كاليكولا الذي اشتد حقده على بطليموس الذي يحمل الإسم الذي كان لجميع ملوك أسرة لا خوس المقدونية بمصر من عام 323 إلى عام 30 ق م، ذلك الإسم الذي وإن اختفى في مصر فقد عاد

للظهور في موريتانيا بواسطة كليوباترا سيلانا، لكونه آلت إليه كنوز البطالسة، حيث قتل غدرا سنة40 ق م لكن تلك الكنوز التي ائتمنت عليها زوجة بطليموس الملكة "أورانيا" كانت قد هربت إلى مكان مجهول لم تصله يد كاليكولا ولا أعوانه اللصوص القتله، كما لم تصل الملكة التي قيل إنها فرت إلى الجبال الشاهقة المشرفة على مدينة "تاماكا" التي قيل إنها مدينة تطوان، وأن كنوزها دفنت معها، دون أن يعلم أحد بالمكان. أما كاليكولا فإنه قد اغتيل وإن كان المغاربة والبربر قد حاولوا التحرر من حكم روما بالثورات التي أعلنوها ضد حكم قياصرتها، مثل ثورة"تكفاريناس" التي أشعلتها سلفابنا بنت الأوراس زوصيفة الإمبراطور قيصر تيبيريوس42 ق م، 30 م تلك الثورة التي دامت من عام16 إلى24 م فأرسلت روما لإخمادها أكبر قوادها وسينهزم، ومنهم "قوريوس كاميليوس" ولوسيوسبرونيوس" وجونيوس بليزوس" وغيرهم ومع ذلك لم تقف إلا بعد ما كلفت روما إخراج خزائنها وحياة جل جنودها الذين قادهم أخيرا القنصل "دولابيلا"، وبالتالي فقد أصبح للمغاربة و البربر حظ في الدولة في عهد الرومان الذين استعملوهم كاستعمالهم لوسائل الانتاج ، على أن ما عرف من ارتقاء بعضهم إلى درجة القيصرية مثل سبتيم أسفاروس الذي أصبح قيصرا لروما بعد من سنة 193 إلى 211م، لم تفد منه البلاد و الشعب ، الأمر الذي دفع بالوعي الوطني إلى المقاومة من أجل التمكين للذات وفرض الوجود الذي سوف يتزعمه يوغورطه أعظم ملك وطني مغربي صارع الاستعمار الروماني في المغرب الكبير .

تمثال روماني هليوبيلس "وليلي"

بطليموس ملك موريطانيا

الفصل : السابع عشر

صراع المغاربة و البربر ضد الرومان

يقال إن الفنيقيين لما قدموا لأول مرة كتجار متجولين وطبعا قبل استقرارهم إلى شواطئ ترشيش التي هي تونس ، وذلك من غير تحديد للزمن الذي قيل عنه نهاية الألف الثانية ق.م وقتها وجدوا المنطقة تتوفر على تجمع منظم ، والناس في مساكن من الخص يقال لها بلغة اللوبيين المنتشرة وقتها«مابليا» ونعرفها نحن اليوم في المغرب الأقصى باسم «النوالة» مما يدل على الاختلاق قديما وحديثا ، كما كانوا تحت سلطة منظمة على رأسها رجل اسمه «برباص» الذي سماه المؤرخ الروماني يوستان بالملك، كما تحدث عن قبائل بني ماور وغيرها في شيء من الغموض ، بل رأينا من تحدث عن الملك أطلس وغزوه لبلاد البرد و الشياطين في أوربا ، بل وغزوه شرقا إلى تخوم مصر ، وأن عاصمته في الجنوب الغربي من مغربنا ، وقيل قرب طنطان ، وأن اسمه هو الذي أطلق على الجبال المعروفة بالأطلس ، وتحدثوا أيضا عن الملك «غورمول» الذي حارب كل دخيل أجنبي ، حتى إن حروبه انتقلت إلى جزيرة إيبيريا، وأن الملك «بيكار» تحالف مع الملوك النوميديين، ومثل هذا قاله المؤرخ الصقلي «ديودور(157) الذي عاصر يوليوس قيصر، وأغسطس حتى 21 ق م، وهو الذي كتب حول الملك «إيلماس» الذي كان بليبيا، والذي كان ذا قوة إستنجد بها لمواجهة غزو «اغتوكلاس» لإفريقيا في القرن 4 ق.م (158).

وهكذا من خلال ما كتبه المؤرخون القدامى لليونان والرومان ، وكذلك ما اكتشف بعد من آثار « للحفريات » في مختلف مدن المغرب الكبير من قرينة إلى شالة ، بل والتي

---

(157) الموسوعة العربية 841 ، له كتاب به 40ج عرف منها 15 .

(158) المصدر الأهم لهذه الفترة هو ما كتبه المؤرخ الروماني صلوستيوس كريسبوس ، الذي كان حيا ما بين 86 – 34 ق م ، و الذي تولى منصبي التريبيون الشعبية 52 ق م . راجع م. م .ع.ص : 1130 ، ط 1965 .

يرجع تاريخ بعضها إلى القرن 3ق م . مثل ضريح دقة بنوميديا، وحروب قبائل بني ماسيل بقيادة سفاكس ، ويمكننا أن نتعرف على التاريخ السياسي للمغرب الكبير الذي يبدو واضحا في عهد تأسيس المماليك المنظمة للمغاربة و البربر قصد مواجهة غزو الاستعمار الروماني الذي مكن له ولعداوة الرومان في النفوس سرا ملك النوميديين ماسينيسا بحكم ما كان بين قبائله و البونيقيين من عداوة ، ذلك أنه لما توفي الملك «غيه» ابن القاضي «زلدمان» الذي يعتبر أول مؤسس لحكم أسرته التي نهض فيها أكثر ، الملك ماسينيسا الذي عرف كيف يمكن لملكه أكثر من الذين سبقوه في التاريخ ، وفي هذه المرحلة يفتري من يزعم أن هذا الملك مغربي أو بربري.

كان ماسينيسا قد انتقل ضمن الجنود البونيقيين كمقاتل ضد الرومان إلى جزيرة ايبيريا، وهو في سن المراهقة ، ووقتها اغتصب ملك أبيه، الملك «أورقلاس» الذي كان في سن الشيخوخة، وبذلك لم يعمر طويلا، وبعد موته حصلت فتنة في المملكة التي استولى عليها أمير ثائر متمرد ، بمساعدة الملك سفاكس ، حتى إذا ما حصلت الحرب بين البونيقيين والرومان، وكان ماسينيسا قد أخذ يتمرس على السياسة، ثم بدت علامات انتصار الرومان تظهر في الأفق وتقترب من الفوز ، أمكن للأمير الشاب المغتصب ملك أبيه، أن يستغل اتصاله بالضابط الروماني«سيلانوس» الذي عرفت بلاد الأسبان انتصاراته عام206ق م، والذي ربط الاتصال بين الأمير ماسينيسا والحاكم الروماني شيبيون حيث تم الاتفاق بينهما سرا دون أن يعلم البونيقيون على أن يكون ماسينيسا في ركاب الرومان ضد أعداء قومه القدامى ، وإذا كان سفاكس لم يحقق لهم شيئا فإنهم وقد علموا مما حولهم أن ماسينيسا قادر على خدمتهم أكثر بحكم الرصيد الذي كان لأبيه وجده .

كان سفاكس قد نشط هو وولده ضد آل ماسينيسا ، حتى إذا ما علم بذلك هذا الأخير اتفق مع القيادة الرومانية على العودة سرا إلى بلاده، فوافق له سيبيون ، ولما عاد لم يخف أمره ، وقامت حروب بينه وبين سفاكس ، انتهت به وقد كان بعيدا عن أرضه وقومه الذين لم يتمكنوا من الوقوف أمام قوات سفاكس وهم قلة إلى أن يختفي في مكان مجهول ، حتى يسترجع قوته ، وفعلا فقد أخذت القبائل النافرة من سفاكس ومن

البونيقيين تستعد لحربهم بطريقة كان النصر فيها لماسينيسا، و الهزيمة والأسر و الاغلال لسفاكس عندما انضمت قوات القبائل البربرية إلى قوات الرومان بقيادة شبيبيون و التي كانت قواتها أكثر من عشرة آلاف ، ضمنها ألفان من الفرسان ، لكن ماسينيسا بعد الانتصار تزوج من زوجة سفاكس وهي الأميرة «صفونربة» ابنة عزربعل، تلك التي كان سافكس المنهار قد ألسق بها وقت استنطاقه من الرومان، أنها التي كانت توجهه ضدهم، مما صيرها في نظرهم أكبر عدوة حتى إنهم طالبوا ماسينيسا بتسليمها ، لكنه لم يفعل ،واختار أن يسلمها سرا كأسا من السم شربته وهي راضية حتى لا تقع في أيدي الرومان وقائدهم شيبيون الذي كان أكبر الحاقدين عليها، حتى أنه بسبب ذلك وقد نصب ماسينيسا ملكا على قبائل الماسيل ، و النوميديين ، لم يسلمه أي نفوذ ، وبقي هو الحاكم المطلق ، ثم أرسل إلى روما حتى تعترف له بذلك ، رغم أنه كان في حاجة إلى ماسينيسا حتى يمهد له فتح وضم ما تبقى من قبائل النوميديين البدو ، وفعلا كان ماسينيسا يعمل تحت رقابة الضابط الروماني، « ليليوس » الذي كان فعله معه من الشدة وبأمر مشدد كذلك ، لكن ما ظهر من إخلاص ماسينيسا وبلائه حين كان يقود ألفين من الفرسان المغاربة والبربر في موقعة "لازاما" ، التي تصارع فيها سيبيون مع حنبعل ، والتي فقد بها القرطاجنيون الآلاف من القتلى ، ولربما كان الدافع الأكثر إلى إخلاص ماسينيسا في هذه الموقعة هو حقده على القرطجنيين ، وحتى إذا ما تم النصر وبلي البلاء الحسن تحول وعن جدارة إلى ملك متوج صاحب نفوذ لم يكن في مقدور الرومان أن يتجاهلوه كما فعل سيبيون من قبل .

كانت الدولة النوميدية في عهد ماسينيسا قد تطورت وأصبح في إمكان المؤرخ أن يجد لها من مختلف العناصر الحضارية ما يتناوله في كتابة التاريخ ، فالسياسة كما سبق، والحضارة كما هي ، بارزة في مخلفات عصره ، مما هو حتى اليوم في متحف قسنطينة وقرطاج ، وتاريخ الرومانيين في هذه الفترة وآثار الآلهة و المعبودات ، كالشمس والقمر ، وعشتروت وبعل عمون، وأبولو ، وتانيت ، ثم إلهي الزراعة عند اليونان، «دينيتار» و «كورى» ، بل الدولة النوميدية وقتها كانت قد استعملت لغة البونيقيين ، ومختلف حضارتهم رغم العداوة التي كانت قد استحكمت بين العنصرين ، مما حقق للدولة

النوميدية الكثير الكثير من مظاهر الحضارة البونيقية وحتى الإغريقية التي نجدها في آثار النوميديين ، سواء في عاصمتهم سيرته ، أو غيرها من المدن التي لم تقتصر فيها على ما عرف زمن حياة ماسينيسا، بل حتى بعد وفاته 148 ق م وتقسيم مملكته على أولاده الثلاثة، ماسيبسا، وغسالسان، وماسطنبال، الذي هو والد الملك "البربري" الذي سيكون له شأن خطير، وهو "يوغورطة" الذي حرف اسمه عن : جوغرثا ـ 156 ـ 104 ق م. كان ماسيبسا هو أكبر أبناء ماسينيسا، ولذلك كان الخلف المؤيد من الرومانيين الذين وإن فرقوا المملكة النوميدية بين الإخوة، إلا أنهم لم يجدوا بدا من رفع ماسيبسا مكانا أعلى من الجميع. كما كان والده ملكا للجميع حسب مدلول اسمه.

تولى ماسيبسا ـ الذي يسميه بعضهم "مكبسا" وهو أكبر إخوته ـ تولى بعد أبيه، إلا أن سلطانه كان ضعيفا أمام جحافل الرومانيين الذي كان لمجلس شيوخهم المتاجر في كل شيء، حتى في شرف روما ـ الكلمة الفاصلة في كل ما يتعلق بالمملكة النوميدية التي كان على رأسها ماسيبسا اسما، حتى إنه رغم أنفه اعترف ببنوة يوغورطة ابن أخيه ماسطنبال من امرأة غير شرعية، وجعله كأحد أبنائه، وحين احتضاره خاطبه كوارث شرعي للعرش ، لأن يوغورطة أصبح عند سبيون وغيره من الرومانيين مثال الإفريقي المخلص للرومان والعامل على تمكين سلطانهم، وماكان ذلك منه إلا بدهاء ومكر، حتى يتمكن ثم يعلن عداوته للرومان.

ولما توفى ماسيبسا عام118ق م. كان يوغورطة(159) قد بلغ من العمر ثمان وثلاثين سنة إذ هو من مواليد 156 ق م، وذلك هو زمن النضج وقوة الشخصية وحسن الإدراك، والتدبير وإذا ما علمنا أن يوغورطة تكون في شبابه تكوينا سليما، كما أنه كان محبوبا من جميع قومه وهذا ما دفع عمه ماسيبسا إلى الإعتراف ببنوة يوغورطة بل وذلك ما دفعه إلى تقسيم المملكة على أولاده حتى لا يستقل بها يوغورطة المحبوب من الشعب، والذي رغم كل محاولات عمه إبعاده تارة بتوجيهه إلى الحرب في إسبانيا وأخرى داخل المملكة فإنه لم ينجح بل كل ذلك كان من عوامل التمكين لشعبية يوغورطة.

---

(159) يوغورطة معناها الغالب أو المنتصر وهذا ماتعنيه الكلمة البربرية بلهجة زناتة «يوغرتنة».

قسمت المملكة النوميدية على ثلاثة من الأبناء، ولداه أدربعل، ويسميه بعضهم أدمربال، وهيا مابسال، وثالثهما ابن أخيه ماسطنبال، الذي هو ابن ماسيبسا بالوصية، وهو يوغورطة، الذي كان من نصيبه الجانب الغربي، لكن يوغورطة لم يقنع بذلك، وعمل بكل الوسائل للقضاء على الأخوين اللذين كانا ينظران إليه على أنه غير شرعي، وإنما هو دخيل ، الأمر الذي دفع يوغورطة إلى أن يدبر اغتيال هياماسال في قلعته ، ولما بقي أدربعل دخل معه في حروب طالت وتدخل فيها مجلس الشيوخ الروماني الذي طلب منه العميل أدربعل ذلك بعدما التجأ إلى روما وألقى فيها خطابه الذي لم يكن غير الخيانة السافرة والتملق الرخيص، حيث قال إن والده أوصاه أن يكون خادما لروما والشعب الروماني وأنه إنما يمثل روما في نوميديا..إلخ، فأرسل المجلس لجنة للتوفيق بينهما عام 116 ق م، لكن يوغورطة وكان قد تعرف على حقيقة ومقاصد المسؤولين من الرومان الذين لا شرف لهم، وأنهم لا يميلون إلا بالشراء. ومن أجل ذلك أرسل وفدا مثقلا بالأموال وزعت على الذين أصبحوا يدافعون عنه، حتى إذا لم تجد تلك الوسائل عاد إلى استعمال القوة حيث استمر القتال سنوات إلى أن قتل أدربعل عام 112 ق م حين دخلت عليه قوات يوغورطة عاصمة ملكه "سيرته" عنوة، فقتل جنود يوغورطة كل من كان فيها من الرومانيين الذين كان نفسهم مع أدربعل، حتى إنهم كانوا يحملون السلاح معه ضد يوغورطة، الأمر الذي أدى بالرومانيين ومجلسهم إلى اعتبار يوغورطة عدوا يجب أن يحارب ويوقف عند حده، لذلك عينت روما لنوميديا قنصلا بقانون هو "باستيا" ثم زودته بالجند اللازم لمواجهة الموقف المستجد عن قتل الملك المُلتزم لهم علانية، وهو الخادم التابع لروما بالإضافة إلى قتل يوغورطة للرومانيين سكان سيرته، ورغم إرسال يوغورطة وفدا برئاسة ولده ليوضح الموقف للرومانيين، فإن هؤلاء لم يقبلوا منه صرفا ولا عدلا، بل منعوه، من الدخول إلى الأراضي الرومانية حسب الأوامر التي صدرت إلى القنصل باستيا ، والذي أمر كذلك بالتوجه لغزو نوميديا، وفعلا فقد حل بها وعمل السيف فيما توصل إليه من مدن وقرى، لكنه سرعان ما وقع في القفص الذي تعود يوغورطة أن يجر إليه كبار رجالات الدولة الرومانية بحبال مفتولة بالذهب البراق الذي كان يخطف عقولهم

وأبصارهم(160) إذ قدم منه إلى باستيا ما جعل هذا الأخير يوقع معاهدة مع يوغورطة، قيل فيها إن يوغورطة قابل لكل الشروط التي تضعها السلطات الرومانية.

وفعلا توقف القتال عام 111ق م وعاد باستيا بالمعاهدة إلى روما حتى يوافق عليها مجلس الشيوخ، وظن أن ذلك سيتم مادام قد كسب لنفسه ولروما من الذهب والفيلة والخيل ما يسكت المعارضين، لكن هؤلاء وجدوا مسألة أرواح الرومانيين الذين قتلهم يوغورطة في جانبهم، فرفضت المعاهدة، لكن معنوية الجند الذين تركهم باستيا ينتظرون في نوميديا وهو الآخر اتخذ له من الأسرى بالإختطاف والإعتداء ما تحول إلى بضاعة أخذ يتاجر فيهم مع ذويهم من النوميديين الذين هم من خلال ذلك عرفوا أكثر من هم الرومان، وكما أراد يوغورطة أن يعرفهم عليهم، وأنهم بدون استثناء على استعداد للبيع والشراء في كل شيء حتى في روما نفسها من أجل المال والمال فقط. وويل لمن ملكه المال الذي ما أذل الإنسان شيء في الحياة أكثر من التلهف على كسبه بأخس الوسائل ثم جعله كل شيء في الحياة، وهذا عبر التاريخ.

لم ييأس يوغورطة كما نشط زبناؤه الذين امتلأت جيوبهم بنضاره في الدفاع عن وجهة نظرهم التي هي دعوة يوغرطة و الاستماع إلى ما أبداه من رغبة في التفاهم ناهيك وأنه يقر بسلطان روما عليه وعلى بلاده، وفعلا استدعى بأمان إلى روما، وهناك اشتد الجدل بين خصومه وأنصاره، وكان للخصوم عميل هو الأمير "ميسوا" من أمراء نوميديا "آل أدربعل"، وكان قد فر بعد احتلال يوغورطة للمدينة وقتله أدربعل، وكل الرومانيين الذين كانوا يقاتلون بجانبه، وكان هذا الأمير قد أمكنه التأثير في الموقف وتاجيج عاطفة الإنتقام من قاتل الرومانيين ومغتصب عرش آل ماسيبسا، إلا أن يوغورطة وقد عرف من هم الرومان وما هو ثمن أكبر رأس فيهم، استطاع أن يدبر إغتيال الأمير ميسوا بليل، حيث سلط عليه جماعة برئاسة أحد رجاله وهو "ملقرط" الذي أسندت له مهمة القتل بمساعدة العملاء من الرومانيين، مما زاد الطين بلة ثم دفع إلى الهياج ضد يوغورطة، لكنه كان يعلم أنه يحمل التعهد بالأمان ولا أحد يستطيع أن يمسه بسوء،

(160) راجع فيليب فان نس المشار إليه قبل، ص :153. ط 1912 وعنده إن الإسم الحقيقي هو جوغرثا لكنه أصبح بالغلبة والشيوع يوغورطة.

وفعلا أمر بمغادرة البلاد والعودة إلى بلاده، كما أمرت روما بتنصيب قنصل آخر للقيام بالحرب في نوميديا وهو "ألبنوس" الذي توجه إليها عام 110 ق م لكن مهمة هذا القنصل كانت صعبة وشاقة، مما جعله يتعرض لاتهامات أنه اشتري من يوغورطة، في هذه المرحلة كان قد انتهى يوغورطة إلى اليقين بوجوب استعمال الوسيلة الأنجع للخلاص من عبودية الرومان، وهي حرب الكر والفر التي كلفت الرومانيين كثيرا حتى انتهوا إلى ارتباك أدى بهم إلى أنهم أصبحوا يتثاقلون في أداء واجب الجند المرابط، الأمر الذي دفع ألبنوس إلى أن يغادر نوميديا ولما يقض بها غير شهور مخلفا وراءه أخاه "ألوس"مسؤولا عن الجيش، لكن هذا الأخير وربما كان مستجدا في القيادة، وقع بسرعة تحت رحمة ما دبر له يوغورطة من مكيدة تمثلت في تظاهره بالضعف وإرسال الرسل قصد التفاوض مما أغرى أولوس بالتقدم إلى الأمام نحو عاصمة يوغورطة التي هي مدينة "ستول" والتي كانت في مكان يكلف الوصول إليها ولو بدون حرب الكثير من التعب، وفي طريق أولوس إليها حيث كان يوغورطة يناوش الجيوش الرومانيين بطريقة لا تجعلهم يتوقفون حتى ينتهي بهم إلى ما يريد، كان كذلك يعمل وتحت ستار على شراء بعض الضباط الذين تم الإتفاق معهم على أن يلتحقوا بجانبه إذا هم وجدوا الطريق لذلك، وهكذا لما انتهى أولوس بجنوده إلى حيث الوعر المجهول في الشتاء القارس وحيث لا جدوى من ملاحقتهم لجنود يوغوطة، وقتها انقض عليهم النوميديون بطريقة مزقتهم شر ممزق، خصوصا وقد استسلم أكثر الذين اتفقوا قبل مع النوميديين على ذلك مما صير أكثر جند أولوس ما بين قتلى وأسرى، فاضطر إلى التفاوض وقبول الشروط التي أملاها يوغورطة وهي :

1) مغادرة البلاد في أجل أقصاه عشرة أيام.

2) مرور الجيش الروماني المنهزم تحت المشعل الذي يرمز إلى الهزيمة.

ولم يكن أمام "أولوس" أي اختيار غير القبول حتى ينجو ومن معه من القتل المحقق، وما كاد يغادر البلاد حتى تردد صدى ما أصابه وجنده في روما التي اهتزت حقدا وغضبا على يوغورطة، وظن القنصل "ألبنوس" الذي كان قد ترك أخاه أولوس مكانه أن في إمكانه تدارك الموقف، خصوصا وقد شعر بالذنب، وأنه ساهم في الهزيمة بتركه

أخاه مكانه، وذلك شيء لم ولن يغفره له قومه، ولذلك عرض نفسه حتى يعود إلى الميدان فيلقن العدو الذي أهان روما ومرغ شرفها في الأوحال درسا يرد به الإعتبار، وفعلا توجه ألبنوس إلى إفريقية حيث جند الرومان. وقد تحطمت معنوياته وقضت على روحه الهزيمة التي ألحقها به يوغورطة وقومه، حتى إن ألبنوس لم يجد بدا من مغادرة إفريقية والعودة من جحيم الجند إلى جحيم روما وهو يجر أذيال البخس والتحقير، ثم عين مكانه قائد آخر عام 109ق م هو متلوس(161) الذي لم يتمكن يوغورطة من شرائه كما تعود مع غيره من السابقين، ولذلك رحل يوغورطة وجنوده إلى الوعر، حيث اتخذوا وقايتهم الجبال والأدغال، خصوصا وأن "ميتلوس" منذ اللحظة الأولى أخذ يعمل على تنظيم جند الرومان الذين كانوا قد تعودوا حياة الفوضى مدة بقائهم عاطلين بإفريقية، إستطاع أن يضبطهم بأوامره الصارمة التي حالت دون ما كان قد شاع فيهم من رذائل، ثم حولهم إلى قوة قادرة على القتال والغزو من جديد.

وإذا ما علم يوغورطة بكل ما كان يقوم به "ميتلوس" الذي كان متدينا يتوفر على خلق عسكري وأصالة ونبل عائلي إلى جانب خلقه الذاتي مما جعل يوغورطة يعلم أنه مخالف لما سبق، ولذلك وجب أن يعامله بما يتفق ماديا وأدبيا.

---

(161) راجع . م .ع. ص : 1796، ط : 1965.

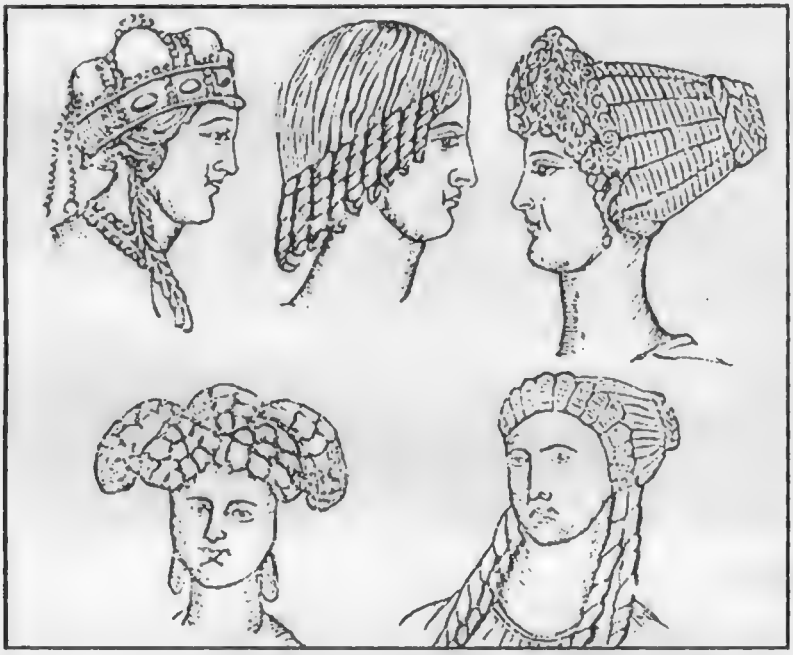

هيئة ملابس الراس عند نساء الرومانيين القدماء

من أثر الرومان

من بقايا الرومان

بقايا المحكمة العليا الرومانية في مدنية هليوبوليس "وليلي"

وليلي بالمغرب الأقصى

الفصل الثامن عشر

يوغورطة بين جحافل الرومان وخيانة باخوس

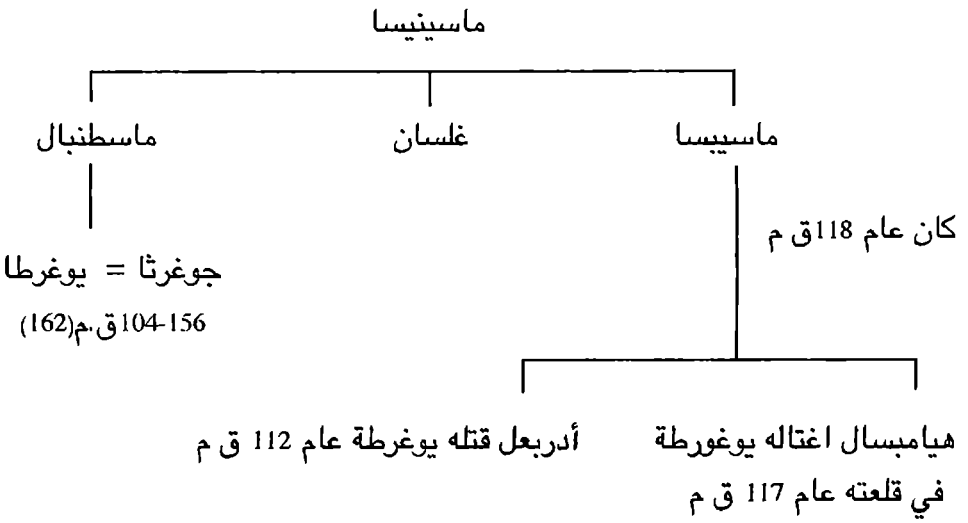

استعمل يوغورطة كل الوسائل حتى يصل إلى تفاهم مع ميتلوس، حتى ولو انتهى الأمر إلى تنازل يوغورطة عن ملكه شريطة ضمان حياته وحياة أولاده، وما ذلك منه إلا بسبب ما أخذ يدب في عقول قومه من قنوط بدافع طول مدة الحروب، وأرسل وفدا منه طالبا التفاوض بذلك ، لكن "ميتلوس" وقد أعجبه ما انتهى إليه من تنظيم واستعداد لم يقبل بغير الحرب التي كان قد أعد جنوده لخوض غمارها، فتقدم غازيا نوميديا ومتوغلا في أراضيها دون أن يجد في طريقه أية مقاومة إلى أن احتل وادي مجردة(163) وسهوله

(162) بإختصار كتاب اعيان المغرب الأقصى لادمون ص 42 باريز 1939

(163) طوله 415 كم بتونس شمال إفريقية ينبع من جبال سوق هراس بالجزائر ويصب في خليج تونس بالبحر المتوسط بد لتا كثيرة المنافع من روافده ملاق، وتاسة، وسليانة، وباجة، راجع م. ع 1648.

ثم مدينة "باجة"(164) التي اتخذ منها مركزا الإنطلاق، ولعل ميتلوس لم يقف شخصيا على ما جرى لجند بلاده قبل تحت قيادة أولوس مما هو وبلا شك كان حديث الجند القدامى مع المحدثين في أوقات سمرهم، مما لم يحسب له حسابه في نفسية الجند ، ومدى تأثيره في المعارك المقبلة عندما يقتنع يوغورطة بضرورتها، والتي بلا شك كان يستعد لها.

كان ميتلوس قد انتهى إلى قناعة أن لا بد من قبض يوغورطة أوقتله على أضعف إحتمال، وقد أخذ يخطط لذلك حتى مع النوميديين أنفسهم، وخصوصا الذين أرسلهم يوغورطة للتفاوض باسمه والذين ساومهم "ميتلوس" كي يعملوا معه على الإيقاع بصاحبهم، والذين قيل إنهم استجابوا لرغبة القائد الروماني الذي أصبح يتحكم في الكثير من المدن والقرى بدون مقاومة من يوغورطة وجنوده، حتى إذا اقتنع هو الآخر أن لا فائدة ترجى من الدعوة الى السلم، عاد إلى ذكريات الماضي القريب، ذكريات ما حصل لجند الرومان بقيادة أولوس ، بل وما حصل من ضباطهم من خيانات مما استصغرهم في نظر النوميديين ، وإذا كان يوغورطة يقود قومه للدفاع عن الأوطان فإن الرومان كانوا رغم القيادة وما حققوه من تقدم يشعرون بما تثيره ذكريات الماضي القريب، وأنه لا أمان لهم ولا لروما في نوميديا مادام يوغورطة على قيد الحياة، ولذلك كان عليهم أن يتقدموا إلى الأمام من أجل القضاء عليه حيث كانت المعارك حامية هنا وهناك، لكنها أخيرا تحولت إلى وسيلة لا يشرف تاريخها جند روما وقيادته حيث أمر "ميتلوس" جنوده بالنهب والسلب وهدم القرى وإحراق الزرع وقطع الأشجار بدون أي اعتبار أو تقدير حتى يدخل الخوف والفزع قلوب المواطنين النوميديين، وهي نفس الطريقة التي ارتكبها الفرنسيون بعد ما يقرب من ألفي عام حين قتالهم للشعب الجزائري بعد ثورته التي أعلنها ضد الإستعمار فاتح نوفمبر عام 1954 .

كان على يوغورطة ورجاله وقد يئسوا من تفهم قيادة جند الرومان لمقاصد الملك "البربري" السليمة، أن يعاملهم بمثل ما أرادوا حيث حولوا الخطة إلى هجوم الكتيبة ثم

---

(164) في إفريقية وفي الأندلس وفي الصين، يقول الحميري في الروض المعطارج 1 82 مخطوط خاص، رقم102.

فرارها حيث تطاردها بعض قوات الرومان، وعندما تنفصل تلك القوات عن معسكرها يستقل بها المتربصون المختفون في الأغوار من جند يوغورطة، وهكذا تعرضت قوات "ميتلوس" إلى إستنزاف وتناقص مستمر، ولعله مما زاد في انهزام الرومان وتطلع النوميديين هو معرفة هؤلاء ببلادهم معرفة كاملة بجبالها ودروبها وأوعارها، وخبايا الأدغال والطرقات فيها ـ ومثل هذا بالفعل حصل زمن مقاومة الإستعمار الفرنسي1954 كما سنرى ـ هذا إلى جانب أمتثالهم لأوامر ملكهم وتفانيهم بحماس فيه عنف عنيف كلما التحموا في معركة من المعارك التي كان الخيالة فيها إلى جانب المشاة بطريقة لم يتمرن عليها الرومانيون الذين كانوا يفاجأون كلما تعرضوا لهجوم من قوات يوغورطة بما تحدثه في صفوفهم من اختلال وتدخله في نفوسهم من رعب واضطراب.

كان يوغورطة باستمرار يجر خصومه من الرومانيين الذين عرف مقاصدهم الإستعمارية وروح الهيمنة التي سيطرت على عقولهم، إلى الهزيمة بطريقته الخاصة التي كانت تتمثل في عدم المواجهة، وإنما في الكر والفر والإستنزاف وقطع طريق العودة على الرومان المطاردين لقومه، ومع ذلك فقد كان بحكم عدم تكافؤ القوى عددا وسلاحا يشعر أن من الأحسن لوجنح القوم إلى السلم بدلا من استمرار الحرب التي كانت تأكل من قومه ومن الرومانيين كذلك، وقد سبق أن أشرنا إلى أن يوغورطة كان يريد السلم حتى لو كان على حسابه هو، ورغم أنه لم يضعف ولم يعرف من قومه تخاذلا فإنه أعاد الكرة حيث أعلن للقائد الروماني ميتلوس أنه مستعد للتنازل عن عرشه، وفعلا اختار للتفاوض مع الرومان وفدا برئاسة رجل طالما استعمله في أخطر المهمات، وهو الضابط «ملقرط» الذي انتهى بمفاوضاته إلى دفع يوغورطة بطريقة فيها كيد إلى قبول ما أملاه القنصل ميتلوس من شروط وهي :

أ ـ دفع ضريبة حرب قوامها2000 وزنة رومانية من الفضة.

ب ـ دفع كل ما عند النوميديين وتحت تصرفهم من الخيل والفيلة.

ج ـ يسلم نفسه للقيادة الرومانية.وفعلا فقد شرع يوغورطة في تطبيق الشروط حيث نفذ منها الأول والثاني، لكن سرعان ما ثاب إلى رشده أورده إليه تذمر جنوده، وأدرك أن لا أمان في الرومانيين ولا يتنظر منهم الوفاء بعد ما انتهى معهم إلى ما حصل

من قتال حصد الكثير من الجنود والضباط ومرغ شرف روما في الوحل، وأهان كبراءها بشكل فيه قسوة قاسية وعنف عنيف، ونجاة بنفسه وقد أنتهكت قوى النوميديين؟ اضطر أن يلجأ بجنوده إلى موريتانيا حيث صهره أبو زوجته الملك باخوس صاحب قبائل بني ماور، بعد ما عرج على قبائل جدالة، وكان هذا منه بعد ما اكتشف أن من المقربين إليه ومن له فيهم أكبر الثقة أصبحوا يتآمرون عليه مع القنصل "ميتلوس"، وهما الضابط ملقرط، والأمير بندلسة الذي هو أحد الأمراء النوميديين، واللذين بلا شك كانا يمثلان تيار النهضة الذي نتج عن قبول يوغورطة لشروط ميتلوس وتنفيذه الشرطين، الأول والثاني، مما أفقر قومه وأدخل عليهم الضعف.

إكتشف يوغورطة المؤامرة المشار إليها بواسطة المراسلة التي أرسلها ملقرط لبندلسة حين دخل على الأخير كاتبه وهو نائم في خيمته فوجدها بالقرب منه ولما قرأها فر بها إلى يوغورطة الذي حكم على المجرم ملقرط بالإعدام جزاء خيانته، أما بندلسة فقد تملص مما كان بينه وبين ملقرط بأنه لم يقبل أن يوافقه.

لقد سقط في يد الروماني "ميتلوس" الذي لم يكن يهمه وقومه شيئا أكثر من رأس يوغورطة، إلا أن الأمر زاد "ميتلوس" حقدا على حقده ضد النوميديين، فأطلق فيهم أيدي الجند يقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال بلا تمييز بعد ما يهدمون القرى ويصادرون الأرزاق، وقد انتقل خبر ذلك إلى قبائل بني ماور وأمرائها وملكها باخوس الذي هو صهر يوغورطة كما سبق، وحتى إذا ما حل بينهم بعد استنجاده بقبائل جدالة. ثم بين لهم أن الذي دفعه الى ما حصل منه هو ثقته أن مقاصد الرومانيين لا تقف عند نوميديا لأنهم في حربهم لمائة سنة مضت لم تقتصر على البونيقيين وإنما غايتهم السيطرة التامة على الجميع وأنهم لو انتهوا من نوميديا فإنهم لا محالة يتقدمون إلى موريطانيا.

إنتهى يوغورطة وصهره باخوس إلى حلف زاد الملك النوميدي قوة وأملا اندفع بهما إلى تكوين الجيش من جديد، وبطريقة لم يكن الجداليون، وبني ماور، وآل غية قبل على علم بها، وذلك حين قدم إليهم الضباط الفارين من الرومانيين الذين اشتراهم يوغورطة بما قدم لهم من إغراءات ليشرفوا على تدريب جيشه. كما أدخل في اعتبار الجميع

ويتعلقهم أن المعركة المقبلة ستكون من أجل الإستيلاء على العاصمة سيرته، التي جمع الرومانيون بها كل مدخراتهم وما استولوا عليه في الحروب وما قدمه يوغورطة بإسم الإتفاقية التي سبق ذكرها.

أما القنصل "ميتلوس" فإنه حاول بدوره أن يستميل الملك باخوس ملك بني ماور وصهر يوغورطة ضد صهره، وذلك بطريقة لم يكن يعلم أن يوغورطة كشفها لباخوس، وأصبحت حقيقة عارية تبدو له ولأمراء بني ماور الذين أجمعوا على التمسك بموقفهم إزاء الحلف الذي تم مع يوغورطة، ولم تقف خيبة "ميتلوس" عند هذا الحد، بل هو نفسه فقد منصبه بطريقة فيها خبث ومكر دبرها نائبه جايوس ماريوس(165) 157 ـ 86 ق م.، الذي كان وإياه في صراع أدى بميتلوس إلى الوقوف في وجه ترشيح غايوس ماريوس نفسه قائدا للجيوش المحاربة ليوغورطة عندما تنتهي مدة ميتلوس، وذلك بزعم من هذا الأخير أن الذي يستحقها هو ولده الذي كان في سن العشرين وأما غايوس ماريوس فإنه لم يكن في نظره أصلا من الأشراف ولا من النبلاء، الأمر الذي زاد من حقد وكراهية غايوس ماريوس لميتلوس، ومع ذلك عينت روما غايوس ماريوس قائدا مكان صاحبه في أوائل عام 107ق. م، بعد ما كان فقط مساعدا له، بل إنه لم يعين وكما سبق لسلفه مدة معينة بسنة أو سنتين كما كان الشأن، بل إلى أن ينهى حرب يوغورطة بالقضاء عليه.

كان عدد الجند الرومانيين عندما تولى القيادة غايوس ماريوس 4200 جندي. فزاد في عدده الثلث بل أمر برفعه الى6200 جندي، ومعنى هذا تقول المصادر أنه أدخل على الجيش عنصرا جديدا، قيل إنه كان من الفقراء ومن المرتزقة، كما أنه كذلك أدخل عليه نظاما لم يكن قبل معمولا به في نظام الجند، ذلكم هو حمل الجندي لمتاعه الذي هو طعامه وفراشه في رزمة يشبكها بعصى ثم يضعها على كتفه، وذلك منه تحقيقا للتنقل بالسرعة المطلوبة إزاء سرعة جند يوغورطة والتي كان يتميز بها في تحركاته، حتى إنه كان دوما مجهول المكان وزمان التحرك عند الرومانيين، الأمر الذي كان يجعل منه صاحب المبادرة.

---

(165)م.ع ص : 1621 وتاريخ الدهور، وكتاب التاريخ العام لفليب فان نس مير الأمريكي ط 1912 ص156.

كان غايوس ماريوس قد علم أن العوامل التي رفعت قدر سلفه إنما هي الإنتصارات التي حققها بفتحه بعض المدن مثل سيرته ، وزامة(166) وتالا ، وعليه هو أن يعمل فوق ذلك بأن يتوصل إلى قهر يوغورطة ، وأن يمهد البلاد من أقصاها إلى أدناها لحكم الرومان ، وكان الخطوة الأولى في ذلك الإتجاه وحتى يعلو إسمه فوق اسم سلفه هيأ جنوده نفسيا لمعركة لم تكن منتظرة من أحد ، تلك هي معركة الإستيلاء على مدينة قفصة(167) أكبر مدينة في الجنوب الشرقي من إفريقيا ، والتي توجه إليها بطريقة فيها كيد ، ولما استولى عليها بعد الإحاطة بمختلف جهاتها مكن السيف بمنتهى القسوة والعنف العنيف في شيبها وشبابها، والأسر والسبي في نسائها وأطفالها، وأخيرا أباح كل ما فيها غنيمة للجنود الذين استعملوا كل ما تعلموه من ضروب القسوة في تصرفاتهم التي دونها التاريخ بكثير من الحسرة والخزي للقائد غايوس ماريوس الذي ارتفع صيته أعلى من سلفه عند الرومان كما كان يرجو ويتمنى.

لقد كان ما حققه غايوس ماريوس من انتصار على" قفصة"، ومن غنائم للجنود، من الدوافع التي رفعت معنوياته ومعنويات جنوده، حتى إنه ولى وجهه من قفصة إلى موريطانيا رأسا، حيث تم الحلف بين يوغورطة وصهره باخوس ملك الماوريين، ولم يقف بجنوده وهو كالسيل الجارف في طريقه حتى انتهى الى ضفاف وادي ملوية، ولم يقف في طريقه ولا تراجع رغم ما عرف الجنود من متاعب بسبب تحول الطبيعة من جو حار إلى آخر قار، بل من قسوة إلى أشد منها قساوة، وما كان ماريوس يحسب أن شيئا ما يقف في طريقه الذي وجده ممهدا حتى وقف على القلعة(168) التي وضعها باخوس ومن قبله للجنود في أعلى الجبل. وفي مكان يصعب الوصول إليه على كل من أراد مهما بلغت قوته وطاقته على اقتحام الصعاب ما لم يدفع روحه ثمنا لمحاولته، ذلك ما حصل لغايوس

---

(166) وهي غير زامة التي انتصر فيها أسكيبيو أفريكانوس الأكبر على هانيبال 202 ق م بل كانت عدة مدن تحمل هذا الإسم راجع م.ع.ع ص 916 ، ط 1965.

(167) راجع الروض المعطار للحميري، 115/1 م. خ نا، وإسمها أيضا: گبسة، وتنطق بالكاف المعطشة.

(168) حسب الظن أن المكان الذي يشبه هذه القلعة اليوم بأرض قبيلة أيت ازدك قرب ميدلت وهي المكان المعروف اليوم بإسم «جعفر» وبالبربرية «أخبان إرومين» حيث الكهوف المعلقة، ومثلها في الوعورة أماكن جنوب وادي ملوية مثل منطقة برتات وأيت مزوغ، وآيت بن عز وإينمل وغيرها حيث الكهوف المعلقة حتى اليوم.

وجنوده الذين طالت محاولاتهم، وكل من اقترب من القلعة ينتهي أجله. حتى انتهى ماريوس إلى يأس وقنوط وهو لايدري ما يفعل، لكن الصدف التي قليلا ما تخدم في مثل هده المواقف خدمت جند الرومان. ثم مكنتهم وبطريقة لم تكن مرتقبة من اقتحام قلعة نهر ملوية، وذلك بطريقة فيها الكثير جدا من الاستغراب الذي هو كثرة الضحك مما كان عليه رجالات قبائل بني ماور من سذاجة وفطرة، حتى أنهم لم يفكروا في حراسة القلعة من الجهة الخلفية لأنها في نظرهم تشرف على مكان وعر لم ولن يستطيع تسلقه أحد ومن أجل ذلك تركوه بلا حراسة، واكتفوا بالتقاط كل من اقترب من الناحية الأمامية، وبينما هم كذلك كان أحد جنود الرومان وهو في عطلة يتجول في المنطقة التي لم تكن فيها مواجهة بين الفريقين ومنها خلف القلعة ناحية المكان الوعر، وفجأة تقول المصادر وجد نفسه يتسلى عن هموم أمسه ويومه بجمع الحلزون(169) الذي كان وقتها يؤكل في روما، وإذا بالجندي ودون أن يراه أحد يتعرف على طريق من الخلف، ورغم وعورته فإنه يفضى إلى القلعة دون أن ينتبه له الجنود الماوريين المدافعون عنها. والذين هم شاغلون ومنشغلون بصد جنود الرومان، وفعلا فقد أخبر الجندي قائده غايوس ماريوس بالسر الذي لم يصدقه، وقد كان اليأس والقنوط قد وضعا غشاوة على عقله وسمعه وحتى على بصره، لكن إلحاح الجندي دفع به إلى قبول الإقتراح الذي هو إرسال جماعة صغيرة أمكنها أن تتسلق الوعر من خلف وأن تفاجيء الجنود في قلعتهم، وذلك بطريقة أدخلت الرعب في قلوب الماوريين الذين بوغتوا من ناحية لم يكونوا قط يتصورون الخطر منها، خصوصا وقد أثر في الجنود الرومانيين الضجيج بشكل مرعب ومهول صحبته أصوات النفير الذي استعملوه عندما أطلوا على القلعة من خلف، وأطلق بعضهم النبال على من كان أمامهم فسقطوا، الأمر الذي دفع رفاقهم ومن في القلعة إلى الفرار في اتجاهات مختلفة، وقد زادهم الفزع والهلع ذعرا ظنا منهم أن قوات كبيرة وقاهرة قد اقتحمت القلعة، ولكن ثمن القلعة كان غاليا جدا، فقد كان يوغورطة الذي لم يترك القلعة فريسة لماريوس وجنوده إلا وهو يعلم أن ثمنها سيكون احتلال العاصمة سيرته، وإنتزاعها وما

(169) هو المسمى في مغربنا الأقصى حتى اليوم "البابوش" بتشديد الثانية وسكون الشين.

فيها من يد الحامية الرومانية المذكورة، وذلك حين توجهت إليها جحافل يوغورطة وباخوس متضامنين من أجل خلاصها الذي تم على أيديهم بطريقة لم تكن في حساب ماريوس الذي ظن أنه بما سلب من يوغورطة من قوات وأموال، وبحصاره لقلعة ملوية، ولا من يدافع عنها غير حاميتها، بذلك قد انتهى إلى انتصار بعد ما يكون قد حطم قوات الماوريين وحال بين باخوس ومحالفة صهره، لكنه على العكس صدم وسقط إلى الحضيض.

كان ذلك عام 106 ق م، لكن إفتكاك مدينة سيرته لم يدم حيث قصدها ماريوس وجنوده الذين كانوا قد إنتهوا إلى نصر على قلعة ملوية بعد قفصة، فكيف لا يتحقق لهم أيضا ضد باخوس ويوغورطة في سيرته، وفعلا دارت المعارك الطاحنة. التي هلك فيها من الجانبين الكثير جدا، ناهيك إذا هي استمرت في بعض المواقع نحو الثلاثة أيام بلياليها. جمع فيها كل من يوغورطة وباخوس ما أمكنهما من المقاتلين حتى قيل إن عددهم بلغ نحو الستين ألف، لكن الحظ كان إلى جانب ماريوس المنظم لحصاره، والذي اشتد ساعده بأحد الضباط الذي كان ذكيا في المعارك وفي التدبير الماكر معا، ذلك هو سلالوكور نيليوس(170) " 138 ـ 78 ق م."

انتهت الحروب الطاحنة حول العاصمة سيرته بانهزام قوات يوغورطة وباخوس وانتصار غايوس ماريوس، الأمر الذي أدى إلى فرار يوغورطة بطريقة لم يتعودها منه قومه، والتي التجأ إليها اضطرارا بعد ما قاوم مقاومة الأبطال، وبعد ما أذاق الرومانيين المرارة التي لم يكونوا ينتظرونها ممن فقد خيله وفيلته بحكم البندين السابقين من المعاهدة المشار إليها، مما دفع بغايوس ماريوس إلى توجيه جنوده بطريقة فيها حقد على يوغورطة أكثر، وحتى إذا ما انتهت المعركة لصالح الرومان وعاد باخوس مع قبائله بني ماور إلى مواطنهم، وقد رأوا ما حل بقلعتهم من جانب وبيوغورطة وهم معه من جانب آخر، لم يتركهم غايوس ماريوس حتى يتدبروا الموقف ثم يتعرفوا على أسباب الهزيمة الأولى التي كانت على أبواب سيرته، والثانية بعد محاولتهم بتلك الجموع الكثيرة التي عمل يوغورطة بما أوتي من قوة الشخصية على إقناع كل زعماء بني ماسيل، وجدالة وبني ماور، على خوض آخر المعارك التي سوف لايقدر ليوغورطة أن يخوض غيرها، بل ولأنه سيصبح محل مساومة بين الرومان وملك بني ماور الذي هو صهر باخوس.

---

(170) راجع م. ع ص 1127 ط 1965.

الفصل التاسع عشر

يوغورطة ونهاية البطل المغربي الذي أذل الرومان فاحتفلت روما بأسره

لقد انتهى ماريوس إلى قناعة أنه يجب عزل يوغورطة وتجريده من مساندة صهره باخوس حتى يستسلم، ولذلك وجب إقناع باخوس إن هو أراد السلامة لنفسه وقومه، أن يشارك في القبض على يوغورطة وتسليمه،وذلك بجعله يعتقد أن لا فائدة من الإتفاق مع ملك صممت روما على حربه مهما كلفها حتى النهاية، وأن باخوس إن كانت غايته من الحرب إلى جانب يوغورطة وحسب المعاهدة التي أبرمت بينهما، هو أن يتنازل له على غرب المملكة النوميدية، فإن روما سوف لا تزاحم باخوس إن هو مد لها يده وأتاها بيوغورطة حيا أو ميتا، وبدأت الإتصالات بطريقة جد فيها مكر وخبث من الطرفين لتحقيق ذلك.

وكان بطل المفاوضات هو الضابط المساعد سلالوكيوس كورنيليوس، الذي عرف كيف يهول الموقف في نظر باخوس بما تضمره روما ليوغورطة، وأنها لا تمانع في اتخاذ باخوس صديقا في الوقت الذي ترفض فيه يوغورطة، وحتى يقف باخوس على جلية الأمر، عليه أن يكون وفدا إن أراد معرفة ذلك. وسوف لا يتأخر غايوس ماريوس في وضع كل الترتيبات حتى يلتحق الوفد بروما ويتصل بأعضاء مجلس الشيوخ ثم يتعرف على كل الحقائق، وأمام هذا الترغيب والترهيب لم يكن أمام باخوس الذي لم تعرفنا المصادر(171) التي تناولت هذا الموضوع عن العلاقة بعد الهزيمة مباشرة، بين باخوس وصهره يوغورطة الذي جره إلى الحرب والهزيمة، مع العلم أن غاية باخوس من الحلف

---

(171) أهمها ما كتبه المؤرخ الروماني المشار إليه صلوستيوس جايوس حول يوغورطة وحروبه م ع 1130. وماورد في كتاب التاريخ العام لفليب فان نس المشار إليه ص 156 ط 1912.

مع يوغورطة لم تكن لمجرد الإنتصار له كصهر، ولا كمواطن إفريقي فقط، وإنما كانت من أجل غرض وهو أن يتخلى له عن غرب نوميديا حتى يضيفه إلى مملكته موريطانيا، وإذا كان الرومان على علم من ذلك، فإنهم في سبيل القضاء على خصمهم العنيد يوغورطة، لا يمانعون في تحقيق آمال باخوس، كما ظهر للمفاوض أن يتقدم بهذا العرض المغري لباخوس الذي سال لعابه، عندما زاد سلا أكثر، حين ارتبط بصداقة مع كل الذين كان لباخوس فيهم الثقة، بل ربطهم مع غايوس ماريوس، وفي مقدمتهم الأمير والك ابن باخوس، حتى تكون الثقة أكثر، وبعدها تركهم يتولون إقناع باخوس بالتخلي عن يوغورطة ما دام سيحصل على ما لم يحققه له الإتفاق الذي أصبح لا غيا مادام يوغورطة قد إنتهى إلى ما يحيا ويعيش من مصير، وفعلا تمت الإتصالات بين رجال باخوس والقيادة الرومانية، ثم رحل الوفد المكون من ثلاثة رجال اعتمدهم الملك باخوس إلى روما حسب رغبته، الأمر الذي أكد صدق ما وعد به سلا، وكان رسول باخوس إلى مجلس الشيوخ الروماني خادما وفيا للملك، وكانت مهمة الوفد من وراء يوغورطة وقومه، التماس الأعذار في الحرب التي خاضها إلى جانب يوغورطة ضد الرومان، كما كان الوفد قاسيا على يوغورطة يقول المؤرخ الروماني صلوستيوس جايوس، ومع ذلك لم يرجع بأي التزام من جانب الرومانيين، بل ما كاد يرجع الوفد إلى باخوس حتى طلب هذا الأخير من غايوس ماريوس الدخول في مفاوضات جادة، ولم تكن في رأي القنصل تعني غير أن باخوس قبل العمل على تسليم يوغورطة، لكن إذا كان الأمر كما تصور له، فإنه ليس بالهين ولا من السهولة. بل يحتاج إلى مهارة من المفاوض وعدم ترك أي فراغ لباخوس، حتى لا يتصل بيوغورطة، اتصالا يكشف له هذا الأخير فيه حقيقة التاريخ كخبرة لأول ملك وآخر ملك بربري مرغ شرف روما في الأوحال وخلد في البربر إلى جانب أثر الإقليم روح القتال التي لا تزال الطابع المميز لأبناء هذه المنطقة بين جميع الأجناس.

كان باخوس إلى جانب ذلك واقعا تحت ضغط حاشيته التي انجذب الطامعون منها إلى مغريات سلا وبالأخص ولد باخوس الذي هو الأمير والك. وحتى إذا ما قدم غايوس ماريوس الضابط سلا ليتولى المهمة في آخر مراحلها عرف هذا الأخير كيف يستولي على الأمير والك وبواسطته على جميع المترددين من أفراد حاشية باخوس، كما عرف

كيف يضارب بين الذين كان يوغورطة يوكلهم لينوبوا عنه بتفويض أمام باخوس ومفاوضيه، ومع أن يوغورطة صرح أنه متفق مسبقا على كل حل سلمي تريده روما كما سبق له ذلك قبل، فإن ماريوس ونائبه سلا لم يقبلا من باخوس أن يذكر لهم اسم يوغورطة أو التعرض لمواقفه إلى درجة أن سلالم يقبل ولا حضور الأمير النوميدي أشبار(172) الذي كان نائبا عن يوغورطة، عند باخوس حتى ينقل له ما راج من مفاوضات بين سلا وباخوس، وكان ذلك باتفاق مع هذا الأخير الذي قال لصهره : إن المفاوضات ستكون من أجل سلم دائم، ولعل مما أغرى يوغورطة حتى اعتقد في صهره الصدق ولم يندفع إلى الإنتقام من سلا، وقد واتته الفرصة فيه يوم فر أمامه في قلعة من رجاله مع الأمير والك، وبعض الماوريين، هو الثقة في والد زوجته وجد أولاده باخوس، ولو حدثته نفسه أو داخله شك أو ظن به غير ذلك، لوضع حدا للكيد الذي كان يدبر ضده، لكن باخوس وقد انخدع وأغراه الطمع وتغلبت عليه روح الحقد أمكنه أن يفرش الحصير على البئر في طريق يوغورطة الذي كان بلا شك يثق فيه ، وقد سألت دماء قومهما في المعارك الطاحنة ضد الرومان دفاعا عن الأوطان وتحررا من جبروت الغاصبين، ولو أن ملوك البربر وقبائل ماور وجدالة وبني ماسيل كانوا على جانب من التنظيم أحسن وعرفوا ما عرفه يوغورطة عن الرومان. ثم عرفوا كيف يستغلون الفرصة وقت غزو الكمبيريس والتوتونيين لروما و ولاياتها لكان المصير غير ما عرفته تلك القبائل و ملوكها ، ذلك أن قبائل الشمال المكونة من التوتونيين والكمبيريس هجموا بجموعهم كغزاة على قبائل الغال التي لم تستطع الوقوف في طريقهم، كما مزق الجرمانيون جيوش الرومان وراء جبال ألالب، وعرفت روما أهوالا لم تعرفها إلا قبل ثلاثة قرون حين غزاها الغاليون، حتى إن روما بعد ستستنجد بالقنصل غايوس ماريوس حين يقع يوغورطة في أحبولة خيانة باخوس وسلا، ظنا من الرومانيين أن لقنصلهم بإفريقية من القوة ما ينجد به روما وينقذه

(172) لا يزال هذا الإسم تعرف به قرية بإقيم سجلماسة تافيلالت جوار النيف يسكنها جماعة من المدجنين السود هم إخوة أهل توروك. وقد عرفوا بروحهم العالية في الجهاد الوطني ضد الفرنسيين حين غزوهم للإقليم، كما يتمتعون بروح إسلامية صادقة إلا أنهم يتعرضون لمضايقات من قبيلة آيت إيعز العطاوية جيرانهم الذين فقدوا فيهم ما كانوا عليه من قبل حين كانوا يخدمون بهم أرضهم وفلاحتهم بابخس ثمن.

من تخريب الجرمان والتوتون، وما عرفته من ويلات ما بين 113 ـ 101 ولم يعرفوا أنه إنما فعل وأمكنه بعد أن يصبح مخلص روما ومنقذها بواسطة الجنود الأفارقة الذين جند منهم عشرات الآلاف كمرتزقة، هم الذين دمروا القوات الغازية وخلصوا روما مما عرفته من بخس وإرهاق وإذلال. لو أن ملوك البربر وقبائلهم كانوا على علم بما سبق لما اضطر باخوس أن يؤمن يوغورطة وقد بيت لغدره حين جره إلى التفاوض، بل إلى ربط الصلة بينه وبين سلا بواسطة أحد الأمراء من آل ماسينيسا، وهو الأمير دابارو، وكان ذلك بحضور الأمير أشبار ممثل يوغورطة، ولم يفعل وبطريقة فيها غموض ودس، إلا لأن الأمير دابارو كان مقبولا من طرف الرومانيين ليقوم بالمهمة، وما تلك إلا تغطية من باخوس قبل أن يتمكن من معرفة نوايا سلا الحقيقية، والتي سيعمل للتعرف عليها بالإتصال السري الذي لم يحضره غير باخوس وتراجمته لا غير، ذلك الإتصال الذي عمر فيه باخوس ثم شحنه بالبارود ضد يوغورطة، وأنه لا يرجوه باخوس إلا أن يبدأ في العمل الذي يرضي روما فورا، ومن أجل تحقيق أغراضه، ذلك أنه أرسل على نائب يوغورطة الأمير أشبار ثم بلغه أن القيادة الرومانية أمرت سلا بالتفاوض من أجل السلم، ولذلك لا مانع من حضور يوغورطة، ولما نقل الخبر إلى يوغورطة صرح بأن لا ثقة له فيما قيل، لكن موقفه وحال قومه دفعا به إلى أن يحضر حتى لا يعطي للقوم وبالأخص صهره حجة ضده، ناهيك وأنه سبق له أن أبرم معاهدة مع سلف غايوس ماريوس، وفيها النص على ما تم بينه وبين ميتلوس، لكنها لم تقبل وبقيت الحالة كما كانت.

كل ذلك لم يفت يوغورطة أن يبينه لصهره باخوس، حتى لا يبالغ في الثقة بالرومانيين، ومع ذلك وحتى لا يجعله يتخذ من موقفه إن هو أحجم ذريعة وينسب إليه إفشال مفاوضات السلم الذي كاد يصبح حقيقة حسب قول باخوس المدسوس للأمير أشبار نائب يوغورطة، والذي لم يكن في الحقيقة غير أحبولة شائكة يسعى باخوس لوضعها في عنق الملك الغيور يوغورطة الذي مهما يكن فإن المؤرخ الروماني صلوسيتوس جايوس قد نص فيما كتب حول يوغورطة في الفقرة 113 أن باخوس في هذه المرحلة كان مضطربا كل الإضطراب، حتى أنه كان يتراآى لكل من سلا ممثل الرومانيين، والأمير أشبار ممثل الملك يوغورطة، وأنه في جانب الأول على حساب الثاني وبالعكس، حتى إنه

ليظهر للمرء وكأنه لعبة بين الجانبين، وليس بالملك الذي له رأي، وما ذلك إلا من شدة ما كان ضميره يعذبه بسبب الدور الساقط الحقير الذي قبل القيام به.

كان باخوس قد أرسل أفراد حاشيته الذين أصبحوا عملاء للضابط سلاّ كي يخبروا يوغرطة حتى يقدم من أجل التفاوض المتفق عليه، ولم يكن باخوس في الواقع قد اتفق مع سلا على غير القبض على عدو روما اللدود يوغورطة الذي كان ينتظر ما يرد من أخبار باخوس وسلا، وإذا ما بلغه الخبر فإنه لم ينتظر، وأخذ معه بعض أفراد حاشيته وولديه ثم توجه ، وكانت مسافة الطريق أكثر من نصف أسبوع على ظهور الخيل مابين مواطن قبائل جدالة وبني ماور، وبينما هو في الطريق عاد رسل باخوس ليخبروه بذلك، فوضع كل الترتيبات الغادرة المتفق عليها مع سلا، ومنها التظاهر بشكل يستدل منه على أن الصهر باخوس والضابط سلا نائب غايوس ماريوس، قد استعدا إكراما لملك قبائل الماسيل وعاهل نوميديا يوغورطة، حيث خرجا لاستقباله على مسافة، ولما اقتربا من مكان الكمين نزلا راجلين، بيد أنها كانت مكيدة دبرت بليل دس فيها باخوس للملك البطل جماعة مسلحة بقيادة أحد الضباط، كانت متخفية في الطريق، وحتى لا يعلم أحد من الذين كانوا يميلون إلى يوغورطة فيبلغه الخبر كلف باخوس وسلا نفسيهما المبيت ليلة في الطريق الوارد فيه يوغورطة.

وفعلا ما كاد يوغورطة ومن معه يدخلون منطقة الكمين وكانوا من غير سلاح، حسب تقاليد المفاوضات من أجل السلم، حتى انقض عليه الجنود بأوامر صارمة من الضابط الذي كلفه باخوس بالمهمة، وبذلك تعرضوا للقتل حسب الأوامر بإستثناء يوغورطة وولديه.

كان يوغورطة يعلم أن قوام أخلاق الرومان الدس، والكيد، والكذب، والإفتراء، وعدم الوفاء، والخسة، والدناءة والسقوط، وكل أنواع القانورات التي تمثلت في الرومانيين وقتها، إلا أنه لم يظن ولم يخطر بباله أنه سيتعرض لما حصل ويشارك فيه صهره وابن جلدته ومواطنه باخوس، ذلك مادار بخيال يوغورطة حين وضعت الاغلال في يديه ورجليه وعنقه، في منتصف الشهر الآخر من صيف عام105 ق م.

نقل يوغرطة في أغلاله إلى حيث كان ينتظر غايوس ماريوس في العاصمة سيرته،

عاصمة مملكة يوغورطة، وذلك مبالغة في إذلال الملك العظيم، وإذا كان غايوس ماريوس الذي نصب بطريقة فيها شبه نكاية لميتلوس. وأن تقديم يوم التنصيب كان قصدا للدلالة على إنهائه لحروب يوغرطة، فإنه بالأحرى قد استطاع وهو الوضيع الأصل أن يحقق لروما بواسطة المرتزقة المغاربة الذين جندمنهم 300000 ما لم تكن تحلم به، بل ما عجز حتى عن تخيله كل الذين سبقوه من القناصل منذ أكثر من عشر سنوات مضت على حروب يوغورطة ذلت فيها روما وأهينت وديست كرامة قوادها وهكذا فالله يعلم حقيقة ما كانت عليه حالة يوغورطة من آلام وجراح، وما كانت عليه روما والرومانيون الذين احتفلوا للخبر من عجرفة ودناءة وحقارة وسقوط وزهو وانشراح ، لكن يوغورطة بكلمته التي أصبحت مضرب المثل خلد في حق روما والرومانيين من التحقير ما لم يستطع عامل الزمن إبعاده عن الرومان الذين أصبحوا لايعرفون بغير مانعتهم به يوغورطة ونعت مدينتهم وحضارتهم بقوله موجها الخطاب إلى روما «أيتها المدينة المرتشية، إنك لتودين أن تبيعي نفسك لووجدت من يشتريك» فهي عنده كالموس وليس أكثر. راجع التاريخ العام فقرة 365 ص 153 ط 1912 .

كل الذين أرخوا لتلك الحروب، ولهذا البطل الإفريقي لم يكونوا من الأفارقة حتى يصوروا لنا حقيقة الموقف أو هم إن فعلوا لم نقف بعد على شيء غير ما قام به الرومانيون الذين اخترنا من بينهم صلوستيوس جايوس، والذي هو الآخر رغم تحرره بعض الشيء في بعض المواقف، فإنه لم يرضه الوصف الحقيقي الذي خلده يوغورطة في حق روما والرومانيين، والذي أثلج به صدور كل الذين ذاقوا مرارة الطبقية الرومانية وغطرسة الرومانيين الذين انغمسوا في الرذيلة إلى درجة انعدام الضمير والأخلاق بدرجة سافلة، كما عرفتها روما والرومانيون في هذه المرحلة من تاريخهم.

كان اليوم الأول من شهر يناير عام 104 ق .م من أيام زهو روما الفاجرة، وهو اليوم الذي قام فيه القنصل الذي يرجع إلى أصل وضيع غايوس ماريوس بالاستعراض الذي عرفته أكبر شوارع روما وميادينها التي كان الرومانيون فيها عن بكرة أبيهم ، وقد اصطفوا على الأرصفة وفوق السطوح رجالا ونساء شيبا وشبابا، ليشاهدوايوغورطة ملك نوميديا، وقد وضعت الأغلال في عنقه وخلفه ولديه في مقدمة أسراب الغنائم المحمولة

سبائكها الذهبية والفضية على العربات، وقد بلغ تعداد تلك السبائك الآلاف ومثلها من الرجال والنساء والأطفال الذين بيعوا في الأسواق كعبيد، وقد دام الاستعراض من الصباح حتى المساء حيث انتهى أمام السجن الواقع تحت معبد الكابتول(173). وهو السجن المركزي الذي كانت تنتهي إليه ولائم التشفي في المنهزمين رومانيين كانوا أو غير رومانيين.

وقبل أن يدفع بيوغورطة إلى الدهليز المظلم والأيام أيام قرأليم حيث تقدم لدفعه بقسوة قاسية وعنف عنيف، أحد الضباط الذين سبق لهم أن عرفوا من بطولات يوغورطة ما حط من قدر أمتهم ورجالات دولتهم، بل بادر وقبل أن يسبقه غيره من الضباط فانتزع من الملك ومن ولديه مآزرهم الصوفية. ثم أدخل بعض أصابع يمناه في قرط الملك الذهبي الذي لم يتمكن من خلعه إلا بقطع الأذن اليمنى للملك الذي أذل روما وسخر من الرومانيين الذي باع فيهم واشترى كما شاء وأراد، حتى أنه قال كلمته المشهورة الخالدة فيهم وفي مدينتهم وهي الكلمة التي وجب أن يكررها كل وطني غيور عرف حقد الرومانيين وعدم تسامحهم وهم الغالبون وأن ما فعلوه مع يوغورطة هو نفس ما فعلوه وأكثر مع عمر المختار والشعب الليبي بعد ألفي عام، لكن ما خلده فيهم يوغورطة أشد وأنكى حيث قال: «أيتها المدينة المرتشية، إنك لتودين أن تبيعي نفسك لو وجدت من يشتريك»(174)تلك هي الكلمة الخالدة التي صورت لنا روما وأهلها في عصر يوغورطة، والتي ظن ماريوس وسلا أنها ستمحى حين أمر جنوده بعد بخنق يوغورطة في سجنه بعد عذاب أليم أذاقه له ولوليديه الرومانيون بالجوع في سجنه والعطش، ولم يعلم ماريوس أن القدر يخبئ له ما سيعرفه من المرارة والآلام على يد التوتون هو وسلا بعد صراع طويل، ومرير، وأن ماريوس الذي سيتردد على كرسي القنصلية سبع مرات ستنتهي حياته بعد ثلاثة عشر يوما من إنتخابه للمرة السابعة، وأن ما فعله حزبه بأشراف روما ونبلائها، سيفعله به جماعة سلا بعد ما يكون ماريوس قد التقط أنفاسه متأثرا بإدمانه الأشد على الخمرة

---

(173) راجع م. ع ص 1415 ط 1965. وقطف الزهور في تاريخ الدهور 332 ـ 33. حيث أخبار سلا وماريوس بتفصيل.

(174) فيليب فان نس التاريخ العام فقرة 365 ـ 372 ص 153 ط بيروت 1912 . . .

الى105 ق.م فقد سجل اسمه وتاريخ وطنيته بحروف بارزة من ذهب في سجل الخالدين، لأنه لم يكن يريد من حروبه ضد الرومان غير المحافظة على الذاتية الأطلسية المغربية الإفريقية كما سجل كل الذين أرخوا له وللفترة التي قضاها ملكا على نوميديا وقبائل بني ماسيل، بل إن باخوس الأول هو الآخر ورغم الظروف التي الجأته إلى ما فعل وما سلك من طرق الغدر ضد صهره يوغورطة، فإن الشعب وقبائل بني ماور وجدالة وبني ماسيل، لم يغفروا له ما فعل حين أعلنوا الثورة ضده، وحتى إذا ما أخمدها جند الرومان، فإن الموت لم يمهل باخوس ولم يتركه طويلا حتى يتمتع بما أغراه به الرومانيون بعد غدره ليوغورطة، وتوفي هو الآخر عام ثمانين ق م، حتى إذا ما خلفه كل من ولديه باخوس الثاني ثم بوغود، الأول على موريطانيا، والثاني على ما بعدها من التخوم، فإنهما لم يعرفا أي إستقرار بسبب ما كانت عليه دولة الرومان وقتها من اضطراب بسبب تناحر الأخوين بومبي الأكبر(175) 106–48 ويوليوس، وكلاهما كان له نصيب في التمكين لروما ونشر سلطانها، خصوصا في الفترة التي استطاعت فيها « يوليا » ابنة يوليوس وزوجة بومبي التوفيق بين أبيها وزوجها قبل وفاتها، لكن الموت كان من نصيب بومبي الذي قيل قتله ولده وقيل قتل في مصر ثم جيء برأسه إلى يوليوس الذي حزن عليه(176) وكان النصر ليوليوس الذي رفعه الرومانيون إلى مقام نصف الآله ثم وضعوا تمثاله في الكابتول ولقبوه بقيصر، ثم حكموا على شخصه بالقداسة بعدما منحوه الحكم المطلق طيلة حياته، الأمر الذي انتهى به إلى غلو فاحش وطغيان أكبر، حتى أنه حول الشعب في روما إلى همج يمشون وراء بطونهم عسكريين ومدنيين، وذلك حين صنع لهم وليمة قوامها إثنان وعشرون ألف مائدة مملوءة بالأطعمة والمشروبات الفاخرة تهافت عليها الأشراف والعبيد على السواء، وحتى إذا ما قضى كل حياته في الحروب من أجل رفع شباب روما، فإن نهايته غدرا عام 44 ق.م كانت على يد أولئك الذين تمرغوا في نعمته يتقدمهم صديقه المقرب يونيوس بروتوس85 ـ42 . مما دفع "قيصر" إلى أن يصيح في وجههم قائلا «وأنت أيضا يابروتس» لكن غدره سوف لا يجديه مع الحكومة الثلاثية التي سوف

---

(175) م . ع 445.

(176) تاريخ الدهور 335 مصدر سابق والتاريخ العام مصدر سابق فقرة 378 ص 159 ط1912.

تكون أشد قسوة من القيصر ولسوف تنتهي جولة الغدر ببروتس وكاسيوس بعد الى الفرار عند ملك اليونان. وكان صديقا لبومبي ومناصرا له ضد قيصر، لكنه انتحر عام 42 ق م كما شارك في المؤامرة جايوس كاسيوس، حيث دبرت المكيدة التي تمت بالقتل الذي شارك فيه صاحبا قنصل نوميديا ميتلوس(177) الذي سبق ذكره قبل ، لكن قتل يوليوس قيصر عام 44 ق .م لم يخلف من ورائه لروما غير المتاعب و التناحر الذي ظهر بين حزبين متناحرين ملكي، وجمهوري، انتقل نزاعهما إلى المغرب كما سنرى، حتى انتهوا إلى حكم المغرب مباشرة مدة ما يقارب الأربعمائة عام، ذلك أن إكثافيوس ابن بنت أخت قيصر الذي كان قد تبناه بعد موت أبيه ثم اعتنى به وبتربيته عناية خاصة حتى أرسله ليتعلم في اليونان ، ولما مات خال أمه قدم وكان عمره ثماني عشرة سنة ، فأعطاه مرقس أنطونيوس(178) أحد رؤساء الجمهورية جزءا عظيما من الميراث وتزوج أخته أو كطارة، ثم أشركه معه في رئاسة الجمهورية، كما أشركا معهما أميرا ثالثا يقال له لبيدوس الذي هو الآخر حكم شمال إفريقيا عام 41 ق .م وكان مثل يوليوس قيصر ممن يكرهون الحكومة الجمهورية، فأدى ذلك بهم إلى اتفاق على لائحة قتل تتضمن300 من أعضاء المجلس العالي و2000 من الأعيان، وسلموها لبعض من يعتمدون عليهم من الذين أغروهم بالجوائز على قلتهم حتى أصبح بعضهم يقتلون آباءهم وإخوانهم وأعمامهم ومن يعز عليهم طمعا في المال، وأما بروتوس وكاسيوس مدبرا قتل القيصر فإنهما فرا إلى ملك اليونان الذي جروه حتى زودهم بمائة ألف 100.000 مقاتل ضد مرقس أنطونيوس، وأوكتافيوس، لكن الدائرة كانت على بروتوس، وكاسيوس، مما أدى بهما إلى الانتحار، فلم يبق قي الميدان غير مرقس أنطونيوس وأكتافيوس اللذين شب بينهما النزاع حين تزوج أنطونيوس من كليوباطرا والتي عرفت كيف تغريه وتسحره و التي كانت طالع شؤم على انطونيو ليحل مكانه اكثافيوس بدهاء مدة 44 سنة من 31 ق م إلى 14 ب م فبعد طرد ثالثهما، وحتى إذا ما وقعت الحرب بين أنطونيوس وأكثافيوس انتصر الأخير ولم يبق له منازع عندما

---

(177) راجع قطف الزهور في تاريخ الدهور ليوحنا أبكاريوس 334 ـ35 ط 1873 ثم التاريخ العام المصدر السابق 156 ـ 157 ـ 163 ـ 164.

(178) م. ع ص 246 و تاريخ الدهور 338 – 39.

(179) م.ع 1552 .

انتحر أنطونيوس في مصر وأصبح أكثافيوس يعرف بـ «أوغسطس»(180) الموقر لقبه المجلس الأعلى «باترباثريا» أي «أبووطنه» ومن ذلك الوقت تحولت الجمهورية الرومانية إلى ملكية ، وقد كان أوغسطس بحق من أحسن ملوك الرومان خلقا ، وعملا صالحا للشعب ، بل في عهده الذي عرف السلم زمنا طويلا إلى درجة أن أبواب هيكل جانوس في روما أغلقت وقد كان قبل دائم الانفتاح لأنه مادامت الحرب لا تغلق أبوابه .

بل في عهد اغسطس ووزيره ماسيناس ازدهر كثير من أنواع المعارف و الفنون ، حيث ظهر كثير من الشعراء المشهورين : فيرجيل 70–19 ق م ، وهوراس 65 ق م، وأوفيد 43ق م 18ق م وغيرهم ، وذلك رغم أنه لم يعش غير ست وأربعين سنة إذ توفي عام14 ق.م

وفي عهده توحد المغرب تحت سلطة باخوس الثاني بعد موت أخيه بوغود الذي كان قد انضم إلى مرقس انطونيوس ثم مات في الحرب المشار إليها قبل بين اليونان والرومانيين ، بل في عهده كذلك ظهر جوبا الأول الذي قاوم أيضا سلطان الرومان ، ولما انتصر عليه أوغسطس أخذ ولده جوبا الثاني الذي أنشأه في روما وعلمه ، وقد دام حكمه لمدة خمسين سنة كانت من أحسن ما عرف المغاربة إلى أن توفي عام 40 ب م وكان من مواليد 25 ق م وسنرى بعد كيف يتزوج كليوباطرا الثانية ابنة أنطونيو وكليوبطرا ، ومهما يكن فقد قال المؤرخ مريفال يقول صاحب تاريخ العالم فقرة 394 ص 166 – 67 «إن تأسيس الإمبراطورية الرومانية بعد كل ماجرى كان أعظم الأعمال السياسية التي أتمها بشر، فأعمال أسكندر الكبير ، وقيصر وشارلمان ونابليون ليست شيئا يذكر بالنسبة إليه حتى أطلق على عهده العصر الذهبي بالنسبة للعلوم و المعارف ، ففي عهده نظم فرجيل شعره الخالدة «إنياد » ونظم هوراس قصائده المشهورة « إودس » و ألف ليبقى تاريخه الممتاز ، وألف أو قيد تأليفه الخيالي « متاموفوسس» وكان لإثنين التفوق الكبير وهما بروسيوس 34 – 62 ب م وجوڤينل «نحو 4 – 120ب م» وبعد جوڤينل لم ينجب الرومانيون ولا شاعرا واحدا ممتازا. وليس هذا فحسب بل الصناعات و الفنون والعمران والهياكل و الملاعب والأروقة والحمامات وقنوات الماء إلى درجة أن أغسطس قال مفتخرا «وجدت روما مدينة الآجر وتركتها من المرمر» راجع فقرات 394 – 99 التاريخ العام 166–99 مصدر سابق .

---

(180) م.ع ص 175 و التاريخ العام فقرة 390 ـ 94 ص 165.

الفصل العشرون

المغاربة و البربر في عهد المسيحية

من ماسينيسا ويوغورطة إلى القديس اوغسطين

وفي غير جانب السياسة كذلك، وفي هذا العهد أيضا عرف مغاربة آخرون وقت ظهور المسيحية وانتصارها و الذي هيأ لهم الجو بعدما كانت هذه الإمبراطورية على وشك الانهيار هو أوكتافيوس بطل معركة أكتيوم – وهو أوغسطس قيصر 31 ق م إلى 14 ب م والذي بمجهوده أمكن أن يمتد عمر الإمبراطورية الرومانية بعد ، بل قيل في حق ما قام به أن أعمال أسكندر الكبير وقيصر وشارلمان ونابليون ليست شيئا يذكر بجانب ما قام به أوغسطس الذي تبناه خال أمه يوليوس قيصر وجعله وريثه(181)، وبحق يعتبر أكتافيوس إمبراطور السلام لأن في عهده ولد سيدنا عيسى عليه السلام ، ومن العجائب بل المعجزات التي سجلها التاريخ أن هيكل جانوس إله الحرب لم يفتح مدة حكم أكتافيوس أو الامبراطور أوغسطس إلا 3 مرات وما كادت أيامه تنتهي ويتولى مكانه طيباريوس من سنة 14 إلى 37 م ، حتى ظهرت الفتن التي تزعمها بنو إسرائيل ضد سيدنا عيسى عليه السلام الذي كان ببيت لحم التي كانت تحت حكم الوالي الروماني بيلاطيس النبطي ، وبعد طيباريوس تولى كاليوغولا المشار إليه قبل من 37 إلى 41م ، ثم كلودوس 41–54م ثم ابن الأرملة نيرون 54–68م وهو الذي قتل بولس، وبطرس، من الحواريين ثم قتل مرقس الأنجيلي بالاسكندرية، و القديس مرقس ، ثم قتل أمه و أخاه وزوجته ومعلمه الفيلسوف سينيكا وأحرق جانبا كبيرا من مدينة روما بعد حكم عشر سنين، فحكم عليه مجلس السناتو بالخيانة و الموت ، لكنه انتحر قبل أن ينفذ فيه الحكم،

---

(181) راجع الموسوعة العربية 175 ، ومعالم تاريخ الإنسانية لولز . وقصة الحضارة لولديورانت . وقطف الزهور في تاريخ الدهور. ص 341 – 65 ط 1873 .

وقيل قطع إربا بسيوف جنوده وألقي إلى الكلاب، ثم تولى بعده ثلاثة في سنتين هم غلبا، وأوتون ثم بعدهما فينيلوس، وتولى بعدهم فسباسيانوس 69–79م، وفي زمنه عرف اليهود وهيكلهم ما عرفوه زمن نبوخذ نصر ، بل قتل منهم ما يربو على المليون وكانت مدة حكمه عشر سنوات ، ثم خلفه ابنه تيطس الذي لم يحكم غير 3 سنوات 79–81م حرقت فيها روما كما حصل في عهد نيرون ، ثم تولى بعده أخوه دوميتيانوس 81–96، و كانت أيامه اغتيالات واغتصابا للممتلكات ثم اضطهادا للكنيسة وهو الاضطهاد الثاني . تولى بعده الملوك الخمسة الصالحون الشيخ المسن ترفا الذي حكم 16 سنة 69– 98م، ثم تراجان 98-117م وهو إسباني الأصل وفي عهده عرفت الامبراطورية الرومانية من التوسع مالم تعرفه قبل ، حيث أصبح حكمها يمتد من أثر الدولة الأشورية وإرمينية إلى كل حوض الأبيض المتوسط ، كما حكمت ما يعرف الآن بريطانيا ، وإرلاندا، وفرنسا، وبلجيكا، وإسبانيا، والبرتغال و إيطاليا ، ويوغوسلافيا، و النمسا، واليونان، ورومانيا، وبلغاريا، وتركيا ، وسوريا ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، ومصر وشمال إفريقية(182). وبعد الإسباني تراجان 98–117م تولى هدريان 117–138م وهو الذي قمع ثورة اليهود 132–135م وصفى منهم نحو نصف المليون ثم حرم وجودهم بفلسطين ، حيث كان آخر عهدهم بها ، ومثل ذلك فعل مع الدوارين ، وببقايا المتأثرين بالمانوية ، وغيرهم من المسيحيين الذين تعلقوا بروح المسيحية واستنكروا ظلم الرومان خصوصا عندما أصبحت الكنيسة تزاحم سلطان الدولة بما أصبح لها من نفوذ وما انتشر لها من سلطات ، حيثما وجدت الكنائس التي انتشرت، وتعددت سواء في تونس حيث كانت الكثرة الكثيرة أو في نوميديا وموريطانيا القيصرية .

أما في المغرب الأقصى موريطانيا الطنجية ، فإن التأثير كان ضئيلا. إلى درجة لا

---

(182) لقد اثبتنا مناطق حكم الامبراطورية الرومانية لنتعرف أنها أولا لم تحكم بلاد العرب ، حيث سيظهر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم و الذي سيكون الدين الذي جاء به أكبر عامل على تمزيق هذه الامبراطورية و أختها الفارسية مما يعد بحق أهم ظاهرة في تاريخ الإنسانية ، حقا لقد شرعت روما كثيرا من القوانين التي قيل إنها أسهمت في حضارة الإنسان وهي بالنسبة لأوربا التي عاشت في ظروف الكلت و التوتون يمكنها القول بذلك لكنها رغم ذلك لم تستطع الخلاص من فكرة الرقية والاقطاع المخلين بكرامة الإنسان الذي لم يكن أصلا رومانيا رغم قانون كاراكالا 188–217م.

تذكر، ومع ذلك نجد بعض الفرنسيين أيام الغزو الاستعماري منذ أواخر القرن19، يبالغون في كتاباتهم حول المغرب وتاريخه القديم الذي كانوا يربطونه بما عرف للمسيحية من انتشار في العهد الروماني ، وليس لهم من حجة على ذلك غير هيامهم بمؤثرات البيئة المسيحية الكاثوليكية التي تحمست إلى درجة الهيجان ضد الإسلام في الجزائر ، والتي غيرت المساجد فيها إلى كنائس ، كما بدأ رهبانها محاولاتهم الضالة لتنصير المسلمين كرها، وفي المغرب إرضاء لصيحة دوفوكو عمل اليوطي بالنفوذ والقوة، وتيراس وغيره بالتعليم والتوجيه تارة وبالتشريع أخرى كما سنرى حين كلامنا عن الظهير البربري، بل جل ما يتعلق بالمغرب وأحواله الماضية اجتماعيا، افترض لها الفرنسيون افتراضات كلها مستمدة من دراستهم لتاريخ الرومان وأماكن أخرى طبقوها على المغرب، بل نجدهم أحيانا يبالغون في ذلك إلى حد الإسفاف، فمثلا أورد صاحب "المغرب عبر التاريخ ص 73 ط 1965 " أن مؤرخا أسماه "بلين" قال عن مدينة سلا أنها أخذت اسمها من نهر أبي رقراق الذي كان يدعى بسلا ثم زاد من المحتمل أن يكون العكس إلخ وبذلك كان المؤرخ المغربي المستجد مقتديا بهذا الأجنبي البعيد كل العبد عن مصادر تاريخ المغرب، في حين أن الحميري صاحب الروض المعطار في أخبار الديار أورد ما يشفي حول مدينة سلا «ج2/22 مخطوط خاص.

وهكذا لا يمكننا متابعة تاريخ الدولة الرومانية التي انقسمت بعد ما عرفت الفوضى ثم تخلصت منها بانتصارها للديانة المسيحية زمن يوليان 363 ـ 376 م ثم انقسمت سنة 395 في عهدثيوديسوس الكبير إلى قسمين، شرقية وغربية، ثم انقسمت إلى ممالك أوربية بعد حروب التوتون بقيادة أتلا 451 م، ورغم انكساره في موقعة شالون وانتصار الألمان الذين أصبحوا يديرون مستقبل أوربا، عاد أتلا ثانية453 م يهدد روما التي انفلتت بشفاعة "الباباليون"، لكنها لم تنج إلا لتقع في قبضة الوندالين سنة 455م الذين أغاروا عليها من شمال إفريقية بزعامة "غيسرق" الذي قبل بدوره شفاعة "الباباليون" في الأرواح لا في الممتلكات، وهكذا عمل الونداليون للقضاء على الوجود الروماني لا في شمال إفريقية بل في فرنسا وإسبانيا اللتين أصبحتا في يد الفرنكة والقوط.

ولقد عرفت شمال إفريقية شرقا زمن الرومان المسيحيين معاملة أحسن في الفترة

التي ظهر فيها القديس أوغسطين 353 ـ420 زمن أواخر عهدالإمبراطور قسطنطين الكبير 288 ـ337م الذي كان قد اعتنق المسيحية والذي جمع مجمع نيقة المسكوني سنة 325م كوضع حد للمناظرة التي كانت بين الأريوسيين والأثناسيوسيين عن طبيعة المسيح التي تعرض لها الأريوسيين، في ذلك العهد من الانفتاح ظهر صاحبنا أوغسطين المغربي صاحب الكتب العجيبة التي ألفها باللغة اللاتينية قبل اعتناقه الديانة المسيحية وبعدها(183).

ومهما يكن فإن الطفرة التي عرف بها أوغسطين لا نجد لها شبيها في عموم

---

(183) عرف القديس اوغسطين ابن القديسة منكا الذي بدأ دراسته في مدرسة مدورا ثم قرطاجنة بالنبوغ مبكرا وتقلبات جد قذرة ما دام قد وجد في قرطاجنة "بالوعة الأقذار" وقد عرف بكتبه التي منها الإعترافات الذي قيل إنه شبيه بالمنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي،بل والذي قيل إنه يمتاز بقوة الأسلوب ودقة التحليل النفساني وعمق النظرة الفلسفية، ومثل هذا قيل في كتابه " مدينة الله" الذي هو عبارة عن تحليل ديني للمجتمع والتاريخ، وهذا مع العلم أن والده لم يكن على دين النصرانية بل كان وثنيا، بل إن اوغسطين نفسه لم يعتنق النصرانية إلا في العقد الرابع من عمره، ومع ذلك تميزت كتاباته بالبحث عن الحقيقة، مما جعل منه إماما من أيمة المسيحية وعلما من أعلام تاريخ الإنسانية، ذلك أنه اكتشف أساليب في البحث لم تكن وقتها معروفة ولا مستعملة عند أتباع الكنيسة مثل وجود العقل حتى في حالة الشك فالشك نفسه هو تفكير عقلي، ووجود العقل في الإنسان دليل على وجود الله. وإلا فأين تأتي للعقل مقاييسه التي يميز بها بين الحق والباطل إنها بالطبع لم تأت من العالم الطبيعي عن طريق الحواس لأن المعرفة الحسية كلها موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيها، راجع إعترافات اغسطين وإنتاجه في مختلف دوائر المعارف والموسوعة العربية وبالأخص موسوعة تراث الإنسانية بإشراف أستاذنا الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة المجلد 2 ص 645 ـ 666 ط بدون تاريخ ثم قصة الحضارة ول ديورانت 1/4/132 ـ136 ـ 152.

لكن كيف تأتى لأوغسطين أن يصبح ذلك العملاق في التاريخ؟ هل كان عصره عصر علم بالمعنى المقصود؟ هل كانت البيئة التي وجد بها صالحة؟ وقد قيل إن بعضهم وصف إفريقية في ذلك الوقت وبعده بقليل بأنها " بالوعة أقذار العالم" وأن قرطاجنة "بالوعة أقذار إفريقية" وإذا راجعنا اعترافات اوغسطين التي نص فيهاعلى ما كان عليه وأقرانه من التفاخر بالرذيلة وأنه أنتج من خليلته وهو في سن الثامنة عشرة من عمره ولدا لقبه ابن الخطيئة لكنه أطلق عليه بعد أديوداتوس "عطية الله " وقد أحبه أيضا حبا شديدا.

لم يكن جو شمال إفريقية هو الذي مكن أوغسطين من تلك الروح العالية وإنما كان المصدر أولا هو أمه العظيمة القديسة منكا التي لم تيأس منه رغم فراره عنها إلى روما حيث التحقت به بعدما رحل إليها وهو في سن التاسعة عشر من العمر وهنا نقف قليلا ثم نرجع إلى الناحية الشرقية لنتعرف على المسيحية وما كانت عليه بمصر وليبيا.

حقا إن القديس مرقس أحد حواريي سيدنا عيسى عليه السلام هو من أصل ليبي، وهو الذي جاء بالدين المسيحي إلى مصر التي منها ذاع وانتشر بواسطة الإنجيل الذي كتبه هذا الرجل العظيم وتعزز بإقبال بطرس على مصر كذلك حتى أصبحت الملجأ الحامي للعائلة المقدسة من ظلم هيرود المستبد فكان من آثار ذلك أن عرفت مسيحية المصريين أمثال «أثناسيوس» عام 326 حين خلف البطريرك إسكندر، وأثناسيوس هو الذي أرسى قواعد =

اثر المسيحية والقديس أغسطين

تاريخ البربر بل لا نجد أثرا للإنفتاح الذي ظهر في عهد قسطنطين الأكبر(184) بل ولا تأثيرا في قبائل البربر، إلا ما كان من المسيحية في شرق شمال إفريقية وساحلها وحتى إذا كان ثمة أثر فإن الذين كانوا من سكان المغرب الأقصى لم يكن لمجتمعهم منه نصيب مهم، حقا لقد عرفت الجهات الشرقية إبتداء من قرينة ، وسرت، ومصراتة، واجدابية، وترشيش، قرطاجنة وما حولها وتبسة وشرشال، ثم لكوس ووليلي، وطنجة، وغيرها

= المذهب الأرتونوكسي في مصر والذي مكن «ديوسكورس» بطل ما بعد مؤتمر مجمع كاليدونيا عام451م حول طبيعة المسيح إلخ حيث كان للكنيسة المصرية رأيها القائل بـ«حلول الاله في الرجل» خلافا للكنيسة البيزنطية التي تقول بطبيعتين للمسيح : رجل وإله«؟» الأول الذي دفع مجمع كاليدونيا إلى تحرير صك بحرمان ديوسكورس. أرسله الامبراطور ثيودوسيوس إلى نائبه الملك في مصر وفيه يقول :«إذا لم يوافق البطريرك المصري على قرارات مجمع كاليدونيا فليخرج من المدينة وإذا وافق نجعله بطريركا وحاكما في نفس الوقت، لكنه لم يوافق وخرج من المدينة حافيا يطلب الفلاة وعين الامبراطور مكانه نائبا لبطريركا بيزنطة هو «أوب ليناروس» لكنه لم يدخل الكنيسة إلا على جثث الضحايا الأمر الذي نفر الشعب، فاصدرت الكنيسة المصرية القانون المعروف بـ«قانون الإيمان» وطال زمن اللامشروعية حيث امتدت سلطة البطريرك الملكاني زمن غير قصير، وفي سنة 623م ظهر البطريرك بنيامين الذي حل مكان «توروتيكوس وفي هذا التاريخ ظهر الغزو الفارسي الذي لم ينل من الكنيسة الارتونوكسية بقدر ما مزق البيزنطيين في مصر. وكان إمبراطور الروم وقتها هرقل الذي جهز في أول هذا العهد وجد أوغسطين، وإذا هو أصبح يعلم البلاغة قبل في قرطاجنة فإنه في روما وميلان التي وجد بها عام383م أخذ يتعرف على كتب أفلاطون وأفلوطين فكانت فلسفتها سبيله إلى المسيحية التي استجاب لمناديه بها حين قرأ ما أمره بقراءته "خذ واقرأ خذ واقرأ" وكانت المانوية قد عرفت الطريق إلى عقله، لكنه لما فتح رسائل بولس وجد أمامه الاية 14 من الاصحاح 13 وهي: لا بالبصر والسكر، لا بالضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تضعوا تدبيرا للحسد لأجل الشهوات، وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد في مشاعر أوغسطين وأفكاره ومثله صديقه أليبيوس، الأمر الذي أثلج صدر أمه منكا صاحبة الفضل عليه، والتي تمت سعادتها بتعميده وصديق اليبيوس وأديوداتس في عيد الفصح 4/24 من سنة 387م وإذا هو وصديقه عادا إلى إفريقية فإنهم وقد تجردوا من التعلق بالمادة فأسسوا ما عرف بالطريقة الاوغسطينية سنة 388م لكن في السنة الموالية توفى الصديق أدريداتس الذي حزن عليه أوغسطين حزنا كبيرا اتخذ عزاءه الوحيد في هذا الحزن العميق هو الانقطاع بسوق اعراس للعمل والكتابة التي انتجت ماسبق إلخ.

ذلكم هو أوغسطين العظيم الذي ولد بمنطقة مغربية بربرية هي سوق اهراس أرض نوميديا لكنها كانت عامرة بالبوني والنوميدي، والروماني إن لم نقل ممزوجة بدم يافت وسام وحام، ومهما يكن فأين موقع أفكار ديكارت مما أنتج أوغسطين؟ أسقف هيبو الذي بقي نحو الأربعين سنة ينتج مالا يزال الآن موضع إعجاب الناس وسيبقى أعظم ديمقراطي أنتجته المسيحية حين انتصرت روما لأفكاره ضد الأفكار التي سادت بعد إجتماع قساوسة الكاثوليك 286 والدوناتيون قبلهم 286 ثم انتصر الأولون مما أدى بمندوب روما هونوريوس إلى الأمر بالإغلاق وتحويلها إلى سلطة الكاثوليك مما نتج عنه ما أدى إلى العنف الذي راح ضحيته أسقف هيبو وستتيوتوس، كما قيل أنهم بتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين، ومع ذلك كتب هذا الأخير يطلب أن إقناع الآخرين يجب أن يكون بالعلم والحجة لابالقوة والعنف، راجع رسالة سان أوغسطين إلى الكونت بونيفاس وقد أوردها الكونت هنري دوكاستري في كتابه الإسلام خواطر وسوانح "ص 137 ـ 140".

من المدن التي لم تكن قريبة من تجمع القبائل عرفت نشاطات علمية وثقافات أسهمت في تكوين بعض أبناء البربر وغيرهم من الذين أمكنهم الامتزاج والمصاهرة ثم الإنسلاخ من البربرية نهائيا. وهذا لا يعني تأثر المجتمع بل هو قاصر على قلة ربما لم يعد لها ارتباط إجتماعي مع أصولها إلا شكليا. كما هو الشأن في عهد الإستعمار الفرنسي حيث عرفنا بعض الكتاب بالفرنسية في عهدنا الذي نحياه يتفرنسون ولا اعتبار لهم بين الجميع.

وإذا علمنا أن من أسباب عدم تأثرالبربر كمجتمع بشيء من العلوم والمعارف، هو ما كانت عليه القبائل من عدم الإستقرار سواء بالنسبة للحروب التي كانت دائمة بينهامن جانب، وفيما بينها وبين الحكام الأجانب من جانب آخر، الأمر الذي تركها إلى زمن الفتح الإسلامي، وهو رأي قال به إبن خلدون نفسه(185)، وهو ما أقرته الحفريات والتاريخ المعاصر للسابقين، بل إن حكم الرومان وقناصلهم في شمال إفريقية باستثناء الفترة المشار إليها وربما بعدها بقليل، تلك التي أنتجت أوغسطين وربما جماعات أخرى في مجال غير العلم وهو مجال الوعي والتذمر السياسي خصوصا في الطبقة العسكرية، بإستثناء هذا لم يعرف المغاربة من حكم الرومان غير الشدة والعنف والظلم والفساد، خصوصا ظروف الأزمات التي عرفها حكم الرومان وهي كثيرة ومستمرة والتي كانت الدولة تلجأ فيها إلى انتزاع الأراضي وإثقال كاهل الأقاليم الواقعة تحت سلطانها بالضرائب وكثرة الجبايات التي كانت تستخلص بالعنف،وكانت شعوب الإمبراطورية غربا أكثر تعرضا للشدة القاسية والعنف العنيف، خصوصا شعوب شمال إفريقية في الأزمنة الأخيرة للإمبراطورية، فاختل بذلك نظام السلطة في مجموع البلاد من الشرق إلى الغرب، واشتد تذمر المواطنين لدرجة أصبحوا يتمنون معها الخلاص مهما كان المصدر

---

(184) لقد استعان هذا الإمبراطور العظيم على تنظيم إدارة الحكم للامبراطورية بتقسيمها إلى أربعة أقسام سميت ولايات وقسم الولايات الى ثلاثة عشر عمالة، والعمالة إلي مائة وستة عشر قضاء، وهو الذي بنى مدينة البوسفور التي سميت بعد القسطنطينية. راجع دار صناي في كتاب النبوات ص 201 ط 1951 وول ديورانت، وولز..

(185) راجع العبر 212/6، ولقد عرفت الديانة المسيحية انتشارا في مختلف إيالات الإمبراطورية الرومانية حين اعتنقها قسطنطين الأكبر، إلا في المغرب، ذلك لوأنها انتشرت في غير الساحل لكان لأثرها وجود، والتاريخ لم يسجل في المغرب حوادث من ذلك النوع الذي عرفته مختلف الشعوب التي عرفت المسيحية بإستثناء شرق نوميديا وما حول قرطاجنة، إلى تريبولي ثم قرينة بليبيا.

ومهما بلغ الثمن، واتخذ في هذا الرجاء شعور الوثنيين والمسيحيين خصوصا الدوناتيين الذين عمهم الاضطهاد بتفرق أمر الكنيسة الذي أدى إلى ارتداد كثير من البربر الذين أمكنهم دخول النصرانية قبل، إما بحكم وجودهم في المحيط، أو الذين آمنوا عن رغبة واقتناع، بل في هذه المرحلة زالت سلطة الملوك البربر وحلت محلها سلطة الشيوخ، بحيث أصبح كبير القبيلة وشيخها المختار، يعلن السلم والحرب، وهو المسؤول عن حماية قومه بجمع شملهم وقيادتهم لحماية أنفسهم، وكل من توفرت فيه الشروط التي كانت تستهوي القبيلة يتقدم الصفوف، حتى ولو كان امرأة كما سنرى بعد زمن الفتح العربي الإسلامي، وفي هذا الوضع ظهرت علامات نهاية الرومان وظهور حكم الوندالين بشمال إفريقية وغيرها.

الفصل الواحد والعشرون
المغاربة والوندال

في سنة 386 م عرفت إفريقية قائدا بربريا هو "فيرموس" الذي عين بها من طرف الإمبراطور، ودامت قيادته مدة إثنى عشر عاما دفع أثناءها ما عرفته بلاده وقومه من ظلم روما وغطرسة حكامها، وبذلك كان له أثره في توجيه الضربة لروما في الوقت المناسب، إلى جانب ما حققته الكنيسة من تقدم في مجال الوعي والتحرير كما سنرى بعد.

كان الوندال قد عبروا نهر الرين سنة406 م وعثوا فسادا في بلاد مختلفة، إلى أن وصلوا إسبانيا التي ضاقت ذرعا بالرومان وأصبح واضحا عند ما اشتدت وطأة الرومانيين على المغاربة في عهد الإمبراطور الطفل "فالينتيان الثالث" 419 ـ 455 والذي لم يكن قد جاوز"أربع سنوات" وقتها أخذت الإمبراطورية تلتقط أنفاسها كما حصل في أوربا حسب إشارتنا السابقة، ولم تفد تدبيرات حاكم إفريقية الروماني بونيفاس سنة427م ولا قيادته في حالة عصيان للجيوش الرومانية الغازية مدة سنة ونصف، بل دحره الشاب الأعرج القصير جنسريك(185) (390 ـ 477 م) ملك الوندال بإسبانيا) الذي خلف أخاه الملك جوندريك424م، ثم هو عرف كيف يستعمل ضعف الرومان وأزماتهم بحق، حين أبحر من جزيرة طريف وبوليا ترادوكتا سنة429 م في جيش قوامه خمسون ألف جندي، نشر الرعب في عموم ساحل أقطار شمال إفريقية التي كان تعداد سكانها يبلغ 8 ملايين، انضم منها الكثير من السكان ضد بونيفاس وطغيان دولته الخارج عنها، حيث اتخذ

(185) هناك رواية تقول أنه استنجد به وقد فندتها الموسوعة العربية ص 1968 ويبدي ديورانت في قصة الحضارة نفس الشك بقوله : إذا جاز لنا أن نصدق راجع ج 1 م 4/ ص78 وعنده أن القصة لا تعتمد مصدرا موثوقا به.

مدينة بونة "عنابة" عاصمة حتى اضطر الرومان بعدها إلى عقد هدنة مع الوندال سنة435م، وأصبح للوندال بمقتضاه حق الاستيطان بالمغرب ليستولوا بعد أربع سنوات على قرطاجنة، وذلك بواسطة أبناء البربر الذين استمالوهم بلطف ومجاملة، بإثارة حقدهم على الرومان وسلطتهم المركزية التي شرعت من القوانين ما كان سببا في انتزاع أراضيهم، والتي عادوا فملكوهم إياها، وذلك حتى يضايقوا الإمبراطور الطفل فالينتيان الثالث الذي لم يكن له سلطان، وإنما كان لأمه الوصية عليه ثم للقائد القوى أريتيوس من433 إلى454 م. الأمر الذي خلق الفوضى في ربوع الإمبراطورية ومنها شمال إفريقية، فاستولى الونداليون على قرطاجنة سنة439م، وسيطروا على معظم ولاية إفريقية وانقضت مراكبهم على غيرها من السفن في البحر المتوسط، ووجهوا حملات للنهب إلى صقلية وجنوب إيطاليا، وفي سنة 442م اعترف "فلنتينيان الثالث" بجنيسريك حاكما مستقلا، وقد ساعده ما كانت تعانيه الإمبراطورية من تمزيق وانتفاضات ضد الإنحلال الذي دب زمن الإمبراطور الطفل، فنظم "جنسريك" البلاد وأنشأ بها إدارة لم تكن من قبل، وجعل منها دولة ذات ثراء كما أنشأ أسطولا غار به على إيطاليا وغيرها، وذهب "فالنتينيان الثالث" ليحل محله سنة 455م وفي السنة التالية تم للوندال نهائيا حكم المغرب كما استطاع جنسريك أن يهاجم روما وينهبها، وأخذت الإمبراطورة إيدوكسيا وابنتها رهينتين، والتي إعتدى على شرفها رجال التشريفات إلى أن بعث بخاتمها لئلا تستنجد به، ولم تغادر جيوش جنسريك روما إلا بعد أربعة عشر يوما من العبث، كما استولى على سردانيا وكورسيكا سنة 469م ، وبذلك تم له الإعتراف من الإمبراطورية الغربية التي أصبحت سيادته كاملة على ممتلكاتها، كما اعترف به زينون 474 ـ 491م إمبراطورا لقسطنطينية كرها بعد صلح سنة476م، وإذا ما كان مذهب الوندالين المسيحيين هو مذهب الأريوسيين، فإنهم انشغلوا بحربهم مع الأرثوذوكسيين الذين جند جنسريك ضدهم أفظع وأشد الحملات التي لم تنقطع زمن جنسريك وولده هونيريك، إلا بموت الأب سنة 477 م تاركا دولة الوندال بعد انقسام دولة الرومان في أعلى درجات سلطانها يقودها ولده هونيريك الذي دام حكمه سبع سنوات 477 ـ 484م، تعرض بعدها لحروب قاسية أثارها عليه الكاثولكيون الذين قبض على خمسة آلاف من رهبانهم شردهم في الصحراء

سنة483م، وبعد هونيريك حل محله كونطامون الذي حكم من484 إلى496م والذي لم يوفق في علاقته بالمغاربة الذين ساعدوه أملا منهم فيه، بل حكمهم بالحديد والنار، فعمت الثورات إلى أن حل محله ترازامون496م الذي لم يخرج عن نهج هونيريك مدة حكمه التي انتهت بموته523م، ليحل محله هيلدريك 530 ـ534م وهو ابن هونيريك الذي اعتقل من طرف الثوار المغاربة بتدبير من "جلبير" الذي يسميه البعض "غيلمير" الذي خلع بعدما انهزم أمام ثوار البربر لتحل محله سلطة الروم البزنطيين من جديد، وفي هذه المرة اضطربت أحوال الوندال الذين قدموا جلبير وصيا على هلدريك، فخلع الأول الثاني وأدخل هيلدريك السجن وهو حفيد جنيسريك، واستنجد السجين بالإمبراطور "جاستينيان الأول" 527ـ565م، الذي لم تفد تدخلاته ولا الحروب التي انتهت بإحتلال قرطاجنة من طرف جيوشه، بل ولا مصاهرته لملك القوط الشرقيين، وبذلك انتهى حكم الوندال ليحل محله موقتا حكم البزنطيين المهلهل، والذين اتخذوا أيضا مدينة قرطاجنة عاصمة لهم بعد الحروب الأهلية التي عرفتها روما سنة532 م، والتي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألفا بقيادة القائد الشهير بليشار، مما دفع "جاستينيان" للتركيز ضد حكام شمال إفريقية حين أرسل حملة عاتية ضدهم سنة533م كانت السبب في القضاء على جيلبير وجنسريك وبهما انتهى حكم الوندال بشمال إفريقية على يد جاستينيان الذي استطاع أن يستعيد معظم إيطاليا من القوط، كما استرد جنوب إسبانيا، وهو الذي بنى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية، وأسس جامعة ثم جمع القوانين، لكن هذه الإمبراطورية المجددة سرعان ما إنهارت بموته، أو كما قال ولز كما تنهار «متانة» نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس(186) .لكن ماذا عن البزنطيين في المغرب وقبل أن تنتهي الإمبراطورية الى ذلك المصير الذي انقسمت بعده الى دول.

---

(186) راجع معالم تاريخ الإنسانية 3/729.

الفصل الثاني والعشرون

البزنطيون (187) والمغاربة

لقد كان البزنطيون أقل مراسا من سابقيهم بالنسبة لشمال إفريقية عندما هاجمتها جيوش جاستنيان بقيادة بليساريوس سنة535 م، وبذلك لم يستطيعوا بسط نفوذهم على المغرب بالشكل الذي تم في النواحي القريبة من قرطاجنة وعنابة عاصمة نوميديا، والتي بدورها عرفت ثورات مستمرة لم تنقطع إلى أن ظهرت طلائع الفتح العربي الإسلامي كما سنرى، ذلك أنه منذ عهد سالمون ثم سرجيوس، الذي غدر بأربعمائة من زعماء لواتة ثم قتلهم جميعا، ذلك الغدر الذي دفع لظهور زعماء جدد من الأوراس وليبيا قادوا ثورات أعنف سنة543م بقيادة انطالاس الذي استولى على نوميديا بمساعدة أريوبندوس، وحتى لما قضي على أنطلاس 548م لم يقف الزحف الذي زاده انطلاقا موت جاستنيان 565 م ليحل محله جوستين الى سنة 578م،بل عم التمرد والعصيان كل بلاد المغرب، إلى درجة فقدت معها الإدارة سلطانها، فلم تعد جباية الضرائب، ولم يبق استقرار، وإذا تكرر الغدر بإسم المفاوضات سنة 596م والتي لم تكن وإنما كان التدبير لاغتيال زعماء البربر من طرف الحاكم بإفريقية جناديوس، فإن النار قد زاد لهيبها وعمت الفتنة والتذمر وروح الثورة، حتى إنتهت الى الجيش البزنطي نفسه وتمرد قادته في مختلف الجهات، وانتهى الأمر بشمال إفريقيا إلى الإستقلال بعد، بل كان النزاع بين الشرق والغرب يمزق الدولة البزنطية كما تمزقها الإنقسامات في الداخل، ويهاجمها المتذمرون في كل مكان فقد كان الأڤار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضي الإمبراطورية وبلدانها، وكان الفرس يستعدون لاجتياز آسيا الغربية، واستولى

(187) راجع ولديورانت ج 3م 4/72 ـ 75 153 ـ 181. والتاريخ العام لفيليب فان نس مير الأمريكي مصدر سابق.

الكمبارد بعد ثلاث سنين على موت جاستينيان على نصف إيطاليا سنة568 م، وكان قد فشا الطاعون في جميع أنحاء الإمبراطورية سنة542 م، ثم عاودها سنة566 م وعمتها المجاعة بعد ثلاث سنوات569م وعطلت الحروب والهمجية والفقر وسائل الإتصال، ووقفت في سبيل التجارة، وقامت قوات موريق لاقار بثورة واجهها الرهبان، فانتهى إلى سقوط تزعم بعده ثورة أخرى فوقاس الذي انتصرإليه الجيش وعامة الناس ضد الاشراف والحكومة سنة 612م، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه كما قطع الثوار رأس موريق وعلقوه مع أبنائه الخمسة لتتمتع بها أعين الشعب، وألقيت جثثهم في البحر، وذبحت الامبراطورة قسطنطينية وبناتها الثلاث وكثير من الأشراف، وكان مقتلهم مصحوبا بضروب من التعذيب بعد محاكمة أو غير محاكمة، فسلمت أعينهم واقتلعت ألسنتهم من أفواههم، وبتت أطرافهم(188) وتمزقت دولة البزنطيين شرقا وغربا، بكثرة الحروب التي طالت بينهم وبين الفرس الذين انحازوا شرقا للحميريين بسبب الحرب التي كانت بينهم وبين الأحباش الذين تحالف الروم معهم زمن جاستينياس.

أما في المغرب فإن جريجوار الذي تسميه المصادر العربية جرجير الذي استغل تسامح الإمبراطور الأصغر هرقل610 ـ 641 م الذي تولى بعد لاقار، باستغاثة من سكان العاصمة بوالده المسن، وإذا كان هذا الحاكم جريجوري قد استعمل ما أمكنه من القوة والقهر ضد الشعب المغربي،فإن الوقت كان غير مناسب، خصوصا وأن العاصمة التي اختارها هي طرابلس، كانت وسط البربر، مما جعل الإنتقام منه ومن قواته ميسر، كما سنرى قريبا عندما تظهر قوافل الفتوحات الإسلامية، خصوصا بعدما أعلن نفسه إمبراطورا سنة646 م وسط جحيم من الخلافات الدينية والسياسية.

كانت المنطقة كما كانت أوربا قد تعرضت لموجة عاتية من التوتون الذين كانوا في الماضي القريب من القوط الذين تمزقت مملكتهم وأصبحوا لا يعرفون استقرارا، كما أن النزاعات الدينية مزقت مملكة القوط رغم ما قام به بليساريوس من محاولة الترميم والتمكين لسلطة البيزنطيين في الجنوب من إسبانيا، إلا أن القوط عادوا فاستولوا عليها،

---

(188) راجع ول ديورانت 152/4/3 ـ 153.

لكن هذا البلد بحكم طبيعته الجبلية والموجات التي اجتاحته زمنا غير قصير، أصبح مجتمعه يتكون من خليط لولا اعتناقه المذهب الكاثوليكي واستعماله اللغة القشتالية وهما مظاهر توحيده لما كانت له وحدة قط. ومع ذلك فهي وحدة قابلة للتمزيق في كل وقت، إذا نحن وضعنا في حسابنا ما تثيره قبائل الباسك التي لم تعترف بالروابط التي تربطها بسكان الأقاليم الأخرى والتي ماتزال تسعى للإنفصال حتى اليوم، بل إذا رجعنا إلى ما في المجتمع من فوارق تظهر أكثر في استعمال مديريات إقليم الباسك الغير الإسبانية، وما تعرفه الأقاليم الأخرى من حركات تهدف إلى الإستقلال الذاتي، مثل الأندلس وأراجون واستوريا وقشتالة، ونفار، بشطريها القديم والجديد، واسترامادورا، وغاليسيا، وليون ومورسيا، ونفار، وبلسيا وغيرها : أدركنا أنه في هذه المرحلة لم تكن إسبانيا مؤهلة لتقوم بها دولة قوية كما كانت قبل زمن دولة الرومان، ولا حتى الوندال والبزنطيين، وقد كانت أيام الملك أخيلا ومزاحمه أتانا خيلدو من سنة 554م الى567م حين مات أتاناخيلدو بطليطلة، ثم حل محله ولده بعد سنة 568م وهو الضعيف ليو الذي تعرض(189) لمنازعة إخوته خصوصا منهم ليوفيغيلد الذي شاركه في الحكم سنة 569 م و الذي تغلب على أخيه في حكم أباريه وإذا مامات "ليوفى" سنة 573 واستقل بالملك ليوفيغيلد الذي صاهر سابريانون بابنته تيودور ليخفف من النزاعات التي استحكمت بين الكاثولكيين والأريوسيين، فإنه سرعان ما خرج عليه ولده ثم قتله سنة583 م .

وهكذا كانت حياة المغرب وجيران المغرب في الشمال مدة غير قصيرة من الزمن الى أن حل زمن الفتح الإسلامي وذلك بعد وفاة أرفيلغيو680 ـ 687 ليحل محله أرفيغ وولده غيطشة، بحيث عرفت إسبانيا تدهورا انتهى بما عرف عن لذريق مع يوليان الغماري حاكم سبتة مما لم يقطع فيه التاريخ برأي، رغم أن الرواية المتفوقة نشرا والتي تقول أنه فضحه في عرض ابنته فلوريدا، وأخرى وهي رواية التاريخ العربي تقول إنه قاتل بشدة وعنف. لكن وفاة غيطشة بعد سنة 710 م خلقت الفوضى وقسمت البلاد وعطلت سلطان الدولة ليجدها الفتح الإسلامي على تلك الحال.

---

(189) يقول ديورانت غير هذا ج 1 م 192/4. ثم راجع التاريخ العام مصدرسابق.

هذا في المغرب أما في المشرق فإن البزنطيين انتهوا الى تمزيق بسبب الحروب بينهم وبين الفرس والعرب والتي انتهت بضعف القوتين الكبيرتين، وكان هذا هو التمهيد لظهور القوة الجديدة قوة الإسلام الذي سيجد قوة البيزنطيين في المغرب وما فوقها قد تحطمت،، كما سيجد المغاربة وقد ارتد المسيحيون منهم إلى الوثنية التي حلت محل كل ما كان في المنطقة من خلافات المذاهب المسيحية، كما سنرى بعد أثر ذلك في نفسية المغاربة كلما قدم فاتح بإسم الإسلام ثم عاد إلى المشرق..إلخ.

لكن إذا كان الإسلام وصل المغرب على أيدي العرب بل إذا اختير العرب لرسالة الإسلام فمن هم العرب؟ وما حضارتهم؟ وإذا ما اتفق العلماء على أنه ليس في الإمكان التعرف على أي شعب أو جماعة عن طريق تاريخها فقط، وإنما لابد ليتم ذلك من معرفة الذين كانوا أكثرتأثيرا من غيرهم في الشعب المراد التعرف عليه، ولم يكونوا بالنسبة لشعب المغرب الكبيرغير العرب الذين قدموا مع الإسلام حاملين رسالته، فهم الذين قاموا بنفس الدور الذي أداه الإغريق نحو الروم وما قام به هؤلاء نحو برابرة أوروبا الذين هم الأسبان و الأنجليز و الفرنكة و شعوب البلقان(190) فالعرب الحاملين لرسالة الإسلام هم أساتذة الشعب في المغرب الكبير وإذا من هم العرب؟ أصولهم وفروعهم والرسالة التي حضرت المغاربة و الأسبان كذلك ، بل هم الذين حضروا الشعبين بطريقة ذابت معها حضارة الرومان في غير مجال الزراعة وطرق الري بسرعة هائلة وسريعة خصوصا في مجال العلوم النظرية والموسيقى والشعر والملابس والعمارة والحدائق والأثاث..إلخ.

---

(190) راجع التاريخ العام لفيليب فان نس ص 207 ـ 8 ط 1912 ومعالم تاريخ الإنسانية لولز وقصة الحضارة لول ديورانت.

الباب الرابع
العرب قديما قبل الإسلام

الفصل الثالث والعشرون

العروبة قاسم "مشترك بين الناس جميعا في ظل الإسلام

وكما عرفنا نبي الهدى حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم إنما العربي من يتكلم العربية.حديث شريف.

لكن إذا كان للعرب موطن بين أبناء البشر فما هو هذا الموطن وأين يقع حتى نتعرف عليهم كما تعرفنا على غيرهم من السابقين.

جزيرة العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم يبلغ أكبر أطوالها1400 ميل وأكبرها عرضا 1250 ميل ومساحتها 1.120.000 ميل أو 3.000.000 ك م وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى، وجزء من الإقليم الصحراوي الرملي الذي يمتد إلى صحراء جوبي مخترقا بلاد الفرس.

وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر، ارتفاعا فجائيا إلى 12.000 قدم. ثم تنحدر نحو الشرق انحدرا سهلا في أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج العربي، وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات والقرى ذات النخيل نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار، وتمتد الرمال حول هذه المراكز مآت الأميال في جميع الجهات، ويسقط الثلج في تلك البلاد كل أربعين عاما وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل الى3 درجات، أما شمس النهار فتلفح الوجوه وتغلي الدم في العروق، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهليين إلى لبس الأثواب الطوال وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر، وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم، ويسقط المطر أحيانا قرب شاطيء البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي من بلاد اليمن، موطن الممالك القديمة.

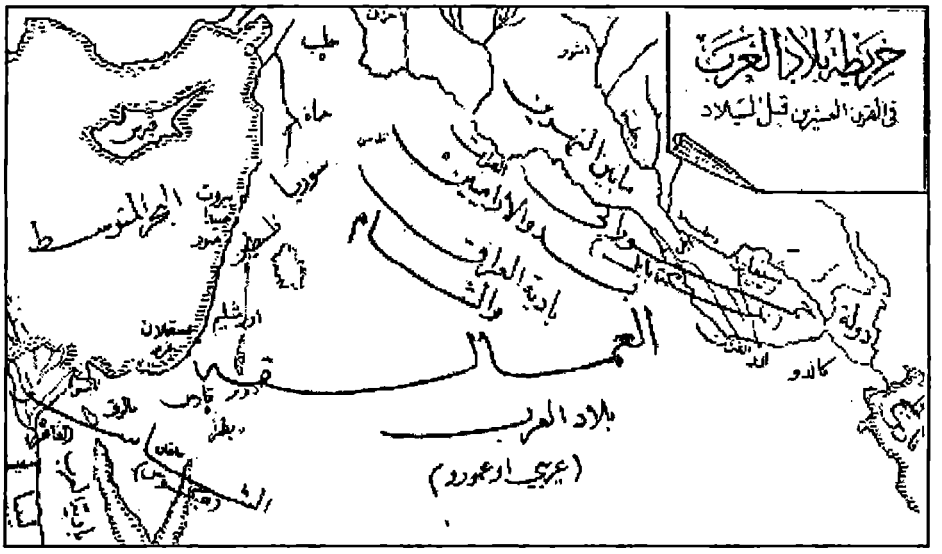

أما علة تسمية العرب، فهم جيل من الناس يسكنون بلاد العرب ويسمون بالعرب و"العرب هذا الجيل لا واحد له من لفظه، وسموا عربا بإسم بلدهم العربات" وعربة بالتحريك هي في الأصل إسم لبلاد العرب كما قال ياقوت : «إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب، سموا عربا بإسم بلدهم العربات"، ولعله أخذ هذا من الحديث النبوي حين أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم من عيرسلمان الفارسي بأصله غير العربي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم. إنما العربي من يتكلم العربية» أو كما ورد في الحديث ... والعربة باحة العرب كما قال أبو تراب إسحاق بن الفرج، وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والعربة النهر الشديد الجرية، وقيل إن لفظة العرب مشتقة من الإعراب وهو البيان، أخذ من قولهم : أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان، وفي الحديث "الثيب تعرب عن نفسها "أي تبين" وعرب البيطار الفرس تعريبا إذا بزغه، وعربت على الرجل إذا رددت عليه قوله، سموا بذلك لأن الغالب عليهم البيان والبلاغة، وإذا نحن استوعبنا جل ما أورده الدارسون للتاريخ القديم نجد الفطاحل منهم أجمعوا على أن العربي أخذ تسميته من

لغته، حيث يقال عربي، كما يقال فارسي، ورومي وهندي، وبلاد العرب كما وردت في أشعارهم وتاريخهم هي : تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن.

وفيما سجل التاريخ عن العرب أنهم أمة سامية أي من نسل سام بن نوح(1) (ع) والشعوب السامية هم العبرانيون، والأشوريون، والفنيقيون، والآراميون، والعرب، والأحباش، وما تفرع من هذه الشعوب كما سنرى في الجدول الآتي بعد، كان موطن العرب المعروف هو شبه الجزيرة التي تحد شرقا ببحر فارس، وغربا البحر الأحمر، وجنوبا الأقيانوس الهندي، وشمالا العراق والشام، فإن هذه الجزيرة قد قسمها القدامى إلى: الحجاز وهو الذي يقع على الشاطيء الغربي شمالا، واليمن جنوبا، وتهامة في الوسط، كما تقع البحرين على الشاطيء الشرقي، شمالا وعمان جنوبا، وعلى الشاطيء الجنوبي تقع الشحر شرقا وعمان جنوبا وفي وسط جزيرة العرب تقع نجد إلى الشمال، واليمامة إلى الجنوب في هذه الحدود عرف الجنس العربي الذي قسمه المؤرخون إلى أقسام نتعرف عليها في الجدول التالي:

(1) راجع تعليق 100 قبل والفصل التاسع الباب الثاني أعلاه، وتاريخ الجنس العربي لمحمد عزة دروزة ج 5/ 9. 58 ط بيروت 1961.

أشهر قبائل العرب (3)

العرب "البائدة" هم : قيل منهم الساميون أبناء لاوذ بن سام والاراميون أبناء أرم إبن سام وهم جرهم وعاد(2)، وثمود(3) ، وطسم، وجديس ومدين، واميم، وعبيل، والمعينيون، والعمالقة، وإياد، وجاسيم، وحضوراء، وحضرموت، وبنو ثابر، ووبار، وعبد ضحم

القحطانية أو اليمنية : أهل حاضرة كان منهم الملوك وهم أهل المدن في العراق، واليمن، والشام، وغيرها. ويعرفون في التوراة ب"يقطان" ومنهم :

حمير و منهم

ومنها قضاعة، وكلب، وعذرة، ونهد، ومن قضاعة، جهينة، بلي، كانت منازلهم بين ينبع ويثرب، وقد غلبوا على بادية مصر وصعيدها أجيالا، ومن قضاعة أيضا : تنوخ وسليح بالحاء وأنمار واياد.

كندة منها السكاك، والسكون، وبنوس، وعاملة، وقادم.

مذحج منها سعد، وخولان ومعافر. "وهي عند البيضاوي مذلج".

كهلال و منهم

طيئ منها : جرم، وجدلية، وغزية، وسدود جشب، وحكم بن سعد لخم منها بنو الدار، وخزاعة، وبارق، وغسان، وعنس، والأشعر

الازد منها : غسان والأوس، والخزرج، وأدد، وبلقيس.

أنمار منها : خثعم، وبجيلة، والنمرة بن وبرة، وسليم، ومهرة.

همذان منها : عذرة، وسلامان، وضنة بن سعد، وجهينة، وفهد بن زيد

المستعربة أو الحجارية أو العدنانية	بدو أهل حل وترحال، لا مدن لهم ولا ملك الى أن ظهر في مضر كما ظهرت رئاسة قريش في نواحي الحجاز رئاسة البيت الحرام بمكة ومنها أي المستعربة. مضر وربيعة وائل:
مضروهي	هوازن بنو سعد،بنو عامر، وثقيف. غطفان : ذبيان، وعبس، وأشجع طابخة : مزينة، وتميم. كنانة : عبد مناف، مالك، وعامر. قريش : تيم وخزيمة.
ربيعة وائل	بكر، عنزة، شيبان، حنيفة تغلب

(2) الأولى والثانية سكنها الأحقاف وهي الآن صحراء يحدها اليمن غربا وحضرموت جنوبا ونجد اليمامة شمالا، وأبار شرقا، وعاد، وعبيل وأبناء عوض بن أرم بن سام بن نوح (ع).

(3) مساكنها الحجر تحدها بالحجاز جنوبا والعربية الصخرية شمالا، وبادية الشام شرقا، والبحر الأحمر غربا، ثمود وجديس أبناء عابر بن أرم بن سام، وطسم وجديس أقامتا في اليمامة ويحدها خليج العرب شرقا ونجد غربا وشمالا، وأبار جنوبا راجع الخرائط التاريخية ص 37ط المعارف مصر 1914م ومروج الذهب باب 38وتاريخ أبي الفداء والموسوعة العربية ص 192اط 1965 ثم التوراة سفر التكوين 10 : 22 ـ 23 والخروج 27-18 وصمويل الأول 15 : 2 و27 :18.

(4) راجع التعليقين السابقين وآداب اللغة العربية ص5ط 1931 وإبن خلدون 505/2 والمحاضرات لليوسي 66ط 1976 وقصة الحضارة ج2م7/4 وفقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي ص 8 - 30ط ع ق 1945 . ولعبد الفتاح عبادة كتاب انتشار الخط العربي ص 115 ط 1915 وكتاب المعين للخوري يوسف مارون ص 6 ط1931 . وقد ارتأينا إيراد هذه الجداول من كتاب المعين في آداب اللغة لأن تاريخ المغرب السياسي سنرى أنه مرتبط منذ الفتح بكل ما يعني مجموعة قبائل العرب وما عرفت به علاقات بعضها في المشرق نقلته إلى المغرب بل إن أقاليم المغرب العربي لتحتفظ بأسماء جل قبائل العرب كما هو الشأن في المشرق العربي عدنانية وقحطانية ثم راجع جولة في ربوع الشرق الأدنى لمحمد ثابت ص 128 ط مصر1936 .

تلك هي أشهر قبائل العرب لكن ما هي لغتها التي تتفاهم بها والتي خلدت آثارها، ما هو المكان الذي تحتله بين لغات البشر وما مميزاتها. ولكي نعرف كل ذلك نستعمل هذا البيان مثل ما فعلناه في ترتيب القبائل، وذلك حتى نتعرف على أنها من اللغات المرتقية التي حق لها أن تكون الوسيلة التي عن جدارة تدون وتحفظ وتنشئ الحضارة.

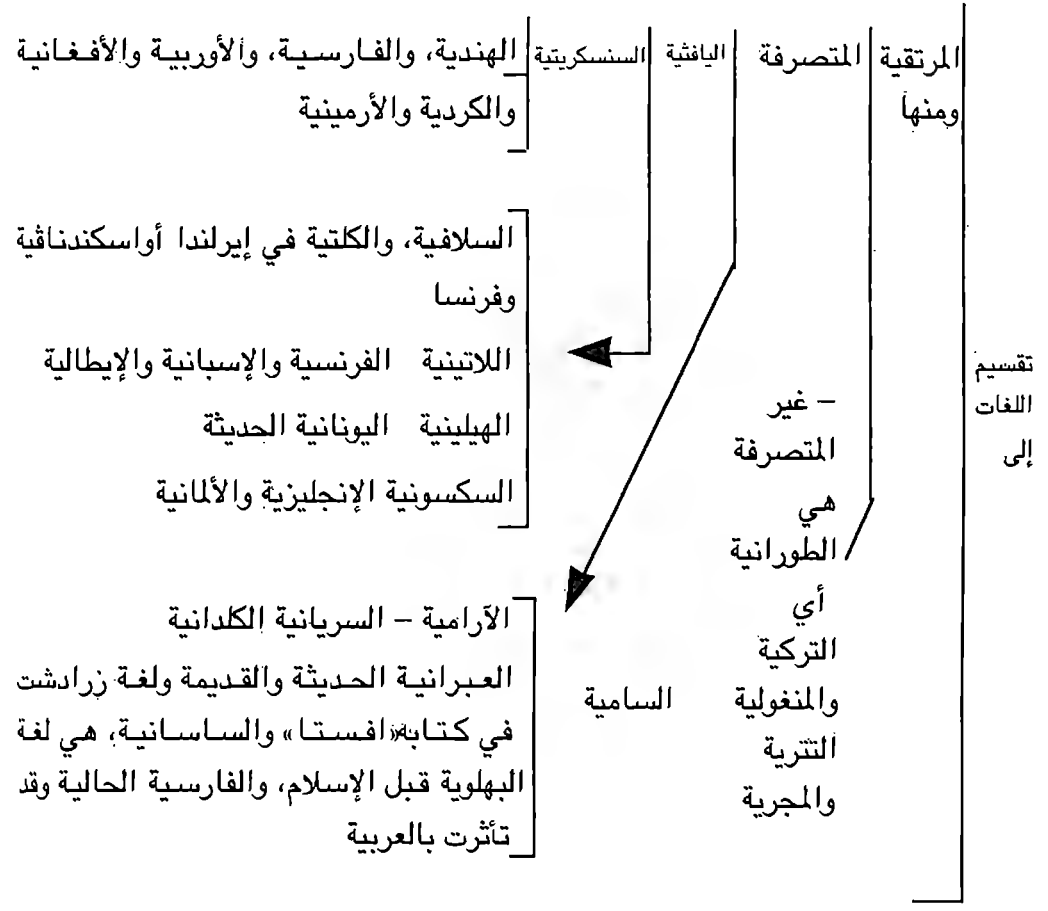

اللغة العربية ولهجاتها وهي أقدم لغة سامية	شمالي اللحيانية والثمودية والصفوية العربية النبطية والعربية الفصحى. جنوبي المعينية والسبأية، والقتبانية الحضرية ثم اللهجات الجديدة. وهي : المهرية لغة مهرة ، والشحرية لغة الشحر والسقطرية لغة جزيرة سقطرى إلخ.

ومن هذا يتبين لنا أن اللغة العربية بحكم وضعها هي أقدم من جميع اللغات المرتقية الحاضرة، فهي إلى جانب ساميتها :

1) لغة متصرفة، أي يتغير فيها الأصل الواحد ويتحول إلى صور شتى للدلالة على المعاني المختلفة التي تعترض المتكلم، وهي أيضا:

2) أرقى من السريانية، والعبرانية، لأنها تمتاز بكونها إعرابية(5) لأن حركات أواخر الكلم تزيد اللغة رونقا وفصاحة وتفننا في النطق ثم هي كذلك.

3) لغة استفهامية يؤخذ فيها من أصل المادة الدال على المعنى الكلي سائر المعاني الجزئية التي لها علاقة قريبة أو بعيدة بالمعنى العام، إلخ فاللغة العربية غير أحادية ولا مزجية وكذلك هي :

---

(5) قيل أن أول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز هو حرب بن أمية وقيل سفيان بن أمية راجع المحاضرات لليوسي 267ط 1976م، كما أن من تكلم في الاعراب الإمام علي عليه السلام، راجع المصدر السابق والجمهرة لابن دريد والصحاح للجوهري وعن البربرية راجع المحاضرات التي نشرتها الجامعة المصرية للمستشرق الإيطالي «جويدين 1844 ـ1935 بلا تاريخ ص 66 ـ 68 ـ 69 ـ71. ومقدمة ابن خلدون الفصل الخاص بالخط، ثم كتاب التهذيب في أصول التعريب للدكتور أحمد بك عيسى ط 1 سنة 1923 وعن التطور التقريبي للغات راجع معالم تاريخ الإنسانية لولز ج 133/2 ـ 134.

4) إجمالية و ليست تفصيلية و هذا ما يجب على العرب تخليصها منه ، لأن اللغة التفصيلية مثل الأروبية الأنجليزية و الفرنسية والإيطالية استطاعت أن تساير التطور الحضاري الهائل. والذي تجد معه العربية بعض الصعوبة مادامت قاصرة على المتأول من ألفاظها، واللغات الإجمالية هي التي إذا عرض للمتكلم المعنى وتوابعه من الزمان والفاعل وغير ذلك عبر فيها عن مراده بكلمة، بخلاف اللغات التفصيلية فإن للمعنى فيها ولكل من توابعه حظا بكلمة من العبارة، خذ مثلا لفظة استرعيت من قول الشاعر:

يـاراعي الشاء لا تهـمل رعايـتها فأنت عن كل ما استرعيت مسؤول

فإنها تتضمن معنى الرعاية الأصلي ومعنى الطلب المستفاد من نقل الفعل إلى وزن استفعل وزمان الفعل، وكونه مبني للمجهول مع تعبير المسند إليه، أنه مخاطب مفرد مذكر، وإذا عبرت عن نفس هذا المعنى بلغة تفصيلية مثل الفرنسية والانجليزية احتجت إلي أربعة ألفاظ أو خمسة، وبقي أن جنس المخاطب لا يعرف غالبا إلا بالقرينة واللغات القديمة كلها إجمالية كالعربية واليونانية واللاتينية، واللغات الحديثة كلها تفصيلية كما أشرنا قبل.

وبالتالي ما افتخر العرب بشيء غير ثلاثة : أعلاها الفصاحة، وتليها المهارة في الفروسية وحمل السلاح، ثم الكرم وقرى الضيف، ورعاية الذمم وصلة الرحم، والذكاء، وإتقاد القريحة، وللعرب صفات مذمومة كذلك كغيرهم من البشر غير التي بالغ ابن خلدون بتملق وتكلف في سردها بناء على ما عاش ورأى من أثر الخراب الذي أحدثته قبائل سليم بن منصور الذين أطلقوا في شمال إفريقية في عهد الفاطميين وبأمر كما سنرى، فقد عرفوا بشن الغارة وسفك الدماء لكنهم لم يكونوا مثل الرومانيين والبزنطيين، وعرفوا بالفظاظة والعنف والنهب والحقد الشديد الذي لا ينسى معه أخذ الثأر. وتلك لعمري صفات ساكن القفر ومتجول الفلا ورفيق الوعر، ومن خلال دراستنا لأيام العرب في الجاهلية نتعرف على ما كان لهم من تاريخ و أحداث و أدب و قصص و أبطال، كأيام

القحطانية فيما بينهم(6) والقحطانيين والعدنانيين، وربيعة وتميم وقيس وكنانة، ويوم الصفقة، وذي قاربين العرب والفرس(7)، ولعل في خبر يوم الصفقة وما حصل لعيركسرى وهوذة بن علي الحنفي وبين تميم لما خرج من هجر "البحرين" ثم بلغ نطاع وما فعلت اليمامة بعير كسرى الواردة من المدائن وما حصل بين هوذة وكسرى مما يستدل به على نضج الفكر العربي في جاهليته ومدى سياسته وحسن تدبيره، ولم يكن العرب كما يصفهم الذين لم يعرفوا آثارهم وأمجادهم، بل سجل التاريخ للعرب العاربة وبقية العماليق أنهم أسسوا دولا قبل المسيح بخمس وعشرين جيلا، وهي الدولة الحمورابية في الشام والعراق، والهكسوسية في مصر، وإذا ما انحلت هاتان الدولتان فإنهم تفرقوا في شبه الجزيرة وأسسوا دويلات لم تصلنا أخبارها بالقدر الذي نكون فكرة واضحة عنها بل هلكت وهلك معها العرب الذين أشرنا لهم بالعرب الهالكة البائدة، وإن كانت آثار مدينة الحجر وغزو الروم لثمود مما يحفظه التاريخ، ويحفظ ما كان بين الفرس والعرب، بل وبين الروم والعرب كذلك(8)، وحوالي الجيل العاشر قبل المسيح قيل أنهم قدموا الهدايا للنبي سليمان بن داوود عليهما السلام، كما تقول التوراة التي تحمل من اخبارهم الكثير(9)، بل عددت أماكنهم ثم وصفتها من حويلة إلى أشور، ونسبهم إلى إسماعيل بل إلى يقطان الذي هو من نسل سام(10) وأن قوتهم وصلت بتعاونهم مع الفلسطينيين إلى

---

(6) منها يوم البردان والكلاب الأول، وعين أباغ وحليمة، واليحاميم، ثم الحروب بين الأوس والخزرج راجع الأغاني 60/11 و62 ـ 82/15 وإبن الأثير 231/1 ـ 301 326 وأيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى ومن معه ط 53 *لدار احياء الكتب العربية* بالقاهرة. والعقد الفريد 353/3 ولسان العرب 278/10 إلخ.

(7) راجع العقد الفريد 374/3 والأغاني 97/2 ومعجم البلدان 352/3 و8/7 وابن الأثير 289/1 إلخ وكذا محاسن الكلام عند قدامة بن جعفر في مجال الشعر وهي : التصريح والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلة وصحة التفسير والتتميم ثم أسماء التتميم عند البلاغيين وهي المبالغة والتكافؤ والالتفات وكذا مظاهر ائتلاف اللفظ مع المعنى مما يعني المساواة والإشارة، والأرداف، والتمثيل والمطابق والمجانس. ثم ائتلاف القافية مع ما يدل عليه معنى البيت. وما سمي بالتوشيح والإيغال، والتضمين إلخ إلخ إلى غير ذلك من علوم البلاغة التي لا توجد إلا في اللغة العربية التي صنفت البيان والمعاني والبديع بطريقة لن تعرف لغيرها من اللغات.

(8) راجع العرب قبل الإسلام و قصة الحضارة لول ديورانت ومعالم تاريخ الإنسانية لولز، ومقال في الإسلام لجرجس سال.. إلخ.

(9) تك 18/25 ثم 9/21 ـ 21 و12/6 ـ 18.

(10) تك 21/10 ـ 31. وأما الهدية لسليمان فقد تعرض لها في سفر الملوك الأول10:15 حيث قال «وجميع ملوك العرب».

أن هاجمت اليهود زمن يهورام وسبوا أبناءه وبناته وقد أفردت التوراة لقيدار التي هي بلاد العرب ما أورد عنها من أخبار(11) وكذا آرام دمشق وآرام النهرين وآرام هو إبن سام وأخو ارفكشاد جد إبراهيم(12) ع وإذا نحن علمنا أن عصر التوراة سابق لعصر اليونان، و فيه نجد ما كان للعرب من حروب مع بني إسرائيل في تلك العهود الخوالي، والحروب عادة يقودها ويخطط لها رجال دول، وإذا لم يحفظ لنا التاريخ بتفصيل جيد ما كانت عليه هذه الدول، فإنه حفظ لنا تاريخ ملوك دول من اليمن، والتي كانت تقوم بها قبائل يشجب ويعرب وسبأ وحمير، تلك التي عرفت بحضارتها وعمرانها وعلاقتها التجارية التي انتشرت شرقا وغربا، كما عرف منهم كذلك التبع الأول الذين منهم الحارث

---

(11) تك 13/25.

(12) تك 22/10 ـ 23 و10/11 ـ 32. وسجل التاريخ في نقش بابلي يرجع إلى حوالي 2400 ق.م هزيمة لحقت بملك ماجان.. وماجان = معين" على يد نارام سن الحاكم البابلي، وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب، وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد الهزيمة، وعرفوا من نقوش عربية يرجع تاريخها الى800 ق.م وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى 2300 ق.م، وإن كانوا غير واثقين من هذا و قد ورد في هذا النقش إسم ملكة سبأ في بلاد اليمن، راجع قصة الحضارة ج 2م 8/4. ومن مستعمراتها في القسم الشمالي من بلاد العرب على خلاف، ذهبت ملكة سبأ إلى النبي سليمان عليه السلام عام950 ق.م وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب بصروا ح ج الجزيرة عاصمة لهم، وخاضوا حروب "الدفاع" المعتادة وأنشأوا أعمالا عظيمة للري كسدود مأرب" التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن "وشادوا الحصون والهياكل الضخمة، ووهبوا كثيرا من المال للشؤون الدينية واتخذوا الدين وسيلة للحكم والنقوش التي خلفوها ـ والتي لا ترجع في أغلب الظن الى ما قبل عام900ق.م منحوتة نحتا جميلا بحروف هجائية، هذا بالإضافة الى أن العماليق ملكوا مصر، -أسسوا بها دولة في القرن 23ق.م وحدث سنة 115 ق.م أن قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب الغربي من بلاد العرب هي مملكة الحميريين التي هاجمت مملكة سبأ ثم غلبتها على أمرها، لكن كتب لها ولعاصمتها في ظفار أن تفوز بالذكر وتخلد على الألسنة وفي بطون الكتب أكثر من غيرها، بل وأن ينسب لها من الحوادث والأخبار الكثير الكثير شرقا وغربا عن آثارها وتجارتها التي استولت على بلاد العرب عدة قرون والى ملكها إفريقش الذي نسب له من العجائب ما يذهل، الأمر الذي دفع الروم وإمبراطورهم أغسطس الى أن ينقم على العرب استيلاؤهم التجاري شرقا «كما هي اليابان اليوم»، حيث كانت تجارة العرب تحتكر مصر والهند، ففكر الامبراطور في محاربة العرب بجيش أعده ثم وضع على رأسه إيليوس جالوس للإستيلاء على مأرب لكن الأدلاء من العرب أضلوا الفيالق الرومانية فأهلكهم الحر والمرض وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح في الإستيلاء على عدن وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة الى روما، وبالتالي فقد كانت البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط دمشق وما حولها. بل ومن مدائن صالح العلاء، والحجر، وبطراء، وبصرى، ومنها إلى مكة حيث طريق التجارة التي امتدت شرقا وغربا بل وإلى نجد والجانبين الغربي لبادية الشام وشبه جزيرة سيناء حيث وجد علماء الآثار كتابات تدل على إنتشار التجارة العربية من القواعد التي امتدت من اليمن.

الملقب بالرئيس والتبع الآخر الذين منهم ذونواس الذي تهود، وهو صاحب الحروب مع أهل نجران الذين خددلهم الأخاديد فانتصروا بمساعدة قيصر الروم والأحباش الذين إنتصروا عليهم بعد، فانتحر ثم تملكوا بلاد اليمن نحو السبعين سنة إلى أن انتصروا عليه بمحالفة كسرى الذي أنجده بالسجناء وعين سيف بن ذي يزن الحميري فصفى الأحباش حتي كاد يقضي على أثرهم. لكنه تعرض لغدرهم وقتل سنة101 م الأمر الذي دفع كسرى أبرويز إلى تعيين حاكم باسمه لليمن هو باذان، فاستمرت على هذا الوضع إلى ظهور الإسلام.

هؤلاء هم العماليق والعرب العاربة المستعربة وتاريخ المتحضرين منهم، أما البدو فإنهم كانوا يحيون حياة الصحراء بعيرها وخيامها وشظف العيش فيها، وقد تفرق العرب في بلادهم بشكل لم يجعلها عرضة لدخيل مهما كانت قوته، حيث تفرق العرب على نجد واليمامة وبادية الشام والعراق ومصر، وحيث امتدت الفروع وانتشرت انتشارا غير من طبع الراحلين وبدل الكثير من طباعهم الأصلية لغة وشكلا، ومع ذلك سرعان ما تعود إلى العربي آثار الوراثة كلما وجد مايدعو لإثارتها في أي بلد وجد وكان له من العصبية ما يزيد في إقدامه.

هؤلاء هم العرب قديما، وتاريخهم حسب أصولهم، والذي لم يعرف منه إلا ما اكتشف أخيرا مما هو في العراق والشام بأقسامه، واليمن وبعض جهات الحجاز، وإذا كانت العاربة قد عرفت بهذا الإسم لامتزاجها بالقحطانيين لغة ونسبا، ولسكناها في الحجاز، فإنها قد تفرقت منه على نجد واليمامة، وبادية الشام، والعراق، ومصر، حيث امتدت الفروع وانتشرت انتشارا غير الكثير من طباعها الأصلية لغة وشكلا، حتى إن منها من إنصهرت في أجناس وبلاد أخرى كالبلاد المجاورة من أرض الفرس وغيرها، وبمراجعة خاطفة للتاريخ القديم خصوصا تاريخ الحروب مع الفرس والروم والفنيقيين واليهود نكشف الحقائق الكثيرة في هذا المجال بل كان من العوامل التي سهلت الفتوحات.

ومهما يكن ففي نظرنا كل ما اظهر من دراسات عربية في العراق بالأخص(13)

(13) راجع تاريخ العرب للأستاذ جواد علي العراقي وتاريخ العرب لفليب حتى ترجمة مبروك نافع ط2 بتاريخ1952 بتحفظ. أما المصادر العربية فهي كثيرة ومتنوعة من الأغاني والعقد الفريد إلى دواوين شعراء الجاهلية وكذا بلوغ الأرب للالوسي والكامل للمبرد والعمدة لأبي رشيق وغيرها.

وغربية في مختلف البلاد خصوصا باللغة الأنجليزية(14)، فإنها لا تكفي بالقدر الذي يعرفنا على المجتمع العربي القديم، ومع ذلك فقد تميز الجنس العربي رغم جهله القديم وأميته الضاربة في القدم، بأنه الجنس الذي لم يعرف ما عرفته أجناس أخرى من حضارات مثل الصين والهند والفرس والإغريق والروم، ومع ذلك أتى عليها زمن قصير هضمت فيه كل الحضارات ثم حفظتها من التلف والضياع في الوقت الذي آن لها أن تفعل ذلك كما سنرى في عهد العباسيين، وقبل أن يكون للعرب هذا الدور، ماذا كانت عليه حياتهم في جزيرتهم العربية سياسيا واجتماعيا، وبالتالي كيف كان العالم شرقا وغربا بل كيف كان البشر جميعا في الفترة التي كانت تقترب من بعث محمد بن عبد الله الرسول الأمي العربي صلى الله عليه وسلم.

(14) مثل قصة الحضارة لول ديورانت وعصر الإيمان ج 2من الملجد الرابع، ثم التاريخ العربي القديم تأليف ديتلف نيلسن وفريتز هومل و.ل رود كاناكيس وأدولف جرومان. ترجمة د فؤاد حسنين علي ط 1958 ثم مرآة الأيام في ملخص تاريخ العالم لخليل مطران جـ 1/72 ـ80ط الجوائب 1905.

الفصل الرابع والعشرون
الأحوال السياسية والإجتماعية للعرب قبيل الإسلام

في تقسيمنا السابق للأمة العربية وأشهر قبائلها تعرفنا على العاربة والمستعربة أو المتعربة منها. وعلى الجزيرة المترامية الأطراف التي سكنها العرب. وأول العرب الذين تعرض لهم التاريخ من الطبقة الأولى قوم عاد، وقد كانت لهم دولتان، عاد الأولى، وكانت مساكنهم أحقاف الرمل، بين اليمن وعمان إلى حضرموت وبلاد الشحر، وكان عاد أول من ملك من العرب كما طال عمره وكثر ولده واستطال الملك له ولبنيه من بعده ففتحوا الشام، والعراق، وامتد سلطانهم فيهما. وقد كانت دولة بني عاد معاصرة لفرعون مصر تحوتمس الثالث من ملوك الدولة الثامنة عشرة المصرية(15) ولقد بلغت عاد الأولى درجة من الحضارة والقوة، انتهت بها إلى فساد لم يجد فيه إصلاح نبي الله هود الذي لقي منهم العنت وعدم الإيمان برسالته التي انقسموا حولها، فكان الذين آمنوا بها من قومه هم الذين عرفوا بالخلجان. ومنهم كانت عاد الثانية، فأرسل الله عليهم «الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم «42: الذاريات، وبقي هو والذين آمنوا معه في أرض اليمن حتى غلب عليهم يعرب بن قحطان(16).

---

(15) تحوتمس الثالث من ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية التي حكمت من سنة 2325 إلى954ق.هـ وهي من عائلات الدولة الملكية الأخيرة التي يبلغ عدد عائلاتها أربعة عشر. راجع تاريخ مصر الحديث مع فدلكة في تاريخ مصر القديم لجرجي زيدان ص 44 ط 1882م وعبد القادر حمزة مصدر سابق 175 سنة 1940.

(16) وعاد وعبيل ابنا عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام راجع كتاب نقد كتاب الشعر الجاهلي تأليف محمد فريد وجدي ط 1 بالقاهرة عام 1926 ص 21 ـ 32 ـ 125 ـ 128 ومثله نقض بالضاد كتاب في الشعر الجاهلي تأليف الشيخ محمد لخضرحسين المطبعة السلفية بالقاهرة عام1345هـ.

ومن العرب البائدة أيضا ثمود(17) وكانت ديارهم في الحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ويحيون حياة طيبة بما كانت عليه أرضهم من إمكانات زراعية طيبة، ومثلهم عاد أرسل الله فيهم نبيه صالحا دعاهم إلى عبادة الله فكفروا به وبرسالته ولم يؤمن إلا قليل منهم، وأما الذين كفروا فقد تحدوه أن يأتيهم بآية تدل على صدقه فقال : «هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تاكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا ياصالح ايتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» الآية 73:7 ـ77 ـ97".

كما كانت من العرب البائدة طسم وجديس، ومساكنهم باليمامة، وملكها واحد ظالم له قصة مع المرأة المطلقة التي أمر أن تباع ويأخذ الزوج خمس ثمنها، فأعلنت ظلامتها في شعر استاء منه الملك وأمر ألا تزف بكر من جديس إلى بعلها حتى تزف إليه أولا، فظل الأمر على هذا الى أن تزوجت الشموس وهي غفيرة بنت غفار أخت الأسود بن غفار، فثار الأسود برؤساء جديس ثم أثار ضغينتهم ودبر المكيدة للملك وقومه الذين استدعاهم لوليمة ولما حضر وقومه فتك بهم قوم الأسود، ولم يفلت منهم إلا رباح بن مرة الذي إستغاث بتبع بن حسان الذي استجاب له مع قومه من حمير، ورغم أن اليمامة أخت رباح التي كانت تبصر مسافة ثلاثة مراحل أخبرت جديس بما رأت من الحميريين رغم حملهم أغصان الشجر للتستر لكنهم لم يصدقوها واستبعدوا ما رأت ولم يأبهوا إلى أن أصبحهم حسان وجنوده فخرب بلادهم وهرب الأسود إلى جبل طيء، أما اليمامة فقد أقلع الحميريون عيناها وبذلك سميت اليمامة، وفي ذلك أقوى دليل على ما كانت عليه العقلية العربية التي سوف يقومها الإسلام.

---

(17) وثمود وجديس أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح. راجع التهذيب ص 19 ط 1342 هـ ومختصر كتاب البلدان للهمذاني 26 ـ 37 ط ليدن 1303 هـ وإن كان بعضهم ينتقد ما ورد في هذه المصادر حول العرب وأنه مأخوذ مما دبره اليهود للتضليل، في الوقت الذي نراهم هم أنفسهم يعتمدون ما ورد في كتابات اليهود، من تاريخ،بل يعتمدون على ترجمة مؤرخهم يوسفوس إلى اليونانية. راجع التذييل على كتاب مقالة في الإسلام الانجليزي جرجس صال ط1821 . وما سبق قبل من هذا الكتاب الباب 3 وما بعده.

وكانت مدينتهم، تسمى جو. وقد بقيت خرابا إلى أن نزل بها بنو حنيفة الذين وجدهم الإسلام بها حين ظهر، ولقد روى من أخبار القبيلتين كل من الطبري نقلا عن هشام بن محمد الكلبي الذي نقل بدوره عن ابن إسحاق.

ومن العرب البائدة أيضا العماليق ومنهم فراعنة مصر وجبابرة الشام من الكنعانيين، وبنو الأرقم بالحجاز ونجد، وكانت مواطنهم عامة أرض تهامة الحجاز التي نزلوها أيام خروجهم من بابل عند ما طردهم النماردة من أبناء حام، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وتعاقب ملك العمالقة إلى زمن السميدع. وكانت بينهم وبين بني إسرائيل حروب انتصر فيها الأخيرون واستولوا على يثرب وخيبر ثم نشروا دينهم الذي اعتنقه بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وغيرهم، ومن العاربة أيضا إياد، وجرهم الأولى، وجاسم، وعبيل، وحضورماء، وحضرموت، وبنو ثابر، ووبار، وأميم، وعبد ضخم، ومدين(18).

تلك هي الفرقة الأولى من العرب أما الفرقة الثانية وهي المتأخرة بعد ذلك وهي جرهم الثانية، وسبأ، وبنو عدنان، ومنهم من باد بعد ذلك كجرهم، وأما التي بقيت فقد انقسمت إلى جذعين هما : قحطان، وعدنان، والعرب القحطانيةكما سبق،هم عرب اليمن، وينتسبون إلى يعرب بن قحطان بن عابر، وهو هود النبي بن شالح، بن أرفخشيد، بن سام، بن نوح، وهم أقدم من غيرهم، ولذلك تفتخر أعراب اليمن على غيرها من العرب ويقولون نحن العرب العاربة، كنا قبل إسماعيل ، و إنما تكلم إسماعيل بلساننا لمجاورته جرهم، وقحطان، أخو يقطن جرهم، وجزيلا، فلم يبق من جزيل بقية، أما جرهم التي نزلت مكة فقد تزوج منها إسماعيل وقد خرج من قحطان يعرب ويشجب وسبأ وحمير وقضاعة(19).

ومن القبائل القحطانية همذان، وكندة، ولخم، والسكون، والسكاسك، ودوس، وعاملة، وجذام، وقادم، وجولان، ومعافر، ومدحج، ومسيلمة، وأشجع، ورهاء

---

(18) والعمالقة وطسم وأبناء لاوذ بن أرم بن سام بن نوح، أما وبار فهو ابن أميم بن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح ،ما سبق من مصادر بعد تعليق 194 أعلاه.

(19) راجع إبن الأثير 268/1 والعقد الفريد 742/3 والنقائض 680 ط ليدن 1905 وشعراء النصرانية178.

وصداء، وجنب، وحكم بن سعد، وزبيد، ومراد، وعنس، والأشعر، وأدد، والأزد، والأوس، والخزرج وخزاعة، وبارق، وغسان، وبجيلة، وخثعم، وبلقين، والنمرة بن وبرة، وسليم ومهرة، ودهر، وعذرة، وسلامان، وضنة بن سعد، وجهينة، وفهد بن زيد(20).

وأما العدنانية فهم من عدنان بن أد ابن أدد بن الهميسع بن سلامان بن نبت ابن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح بن ناحور بن شاروخ، بن أرغو، بن فالغ، بن عابر، بن شالح، بن أرفخشيد، بن سام، بن نوح، ومنازلهم في شمال بلاد العرب في تهامة الحجاز ،نجد والسماوة الى مشارف الشام والعراق،ومن العدنانية عك، ومعد، وربيعة، ومضر، وقيس(21).

وكانت أرض الحجاز منازل بني عدنان إلى أن غزاهم بختنصر ونقل من نقل منهم الى الأنبار من بلاد العراق، ولم تزل العرب بعد ذلك كله في التنقل عن جزيرة العرب والإنتشار في الأقطار إلى أن كان الفتح الإسلامي. ثم توغلوا في البلاد حتى انتهوا إلى أرض الترك وشمال إفريقية وبلاد الأندلس، كما صار بعد عرب اليمن إلى الحجاز، وكان بنو مضر أهل الكثرة و الغلب في الحجاز، وكانت لهم رئاسة بمكة حتى افترقوا قبائل، فكان الأمر في كنانة ثم في قريش على ما سنرى(22).

عرف العرب بين كل الأمم ببداوتهم التي كان الدافع للتعلق بها عزة النفس والأنفة والتعلق بالحرية، وقد كانوا أهل مدر وأهل وبر، فأما أهل المدر فهم الحضر وسكان القرى

---

(20) التهذيب في أصول التعريب ص 20 ط 1923 ونهاية الأرب للقلقشندي في مواضيع مختلفة حسب أسماء القبائل.

(21) راجع الجدول السابق حول العرب وأشهر قبائلهم قبل تعليق من 94 إلى 100 ثم من 192إلى 194.

(22) هناك من المؤرخين من يفرق بين القحطانيين والعدنانيين، وهم يبنون رأيهم على :

1) أن القحطانيين كانوا نوي ممالك وحواضر، سواء في اليمن، أو في البلاد التي رحلوا إليها، كما هو الشأن بالنسبة للمناذرة في العراق، والغساسنة في الشام، والأوس والخزرج في المدينة، وأن لغتهم الحميرية وديانتهم الصابئة أي يعتقدون أن للنجوم سلطانا على البشر.

2) أن العدنانيين كانوا أهل حل وترحال، بدو لا مدن لهم، ينتقلون بخيامهم ورئاستهم البدوية تابعين لغيرهم إلى أن نضبت عروق الملك في مضر، وظهرت قريش بمكة ونواحي الحجاز، أزمنة دانت فيها الدول بتعظيمهم لأنهم أهل بيت الله، إلى أن ظهر الإسلام فكانوا قوته ونوي سلطانه، وهذا الرأي القائم على فكرة البداوة والحضارة لا يرقى إلى درجة التفريق بين قحطان وعدنان في الأصل أعلى بخصوصا إذا علمنا أن إسماعيل تزوج من جرهم بمكة زمن عدنان.

عيشهم الزرع والضرع والنخيل والتجارة وغير ذلك من ضروب الاكتساب، ولم يكن منهم عالم مذكور ولا حكيم مشهور، وليس لهم من العلوم إلاما يتعلق بحياتهم، مما هو مشترك بينهم وبين أهل الوبر الذين هم قطان الصحاري وعمار الفلوات، وهؤلاء كانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، وكان دليلهم نحو الخصب والمرعى إيماض البرق ومنشأ سحاب وجلجلة الرعد، حيث يؤمون منتجعين لمنابت الكلأ مرتادين لمواقع القطر، حياتهم حل وترحال كما قال المثقب العبدي في ناقته.

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا ودينـــي
أكل الدهر حل وارتحـــال أما تبقى علي ولا تقيني

وقد كان أهل البداوة أكثر نقاء للنفوس وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات، بخلاف الحضر الذين يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإنسياق وراء الشهوات فتتلوث نفوسهم بكثير من مذمرات الخلق والشر، كما أن نفوسهم تتعود على الخمول والإعتماد على الرئاسة والحراسة التي تكون بيد القيادة، شأنهم في ذلك شأن المحكومين المسيرين، خلاف البدو الذين لايعرفون التزامات وضروريات المدينة، يحمون أنفسهم أينما حلوا وحيثما ارتحلوا، مما جعلهم أهل بأس وشجاعة يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استفز بهم صارخ، وبذلك أصبح أهل البداوة في عرف التاريخ والناس أهل صراحة ووفاء وكرم، كما عرفوا بإباء الضيم ونصرة الجار والذب عن الحرم، وكان نووا الآراء منهم يرون أن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف في الأرض ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف بل نظروا إلى الأبنية بمنظار يخالف ما كانوا يعتقدون في سلامة النفس والبدن وسلامة العقل، وبالجملة فالعربي إن كان من أهل المدر أو الوبر، فهو أعز جار وأكرم وأجود إنسان، عرف بالفطنة وسلامة الطوية وحب الخير.

وإذا ما توسعنا في الحديث عن حضارة العرب قديما نجد أنهم كانوا يتوفرون على مجتمعات ذات حضارة ترقى سياسيا إلى درجة الديمقراطية مادامت تتوفر على رئيس ومجلس استشاري وأن لا استبداد ولاسلطان لغير ما هو سليم من الرأي وما ظهر من

الحق، وقد كان لهم ملوك وخاصة في اليمن والعراق والشام، حيث الخصب وموارد الرزق واعتدال المناخ، وكانت دول اليمن غير تابعة لإحدى الدولتين الكبيرتين وقتها، دولة الفرس ودولة الروم، بخلاف الغساسنة في الشام، الذين كانوا عمالا للروم يجبون إليهم مقابل أن يتركوهم ولايتدخلوا في شؤونهم، وقد عاش العرب في العراق أحرارا مستقلين في سلطانهم أيام ملوك الطوائف ببلاد الفرس إلى زمن أردشير، حيث أصبحوا تابعين لملوك الفرس، يعزلون ويولون، كما حصل من قيباذ الذي عزل المنذر بن ماء السماء الذي لم يرد اعتناق مذهب مزدك، ثم ولى مكانه الحارث بن عمرو وبن حجر إلى أن رده كسرى أنوشروان لما تولى مكان أبيه قيباذ، ورغم ذلك فإن المناذرة لم يكونوا مثل الغساسنة يجبون للفرس ولم يؤدوا لهم خراجا، وإن كان بعض المؤرخين يقول إنهم كانوا يؤدون لهم الخراج.

وكان النسب هو أوثق الروابط بين العرب ، وكانوا أكثر الناس محافظة عليه لأنه أساس بنيانهم السياسي والإجتماعي ووسيلة حفظ كيانهم والتمكين لهم، ولمنزلته كانوا يتفاخرون ويتفاضلون في مجاله، وما دون التاريخ لأمة من الأمم عنايتها بالأنساب كعناية العرب، ولهم في ذلك من النوادر ما يدعو إلى العجب، ذكروا أن يزيد بن حسان بن علقمة بن زرارة بن عدس قال : «خرجت حاجا حتى إذا كنت بالمحصب من منى، إذا رجل على راحلة معه عشرة من الشباب مع كل رجل منهم محجن ينحو الناس عنه ويوسعون له، فلما رأيته دنوت منه فقلت ممن الرجل قال : رجل من مهرة الشحر. قال : فكرهته وولیت عنه فناداني من ورائي : مالك؟ قلت لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك. قال : إن كنت من كرام العرب فسأعرفك. قال فكررت عليه راحلتي فقلت : إني من كرام العرب. قال : فمن أنت، قلت من مضر، قال فمن الفرسان أنت أم من الأرجاء فعلمت أنه أراد بالفرسان قيسا وبالأرجاء حندفا، فقلت بل من الأرجاء ، قال : أنت امرؤ من حندف، قلت: نعم قال : من الأرومة أنت أم من الجماجم فعلمت أنه أراد بالأرومة خزيمة والجماجم بني أد بن طابخة، قلت بل من الجماجم. قال فأنت امرؤ من بني أد بن طابخة قلت أجل. قال : فمن الدواني أنت أم من الصميم. قال : فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة، وبالصميم بني تيم، قلت : من الصميم قال فأنت إذا من بني تميم. قلت أجل. قال

فمن الأكثرين أنت أومن الأقلين أو من إخوانهم الآخرين، فقلت إنه أراد بالأكثرين ولد زيد. وبالأقلين ولد الحارث وبإخوانهم الآخرين بني عمرو بن تميم. قلت من الأكثرين قال إذا فأنت من ولد زيد قلت أجل. قال فمن البحور أنت أم من الذرا أم من الثماد فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد وبالذرا بني مالك بن حنظلة وبالثماد إمرؤ القيس ابن زيد فقلت بل من الذرا، قال فأنت رجل من مالك بن حنظلة قلت أجل. قال فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب، فعلمت أنه أراد بالسحاب طهيلة، وبالشهاب نهشلا، وباللباب بني عبد الدار بن دارم، فقلت له من اللباب، قال فأنت من بني عبد الدار بن دارم قلت أجل، قال من البيوت أنت أم من الدوائر، فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة، والدوائر الأحلاف. قلت من البيوت قال فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وقد كان لأبيك إمرأتان فأيهما أمك»(23) وإلى جانب علم النسب كان لهم علوم أخرى مثل التنجيم والفراسة والزجر والعيافة وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها يستدلون بذلك على معرفة ما يكون من أمر الناس ثم علم الطب القائم على التجربة والوراثة، ومن مشاهير أطباء العرب الحارث بن كلدة الثقفي الذي كان بالطائف ثم تنقل بالبلاد، وقد عمر إلى زمن معاوية، ثم علم الرمي بالنبال والسهام وما يتعلق بها من صيد وحرب، كما كانوا يعرفون أنواع الشجر الصالح لها وبريها وكيفية تناولها والرمي بها من قرب أو بعد.

ولم يكن للعرب حظ كبير في الكتابة إلا ما قيل عن خط الجزم في طيء. وعنهم نقل إلى الحيرة والأنبار. وهو مقتطع من المسند الذي هو خط حمير وفي ذلك يقول ابن خلدون «وقد كان الخط العربي بالغا مبلغه من الإحكام والإتقان في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والشرف، وهو المسمى بالخط الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة.. ومن الحيرة

---

(23) التهذيب في أصول التعريب ص 25 ـ 26 ط 1923م، وقد أوردت في الوقت الذي أخذ المجتمع العربي ويدافع مؤامرة محكمة يتمزق شر تمزيق إلى درجة أن المولدين فيه من بائعات الهوى وعاهرات أوروبا اللائي لفظهن مجتمعهن أصبحوا يتقدمون الصفوف بدافع محاربة العنصرية التي أصبحت عندهم تتمثل في الأصالة والمحافظة على الدين والمروءة والنسب وروح الأجتماع التي اجمع المتقدمون والمتأخرون أنها تتمثل العصبية النظيفة التي تجمع محمد علي كلاي في أمريكا مع الشريف النسب من آل البيت في العراق والشام والحجاز ومصر والمغرب وبقية بلاد الله التي لا مجال فيها للتفسخ والإنحراف.

لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر، ويقال أن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية. ويقال حرب بن أمية وأنه أخذها من أسلم بن سدرة ومن خلال الحوار الذي راج شعرا بين عبيد بن الأبرص وإمرؤ القيس ندرك ما كان لأمثال هذا الأخير من معارف تدرج في اعتبار ما كان يتوفر عليه العقل العربي من أنواع المعرفة والثقافة العامة وكذا ما حصل بينه وبين الحارث اليشكري حول الشعر، حيث كان امرؤ القيس ينازع كل من يدعى الشعر فنازع الحارث بأنصاف أبيات تحداه أن يكمل البيت الذي يقول صدره امرؤ القيس ففعل(24).

من تلك القصة الطريفة مع يزيد بن شيبان رغم ما يظهر عليها من علامة الوضع، والتي ساقها الراوي وكأنها حديث اثنين التقيا صدفة فتعرف الأول على الثاني بهذه الطريقة العجيبة التي يستدل بها على ما كان للعرب من اهتمام كبير بالأنساب حتى ليقال إنه العلم الوحيد الذي اتفقوا عليه جميعا، ولذلك نبغ فيه كثير من علماء النسب الذين استمر نفسهم قويا ومتمكنا إلى ما بعد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري(25) وسنتعرض لذلك ولطبقات الأنساب حين كلامنا عن رسالة الآدارسة بعد زوال دولتهم وكيف تفرقوا في المغرب إلى جانب ما سنتعرض له بعد من أسماء القبائل العربية بالمغرب، ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما نحن بصدده من الكلام عن تاريخ بداوة العرب وحضارتهم.

---

(24) راجع تراجم أصحاب المعلقات لأحمد بن الأمين الشنقيطي ص 10 ـ 11 ط1329 ثم راجع في الفهرست لأبن النديم : الكلام على القلم العربي ص 6 ـ 8 ط م الرحمانية مصر بدون تاريخ وأيضا راجع ما بعد تعليق (224) من هذا الكتاب كذلك.

(25) من العلماء الذين سجل التاريخ في حقهم الدراية بالأنساب في الجاهلية دغفل بن حنظلة الدوسي وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن الكيس النمري من بني عوف بن سعد، والحارث بن أوس بن الحارث بن سعد بن هذيم العدواني من قضاعة والنسابة البكرى، ولسان الحمرة، وهو وقاء بن الأشعر أبو كلاب، كان أنسب العرب وأعظمهم بصرا، وعبيد بن شرية الجرهمي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وصحار بن عباس العبدي وعمير بن ضمضم، وصالح الحنفي واسمه عبد الرحمان بن قيس، وعبد الله بن عمر الكواء وصالح بن عمران الصفدي وأبو الوليد عيسى بن دأب بن زيد بن بكر، وعوانه بن الحكم بن عياض بن وزير بن عبد الحارث الكلبي، وشبيل بن عروة الضبعي ويكنى أبا عمرو، وكان أبو بكر رضي الله عنه نسابة، وسعيد بن المسيب، وأبو القاسم حمادا الراوية بن يابور بن المبارك بن عبيد المتوفي سنة 156هـ، راجع المصدر السابق ثم التاريخ السياسي لمحمد فخر الدين ص 124 ط1930.

الفصل الخامس والعشرون
دول العرب وألوان حضارتهم

وهكذا فقد عرفت الأمة العربية بمختلف أصولها دولا تجمعت بعض قبائلها حول ملوكها مثل دولة المناذرة في العراق الذين تداول الملك منهم ستة عشر ملكا غير التنوخيين الثلاثة، ودامت دولتهم مدة أربعمائة وخمسين سنة من 268 م إلى632 م = 10 هـ وأشهر ملوكها: عمرو بن هند 563 ـ 579م.

ودولة الغساسنة في الشام وأشهر ملوكها الحارث بن أبي شمر 529 ـ 569م.

ودولة كندة من بني أسد وغطفان وأشهر ملوكها حجر وشرحبيل والد امرؤ القيس الذي كان أشهر وآخر ملوك كندة. والذي ثار عليه الأسديون وكان موقعها جوار حضرموت.

كانت هذه الممالك على جانب من الحضارة، ولم يكن لبعضها كبير اتصال بالبعض الآخر، كما أنها لم تكن بالقوة من المكان الذي يضمن دوامها واستمرارها بعيدة عن حماية قوة تساندها، وكذا لم يكن للعرب في بلادهم المترامية الأطراف وبداوتهم المتحكمة في كل المفاهيم، قوة تجمع شملهم وتقارب بينهم، بل أغلبهم مشتتين كثيري الترحال تبعا لظروف العيش ومساقط الأمطار ومنابت العشب، كما هو الشأن اليوم بين قبائل ذوي مناع، وجرير، وآيت مرغاد وعطا وصغر وشن وغيرها في الأطلسين المتوسط والكبير بالمغرب الأقصى، وكما هو الشأن بالنسبة لعربان الصحراء غربا من الساقية الحمراء إلى شنقيط. ثم قبيلتا لعمور وبني جيل شرق المغرب وبالتالي فالعرب لم تكن لهم علوم في جاهليتهم ولا معارف تهديهم إلى الرشد.

وهكذا فباستثناء القبائل والدول المذكورة قبل، لم يكن للعرب في بداوتهم أيام

جاهليتهم نظام يربط بين القبيلة وغيرها من القبائل، غير العصبية القائمة على النسب كما أشرنا أو الحلف، وإلى جانب هذا كان لأفراد القبيلة علم، وكانت القيادة تتمثل في كبير القوم ورائد العشيرة الذي كان يختار اعتمادا على عصبيته وقوته وكرمه ونبل محتده، وهو الذي يعلن حربها ضد أخرى، ويقبل صلحها مع غيرها، ويوثق حلفها مع من تريد(26)، وكثيرا ما كان الحلف يجمع بين عدة قبائل يكون فيه الرأي لحامل اللواء الذي كان لا يصله إلا من له قوة أكثر إلى جانب الحزم والعزم والرأي السديد، وكذا كثرة المال والولد. مثل ما عرف لكليب وائل الذي طال في مشيخة قبائل معد، وهو وائل بن ربيعة، لقب كليبا لأنه كان يأخذ معه جروا إذا مر بموقع أعجبه ضربه ثم ألقاه في ذلك المكان وهو يعوي، ومن سمعه ابتعد ولا يقترب من ذلك المكان، بل كان تقول أشعارهم يحمى مواقع السحاب والوحش لا تحتل ولا تصاد مادام هو الراعي والمريد للصيد إلخ.

ولقد كان لمثل هذا الاستبداد والغلظة أثرهما في فساد حياة العرب بسبب شطط رؤسائهم الذين كانت الحروب تستعر بينهم لأسباب تافهة(27) مثل ناقا الجرمى التي ضربها كليب بسهمه فرد صهره جساس بضرب كليب بسهم في كبده أرداه قتيلا، فقامت الحرب التي قال عنها مهلهل:

كنا نغار على العواتق أن تـرا بالأمس خارجة عن الأوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسّرا مستيقنـات بعده بهـــوان

---

(26) راجع العبر لإبن خلدون ج 1.

(27) راجع أيام العرب في الجاهلية ومنها أيام العرب والفرس 1 ـ 6 وأيام القحطانيين فيما بينهم، وربيعة وتميم وأيام قيس وكنانة. وقيس وتميم وضبه وغيرهم، وقيس فيما بينها صفحات 42 ـ 137 ـ 142 ـ 226 ـ 230 ـ 304 ـ 312 ـ 375 ـ 378 ـ 406 تأليف محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط 2 مصر 1372 =1953. التي منها للقحطانية يوم طفخة وأوارة الأول والثاني، ويوم السلان ويوم خزاز، ويوم جحر، ويوم الكلاب الثاني، ويوم ضيف الريح، ويوم الدهناء، وهي في مجموعها تسعة، ثم أيام ربيعة فيما بينها، قد عزفت بحرب البؤس التي منها يوم النهي ويوم الذنائب ويوم واردات، ويوم عنيزة، ويوم القصيبات، ويوم تحلاق اللمم، ولعل في دراسة أيام العرب ما يغني الباحث عن البحث في غيرها من أحوال العرب وما يتعلق بشؤونهم، وأسلوب حياتهم في الحرب والسلم والاجتماع والفرقة والفداء والاسر والنجعة والإستقرار، كما اشتملت على مالهم من فضائل كالدفاع عن الحريم، والوفاء بالعهد، والإنتصار للعشيرة، وحماية الجار، والصبر في القتال إلخ راجع أيام العرب في الجاهلية ط2 عام 1953 المشار إليه قبل.

إلى أن قال :

فلأتركن به قبائـل تغـلـب قتلى بكل قرارة ومكـان

بل كان لرئيس القبيلة مطلق التصرف في ما تحصل عليه القبيلة من غيرها بواسطة القتال مما أطلقوا عليه الصفى، وهو ما يصطفيه لنفسه قبل القسمة، والمرباع وهو ربع الغنيمة، والفشيطة، وهو ما أصاب في طريقه إلى الغزو وقبل وصوله إلى من يغزو، والفضول، وهو ما تصح قسمته على عدد الغزاة من بواقي القسمة كالبعير والفرس، وإلى جانب هذا كان رئيس القوم يتمتع بالصفات التي تؤهله للحكم كلما اختلفوا، بحيث كانوا يلجؤون إليه في المحاكمات. وقد عرف من هذا النوع الأفعى الجرهمي بنجران. أول من حكم بين نزار عندما إختلفوا ثم ذهبوا إليه. وأكثم بن صيفي من حكام تميم، وقد جمع تميم حين دعاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الإسلام فقال لهم : إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا كان في أخلاق الناس حقا، ومنهم الكاهن الخزاعي الذي قضى لهاشم بن عبد مناف على ابن أخيه أمية بن عبد شمس، ومنهم الكاهنة في بني سعد، وكانت بأشراف الشام، وهي التي خرج إليها عبد المطلب وقومه حينما نازعته قريش في ماء زمزم.

وكانت أحكام الكهان ومن على شاكلتهم مبنية على الحدس والتخمين والتجربة والعادة، وقد شرع العرب في الجاهلية شرائع افتروها على الله، من ذلك ماتخذوه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون» الأنعام :136 «و قالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها إفتراء عليه» الآية «وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء» سورة الأنعام الآيات 136 ـ 138 ـ 139.

ومن أقبح ما شرعوا وأد البنات ودفنهن أحياء، وكان شائعا في بني تميم وقصة ابنة قيس بن عاصم والنعمان بن المنذر كانت السبب فيما انتهوا إليه، وكان بعضهم يقتل المولود ذكرا أم أنثى خوف الحاجة والإملاق، وقد كان أشراف العرب يمتعظون هذا

ويشترون الموؤدة ثم يتعهدونها حتى تصل، وقد فعل هذا زيد بن عمرو بن نفيل، وصعصعة بن ناجية المجاشعي، جد الفرزدق الذي قيل إنه أنقذ موؤدة في الجاهلية. وقد ذكره الفرزدق في شعره :

ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توأد

وقد شهر القرآن الكريم بهؤلاء الذين قال الله في حقهم «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله». الأنعام140 .

وإذا كان للدين أثره في النفوس وفي حياة الشعوب ومجتمعاتها وتطورها، فإن العرب لم يكن لهم دين يستحق الدراسة والبحث، بل كانت الوثنية والمجوسية غالبة فيهم إلى جانب ما عرف عنهم من أساطير(28) أصبحت اليوم محل دراسة علمية وفلسفية، بالنسبة لما يتعلق بالعرب في جاهليتهم بكثير من التكلف وذلك بإقحام ما عرف عند الأوربيين بـ"الميثولوجي" وإذا كان هذا يطبق على ما عرف عند المصريين والبابليين والإسرائليين وأهل فارس، وغيرهم من الذين عرفوا بالأساطير الدينية التي عرفت لها مجالا أوسع عند اليونان، فإن العرب بحكم بداوتهم وإنقطاعهم لم يعرفوا شيئا من ذلك قديما،وإنما عرفوا بحكم الجوار أقل مما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين وفريد وجدي(29). يقول «جول لا بوم» في المقدمة التي كتبها على فهرست القرآن الكريم المترجم إلى الفرنسية «لم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أي دين من الأديان» ويقول دوزى في كتابه «تاريخ العرب في إسبانيا» كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات الموسوية والعيسوية، والوثنية، وإذا كانت اليهودية واليهود أكثر انتشارا من المسيحية التي كانت سطحية، فإن الوثنية كانت السائدة

---

(28) عرف العصر الجاهلي بمعناه الضيق ما بين سنتي500 ـ 622م وهو الزمن الذي يمكن للتاريخ أن يتخذه مجالا للبحث، وهو زمن يسير بالإضافة إلى أن العرب فيه كانوا قد اتصلوا بتفتحهم على التجارة بأقطار أخرى جلبوا منها من آثار الديانات مالا يحسب على البيئة العربية، أما ما أورده المؤرخون العرب عن الجاهلية وتحديد زمنها ما بين آدم ونوح أو ما بين نوح وإدريس فهو بعيد جدا. راجع الطبري جـ 83/1 وبلوغ الارب 15/1 ـ 18 ومعجم البلدان 20/2.

(29) راجع فجر الإسلام 13/1 وموسوعة وجدي 254/6. وأبو الفرج الملطي المعروف بابن العبري راجع ترجمته في د. الإسلامية 226/1 ـ28، والملل والنحل للشهر ستاني، وفيه أنه كان للعرب7 بيوت للعبادة، ثم راجع أبو الفداء والمسعودي وابن الأثير إلخ.

بكثرة في بلاد العرب، وكان الوثنيون هم السواد الأعظم حتى كان لكل قبيلة بل أسرة إلهها، بل آلهتها، بل حتى الذين منهم كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء هم لديه، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم، بعض الاحترام، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم تتحقق أخبارهم بالمغيبات، وكان من العرب من يعبد الكواكب وخصوصا الشمس، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري، وبنو طيء يدعون سهيلاء، وبنو قيس عيلان، يتوجهون للشعري اليمانية، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية على حد قول «جول لا بوم» المشار إليه، ومن خلال آثار العرب أنفسهم في مجال الشعر والنثر ندرك أنه لكل قبيلة إله يتمثل في صنمها، فقد كان لهذيل سواعا. ولكلب ودا، ولمذحج يغوث، ولخيوان يعوق، ولحمير نسرا.

حقا لقد عرفنا التاريخ أنه بعث أنبياء من العرب قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان هود من سبأ، وهم أفصح العرب وأجملها، وبعث صالح من هوازن إخوة حضرموت وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي، وبعث شعيب من جذام، وفيهم قال (صلى الله عليه وسلم) نعم الحي جذام قوم شعيب وأصهار موسى.

وإذا ما كان ثمت من أثر لرسالات هؤلاء الأنبياء فإن سكان الجزيرة بصفة عامة كانوا مشركين مع قليل من التوحيد بين بعضهم، فقد كانوا يعبدون النجوم أو الملائكة، والعقول التي كانوا يزعمون أنها حالة فيها. وإنها تدبر العالم عن أمر الإله الأعظم، وكانوا يلتزمون فضائل النفس الأربع، ويزعمون أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور، ثم تصير إلى رحمة الله تعالى، وقد فرض عليهم ثلاث صلوات : أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك، بحيث تنقضي مع الطلوع 8 ركعات، في كل ركعة3 سجدات، والثانية صلاة الظهر وهي خمس من تلك الركعات وسجداتها، وتنقضي مع الزوال، والثالثة كالثانية وتنقضي مع الغروب، وكان لهم3 صيامات في السنة أولها30 يوما والثانية 9 والثالثة 7، وهو ما أورده ابن العبري المشار إليه قبل في المستظرف. ولقد كان للحنيفية المستمدة من إبراهيم وإسماعيل بعض الأثر في قريش، وبالذات في ولد معد بن عدنان، ونلمسها في بعض الخطب وقصائد الشعراء مثل قس بن ساعدة الإيادي،

والحارث بن كلدة، وعمرو بن كلثوم(30)، لكنها لم تكن بالقدر الذي يؤثر في المجتمع الذي عرف في غالبيته بالطوطمية والوثنية إذا استثنينا قريشا وعامة ولد معد بن عدنان الذين كانوا على شيء من دين إبراهيم، يحجون البيت، ويقيمون المناسك ويقرون الضيف، ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش، ولا يرضون قطع الرحم، وينفرون من الجرائم، ويقال إن مثل هذا عرفته تغلبة من إياد، ثم نزار بن معد بن عدنان، وخزاعة بعدها، لأنهم عرفوا بحجابة البيت وقد غيروا ما كان عليه الأمر في المناسك.

وتخبرنا الرواية أن أول من استورد الأصنام من الشام عمرو بن يحيى، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو، بن عامر الأزدي، حيث استورد هبل من العمالق، وكان أول صنم وضع بالكعبة تلته الأصنام بكثرة لا حصر لها حتى أصبح لكل قبيلة صنمها ، وإذا ما كثر اتصال العرب تعددت أديانهم فعبدوا الشمس، واعتقدوا في النجوم وغيرها، وفي الحواضر مثل يثرب ومكة واليمن ونجران عرفت اليهودية والنصرانية بحكم الجوار، حيث تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، كما تهود قوم من بني الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناه من كنانة، وقوم من غسان وآخرون من جذام، وتنصر من العرب بتأثير اليعاقبة المضطهدين منذ ظهور المسيحية إلى القرن الثالث للميلاد، أحياء من قريش من بني أسد بن عبد العزى، ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد، وقوم من تميم، ومن طيء، ومدحج، وبهرام وتنوخ، ولخم، وغسان، وربيعة، وبنو عدي بن زيد العبادي بالعراق، وقضاعة، وأهل نجران، وبنو تغلبة بالجزيرة، وبعضهم اعتنق المزدكية كالحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسايرة لقباذ الفارسي. وسنرى كيف اعترف الإسلام للعرب ببعض ما كان لهم من عادات حسنة ووافق عليها. مثل : قطع يد السارق. وأول من قطعها في الجاهلية الوليد بن المغيرة وتكفين الموتى والصلاة عليهم، وصوم بعض الأيام كيوم عاشوراء، وإذا أصابهم قحط ثم رفع صاموا شكرا. وتقول بعض الروايات إن العرب كانوا يعاقبون الزاني بالموت والزاني عندهم من

---

(30) راجع بعض ترجمته في موسوعة وجدي ج 786/7 ـ 88 ثم ترجمة الحارث جـ 398/3-402 وعمرو بن كلثوم جـ 6 685 ـ707 ط، بيروت 2 عام 1971 والحياة العربية من الشعر الجاهلي د. محمد أحمد الحوفي جـ 1 ط مصر 1949م وأخبار العرب تحقيق حسن مغنية جـ 1 ـ 2 ـ3 ط بيروت 1981.

جامع امرأة من غير عشيرته(31)، وفي هذا المجال كانت عادات القحطانيين أرذل، بدافع ما عرفوا من ألوان الحضارات والتمدن خصوصا في اليمن.

كان العربي ولا يزال أكثر بني الإنسان تعلقا بالحرية وعدم التقيد بما يحد من حريته، وذلك نتيجة أثر البيئة والوراثة، كان موطنه المترامي الأطراف، والمتمدد في البيداء من أكثر العوامل تأثيرا في نفسه وتكييف انفعالاته، حيث كان يعيش لنفسه وأهله وعشيرته ينتقل بأنعامه من مكان إلى آخر، لا يعرف من تغير الجو ورياضة النفس غير القنص وشرب الخمر ولعب الميسر، أو المشاركة في التجمعات الدورية قبليا ليتباهى بما يعتقد من مميزاته الذاتية أو مميزات قبيلته، وعن طريق هذه التجمعات ظهر وتكون عباقرة الشعراء الذين أصبحوا في حياة العرب أكبر وأهم قوة تتمتع بها القبيلة إن هي أنجبت مثل المهلهل وعنترة، وامرؤ القيس بن حجر، وغيرهم من أصحاب المعلقات الذين كانوا بحق يمثلون نضج العقل العربي أيام الجاهلية(32)، بحيث كان الشاعر بالكلمة يرفع من شأن قومه ويحط من قدر الآخرين، وبالكلمة يشعل الحرب ويدفع إلى دوامها واتقاد نيرانها، وبها يرد الغارة عن قومه باستنفار الأخرين ممن يرون في مدحه فخرا واعتزازا.

وإذا كان العربي بحكم طبعه سريع الإنفعال، يطرب بنفس السرعة التي يغضب بها، فإن الشعر قد صور ذلك، حيث نرى الشاعر بكلمة واحدة يستطيع فعل العجب العجاب حربا وسلما، ومثله كانت المرأة الشاعرة تفعل بل تزيد، وما تاريخ حرب البسوس الطويلة، والخنساء وأشعارها الحزينة المثيرة، وسلمى بنت عمرو، إلا صور ناطقة بحقيقة النفسية العربية والمرأة العربية وماكان لها وللشعر في مجتمع الجاهلية، وإذا علمنا أن تباعد اللهجات جعل من لغة قريش وسيلة الربط بين قلوب العرب وعواطفهم، أدركنا ماكان لهذه اللغة من اعتبار في نظر المجتمع.

---

(31) راجع الأساطير العربية قبل الإسلام للدكتور محمد عبد المعيد خان، وقد نقل عن سترابون ص63 ط1937.

(32) راجع تراجمهم في كتاب أحمد بن الأمين الشنقيطي ط 1329 وإن كان لم يورخ لهم فالمهلهل ت 500م والشنفري 525 م والنابغة ت 604م وامرؤ القيس ت 539 م وطرفة ت 552م وعنترة 615م وزهير بن أبي سلمى ت631 م وعمرو بن كلثوم ت 570م ولبيد بن ربيعة ت 680م 41هـ والحطيئة ت 679م=59هـ. راجع التعاليق ما بعد213 أعلاه.

كان العرب قد عرفوا لهم تجمعات دورية في أسواق معينة، وفي فصول معينة، يتاجرون ويتناظرون، وكانت لهم رحلتي الشتاء والصيف، وكان لليمن وعمان والبحرين والحجاز تجارة واسعة لما في بلادهم من المعادن والأحجار الكريمة والمنسوجات والعطور والغلات الزراعية، وكانت لهم مرافئ كثيرة مثل مخا، وعدن، وتصدر منها أنواع الحلي المصنوعة من الذهب والفضة، واللؤلؤ، والمرجان، والتمر، والصمغ واللبان والحناء، ثم أنواع الماشية والصوف، والوبر، والجلود، والقمح، والشعير، والأرز، والسكر، وكانت أهم مخازن التجارة مكة المكرمة ، بأرض الحجاز و صنعاء بأرض اليمن ، و كانت تجارتهم ومعاملاتهم تعتمد الربا بشكل كبير عرفه العرب واليهود أكثر(33) ، حيث كان يعتبر عندهم نوعا من البيع، وكانت سوقه الطائف ونجران، كما كانت أسواق دومة الجندل في البادية شمالا، وهجر في البحرين، وعدن وصنعاء في اليمن، ونو المجاز بجانب عرفات ، ومجنة بالقرب من مكة، وعكاظ وهو أعظم أسواقهم ومواسمهم.

وقد كان لهذه الأسواق أوقات وفصول، إذ كانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول، وكانت تستمر إلى آخر الشهر، وكان أكثر تجارتها في الحبوب والماشية، كما كانوا ينزلون هجر في جمادي الأولى، وأكثر تجارتها في التمر، ويقوم بها تميم رهط المنذر بن ساوي التميمي، وينزلون عدن في شعبان وأيام رمضان، يتاجرون في الطيب، وينزلون صنعاء في بقية رمضان للإتجار في الأدم والبرود، وهي الثياب المخططة والأكسية التي يلتحف بها، ثم يرتحلون في الأشهر الحرم إلى عكاظ التي كانت مجمع فطاحل الشعراء، وكانت مجمع القبائل من قريش وغيرها وخاصة مضر، وكان يقوم بأمر الحكومة فيها أناس من تميم، وكان أحدهم الأقرع بن حابس، ولم تكن قاصرة على البيع والشراء، بل كانت دائرة العمل فيها أوسع، إذ كانوا فيها يتحاجون ويتفاخرون ويتناشدون الأشعار، ومن كان له أسير سعى في فدائه ثم ينزلون بمجنة عشرين يوما من ذي القعدة، فإذا أهل ذو الحجة نزلوا ذا المجاز فيقيمون إلى يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة.

---

(33) راجع سورة البقرة الآيات: 275 ـ 279 وسورة آل عمران 130 وسورة النساء 161 وسورة الروم 39.

وكان يفد على هذه الأسواق كثير من قبائل العرب لأداء الحج وقوافل كثيرة من غير بلاد العرب للتجارة بمناسبة مواسم الحج كلطائم كسرى وهي عبارة عن عير تحمل المسك والبز وغيرهما للتجارة، وقد بقيت تلك الأسواق قائمة في الإسلام إلى زمن الخوارج بمكة سنة 129هـ حيث تركت، وإذا كانوا يتبادلون منافعهم في هذه الأسواق عكاظ ومجنة ويتعرفون فيها على الجديد في حياتهم فإن الأهم الذي كان يثير انتباههم ويثير الاعتزاز بينهم هو ظهور شاعر وإلقاء قصيدة تذهب وتعلق في سوق من تلك الأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز وهجر، وفي موسم الحج الذي كان يستمر عشرين يوما تلقى فيه المعلقات والمذهبات. وفي وصف ما عرف للعرب وقت ذاك قيل : أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد : قلوب اليونان، وأيدي أهل الصين، وألسنة العرب.

وإذا كانت العرب في حياتهم الفكرية أول ما عرفت لتوجيهها وتكوين خلقها أفرادا وجماعات هم الخطباء الحكماء،أمثال قس بن ساعدة، وعمرو بن معدي كرب. فإنها عرفت منهم ومن بليغ نثرهم الفصاحة وبلاغة المثل والحكمة، أولئك هم الذين وضعوا لها القواعد، من خالفها لا يعتد بقوله ولا يلتفت لرأيه، لم يتكلفوا لفظا، ولم يبحثوا عن المحسن، ولم يستعملوا السجع إلا ما كان عفوا. مع جزالة اللفظ ومتانة التركيب وسهولة استخراج المعاني بدلا من التعمق فيما يستعصي على الذهن، ولذلك كانوا يستعملون الأمثال السائرة، والحكم الجذابة الصائبة، وقد تناولوا في خطابتهم من الأغراض ما كان الدليل لوضع أغراض الشعر. بعدما تناولوا في الخطابة الفخر بالحسب والنسب، والذود عن الشرف والموعظة، والحث على البعد عن المساوئ والتخلق بالمكارم. وتناولوا الدعوة إلى الإئتلاف وترك الحروب وإظهار مساوئها. كما تناولوا في الخطابة مدح الأمراء والملوك ورؤساء القبائل(34).

---

(34) راجع تراجم قس بن ساعدة وهو أول من قال: أما بعد، المحاضرات لليوسي 266 ط1976 . وعمرو بن معدي كرب وهو خطيب العرب الذي اشتهر بوصف الشجاعة والمروءة والبطش، وأكتم بن صيفي زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان إلى كسرى. وقس بن خارجة خطيب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفاني خطيب يوم الفجار، وأول من قال القريض والرجز، يعرب بن قحطان. راجع المصدر السابق والعقد الفريد لإبن عبد ربه ج 1والعمدة لإبن رشيق. وكذا البيهقي المحاسن والأضداد. جـ 99/2 ط ليبزج والأخبار لابن قتيبة 244/3.

وقد استعملت العرب الخطابة قبل الشعر في كل علاقاتها الفكرية لسهولة استعمالها وعدم تقييده، لكن أنواع الخطابة لم تحفظ كما حصل للشعر الذي عرفنا قديمه، وإن كنا لا نعرف أول من قاله من العرب، بل ولا ما كان لهم من نظم قبل القرن الخامس للميلاد، وأن ما وصلنا من مقطعات مهلهل، ومطولات امرؤ القيس، لاشك أنها سبقت بمراحل طويلة وإنتاج غزير وغزير جدا، وما يقال عن نشأة الشعر وكيف تطور الوزن والقافية من الحداء الناتج عن رتابة خطو سفينة الصحراء الذي هو الجمل، إلى الرجز ثم البحور، لم يكن أكثر من استنتاج للتقريب فقط، كما أضافوا إليها ما يستمد من ظروف ونفسية العرب الدقيقة الحساسية السريعة التأثر، القوية الشعور، والتي يكونها ويساعد على نموها صفاء الجو وتحديد القصد. وكثرة الحل والترحال إلى جانب بساطة العيش وثراء اللغة بكثرة مفرداتها وتنوع أساليبها ودقة تعبير ألفاظها، وبمراجعة أدبية لمميزات الشعر، وألفاظه وأوزانه وأسلوبه ومعانيه وأغراضه يتبين المرء حقيقة ما تميز به العرب على غيرهم في هذا المجال، وأن الزمن الذي نشأ فيه هذا الفن وليدا ثم شب وترعرع وبلغ الذروة في القوة، ليس بالقصير ولا بالقريب إلى درجة أنه يعرف ويحدد. ومما يستدل به على سمو أفكار عباقرة الشعر الجاهلي نورد لبعضهم من الأمثلة ما يلي :

قال امرؤ القيس وقد قيل إنه جمع في البيت التالي بين الحقيقة والشريعة وهو رأي أبى علي الحسن بن مسعود اليوسي في المحاضرات ص63 ط 1976 الرباط.

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

وقال لبيد في جاهليته :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وقال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقال النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

وقال زهير :

ومهما تكن عند إمرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقال أيضا :

ومن يجعل المعروف دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

أورد ابن عبد ربه في العقد الفريد أن ابن عباس قال : قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيكم يعرف قس بن ساعدة الايادي قالوا : كلنا نعرفه، قال : فما فعل. قالوا : هلك. قال : ما أنشأه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول : إسمعوا وعوا : من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، سحائب تمور، ونجوم تغور، في فلك يدور. ويقسم قس قسما أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا، ثم قال : ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أيكم يروى من شعره فأنشأ بعضهم.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

ولا تفوتنا الإشارة وقد مضى على العرب زمن طويل لم يعرفوا فيه الكتابة فإن أول من تعرف عليها هم حمير كما تدل على ذلك آثار ونقوش أوردها الكثير من الباحثين غربيين وشرقيين. عليها كتابة بالخط المسند حروفها منفصلة انفصالا غريبا، ولم يكونوا يعلمونها ولا يبيحون استعمالها للعامة إلا بإذن كما يخبرنا بذلك ابن خلدون في مقدمته، وما كتبه من فصل حول الخط والكتابة وقد قيل إن الخط العربي في صورته البدائية

مشتق من الخط النبطي الذي كان أسلوب الانباط في تدوين لغتهم وهم من العرب القدامى الذين سكنوا شرق الأردن وحوران وكانت البتراء عاصمة لهم، وهذه اللغة النبطية بدورها إحدى سلالات اللغة الآرامية، لهذا نفى الباحثون العلاقة بين نشأة الخط العربي والقلم الحميري الذي كان أسلوب الكتابة عند التبابعة من أهل اليمن(35) إلخ. ولقد قيل إن باقي العرب وخاصة أهل مكة لم يكن لهم بالكتابة أي إلمام، اللاهم إلا ما كان منهم يهوديا أو نصرانيا، وأول من استنبط صور الحروف العربية مرامر بن مرة الأنبار، ثم أخذها بشار الكنسي عن أهل الأنبار فيما يقال، ونقلها إلى مكة، وذلك قبل الإسلام بقليل، وهي غير حروف الحميرية، وبها كتب القرآن في أول الأمر، ومضى على العرب دهر طويل وهم يستعملونها على قلة ما كان فيها من الأحكام، إذ هي إن لم تكن عين الخط الكوفي الذي يرى به إلى يومنا هذا كثير من النقوش والكتب القديمة، فهي لا تبعد عنه كثيرا، أما الحروف الجميلة الصورة التي يكتبون بها الآن، فقد استنبطت من الكوفي أبو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر والقاهر والراضي من "ملوك" العباسيين، وذلك بعد الإسلام بزهاء ثلاثمائة سنة، ثم هذبها ونقحها علي ابن هلال، المعروف بابن البواب متأخرا عن ابن مقلة بنحوقرن، ومع ذلك يقال أن الذي نقلها إلى الصورة الحاضرة هو ياقوت المستعصمي كاتب المعتصم، آخر ملوك بني العباس، ولذلك لقب بالخطاط.

وبالتالي فإن العرب لم يفتخروا فقط بالفصاحة، بل افتخروا بالشجاعة والكرم كذلك، وكان هذا نتيجة بلوغ مستوى يحترم بين العالمين.

هذا المستوى الرفيع من التفكير ماذا كان ينقصه، وقد بلغ الذورة في الفصاحة والبلاغة، كان في حاجة إلى رسالة من السماء ترشده إلى ما هو أحسن وأفضل تجمع شتاته، وتوحد صفوفه، وتمكن للعدل والإحسان بين الناس جميعا، تحارب الظلم الناتج عن الشر الذي طبعت عليه النفوس، فكانت رسالة الإسلام التي بدلت حياة العرب وشعراءهم، وجعلت أمثال لبيد حين استدعاه عمر بن الخطاب أيام خلافته وهو صاحب المعلقة الرابعة ليستنشده، ينطلق ويكتب سورة البقرة في صحيفة يعود بها إلى عمر

(35) راجع مادة الخط في القاموس الإسلامي 254/2 ط القاهرة 1966.

ويقول : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، ولم يرو له في الإسلام إلا بيتا واحدا هو:

الحمد لله إذ لم يأتيني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

و إذا ما بعث الرسول العظيم محمد صلى الله عليه و سلم ولقي من عنت قريش ومقاومتها ما تحطم أمام الرسالة، فإن أبلغ ما جاء به الإسلام وهو القرآن العظيم الذي جاء بلغة قريش وبواسطة أفصح العرب كما قال (صلى الله عليه وسلم) أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر، وكان مسترضعا(36) فيهم،ذلك أنه إذا كانت اللغة قد نقلت عن قبائل قيس وتميم وضبة وأسد وهذيل وبعض كنانة كما يقول اللغويون وبعض الطائيين، فإن قريشا جمعت من أحسن ما عندهم في لهجتها العربية السليمة(37)، وقد جاء القرآن الكريم بأبلغ القول وأفصحه، سليما من جميع العيوب، وأوجز وصف هو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها مع تحدي النبي الكريم إياهم وتعريفهم بالعجز عنه «وهم الغاية في الفصاحة والنهاية في البلاغة، وأولوا العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب والسجع المقفى المنثور والمنظوم والأشعار في المكارم، وفي الحب، والزجر والتحضيض، والإغراء، والوعد، والوعيد، والمدح، والتهجين، فقرع به أسماعهم، وأعجم به أذهانهم، وقبح به أفعالهم، وذم به آراءهم، وسفه به أحلامهم ، وأزال به دياناتهم وأبطل سنتهم، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم أن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، مع كونه عربيا مبينا(38) »، وهكذاإذا قال رسول النعمان لكسرى حين سأله عن العرب فقال: العرب بعزها، ومنعتها، وحسن

(36) راجع سيرة ابن هشام ط 1329 والروض الأنف للسهيلي 508 ـ 581 هـ/ 1114 ـ 1185م، وكذا التهذيب في أصول التعريب 42 ـ 43.

(37) راجع المصدر السابق وما قاله الهمداني في صفة جزيرة العرب حول الفصيح وغير الفصيح من قبائل العرب ص 43 ـ 44.

(38) المصدر السابق ص 50 ـ 51. ثم مروج الذهب بل راجع إعجاز القرآن للرافعي مصطفى صادق، قال الرسول صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف، وقد فسره بعض الأيمة بمعنى لغات سبع قبائل من العرب نظمها بعضهم : قريش، تميم، ضبة، وبنو أسد ، وقيس، كنانة، هذيل فلا تزد.

وجوهها، وشدة بأسها، وسخائها، وحكمة ألسنتها، وحدة عقولها، وأنفتها، ووفائها، ولذلك لما ظهر الإسلام اختارهم الله لنشر رسالته، وقد قال تعالى في حقهم «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله» الآية 10 من آل عمران.

أولئك هم العرب وتلك هي رسالة الإسلام التي يصدق عليها أحسن وصف قاله جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة، وهو كما أوردته جل مصادر التاريخ، ولقد كانت غزوات بدر الكبرى وأحد والأحزاب، ثم فتح مكة إيذانا بإتمام الرسالة المحمدية حيث توفى رسول الله (صلى الله وسلم) بعد سنتين من فتح مكة سنة 11 هـ، وفي يوم الإثنين 12 ربيع الأول عن سن ثلاث وستين، أربعون منها قبل النبوة وثلاثة عشر في مكة، وعشرة في تنظيم الدولة بالمدينة ومحاربة الشرك ثم نشر الرسالة في جزيرة العرب وغيرها.

لقد أجملنا تاريخ العرب وظهور الإسلام في هذه الصفحات ونحن نؤرخ للمغرب، ولعل سائلا يقول لماذا؟ أقول إن الدافع هو أن القارئ وقد عرف قبل عن تاريخ المغرب القديم أن المغاربة لم تكن لهم دولة، ولم يكن لهم كيان يذكر، رغم ما كانوا يتمتعون به من حكم محلي وحكومات قبلية متفرقة هنا وهناك، وأنهم لم يصبحوا بحق أمة ودولة إلا بفضل رسالة الإسلام، وأن هذه الرسالة إذا نحن استوعبنا التاريخ بإمعان نجدها أنقذت شعوبا كثيرة وبلادا أكثر، وقبل أن ندخل في زمن الفتح للمغرب الذي بدأ في خلافة عمر بن الخطاب، يجب أن نعرف أيضا ماذا كان عليه العالم زمن ظهور الرسالة المحمدية، وقبيل ظهورها بقليل حتى نجزم أنها أنقذت البشرية وليس المغاربة وحدهم ولا العرب وحدهم.

الفصل السادس والعشرون

العالم والمغرب الكبير وقت ظهور الرسول (ص) ورسالة الإسلام

وهكذا إذا نظرنا ولو بإيجاز إلى حالة الإنسان في مختلف بقاع الأرض وقت ظهور هذا النبي العظيم الذي أرسله الله بدين سليم قويم، كانت البشرية في حاجة إليه، وقد اختار الله لهذه الرسالة أمة كانت الأمية هي طابعها المميز وأنها لم تكن لها حضارة كمثل الأمم التي عرفت ألوان الحضارات، كالهند، والفرس، واليونان، والروم، بل كان العرب يدينون بآلهة متعددة بلغ عدد أصنامها داخل الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنما، كما كانت اليهودية والمسيحية منتشرة في قلة قليلة، وكان للحنيفية ملة إبراهيم رجال إهتدوا إليها ولم يقبلوا سواها، خصوصا وأن «هاجر» لما هاجرت بولدها إسماعيل من وجه سارة وقصد بها إبراهيم (عليه السلام) أرض الحجاز، كانت السبب في وجود بئر زمزم، وتلك ذكريات من السهل التذكير بها كل يوم وساعة وليلة، حتى لكأن العربي يعيش زمن إبراهيم عليه السلام، خصوصا في أوساط أهل الحضر الذين كان من السهل إثارة ما مضى من التاريخ بينهم ليتعرفوا على حقيقة الدين الجديد، وقد زاد اقتناعا ما كانوا يسمعون بواسطة أسفار التجارة واستقبال الحجيج والواردين، من آراء انتشرت وذاعت في مشرق الأرض ومغربها، ثم أصبحت دافعا من أهم دوافع المهتمين من ذوي الديانات السماوية للبحث والتحقيق في موضوع الدين الذي ظهر، ورسوله الذي أخبرت به الكتب وما جاء به الرسل قديما(39) . كان الناس في مختلف جهات المعمور

---

(39) عرفت الهند من خلال كتابها المقدس "الفدا" وأجزائه الأربعة "اتهاروید" و"راجوید" و"ساموید" و"یجروید" ففي الأول : أتهاروید، ورد في الفصلين أو البيتين "منترين" الله سكنه والله ينشد إسم النبي (ص) كما ورد ذكره في الكتاب كالكي قوران وهي بشارة واضحة جدا في كتاب تصديق الهندوي الذين =

زمن ظهور الإسلام يعيشون فترة قلق عمت الأرض وما عليها، دمرت فيها أمبراطوريات في شرق أوربا وغرب آسيا، حيث كانت الحضارة التي عرفها الناس ترجع في أصولها إلى أرض الإغريق والفرس والروم، وما كان أحد يتصور أن شمسها ستغرب أو تغيب، وكانت الديانات بما فيها السماوية تجتاز مراحل جد معقدة، اليهود مقطعون في الأرض لا وطن لهم ولا نصير، يعيشون الاضطهاد الناتج عن تفاعل الشر الذي سكن عقول قادتهم ومفكريهم، وكان المسيحيون قد توصلوا إلى إيجاد الحلول للتفسيرات المعقدة التي صنعها بعضهم للنصرانية، ولم تكن هذه الحلول غير الإنتقام والتقاتل والتطاحن، أما حيث يقع البشر تحت سيطرة الرواسب المتخلفة عن المزدكية والزرادشتية وعبادة النار في فارس، فإن كسرى الثاني لم يكن يعنيه من الأمر أكثر من بسط نفوذه ونشر سلطانه تحديا للروم ، حيث حارب مصر وسوريا، كما احتل الفرما ومنف ثم تقدمت

= يسمون بلاد العرب "سيند ديب" وبلاد إيران «ساكوديب» وقد قسموا العالم إلى أربعة أقسام، وقالوا لكل قسم منها "جك" والقسم الأخير من الزمن يسمونه "كلجك" وقد جاء أن في "كلجك" يولد هاد كبير، في الثاني عشر من الشهر القمري "سدى ماه بيساكي "يوم الإثنين في الصباح، ويكون في هذا العهد بإيران "ساكوديب" ملك عادل وفي "متهرا وكاشي وكناج" بلاد مشهورة في الهند، حكومة الضالين "مليجة راج" ويكون اسم أبيه "وسنويس" عبد الله وإسمه أمه "سومس" آمنة، ويموت أبوه قبل مولده وأمه في طفولته، ويبدأ عبادة الله في الجبل، ويجيئه إذ ذاك "برش رام" جبريل إلخ. وفعلا قد ولد رسول الله (ص) يوم الإثنين 12 ربيع الأول وكان في إيران ملك عادل هو كسرى أنوشروان. إلخ ما قيل وورد ذكر محمد (ص) في الكتاب المقدس عند الهنود "ساموید" كما ذكر في وصايا "كوتم" بذا بل حتى في كتاب المجوس "نامه شست سانين" راجع كتاب البشائر للصارم الهندي أبو الكمال القاضي عبد الصمد ص 7 ـ 14. ط حجازي تقديم الطنطاوي الجوهري بدون تاريخ، والذي أوردنا ما فيه على سبيل الاستئناس لأن به علم الغد، وهذا علمنا الإسلام أن علمه عند الله.

أما في التوراة فقد ورد في سفر التثنية وهو السفر الخامس الأصحاح 18 الفقرة 18 العهد القديم ط جمعية التوراة الأمريكية والبريطانية القاهرة 1938 ص308 ورد فيه أن الله جلت قدرته قال لموسى عليه السلام، «قال لي الرب أحسنوا في ما تكلموا أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به" وورد ذكر الرسول (ص) في إنجيل يوحنا الأصحاح الأول الفقرة 21 وقد حذفوها قصدا من طبعة 1938 الملحقة بالعهد القديم. بحيث ورد في الأصحاح المذكور الفقرتين 19 ـ 20 ثم 22 راجع ص 145 ـ 146 إلخ ومع ذلك نجد أمثال صاحب كتاب "ميزان الحق" وهو القسيس الدكتور فندر. والمعلق على كتاب مقال في الإسلام لجرجس صال الأنجليزي، وهو الذي سمي نفسه" هاشم العربي نزيل بلاد الافرنج والمطبوع 1891 يحاول جاهدا بطريقة حاقدة المساس بالإسلام والرسول (ص) وقد اقتدى به غير واحد وخصصت لذلك أموال طائلة لكنها جميعا باءت بالفشل. ثم راجع كتاب أدلة اليقين في الرد على ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام تأليف عبد الرحمان الجزيري. ط مصر 1934.

جيوش الفرس إلى الإسكندرية التي طردت منها قوات الروم واستمرحكم الفرس لمصر عشرة أعوام، ثم بدأت الحرب بين الروم يقودهم داريوس عام 622م. وتم الصلح 628 م حيث رجعت مصر إلى الرومان ثم انتهى إلى احتلال بيت المقدس، وبذلك حقق حلمه الذي كان إعادة إمبراطورية داريوس، وقد حاول كسرى أن يكون مثل أبيه، لكنه تعرض بعد أحد عشر عاما لغزو شاهنشاه الترك الذي زحف على بلاده حتى دخل إلى خراسان، كما زحف ملك الخزر على أذربيجان وإذا هو اختار القائد بهرام لرد عاديات الأتراك وانتصر عليهم، فإنه تعرض لوشاية كانت السبب في انتصار الشعب لبهرام وخلع هرمز ثم تولية ولده أبرويز الذي تعرض لغزو القائد بهرام الذي حاول الملك، لكنه فشل ولجأ إلى ملك الأتراك، وذلك في كلام يطول، وأما البزنطيون فقد واجهوا تحركات، ومهاجمات بعد موت جاستنيان 565 م كما سبق لكنها خمدت وحلت محله زوجته تيودورا التي قامت بأدوار من الدس والكيد، دخلت بهما التاريخ الذي سجل على الأباطرة ما سجله من ضعف وهوان إلى سنة 610 م حيث اعتلى العرش هرقل الذي لم يكن له نشاط أهم من الإعداد لحرب الفرس الذين انهزموا أمامه سنة 627م في جل البلاد التي انتزعوها من سلفه، وكأنه بذلك لم يكن غير عامل ساعد على التمزيق والهدم، ليحل محلها عمل المصلح الباني الذي كان في الطريق إلى الظهور وهو الإسلام ورسالته بواسطة رسوله للناس أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم.

ولعلنا نكون أخللنا بالربط إذا نحن لم نعرج شرقا وغربا لنعرف ما كانت عليه أرض الهند وأوربا وكذا الصين، فالهند كانت ممزقة إلى مهرجانات ودويلات لا تعرف غير التناحر والحروب. ومثلها الصين التي كانت تتولى فيها السلطة أسرة تانج، ولادين لها إلا ما كان من المذاهب الأخلاقية التي هي الكونفوشية والطاوية والبوذية التي بدأ ظهورها في اليابان وقت ظهور الإسلام في جزيرة العرب، أما أوربا التي مزقتها قبائل التوتون الأجلاف ثم أسسوا فيها دولا بعدما تغلبوا على قبائل الهون، ثم قتلوا قائدهم أتلا الذي دوخهم زمنا، وذلك بالمكان المعروف شالون بالغرب من باريز، أيام البابواليون الأول بروما كما سبق، ومن وقتها وروما التي حكمت أوربا في التأخر حتى تمزقت أوصالها، وأصبح الرومانيون رعايا القبائل التوتون الذين أصبحت لهم السلطة العليا في كل من إسبانيا

وفرنسا وبريطانيا، ثم تحولت تدريجيا إلى إمبراطورية ضمت الدول المذكورة وإيطاليا الشمالية ومعظم الأراضي الواقعة شرق الراين حتى الحدود الهولندية مع لبروس(40).

أما الاسبان الذي كان حكمهم بيد "الفيزيجوت" وهم الذين طردوا من فرنسا التي كانوا يحكمونها حتى نهر اللوار، فإنها كانت ممزقة وكان اليهود فيها على أسوأ حال، مما كانوا عليه في بلاد أخرى، أما الأنجلو ساكسون والطوطيين معهم فقد كانوا شذرمذر في جزرهم، لا علاقة لهم بالرومان وجيشهم المتسلط عليهم غير اللغة اللاتينية، أما ديانتهم فعبادة ثور وودن، كما كانوا يباعون في الأسواق، حتى انتهت بهم النخاسة إلى روما حيث شاهدهم القديس أوغسطين وقد أخبرنا بذلك، أما تاريخهم الذي يتمثل في الملك آرثر منتزع السيف المغروس في الحجر حسب وصف شاعرهم تينيسون، فإن مميزاته تلك والأعمال التي سجلها هذا الشاعر فيما سماه قصائد الملك حول أعمال أرثر وفرسانه لتدخل في باب الأساطير.

أما بلاد شمال إفريقية كما عرفنا قبل فقد رأينا كيف طرد منها الوندال بواسطة بلساريوس، ثم ارتبطت بالبزنطيين، والتي لم تكن غير البلاد التي عاشت في الحروب وللحروب زمنا طويلا، لم تكن فيها غير حطب يلقى في نار موقدة، بل كما عرفت كل البلاد التي استعمرها البزنطيون من أنواع القهر والتعذيب وأعمال القسوة القاسية والعنف العنيف، ما جعلها تتطلع لفجر جديد ومنقذ أمين.

وهكذا عندما ظهر الإسلام لم يكن العالم يعرف في مختلف أرجائه غير الفتن وأهوال الحروب الطاحنة طيلة قرون خلت قبل ظهور الإسلام، والرسالة المحمدية التي جاءت في الوقت المناسب لتبدل وتغير حال الناس كي يتطلعوا إلى مستقبل لم يكن أحد من العالمين يتصور حدوثه، وسيكون المنطلق من جزيرة العرب الذين كانوا اجتماعيا أحط من جل الذين ذكروا آنفا، وتلك إحدى معجزات هذا الدين الحنيف. حيث بعث الله فيهم رسوله العظيم محمد بن عبد الله (ص) والذي ولد عام الفيل حوالي570/9/29 م(42) ثم

---

(40) راجع التاريخ العام لفليب فان نس مير الأمريكي ص 209 ـ 219 ط1 سنة 1912 وقصة الحضارة لول ديورانت جـ3م 4 مصدر سابق.

(41) راجع الموسوعة العربية ص 112 ط 1965 وتاريخ العالم لفيليب فان نس ص 206.

(42) راجع سيرة ابن هشام لمحمد بن إسحاق رواية عبد الملك بن هشام البصري المتوفى 218هـ مصدر سابق.

بعثه الله بعد أربعين سنة فكان أول من آمن به (ص) عبد الله بن عثمان عتيق أبي بكر بن أبي قحافة، وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة وعلي بن أبي طالب ابن سبع، ولما اندفعت قريش بجهالتها لمقاومته، هاجر المؤمنون به إلى الجبشة حيث دين النصرانية، وأما الرسول فقد هاجر إلى المدينة يثرب يوم16 يوليو سنة623م، وهذا أول يوم في تاريخ دولة الإسلام، تاريخ الهجرة النبوية، فكان إلى جانبه الأنصار والمهاجرون الذين أيده الله بهم وأيدهم به، وبعد ست سنوات كتب إلى هرقل الروم بالقسطنطينية يدعوه إلى الإسلام، كما كتب إلى سائر ملوك العرب والعجم، ومنهم يوحنا(43) بن قرقت اليوناني حاكم مصر من قبل ملك الروم(44) وقد خاض رسول الله(ص) وصحبه ومن آمن معه سبعة وعشرين(45) غزوة قاتل (ص) في تسع منها فقط هي: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وكان صلح الحديبية الذي أتاح للمسلمين الحج، وتمت عمرة القضاء سنة 7هـ 629 م ثم بعد المراسلات تجهز لغز و مكة بعد نقض قريش لصلح الحديبية سنة 8 هـ ودخلها بدون قتال ثم حطم أصنام الكعبة وأسلم بنوهاشم، بعدها أخذت تفد عليه قبائل العرب منقادة للإسلام، فعرف عام 9 هـ بعام الوفود وحج (ص) عام 10هـ حجة الوداع ثم خطب مرددا صلى الله عليه وسلم حيث قال «الاهل بلغت اللهم فاشهد» ومرض في بيت عائشة مرض الموت ثم عهد إلى أبي بكر الصديق أن يؤم المسلمين في الصلاة، فكان ذلك بمثابة الوصية بخلافته، عندما توفى (ص) سنة10هـ/ 632م ودفن بالمدينة المنورة، ثم تابع أبو بكر نشر الإسلام على نفس النهج الذي عهده منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنئه عمر بن الخطاب لما تولى مكان أبى بكر، سنة 11هـ/632وتوفي عام13هـ 634انتشر الإسلام بسرعة كبيرة في

---

(43) راجع الوثائق السياسية لعهد النبي(ص) والخلافة الراشدة جمع د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ط2:1956. ولقد عرفت مصر ألوانا من المحن بعد ظهور المسيح. إذ كانت قبل ومنذ سنة 30 ق.م ولاية رومانية ولما ظهرت المسيحية وتمكنت من أبنائها بعد ظهور المذاهب حيث ساد بها المذهب اليعقوبي الذي يقول بإمتزاج الطبيعتين " الإلهية البشرية والمسيح بعد التجسد وهو ضد المذهب الملكاني مذهب الحكام.

(44) راجع الوثائق السياسية جمع محمد حميد الله الحيدر أبادى ط 2: 1956م.

(45) أولها غزوة ودان بعد الهجرة بسنة وشهرين وعشرة أيام وآخرها غزوة تبوك وكانت بعد الهجرة بثمان سنين وستة أشهر وخمسة أيام.

أرض العراق ، وفارس، والشام، وفلسطين، وغيرها. لكن هل كل من دخل كان سليما؟ ربما ينطبق الحديث الشريف "الإسلام يجب ما قبله" على البعض من الذين عرفهم الصدر الأول من أجلاف الأعراب لكنه قطعا لا ينطبق على الكل.

لقد جاء الإسلام ليكتمل بالإيمان والإحسان، جاء والقوم في جهالة عمياء وعنجهية سافلة وأخلاق أكثر سفالة، تلك حالة الدهماء، أما عليتها فقد مثلهم أبو سفيان والعاص بن وائل السهمي كبير قبيلة بني سهم، الذي بالغ في حقده على رسول الله (ص) وهو من هو سقوطا حين غدر التاجر اليمني في ثمن تجارته، مما اضطره إلى رفع مظلمته لقريش التي كان أفاضلها على حق حين عقدوا حلف الفضول الذي شهده الرسول (ص) ، ثم إمتدحه بعد حين قال: « لقد شهدت في دار عبد الله بن جذعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعي إليه في الإسلام لأجبت» صاحب الجريمة التي نشأ عنها هذا الحلف، هو العاص الذي بلغ العقد التاسع من العمر يوم هاجر الرسول من مكة فرارا من ضيق أمثال العاص الذي آخر ما سجل في حقه كتاب الله يوم مات لرسول الله ولداه القاسم وعبد الله، قال العاص لقريش «أتركوا محمد فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره» فأنزل الله آيته على نبيه تخفيفا ورحمة «إن شانئك هو الأبتر» الكوثر3(46).

العاص هذا هو والد عمرو الذي أسلم يوم حصار مكة وهو يكبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسبع سنين، كان أحد الثلاثة الذين بالغوا في هجو رسول الله (ص) وهم أبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن الزبعرا. إلى جانب هذا المثال من العرب وهم كثرة كبيرة جدا دخل في الإسلام الأعاجم من كل ملة، دخلوا وقد سبق إلى أذهانهم من مجوسية مانى وهلاك المزدكية ما ظهر أثره بعد قليل، وليس هؤلاء فحسب، بل كان بالجزيرة نفسها من هم أشد حقداعلى الإسلام ورسول الإسلام ورسالة الإسلام، إنهم اليهود بحقدهم القديم الذي دفع بهم إلى حذف اسم الرسول(ص) من التوراة في العهد القديم، خصوصا وقد جاء الإسلام ليحارب تجارتهم في العروض كما حارب الربا والنسيئة وبيع الغرر، وما قصة بني قينقاع وبني النضير الذين أبعدوا بعد كشف

(46) راجع إبن كثير 559/4.

وفضيحة لدسائسهم إلى أذرعات بأرض الشام وخيبر بخافية، ومع ذلك أخيرا تحزب اليهود مع أمثال العاص ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضد الإسلام الذي قال عنه اليهود إن دين قريش أفضل منه، وقد كان المتزعم لليهود من بني النضير حي بن أخطب مرتبط بحلف مع أبي سفيان رغم أن ابن أخطب لم يفلح في جر كعب بن أسد كبير بني قريظة اليهودية، إلا بعد ما عرف كعب الذي تمانع كثيرا، أن أبا سفيان باسم قريش جر قبائل غطفان، وإذا هم تنكروا للعهد الذي كان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحقق الرسول عليه السلام بإرسال سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة، وقوات بن جبير، والذين ما أرسلهم حتى رأى ما حل بالمسلمين من ضيق تحت تأثير الدعاية، حتى قال أحد المنافقين وهو متعب ابن فشير «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» وإذا ما رجع القوم الذين أرسلهم الرسول ليستطلعوا حقيقة بني قريظة. ثم أشار عليهم «إلحنوا بعد العودة لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس» حتى لا يكثر أمثال معتب أو لايثور المستمسكون، عادوا وقال سعد من القول ما فهمه إلا الرسول(ص) «عضل والغارة» وتلك إشارة إلى نهاية الخسة في الغدر الذي حصل من قبيلتي عضل، حين طلبوا إلى الرسول من يعرفهم الدين فلما خرجوا بهم وهم ثابت بن أبي الأبلج وحبيب بن عدي، ومرثد بن أبى مرثد، وخالد بن البكير ويزيد بن الذائبة وعبد الله بن طارق. إنقلبوا فيهم بالغدر قتلا بالمريج بعيدا من عسفان بأربعة عشر ميلا، فقاتل المسلمون الذين قتل منهم بالغدرأربعة وألقوا القبض على اثنين هما يزيد وحبيب باعوهما لقريش لكنه شاء القدر أن تخذل قريش وغطفان بني قريظة بدهاء نعيم بن مسعود الذي استأذن الرسول في ذلك وأن تقع بني قريظة في ما نصب لها ولقريش من شباك وأن يكشف الله بني قريظة، بعدما قتل علي عمرو بن عبدون من ولد لؤي في مبارزة بطلب من عمرو، ورغم أن بني قريظة التجأوا إلى حصونهم التي أغلقوها عليهم، وانصرف النبي (ص) إلى المدينة في الصباح الموالي لرحيل قريش وغطفان. فإنه في نفس اليوم وبوحي كريم أمر أن يتوجه إلى بني قريظة، وأن لا يصلي العصر إلا بها، وكان ذلك في ذي القعدة من سنة 5هـ/625م وكان علي هو الأول الذي وصل، ثم نزل على بئر مرج آبارها

حاملا رايته. ثم نزل الرسول(ص) كذلك على بئرمن آبار بني قريظة، وتلاحق القوم ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة عرفوا فيها الضيق الذي ظنوا أنهم مع قريش وغطفان قد وضعوا فيه الرسول(ص) ومن آمن معه، وأخيرا التجأوا بذلة إلى طلب السماح لهم بالخروج من حصونهم مثلما حصل لبني النضير بالأموال ويتركون السلاح، فلم يقبل منهم، ثم طلبوا الجلاء بلا مال ولا سلاح. فلم يقبل إلا أن يقبلوا ما يشترطه الرسول (ص) شرا أو خيرا. فلم يكن منهم وقد عرفوا صدقه ووفاءه وأمانته وعدم تراجعه إلا أن قبلوا، فأمر (ص) برجالهم فكتفوا وكانوا نحو السبعمائة رجل.

بعدها لما جاء وقت المحاكمة رفض(ص) أن يكون هو الحاكم. وهو الخصم المعني بمحالفتهم مع قريش ومشركيها ضده أولا وضد أهل المدينة وهم سكانها ثانية، فوجهت لهم تهمة الخيانة العظمى ضد الوطن بانضمامهم للعدو أولا، وتهمة التحالف مع المشركين ضد دين هو والدين اليهودي يجتمعان على التوحيد، وطلب إليهم أن يختاروا حكما من الأولين حسب اختيارهم، وهم المتهمون فاختاروا كبير الأوس الذي هو سعد بن معاذ ليكون الحكم في المتهمين فجئ به وهو جريح على حمار وقد التف به رجال من الأوس وكلهم يقول " أحسن يا أبا عمرو في مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه، فقال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم" وما كاد يجلسه قومه بأمر من رسوله الله (ص) حتى أمره بقوله : «أحكم فيهم يا سعد»، ورغم طلبات الخزرج التي تقدموا بها لرسول الله(ص) فقد أحالهم على سعد.

أخذ سعد المواثيق عن الرسول(ص) ومن حوله باحترام حكمه فقبل الجميع، وفي جدية ووقار نطق سعد بالحكم قائلا : إني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء».

فقال الرسول (ص) :«لقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد من فوق سبعة آرقعه». فقتلوا جميعا وردموا.

هذا مثال مما سيعترضنا عبر تاريخ الإسلام، بل وقبل أن يمضي نصف قرن على ظهوره من خيانات، يكون خلفها والدافعون لها، إما أبناء الذين كان آباؤهم أعنف في عداوتهم للرسول(ص) ورسالته من العرب، وإما من اليهود الذين اندسّوا في مجتمع

الإسلام لنفس المهمة. وإما من الأعاجم الذين لم يستطيعوا خلاصا ولا فكاكا من أثر الماضي، فالذي كان وراء المؤامرات التي دبرت للإسلام من هذه الخيانة التي كانت بتاريخ ذو القعدة عام 5 هـ ومحاولة قلب نظام الحكم في شعبان عام 6 هـ 627 م ومجرموا حرب بني خزيمة في شوال سنة 8هـ 629 م تخلف الثلاثة عن حرب الغساسنة والروم الذين كانوا يريدون مهاجمة المدينة عندما أخذ الرسول (ص) في الاستعداد في شهر رجب عام 9 هـ 630م واغتيال عمر يوم الثلاثاء 24 ذي الحجة عام23 هـ/ 643 م ومثله عثمان يوم 18 ذي الحجة عام35هـ/655 م وقتل علي يوم17 رمضان عام 40هـ/660 م من كان وراءكل هذه الجرائم ضد الإسلام وحماة الإسلام، بل ومحاربة الإسلام بالإستلاء على أدمغة المهلهلين من ولات أقطاره وحكام شعوبه بقوة القهر والجبروت بتقريب الشهوات والاغراء، بل ومن الذي كان ولا يزال يمزق أوصال المجتمع الإسلامي اليوم بواسطة دفع القوات المسيطرة في العالم من الخارج وبنات صهيون اللائي تزوجن من أبناء شعوب المسلمين ثم أنتجن ما أنتجنه لغاية هي الهدم من الداخل، لكنه رغم ذلك فالمسلم القوي لم ولن يضعف أبدا، بل لم ولن يتأثر بما يلقى في طريق الضعفاء من ساقط الشهوات التي أذلت المتهالكين الذين انكشفوا شرقا وغربا، والذين ليس لهم من سند في بلاد الإسلام المتسلطين عليها غير مساندة الذين مكنوا لهم قصد الإنتقام من الإسلام والمسلمين.

لقد اتفق العلماء ورجال الفكر في كل زمان ومكان أنه لم يعرف في تاريخ البشرية من جهة الإنقلابات الإجتماعية ما هو أعجب من الإنقلاب الإجتماعي للعرب، الذي تم على يد رسول الله (ص)، فقد كانت الأمة العربية من الوجهة الإجتماعية كما رأينا في حالة انحطاط وانحلال وفي جميع الروابط لم تكن وحدة قوية، بل ولا جامعة سياسية، ولا رابطة وطنية، ولا أصل من الأصول التي تركز عليها الميول والعواطف الإنسانية فتسموا بها إلى الغايات الخيرة والنبيلة، صحيح لقد دلت الأمة العربية على استعداد فطري للترقي بما أوجدته من المدنيات السامية في بابل واليمن، وأظهرت قبولا منها للأخذ بمدنيات الأمم الناهضة بما اقتبسه الغساسنة والمناذرة بمشارف الشام والعراق من مدنيتي الرومان والفرس، ولكن كل ذلك لم يتم إلا في قرون عديدة وبعد أن خمدت نيران

تلك الأمم الراقية شأن الجاهل إزاء العالم، فلما بعث النبي (ص) جعل من هؤلاء العرب المختلفي القبائل والنزعات، المتنافري الأغراض والغايات، أمة موحدة الوجهة، مشتركة الغاية، ذات مقومات أدبية وروابط اجتماعية، مودعا فيها روحا عالية تسموبها إلى الغايات البعيدة، وجاعلا لها دستورا يقيد حكومتها الرشيدة(47) فبلغت هذه الدولة في ثمانين عاما من بسطة الملك وانتشار السلطان ما لم تبلغه دولة الرومان في ثمانية قرون، فكان هذا الإنقلاب الإجتماعي في سرعة أدواره واستكمال أطواره، أعجب انقلاب حدث في العالم الإنساني إلى اليوم وتلك شهادة ورأي رجالات الفكر على مختلف المذاهب والنحل.

فالإسلام دين عزة وكرامة جاء لإصلاح الفاسد وإقرار الصالح. كما عبر بذلك حسان بن ثابت رغم ما يحمل القول في طياته من روح التنافس بين المهاجرين والأنصار حين يقول :

وكنا ملوك الناس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

أولئك قومي خير قوم بأسرهم فماعد من خير فقومي له أهل

الشاهد أنه حافظ للكريم على كرامته، ثم رفع الآخر إلى مستواه بالحلم والعلم والخلق الكريم، هذا بالإضافة إلى أن القرآن العظيم الذي بهر ببلاغته وبيانه عقول العرب وأعجز فصاحتهم، كماجاء بعد التوحيد في العقيدة، وبيان حدود في مجال البيع والشراء والإجارة والمعاملات المالية، وفي مجال الأحوال الشخصية والجنائية من زواج وطلاق وزنا وسرقة وقتل، وفي أقرب مدة عرف مجتمع المسلمين حياة أكرم وأحسن، نظمته حكومة رسول الله (ص) التي كان لا بد من تنظيمها منذ أن تمت بيعة أهل العقبة تلك البيعة التي كان لا بد بعدها من هجرة من مجتمع مكة إلى حيث أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، وتلك بداية أكبر امتحان لكل من أبى بكر(48) وعلي معا، فكان النجاح حليف الصديق وعميد باب مدينة العلم أبو الحسنين عليه السلام، وليس هما فقط، بل رأينا كيف

(47) راجع فقه الخلافة وتطورها د. عبد الرزاق أحمد السنهوري ط 1989.

(48) راجع الفوائد لشمس الدين محمد بن أبي بكر. المعروف بابن قيم الجوزية حول فضائل أبى بكر ص 71-74 ط مصر 1344.

استطاع الرسول الكريم (ص) أن يكون مجتمعا إسلاميا بالمدينة المنورة ولم يفارق الحياة ويودعها إلا بعدما كون للدولة رجالا حملوا راية الدين الذي تمكن من نفوسهم وعقولهم، فأثبتوا أنهم بحق أهل لحمل الرسالة وأداء الأمانة، إذ عملوا على نشر الدين والتمكين له في مشارق الأرض ومغاربها، حتى انتهت فتوحاتهم إلى المغرب الأقصى والمشرق الأقصى معا.

وقبل أن نغادر بيئة رسول الله ومجتمعه (ص) من هم أولئك الذين كانوا معه وإلى جانبه؟ من الذين آمنوا به وبرسالته ثم ناصروه واتبعوا الدين الذي جاء به؟ وحتى نتعرف عليهم ذكورا وإناثا نرجع إلى التعريف الذي عرفهم به الرسول (ص)، أولئك هم حملة الرسالة من بعده.

أورد العالم الجليل أحمد بابا التنبكتي المتظلم من طغيان وغطرسة أحمد المنصور السعدي في كتابه «نيل الإبتهاج بالذيل على الديباج». قال رسول الله(ص). من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر بن الخطاب فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان بن عفان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب علي بن أبي طالب فقد استمسك بالعروة الوثقى، ألا وإن أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وإن أقواهم صلابة في دين الله عمر بن الخطاب، وإن أشدهم حياء عثمان، وإن أفضلهم علي بن أبي طالب، ولكل نبي حواري، وحواري الزبير، ومن أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد من أحباب الرحمان، و سعد بن أبي وقاص يدور مع الحق حيث مادار، وعبد الرحمان بن عوف تاجر الله، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله، وما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجه من أبى ذر، ومن أراد أن ينظر إلى زهد عيسى فلينظر إلى زهد أبي ذر، وإن الله ليرضي لرضى سلمان ويسخط لسخط سلمان، وإن الجنة لتشتاق لسلمان أشد من اشتياق سلمان إلى الجنة، و لكل أمة حليم، وحليم هذه الأمة أبو هريرة(49)، وحديفة بن اليمان من أصفياء الرحمان، وإن أعلم الناس بالحلال والحرام

(49) وأظن أن هذا الحلم لا يهم محمود أبورية. راجع كتابه أضواء على السنة المحمدية ط 3 دار المعارف بمصر. بدون تاريخ، فقد حمل عليه كثيرا بشهادة طه حسين الذي لم يرقه ذلك.

وإن كان بعض عمل أبي هريرة لا يخلو من لوم وعتاب خصوصا في المرحلة التي استعمله فيها معاوية أسوأ استعمال إلى درجة لا تشرف أبا هريرة الذي حين نزن أحاديثه بما وضعه العلم بين أيدينا من علم مصطلح =

معاذ بن جبل، وإن أعلم الناس بالفرائض زيد بن ثابت، وان أقرأ أمتي أبي بن كعب، وحمزة أسد الله وأسد رسوله، وخالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما، والعباس عمي وصنو أبي ورضيت لأمتي ما رضي لها عبد الله بن مسعود، وسخطت لها ما سخط لها عبد الله بن مسعود، وصوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة أو خير من فئة، ولكل نبي خادم، وخادمي أنس ابن مالك، ولكل نبي خليل، وخليلي سعد بن معاذ، ولكل أمة فارس، وفارس القرآن عبد الله بن العباس وأول من يقرع باب الجنة بلال، وإن أول من يأكل من ثمارها أبو الدحداح، وإن أول من تصافحه الملائكة أبو الدرداء، وإن أول من يرد من حوضي صهيب بن سنان، والمقداد بن الأسود من المجتهدين، وعمار بن ياسر من الصديقين وعبد الله بن عمر من وفود الرحمان، وإن أفضل النساء آسية، ومريم، وخديجة وفاطمة بنت محمد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، ونسائي خير نساء هذه الأمة وأحبهن إليّ عائشة، وأصحابي كلهم كالنجوم بأيهم اقتديتم إهتديتم، ومن أحب اصحابي فقد أحبني ومن أبغض أصحابي فقد أبغضني، ألا وإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا(50)».

= الحديث نكاد نقف مع صاحب الأضواء على السنة في دفاعه عن الحديث وأقسامه التي منها الصحيح والحسن والضعيف وما تحت هذه الأقسام من أنواع والتي منها الصحيح لذاته، والحسن لذاته، والصحيح لغيره، والحسن لغيره، والضعيف، والمشهور والعزيز، والغريب، والمسند، والمرفوع والمقطوع، والمتصل، والمعنعن ، والمتواتر والعالي، والنازل، والمسلسل، والمدبج، والمتفق والمفترق، والمؤتلف، والمختلف والمتشابه، والمبهم، والمعلق والمرسل، والمدلس، والمنقطع، والمعضل، والمضطرب، والمعل، والشاذ والمنكر والمقلوب، والمدرج، والمتروك، والموضوع والمهمل، والمزيد في متصل الأسانيد، والمصحف، والمحرف والمعروف، والمحفوظ إلخ.

وهكذا لو أن أبا هريرة علم الاهتمام من رجالات الإسلام بالحديث سيصل إلى هذا الحد لماصدر عنه ما أنكره المنطق السليم الذي استعمله محمود أبوريه والذي سوف نزيد عليه نحن بحكم ما سيعترضنا من مواقف تاريخية تدفعنا إلى القول بزيادة على ما قاله عمر بن عبد العزيز أنه ما أفسد الدين أحد أكثر من عمرو بن العاص وزياد بن أبيه. والمغيرة بن شعبة ولو لا خيط من حياء نضيف إليهم أبا هريرة. الذي افتعل أحاديث تأبيد لملك معاوية كسرى العرب كما سنرى.

(50) لقد حق لنا أن نتساءل لماذا أهمل معاوية بن أبي سفيان ولم يذكر بين الذين وصفهم الحديث الذي أورده أحمد بابا؟ لقد كانت غاية الأمويين عموما واضحة منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام، وأن ما فعلوه مع آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هو مدون في التاريخ كاف لمعرفة مقاصدهم، وأن ما أخر آل سفيان عن فعل ذلك مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نفسه إلا حلمه وفضله ولسوف نتعرف كذلك على أهدافهم من الفتوحات التي إتسعت في عهد سلطانهم عموما وفي المغرب خصوصا، باستثناء عمر بن العزيز رضي الله عنه.

هذه وصية الرسول (ص) في ما يتعلق بكل الذين ناصروه وأيدوه. وقد رأيناه(ص) كيف وضع كل واحد في المكان الذي لا يزاحمه فيه غيره، وإذا هو بدأ بأبي بكر فإنه ثنى بعمر الذي من أحبه فقد أوضح السبيل. وهو الذي بدأ في عهده فتح المغرب الكبير، فكيف تم ذلك ومتى وبواسطة من؟

لقد ظهر الإسلام دين الحق والخير والحب والسلام وسط شعب لم يعرف حضارة ولا هو له علاقة بما في الأرض وقتها من حضارات، شعب وجد وتكون في بلاد منعزلة لم تعرف ما يستقبح وينفر من عادات العشائر المتنافسة في أخذ الثأر ووأد البنات إلى غير ذلك مما سبق، ثم جعل الإسلام منهم خير أمة أصبحت تتمسك بالمثل العليا المتمثلة في الأخلاق، والتعاطف، والتراحم، وحب الخير، أمة أمدها الدين بقوة هائلة مكنتها من السلطان واستمرار الحياة ودوامها في أمن وعافية، تلك القوة التي كان مصدرها الرابطة الجامعة التي حالت دون الشتات والتمزق، ولولا رابطة الدين التي مكنت لتلك القوة التي انتشرت في الأرض لما عرف العرب كيف يجمعون شتاتهم ولا كيف يتوجهون إلى ما حققوا من النصر، وما أدركوا من القوة، بل لو لا ما دب في عروقهم وسرى في أرواحهم من تسام وتجرد عن الشهوة وحب الذات، لما استطاعوا قهر سلطات البزنطيين والفارسيين وأهل الشام من الروم ثم المصريين والبربر.

أو ليس العرب المسلمون من الفاتحين هم الذين نقلوا لغيرهم من أجناس البشر في إفريقيا وأوربا بالأخص صناعة الورق التي تعتبر بحق ذات الأثر الكبير في رقي الإنسان وحضارته والتي لا تقل عن اختراع الفنيقيين للحروف، إذ ماذا لو لم يعرف هذا الإختراع وبقي الناس يكتبون على البردي أو "بارسمانت" كما كان الرومان يطلقون عليه، وما ذا لو لم يحدث ما حصل للحامية العربية التي كانت في سمرقند، ثم هوجمت من طرف غزاة صينيين، ولما طاردتهم أسرت منهم خبيرا بصناعة الورق فأخذ إلى مكة حيث عرفه تراث العرب أكثر من غيرهم بل عرف العرب صناعة الورق الذي حفظ تراثهم مدة ثلاثة قرون قبل أن تعرفه أوربا حين انتقل إليها بواسطة الفتح العربي لصقلية، ثم إلى إسبانيا، ومنها عرفته باقي دول أوربا، فرنسا وألمانيا وبريطانيا، وفي خزاناتنا حتي اليوم ذلك الورق الذي صنع في أوربا منذ تلك العهود. وخصوصا في الأندلس، وما يعرف منه بالشطبي نسبة إلى شاطبة .

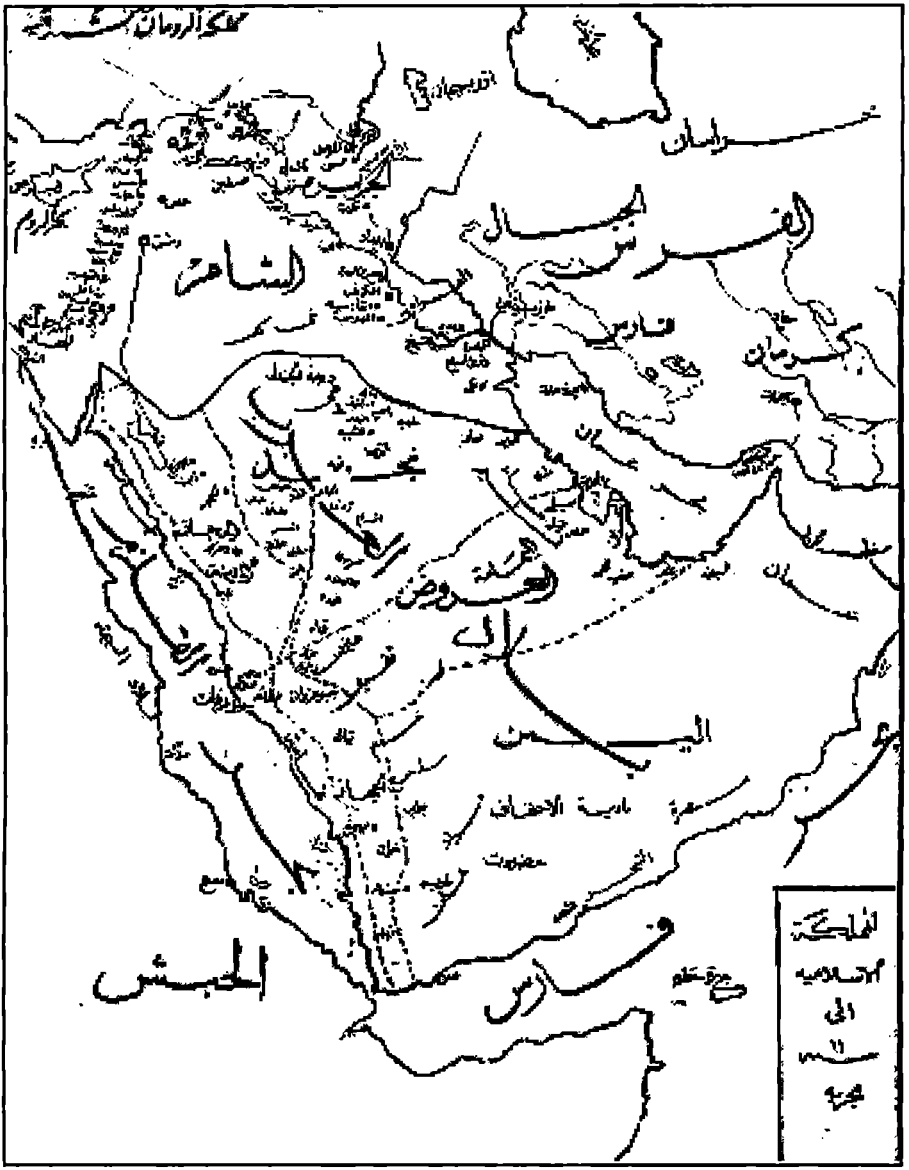
مملكة الرومان
خراسان
الجبال
الفرس
الشام
فارس
كرمان
نجد
العروض
اليمن
مادبة الاحقاف
الحبش
فارس
المملكة
الاسلامية
الى
سنة ١١
هجرية

الباب الخامس
الفتح العربي للمغرب الكبير والأندلس

الفصل السابع والعشرون

مقدمات الفتح العربي للمغرب الكبير

كان أول الفتح في عهد الخلفاء الراشدين الذين عقدوا العزم على ذلك حين انهارت دولة الفرس وتمزقت إمبراطوريتهم نهائيا في السنة السادسة عشرة من الهجرة، وإثر معركة القادسية بالعراق 15هـ/636 م تلك المعركة التي انتصر المسلمون فيها بقيادة سعد بن أبي وقاص الزهري على الفرس وقائدهم رستم الذي مات غما بعد فراره، وفتحت فلسطين بقيادة أبي الأعور السلمي والعربة والمدائن 16هـ/637 م بقيادة أبي أمامة الباهلي، والشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح الفهري، بحيث تم فتح هذه البلاد قبيل نهاية العشرين وفي الحادية والعشرين كان للعرب أسطول يخوض عباب البحر ويشن الحملات سنويا على خصوم الإسلام في العاصمة البيزنطية، وقبلها بسنتين في الثامنة عشرة، كان الفاتحون لمصر على الأبواب ليأخذ الفتح طريقه نحو المغرب الكبير بدءا من أنطابلس التي هي برقة ثم طرابلس(51).

في زمن الخليفة عمر الذي هو عمربن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي بويع بعد أبي بكر وبوصية منه سنة 13هـ/634 م وأول من لقب بأمير المؤمنين، في أيامه تم فتح الشام والعراق والقدس والمدائن وغيرها، حتى قيل في عهده توسعت فتوحات المسلمين حتى بلغ عدد منابر الصلاة بها إثني عشر ألفا، وهو أول

---

(51) كان الفاتحون الأولون للمغرب الكبير هم :

1) عمرو بن العاص، والزبير بن العوام وغيرهما من فاتحي مصر وبرقة وطرابلس.

2) عبد الله بن أبي سرح دفين درنة من أرض برقة وهو فاتح تونس وما حولها.

3) ابن أبي المهاجر فاتح الجزائر.

4) عقبة وموسى بن نصير فاتحا المغرب الأقصى.

5) طارق بن زياد النفزي فاتح الأندلس.

من وضع للعرب التأريخ الهجري، وكانوا يؤرخون بالوقائع، وأول من اتخذ بيت المال للمسلمين وأمر ببناء البصرة والكوفة، وأول من دون الدواوين في الإسلام، وجعلها على الطريقة الفارسية لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات، إلى غير ذلك من مكارم العرب في شخص عمر، مما يرد أقوال عبد الرحمان بن خلدون في العرب وينزل بها مكانا لا نريده لمؤرخنا الكبير، عمر هذا الذي كان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظا ياعمر» ولذلك عرف بعدله وغضبه في الحق حتى قال رسول الله (ص) في حقه إتقوا غضب عمر فإن الله يغضب لغضبه" ولشدة تمسكه بالحق سمي الفاروق كما لقبه الرسول(ص) وهو الذي فتحت في عهده مصر بواسطة عمرو بن العاص الذي أسلم في هدنة الحديبية، وعمل مع الرسول(ص) كقائد لجيوش غزوة ذات السلاسل، كما عمل مع عمر بن الخطاب في فتح الشام وقنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه فلسطين ومنها إلى مصر سنة 18هـ/639 م والتي استعمل في فتحها حيلة دخل بها أرض مصر حتى لا يتعرض لرفض عمر الذي كان يمانع بدافع عدم التغرير بالمسلمين، بيد أن عمرو الذي كان قد عرف مصر قبل في جاهليته إن صح ما قاله المقريزي والسيوطي عن قصته مع الشماس، الذي تعرف عليه في القدس بعدما نجاه من هلاك العطش وسم الأفعى التي قصدته وهو نائم فقتلها عمرو، وبذلك نجاه من الموت مرتين الأولى بسبب العطش حيث سقاه، والثانية من سم الأفعى حيث نجاه، وبذلك استحق أن يكافئه بألفي دينار، ولم تكن عنده وإنما كان على عمرو إن هو أرادها أن يذهب معه إلى مصر الأسكندرية. ولما استشار عمرو رفاقه التجار من قريش الذين وافقوا على انتظاره مدة شهر، ذهب مع الشماس إلى الأسكندرية التي كان أهلها يمارسون لعبة بالكرة التي كانت قد دلتهم تجاربها أن من دخلت كمه لابد يحكم البلاد ويكون ملكا عليها؟ وقد حصل لعمرو إلى آخر ما ورد في القصة مما نعتبره خلقا، لكننا أوردناه استئناسا لأنهم يقولون إن عمرو في هذه الرحلة تعرف على مصر وما فيها من ثراء، ولذلك كان لا يفتر عن ترغيب عمر في فتحها وكان يقول له «إنك إن افتتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم. وهي أكثر الأرض أموالا وأعجز عن القتال والحرب»

وكان عمر يحجم بسبب المعاهدة التي كان قد أبرمها مع هرقل مقابل أن يدفع هذا

الأخير جزية وخراجا سنويا لعمر، لكنه نقضها بعدم الدفع، الأمر الذي ساعد على تحقيق فكرة عمرو بن العاص، بشرط اشترطه الخليفة عمر حين أذن له بكتاب جاء فيه «سر إني مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي سريعا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالإنصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن ياتيك كتابي فامض لوجهك إستعن بالله واستنصره(52)وعلى هذا إتجه عمرو نحو مصر التي ما كاد يصل إلى قرية رفح في طريقها حتى أدركه رسول الخليفة عمر ومعه كتابه فأجل فتحه وجد السير اتجاه العريش ولم يقف ليفتح الخطاب حتى كانت خيله ورجله قد وطئت أرض مصر، وقتها فتح الكتاب وقرأه على الناس بعد صلاة الفجر، وقد ورد فيه «إذا دخلتها أوشيئا من أرضها فامض واعلم أني ممدك، وفعلا أمده بأربعة آلاف شدت عضد الأربعة آلاف – التي كانت مع عمرو، وبالتي بعدها بشدة وعنف– قبل وصول الأمداد وهي في منف، وهكذا دخل عمر وفي أول مرحلة من تخطيطه لتحقيق طموحه المادي، كان حاكم مصر وقتها كعامل من قبل الروم هو المقوقس يوحنا بن فرقت اليوناني الذي هو قيرس أسقف فاسيس بالقوقاز، وكان قد عين بمصر سنة631 م من طرف هرقل،وكان بيده سلطة الكنيسة وسلطة الإدارة وهو الذي سبق أن راسله الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذي كان في جوابه مؤدبا حين بعث إلى الرسول يقول : «سلام أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام» "وقد أكرمت رسلك. وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة تركبها . و السلام "(53) وقد ورد في رواية أخرى في نفس المصدر ما يؤكد أن المقوقس لو لم يكن ملكا لكان أول من يسعى إلى الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ولذلك لم يكن في مواجهته للعرب عنيدا، كما أن عمرو بن العاص كان به برا كريما حين احتل مدينة بلبيس بعد قتال عنيف في الفرما،

---

(52) راجع ابن عبد الحكم وابن الأثير 13/3 و الطبري 187/1 – 217 و2/2 –82 و اليعقوبي 117/2 و الاصابة في تمييز الصحابة ترجمته 5738 و الخطط 130/1 وحسن المحاضرة 7/1 وتاريخ مصر الحديث 94 ط1889، وقد كانت فكرة الفتح قد عرضت من عمرو على عمر حين قدم هذا الأخير إلى الشام بعد الجابية بالشام بعد سنة 18هـ/ 639 وكان عمرو ضمن القواد .

(53) راجع مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية جمع د محمد حميد الله الحيدر أبادي ص 74 ط 2: 1956م.

دام شهرا، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح صاحب الميمنة مع عمرو منذ توجه إلى قيسارية إلى أن فرغ من حربه، وضمنها بلبيس التي احتلوها، وفيها الأميرة أرمانوسة ابنة المقوقس فأرسلها عمرو مكرمة إلى والدها مع جميع مالها، فسر المقوقس وأدرك حقيقة الرسالة التي قد تلقاها، ومدى التزام المؤمنين بصاحبها، وإذا كان المقوقس يرغب في الصلح بعد القتال العنيف الذي انتهى إلى التفاوض زمنا، فإنه كان مراقبا بقائد الجند الأعيرج الذي كان ينافسه، ورغم ذلك فإن مفاوضة عبادة بن الصامت مهدت السبيل لا تصال عمرو والمقوقس اللذين اتفقا على جزية رفضها القيصر و تعلق الصلح. رغم إرادة المقوقس الذي لم يكن مع القيصر على أحسن حال، وحتى يثبت عمرو جدية الفتح والتزام العرب، أراد التقدم إلى الأسكندرية لكنه قبل أن يفعل تخابر مع عمر الذي وافقه، فتقدم إليها بعد ما يقرب من سنتين قضاهما في التمهيد والتمكين، كما خطط بعض الفسطاط في فكره خصوصا مركز القيادة والجامع لكن البناء سوف لا يكون إلا بعد الاستقرار.

كان عمرو قد انتهى إلى ثلاث شروط مع المقوقس بن فرقت، عندما عزم على التوجه إلى الأسكندرية، وكانت الشروط الثلاث من المقوقس مما يستدل به على ما كان بينه وبين الروم من سوء تفاهم انتهى إلى الإتهام وعدم الثقة، لأنه في نظر القيصر تهاون مع الأقباط في قبول الجزية ولم يقاتل، ولو فعل لما كان لاثني عشر ألف جندي من العرب أن ينتصروا وفي مصر أضعاف أضعافهم من الأقباط.

لذلك مقابل هذا التحدي طلب المقوقس من عمرو أن يعتبر الإتفاق الذي تم قبل وعلقه القيصر، قائم بالنسبة له وللأقباط.

وثانيا رجاه عدم الصلح مع الروم حتى يكونوا فينا وعبيدا ما داموا لم يحترموا التزامه الذي كان أساسه النصح لهم.

أما الطلب الثالث فكان هو رجاء المقوقس إن هو توفي أن يأمر عمرو بدفنه بجسر الأسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم أعوانا(54) . ولما علم الروم بما حصل فروا جميعا

---

(54) تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ص 105 ط 1889م ولا نريد اقتفاء ما ارتكبه عمرو وآله من أعمال دفعت عمر إلى أن يوبخهم ثم يقول كلمته المشهورة « متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار».

إلى الأسكندرية، وقبل أن يرحل عمرو غازيا إلى الأسكندرية كان عمر بن الخطاب قد كتب إليه طالبا منه أن يصف له مصر.فوصفها وصفا قرّبه من المصريين وقرب المصريين إليه ، حتى كون منهم حزبا سيعارض به سياسة عثمان بعد، بل به يستدل على رقة عاطفة المصري وأنه سريع الإنقياد للعاطفة كما يظهر عبر مراحل التاريخ، وأن عمرو إستأسر المصريين بما علموا من مكانة بلادهم في نفسه حين وصفها لعمر بقوله «ورد إلي كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ويسألني عن مصر: « إعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر، يكتفنها جبل أغبر، ورمل أعفر، وسطها النيل المبارك الغدوات، ميمون الروحات، وتجري فيه الزيادة والنقصان لمجاري الشمس والقمر، له أوان يدر حلا به، ويكثر عجابه، وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن المخايل، ورق الأصايل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه، كأول ما بدا في جريته، وطمى في درته، فعند ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب ، لقيهم ماسعوا من كدهم فناله منهم لغير جدهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذ هي عنبر سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة زرقاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، الذي يصلح هذه البلاد وينيرها، ويقر قاطنها فيها أن لا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وأن لا يستأدى خراج الثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال والله يوفق الملك والمال»(55).

توجه عمرو إلى الأسكندرية. وبعد حصار طويل غامر أثناءه عمرو وخادمه وردان ومسلمة بن مخلد بالدخول إليها سرا وحصولهم في يد حاكمها ثم نجاتهم بحيلة ومعرفة وردان باللغة اليونانية ثم عودتهم إلى المعسكر الذي طال حصاره لها بدون قتال وكان في صالح الفتح، ذلك أن هرقل قامت عليه وقتها ثورة بالقسطنطينية قتل فيها وتمزقت بلاده

(55) ابن عبد الحكم، والخطط المشار إليها وتاريخ مصر الحديث ص106.

التي أسند فيها الملك إلى ولده قسطنطين الثالث الذي مات هو الآخر مسموما بعد أكثر من ثلاثة أشهر بقليل، سمته مارتين امرأة أبيه التي استطاعت وبواسطة تدخل البطريرك أن تولى ابنتها مرقلينة سلطة البلاد، لكنها أزيلت بترلية قسطان بن هرقل الثاني. وفي هذا الوضع أصبحت القسطنطينية عاصمة ملوك ثلاث، مما مزق شمل الروم ومستعمرتهم الأسكندرية التي تحولت عاصمة منذ احتلالها سنة 30 ق م إلى سنة641م/20 هـ وفي شهر المحرم حيث دخلها المسلمون، وكانت قد ازدهرت بموقعها وتجارتها وعلومها ومكتبتها وعمرانها، فكتب بذلك عمر وبن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح والنصر المبين، لكن عمر وقد كان لا يحب أن يفصل بين الفاتحين من المسلمين وأرض الحجاز ماء ، أمر ابن العاص بالعودة إلى حصن بابل حيث حط فسطاطه واستقر ثم ترك الإسكندرية تحت حكم المقوقس يوحنا، كما ولى على شرق البلاد وبأمر من عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإذا ما تولى عمرو بن العاص صلات مصر وخراجها فإنه كان يجبي منها اثني عشر مليون دينار سنويا، فكان رخاؤها باعثا على استقرار بعض قبائل العرب بها، ومنها همذان التي شيدت حصنها بالجيزة بأمر من عمر بن الخطاب، وشيد عمرو جامعه المعروف سعة وشكلا على غرار جامع مكة، واحتفر خليجا بين النيل والبحر الأحمر سنة 23 هـ/ 644م سماه خليج أمير المومنين، كما اقتبس من أنظمة الروم ما طبقه على إدارة مصر التي أخذت لبه وتعلق بها وبثروتها إلى درجة أن ذلك كان الدافع الأول والأساس لما انتهت إليه الفتنة الكبرى عندما توفي أمير المومنين الخليفة عمر يوم 24 ذي الحجة سنة23هـ 643 م بطعنة خنجر مسموم من يد فيروز الملقب أبو لؤلؤة الذي كان عبدا للمغيرة بن شعبة وذلك يوم 24 ذي الحجة. بعد خلافة دامت عشر سنوات وخمسة أشهر وثمانية وعشرين يوما، كلها عدل ونبل وصادق إيمان وإحسان، وإذا ما بقي يعاني من أثر الطعنة مدة ثلاثة أيام قبل أن يموت. فإنه أوصى فيها باجتماع الذين مات رسول (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راض ليقرروا في شأن الخلافة وهم : علي، وعثمان، والزبير، وسعد، ثم طلحة، أضاف إليهم عمر حضور ولده عبد الله بن عمر ولا رأي له، وكان طلحة غائبا، ولسنا هنا في حاجة إلى التعليق على كلمة «اجتماع الذين مات رسول الله وهو عنهم راضي» إلخ فمعنى هذا

أن معاوية لم يكن منهم ورغم الإختلاف على أمر الشورى فقد بويع إثرها ذي النورين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية وسنه سبعون سنةإذ ولد سنة 47 ق هـ فكان ثالث الخلفاء الراشدين، ومن كبار الذين إعتز بهم الإسلام(56) . و في أيامه تم فتح أرمينية والقوقاز وخراسان و كرمان وسجستان وإفريقية وقبرص، لكن عثمان ما كاد ينصب حتى عزل أبا موسى الأشعري من ولاية البصرة وولى فيها خاله عبد الله بن عامر الذي احدث فيها ما أحدث، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، الذي فضح عمرو بن العاص بما أظهر من زيادة في خراج مصر من 12 إلى 14 مليون دينار، الأمر الذي دفع عثمان. لأنه رضي الله عنه وكان إلى جانب أمويته أولا قد طعن في السن، وثانية أحاطوا به وحالوا بينه وبين ما كان الناس يتظلمون منه من فاسد أعمالهم، بل إن بعض المؤرخين مثل الشهرستاني جـ 1/27 ـ 828 مهد لتاريخ بني أمية. بأنهم إستغلوا تولية عثمان الذي حرفوا حكمه ثم ضللوه عن قصد وهم

---

(56) وإذا كان عثمان أمويا فإن أقاربه جروا عليه ما يتعلق بتاريخهم المكشوفة مكايده التي سوف يتزعمها مروان بن الحكم وعمرو بن العاص بلا خجل ولا وجل والذي كشف نفسه حين تعرضت مصر لغزو الروم اختير عمرو بن العاص لرد العدوان، فكان النصر مما دفع عثمان إلى أن يعرض على عمرو البقاء على جندها وعبد الله بن سعد على خراجها فرد عمرو " أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها" الخطط 1/344 وحسن المحاضرة 104 إلخ وفي عمله هذا وعمله ضد علي بعد إلى جانب معاوية بشرط ولايته مصر مدى الحياة، يفهم ما كان لعمرو بمصر من شغف أدى به إلى ما عرف بين المصريين، وعثمان من فتنة زادها ابن سبأ اتقادا، بل ومن جانب آخر نرى في كلمة عمر حين أشرف على الموت ثم أوصى أن يرجع الأمر إلى استشارة الذين مات الرسول وهو راض عنهم، فإذن هناك من مات وهو غير راض عنهم، والذين ربما يكون لسبب عدم الرضا علاقة بتصرفات ترجع دوافعها إلى الماضي القريب، فعمرو هو ابن العاص بن وائل السهمي الذي ضايق الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى نزل فيه قوله تعالى "إن شانئك هو الأبتر" وعمرو ولد قبل عمر بن الخطاب بسبع سنين، ولم يسلم إلا يوم حصار مكة إلخ وهكذا ستكون جل المتاعب التي عرفها عثمان سببها بنو أمية وأولهم مروان وعمرو بن العاص.

ومهما يكن فإن عبد الله بن سعد الذي اسندت إليه ولاية مصر لم يكن في تسييرها أقل من عمر وكفاءة. فقد غزا إفريقية بعدما كان عمرو بن العاص قد وصل إلى طرابلس وعقدوا الصلح على جزية أنكرها الروم كما فعلوا مع الأقباط، وقد فتح عبد الله بلاد النوبة، وعقد معها صلحا خالفه ملكها قليود وروت، فدفع الثمن حتى تراجع وهو ذليل أمام عبد الله بن سعد، وصالح أهل قبرص على سبعة آلاف دينار، وكانوا يؤدون مثلها للروم، وأن تستعمل بلادهم من طرف المسلمين في طريق غزوهم للروم، وكان يتقدم في طريق فتوحاته، لولا ما عرفته الإدارة المركزية من فتن حين كتب أهل المدينة إلى عثمان احتجاجهم، فرأى كما سبق أن يستدعي الولاة إلى أن كان من الأمر ما كان من قتله ظلما رحمه الله والسبب تصرفات بني أمية وإلى هنا بدأت طلائع الفتح الإسلامي تشرف على المغرب الكبير وإلى هنا رأينا بكل وضوح أن جيوش الإسلام لم تتعرف على المغرب الذي يبدأ من برقة إلا في عهد عمر بن الخطاب كما سنرى بعد.

فاسقون، واسمع إليه إذ يقول "كانت المدينة من أواخر مدة النبي (صلى الله عليه وسلم) ممنوعة على الكفار والمشركين ومن ظهر نفاقهم من المنافقين، وخشي المنافقون المختفون والمتظاهرون بالإسلام، أن يقدموا على اغتيال عمر فينفضح أمرهم، لذلك اتفقوا مع المشركين من بني أمية وغيرهم، والذين طردهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة وحرم عليهم السكنى فيها أن يستعدوا لاحتلال المدينة في الوقت الذي يتم فيه إغتيال عمر، وأثاروا التذمر في المدينة من عدم وجود نجار دقيق وحداد ماهر ، حتى إذا بلغ التذمر مسامع عمر واستشار في الأمر من يجالسه. اقترح المغيرة بن شعبة عليه أن يستقدم غلاما ماهرا في النجارة والحدادة، وقال الآخرون أن ليس في ذلك مانع ماداموا سيتقاضون منه الجزية، وبعد تردد رضي عمر فاستحضر المغيرة غلاما له هو أبو لؤلؤة المجوسي الفارسي، ولكي يبعد الشبهة عن نفسه وعن المتآمرين معه، أثاروا الغلام على ما يتقاضونه منه من جزية، وطلبوا إليه أن يطلب الاحتكام إلى عمر، فاحتكم إليه فحكم عمر على الغلام، وتظاهر الغلام بالغضب وتوعد عمر بالقتل. واتخذ الموضوع في الشكل خلافا بين عمر والغلام لا دخل للمغيرة فيه، وهكذا أنزلوا الستار على اشتراكهم في مؤامرة إغتيال عمر، ثم جاء كعب الأحبار لعمر وقال له:" إنه عرف من التوراة أن أجله قد انتهى " فعجب عمر وتساءل: أفي التوراة ذكر لعمر؟ فرد كعب وقال "لا لكن فيها صفتك وأجلك"؟؟ وكل ما يرمي إليه كعب هو بث الرعب في قلب عمر وقطع الأمل عنده من النجاة حتى يرتبك عند محاولة الاعتداء عليه فيتم ما يريدون .

واعتدى أبو لؤلؤة على عمر، ودخل بنو أمية المدينة وأرهبوا الناس وساعدوا على إقامة عثمان ليكون سلما يرتقى بمساعدته بنو أمية إلى منصب الحكم، وظهر في المدينة في نفس اليوم كافة المشركين والمنافقين من بني أمية الذين كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد طردهم وحرم عليهم سكنى المدينة، فقد كانوا على ميعاد، فما أن تولى عثمان الخلافة حتى إجتمع بنو أمية في داره وقام فيهم أبو سفيان صخر بن حرب فقال: «أفيكم أحد من غيركم»؟ وذلك ليطمئن على عدم إذاعة ما يقول . قالوا : لا : قال : يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم، وبهذا أعلن زعيم بني أمية غداة ولاية عثمان، السياسة التي على أهله أن

يتبعوها، والتي عمل وعملوا لها حتى صارت إليهم، ويطلب منهم أن يعملوا على الاحتفاظ بها لهم، ووصل هذا إلى سمع عثمان واستنكره وعارض أباسفيان - وذلك لقرب عهده بما يبيت القوم ويدبرون - فنهره أبو سفيان وزجره فسكت.

ولم ينفض هذا الإجتماع إلا وقد عينت بنو أمية مروان بن الحكم "سكرتيرا لعثمان أما مروان هذا فهو أحد المنافقين الذين أباح النبي عليه الصلاة والسلام دمهم لفجوره وكفره، كما لعن أباه الحكم ومروان في صلبه ومروان هو الذي ظهر مع من ظهر غداة مقتل عمر و وزعوا الولايات على أفراد العائلة الأموية، وعينهم عثمان واحدا إثر الآخر نتيجة لما قرر مجلس العائلة" بل عثمان (رضي الله عنه) هو الذي نفى أباذر إلى الربذة بتوجيه من بني أمية، بل زوج عثمان ابنته لمروان وسلمه خمس غنائم إفريقيا، وقد بلغت مائتي ألف دينار، وهو الذي آوى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وولاه مصر بعد أن أهدر النبي (صلى الله عليه وسلم) دمه.

ومهما يكن فإن التمهيد للفتح العربي ببلاد المغرب بدأ كتجربة بالغزو الذي حاوله عمرو بن العاص، والذي ربما كان يقصد منه تأمين البلد المسند إليه حكمها، وهي مصر والتي وليها من قبل عمر بن الخطاب إلى عهد عثمان بن عفان سنة 24 هـ لكنه لم ينجح ولما عزل وحل محله عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وهوأخ لعثمان في الرضاع، كان أول من حاول الفتح العربي لشمال إفريقية حين نظم جيشا قوامه عشرون ألفا ضمنهم كما يقول إبن عذاري(58) مروان بن الحكم، وعبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو دؤيب الهذلي، وهم اللذين عرفت معركتهم

---

(57) العبر 6 / 206.

(58) البيان لإبن عذاري 1/ 8-9- 12 وتقول روايته ورواية قطف الزهور المذكور ط 1873 ص 220 : إن عبد الله بن سعد حارب جريجوار رئيس الروم ومزق شمل عسكره وفتح تونس وطرابلس وكثيرا من المدن والبلدان ثم تقدم نحو قرطاجنة وأرسل إلى أهلها يقول لهم إنه مستعد أن يتحول عنهم ويترك لهم باقي البلاد التي فتحها بشرط أن يدفعوا له مليونين ونصف من الدنانير فأجابوا طلبه ودفعوا له المال.. وهكذا انثنى راجعا إلى مصر تاركا جميع فتوحاته، فلما سمعت الخبر حكومة القسطنطينية حقدت على عمالها وصممت على الإنتقام وفي سنة663م/ 43هـ أرسل الامبراطور قسطنطين إلى الوالي يطلب نفس المبلغ فلم يجبه إلخ. ولعمرو بن العاص قصة يستدل منها أنه اندفع لفتح مصر طمعا بالثراء الذي اكتشف فيها يوم قدم مع شماس من الاسكندرية كما سبق وقتها كان عمرو لا يملك ثمن بعير إلخ.

بمعركة العبادلة، أعان عليها عثمان بألف بعير، وكان على رأس قيادتهم الحارث بن الحكم أخو مروان بن الحكم كقائد من المدينة إلى مصر حيث عبد الله بن سعد بن أبي سرح فحلوا بها في شهر المحرم من سنة 27هـ 647 م وهو الذي زحف على شمال إفريقية زحف الفاتح، لكنه تعرض للإجهاض بسبب عملاء التنافس الذي كان بينه وبين عمرو بن العاص الذي عزله عثمان.

وهكذا نرى حين أقبل الفتح العربي وجد المغاربة مهيئين لقبول رسالة التحرير التي تتفق كثيرا وطبيعة الفروسية التي جبل عليها المغاربة الأقدمون، والتي لا تعني في طبع العربي نفسه غير العزة والشهامة والصدق وصون الكرامة، يضاف إلى هذا ما كانت عليه البلاد من تطاحن بين الكنيسة نفسها في المنطقة التي قصدها الفاتحون، ثم بين الكنيسة والقيصر قسطنطين الثالث من جانب، وصراع قسطنطين نفسه مع جريجوار أوجور جيوس الذي إستقل بالبلاد، ثم ما كان لهذا من علاقة سيئة مع البطريركين قوروس، ومكسيم.

على هذه الحال فوجئ «جريجوار» بحملة الفاتحين وكان والياغير ذي ثقة من طرف قسطنطين الثالث على لوبيا وإفريقية.

لما توجه ابن أبي سرح التقي مع جيوش البزنطيين وعامل القيصر باسبيطلة مركز العامل واسمها الحقيقي سوفيطلة، جنوب غرب القيروان وكان الزحف كما قيل يوم وليلة، وكان عبد الله بن الزبير في هذه المعركة في المستوى حين خطط لها ثم وزع الجند باقتراح منه إلى مهاجم واحتياطي، وما بدأت المعارك حتى كان الأول من ضحاياها "جريجوار" الذي سقط بضربات عبد الله بن الزبير، الأمر الذي سهل الإستيلاء على العاصمة سبيطلة، ومنها إلى قرطاجنة التي استولى العرب على ما لم يكن في الحسبان من المغانم، ومنها ابنة جريجوار التي قيل إنه استأثر بها عبد الله بن الزبير، ولم يقف جند ابن أبي سرح إلا حين طلبه الأهالي إلى الصلح فأجابهم إليه بشروط هي :

1) دفع غرامة وصفت بقناطر الذهب.
2) أن كل ما استولى عليه الفاتحون قبل الصلح فهو لهم .
3) الإنسحاب عندما يوفى الأهالي بالشرطين.

وفعلا تم ماذكر، ورجع ابن أبى سرح إلى مصر حيث أرسل إلى عثمان بخمس الغنائم وكانت هذه المرة الأولى(59) التي عرف بها العرب ما بالمغرب من إمكانات إقتصادية وبشرية معرفة تختلف عن تلك التي عرفها عمرو بن العاص حين قام بالاستطلاع لأول مرة سنة22 هـ 642 م زمن عمر بن الخطاب، وكان قصده وغايته الاثراء وبه اقتدى مروان بن الحكم كما سبق مما خلق في ملوك بني أمية توجها خاصا نحو المغرب والمغاربة.

وإلى هنا لم يكن العرب بعد قد اتصلوا بالمغاربة، وإنما كانت مفاوضاتهم واتصالاتهم مع الحكام، وقد تبين أنهم يقصدون المال والذهب، وذلك هو عهد عثمان الذي سيسيطر فيه أولاد أبي سفيان من الأمويين وتلك صفحات ليس هذا مجال التفصيل فيها، وهكذا لما انشغل العرب بما حصلوا عليه من تلك الغزوة والإتفاق الذي تم عادوا واكتفوا بما أخذوا من العهد بدفع الجزية، الأمر الذي أحدث انطباعات غير طيبة في النفوس عن الفاتحين فبيتوا على الغدر ، وتلك هي أسباب ردة المغاربة لأكثر من مرة، ولما انتهى الأجل وطولب المعاهدون على الجزية، قلبوا لهم ظهر المجن، ونقضوا ما كانوا قد تعهدوا به من دفع، وبلا شك كان السبب هو رفض الأهالي لما أبرمه الحكام المحليون كما وافق القيصر الذي كان يحاول استرجاع البلاد من أيدي الفاتحين بعد أن كان شبه إفتقدها من الوالي القتيل الذي كانت العلاقة بينهما قد ساءت. كما أن الرفض أيضا كان بسبب رحلة عبد الله بن سعد إلى مكة ليتعرف أثر تفوقه على عمرو بن العاص في جباية مصر التي إرتفعت من 12إلى 14 مليون دينار.

كان ذلك سنة33هـ/654م أي بعد ما يقرب من ست سنوات مضت، الأمر الذي

---

(59) لقد كتب بعضهم أن "رجال" رجراجة السبعة بالمغرب الأقصى من مصمودة ناحية مراكش. وأنهم رأوا النبي (صلى الله عليه وسلم). وأنه خاطبهم بالبربرية إلخ وهو عبارة عن خرافة من متبلد لم يجد لها من سند غير أنه نسب ذلك إلى أحمد بن سعيد المرغيتي 1089 هـ /1678م وهو الذي أقحمه بن إبراهيم التعارجي صاحب الأعلام المراكشية في هذا النوع المرقع من الأخبار،على أن أول إتصال كان في عهد الخلفاء وفي عهد عثمان يقول ابن خلدون في العبر6/206 حول وزمان بن صولات ملك مغراوة وزناتة الذي قيل أنه أسر وحمل إلى الخليفة عثمان بن عفان. وهذا قول قاله إبن خلدون في القرن الثامن هـ على أن أول كاتب لتاريخ تلك المرحلة هو البلاذري أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المتوفي 279هـ 892م، كما لم يفعل الذي قبله وهو ابن عبد الحكم مع العلم أنهما معا تناولا أخبار البربر كما سبق وسنرى.

يجعلنا نستفهم ونقرر أن الرفض كان من الأهالي الذين أرهقهم الحكام بكثرة الجبايات مقابل الوفاء بالتعهد، مع أن بعضهم يقول إن قسطنطين نفسه كان من المحرضين على الامتناع وعدم الوفاء بالتعهد، كما كان يحرض على مقاومة النفوذ العربي، لكنه كان من بعيد الأمر الذي سهل على العرب إعادة الفتح جديا والإقامة في البلاد، ومن أجل ذلك أرسل عبد الله بن أبي سرح رجلا سبق له أن عرف البلاد معرفة حربية، هو معاوية بن حديج الكندي الذي رافق الغزوة الأولى زمن عمرو بن العاص عام22هـ/642م، أرسله هذه المرة ليقيم ويستوطن بعد معارك انتهت إلى قونية عند جبل القرن حيث القيروان اليوم، لكنه ما كاد ينتهي حتى قامت الفتنة الكبرى التي أودت بعثمان سنة 36هـ/656م، ولما آلت الخلافة إلى علي عليه السلام ولى على مصر قيس بن سعد، لكنه عزله وولى مكانه الأشتر بن مالك النخعي، الذي قتل بمكيدة من معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام، وذلك قبل أن يصل الأشتر إلى مصر، فولى مكانه محمد بن أبي بكر الذي قتل بدوره، وكان المدبر أيضا هو معاوية بواسطة معاوية بن حديج كما يقول ابن عذاري(60) وذلك سنة 38 هـ 658 م بعدما آلت مصر خديعة إلى معاوية بعد مقتل علي سنة 40هـ/661م أرسل عمرو

---

(60) 1/15-18 كان عبد الله بن سعد قد أناب عنه وقت ذهابه إلى الحجاز بطلب من عثمان الذي استدعى كل الولاة بالأمصار ليحقق فيما رفع إليه أهل المدينة من خبر إضرار عماله بالناس. وإذا ما نشر عثمان منشوره في الأقاليم يحث الناس على رفع ما يعلمون من ظلم الولاة استغلها محمد بن حديفة في مصر، وأقامها ثورة ضد عقبة بن عامر، وضد عثمان الذي أرسل سعد بن أبي وقاص ليصلح ما حدث في مصر فقوبل بعنف أشد وتلك بداية الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل عثمان بعدما استنفرت المعارضة من كل الأمصار ثم تواعدت بالمدينة في شهر شوال35 هـ وفيها حاصروا عثمان لمدة أربعين يوما قطعوا عنه فيها الماء، وقد شارك في الحصار أهل الكوفة والبصرة إلى جانب أهل مصر الذين كانوا قد توجهوا لعلي، وهو عند أحجار الزيت فعرضوا عليه أمرهم وبيعتهم ضد عثمان، فصاح بهم وطردهم، وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين، والزبير مع الكوفيين، وكادوا يتفرقون ويذهبون، لولا أن مكيدة دبرت من مروان بن الحكم، فعادوا في عنف للإحاطة بعثمان، فذهب إليهم علي وقد خاطبهم مستفهما عن سبب عودتهم بعدما ذهبوا، فقالوا: أخذنا كتابا مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان فدخل علي على عثمان وأخبره برجوع المصريين، فأشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم، فنادوه من كل ناحية "إتق الله يا عثمان وتب إليه وكان أولهم عمرو بن العاص الموتور من أثر عزله من مصر وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة، فرفع الخليفة عثمان صوته وقال " أنا أول من اتعظ وأستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فليأت أشرافكم يروني رأيهم، فوالله إن ردني الحق عبدا لا ستن بسنة العبد، ولاذلن ذل العبد، وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لا عطينكم الرضا ولا احتجب عنكم» ثم بكى وبكى الناس، ورجع إلى منزله فدخل عليه علي، ومحمد بن مسلمة، وسألوه عن اعتراضه على ما يقوله أهل مصر، فحلف ما كتب وما علم، ثم دخل عليه المصريون وقالوا له " جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد، =

عمرو بن العاص الذي كتب قصة هيامه بمصر وبرقة وما عرف من جمال أرضها وكثرة أموالها. كما أخبر بذلك هو نفسه في مراسلته للخليفة عمر (رضي الله عنه) بعد ثلاث سنوات 43هـ 664م. وهنا خلا الجو لمعاوية بن حديج ثانية ليرسله معاوية بن أبي سفيان على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل لفتح إفريقية سنة 46هـ/665م. وفي هذه المرة كان معه بعض أبناء الصحابة ووجوه من الأمويين، مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وحنش بن عبد الله الصنعاني(61)، ومن حوادث الغزوتين أن معاوية لم يقصد إلى الفتح بقدر ما كان

= وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا رسولك ناقلا كتابا وفيه أمرك لإبن أبي سرح ولم يكونوا عالمين بأعمال ابن أبي حديفة بجلدنا والمثلة فحلف عثمان لا كتب ولا أمر ولا علم، قالوا فكيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحقيت الخلع على التقديرين إذ لا يحل أن يولي الأمور من ينتهي إلى هذا الضعف فاخلع نفسك " فقال" لا أنزع ما ألبسني الله، ولكن أتوب وارجع" قالوا رأيناك تتوب وتعود فلا بد من قتلك، وخرجوا وبقي محصورا أربعين يوما منع عنه الماء في أواخرها وفي 18 ذي الحجة 35هـ/ 635م قتل منحورا برمح محمد بن أبي بكر والقرآن في يده، فتخضب بالدماء، وهجمت نائلة امرأته لتحميه بيدها، فأصيبت بضربة قطعت أصابعها، وبقي في بيته ثلاثا، ثم جاء حكيم بن حزام، وجبر بن مطعم، إلى علي فأذن لهما في دفنه، فخرجا به ومعهما الزبير، والحسن، وأبو جهم بن حذيفة، ومروان، فدفنوه رحمه الله ورضي عنه، بعد خلافة دامت إثني عشر سنة إلا إثني عشر يوما، ولما علم أهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون له فيها وعقدوا لمعاوية بن حديج، وبايعوه على الطلب بدم عثمان، ومضى ابن حديج إلى برقة ثم رجع إلى الإسكندرية وحصلت مقابلات بينه وبين قوات أرسلها ابن أبي حديفة ضد ابن حديج، لكنه انتصر عليها في آخر معركة في خربتا بمصر في أول يوم من رمضان 36هـ، وبانتصار شيعة عثمان أصبحوا القوة الحاكمة في خربتا. يقول جرجي زيدان صاحب تاريخ مصر الحديث "ص 127 ـ 130 ط 1889م" وبعد عثمان بويع علي بالخلافة فاشتد حقد معاوية بن أبي سفيان عليه، وبالإضافة إلى هذه المأساة كان معاوية لما توجه إلى ولايته في الشام أخذ قميص عثمان الملطخة بالدماء، وأصابع زوجته نائلة، وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في أذهانهم وأن قاتل عثمان إنما هو علي، ويحثهم على معاملة القاتل بالقتل، وزاد معاوية حنقا لما عزله علي من الشام وولى مكانه سهل بن حنيف، كما عزل جميع ولاة عثمان فولى عثمان بن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وعبد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر مكان ابن حذيفة القتيل.

وكان عمرو بن العاص قد صالح معاوية ضد علي طمعا في ولاية مصر التي كان يتحرق عليها، وقد وليها بعد مقتل علي غدرا في 17 رمضان سنة 40 هـ، وتولية معاوية الذي كان قد وعده بها مدة حياته، وأخذ عمرو يوجه الغزوات إلى بلاد المغرب فوجه أولا شريك بن سمي فصالحهم ثم انتقدوا، ثم وجه عقبة بن نافع لهوارة وشريك إلى لبدة سنة43.لكن عمرو بن العاص توفى ليلة عيد الفطر سنة 43 فولى معاوية مكانه عتبة بن أبي سفيان وهو أخوه الذي إستخلف عبد الله بن قيس فلم يقبله المصريون، فرجع عتبه من دمشق، لكنه توفي بعد سنة فولى معاوية مكانه عقبة بن عامر بن عيسى الجصني، لكنه لم يوافق هوى معاوية فولى مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري. راجع ابن عبد الحكم، والبلاذري وقطف الزهور لجرجي زيدان والخطط للمقريزي وحسن المحاضرة للسيوطي إلخ .

(61) راجع العبر 282/2 والبيان 16/1.

يهدف إلى تحقيق المكاسب المادية التي كان في حاجة ماسة لها لمواجهة خصومه الشرعيين وأنصارهم وقتذاك، والذين مزقهم بالمال إلى جانب الفتك الذي سلطه على آل البيت، وهكذا وضع قيادة المتوجهين إلى إفريقية التي حدثه طويلا عن ثرائها عمرو بن العاص، في يد معاوية بن حديج، الذي دبر معه قبل قتل الاشتر بن مالك، ومحمد بن أبي بكر، وكان ابن حديج الذي انساق في هذا الإتجاه يعرف مقاصد معاوية بن أبي سفيان وما يريد تحقيقه، ومن أجل ذلك أخذ طريقه نحو إفريقية بسرعة انتهت به إلى احتلال مدنها، سوسة وجلولاء القريبة من القيروان، وبنزرت، دون أن يجد مقاومة كبيرة رغم المحاولات والاستنفار الذي تزعمه البطريرك نقور الذي قاد الثلاثين ألف بأمر من قسطنطين الثالث، ولم تقف غزوات بن حديج عند إفريقية بل جهز أسطولا يحتوي على نحو مائتي مركب بقيادة عبد الله بن قيس ثم وجهه إلى صقلية سنة46هـ/666م وذلك حتى يقطع المدد عن المنطقة التي كانت تتنفس من ناحية البحر، وفي صقلية خاض الجيش معارك ضارية لم تكن من أجل تركيز الفتح بقدر ما كانت موردا للغنائم والسبايا، الأمر الذي أذهل معاوية بن أبي سفيان، ثم دفع به إلى توجيه اهتمامه ومثله من أتى بعده لإفريقية وبلاد المغرب وكيف وقد قال ابن عذاري: إن معاوية بن أبي سفيان أرسل أصنام الروم الصقليين إلى الهند يتاجر فيها ، فأنكر الناس عليه ذلك إنكارا كليا، وإذا كانت هجومات عبد الله بن قيس لصقلية في شهر ربيع الأول من سنة 47هـ لم تدم - أكثر من شهر فإنها وما نتج عنها من مغانم أعطت للفتح وجهة أخرى هي إيقاف النجدة التي كان يتقوى بها حكام شمال إفريقية إلى جانب ما حصل عليه المقاتلون ماديا، مما قوى رغبتهم في الإقدام على ما يقبل الفاتحون الهادفون لنشر الإسلام والتمكين له ولرسالته بين الشعوب.

الفصل الثامن والعشرون

فتح المغرب وأغراضه في عهد الأمويين

ورد في الأثر :

«إن هذا الأمر يكون نبوة، ثم خلافة، ثم ملكا ثم عتوا وفسادا».(62)

وهكذا ما كان للفتح الإسلامي أن يتعثر ويتراجع، بل ولا أن يقاتل الفاتحون بعد وجيوشهم أحيانا بتلك القسوة القاسية والعنف العنيف، الذي عرفه التاريخ من البربر والمغاربة القدامى إزاء العرب وكما فعلوا مع المحتلين السابقين، لولا ما ظهر من تصرفات بعض القادة بتوجيه من الأمويين بدمشق، وما عرف بعد عن مصادر تلك التصرفات. وأنها كانت الرغبة الدافعة للأمويين وما أظهروه من شره ونهم للغنائم والسبايا حتى أصبح ما يذكر في هذا المجال ومن كبار المؤرخين عفوا، يبعث لا على الخجل وإنما على الحسرة والألم والرثاء. لأنه لا يتفق ورسالة الفتح التي عرفها التاريخ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كان عهد المغرب بمقدمات الفتح الذي اقترحه عمرو بن العاص وقت ولايته لمصر زمن عمر بن الخطاب منذ سنة 22هـ 642 م لكنه كان فجا وكان غير هادف ومغرض سواء منه أو من مروان بن الحكم كما رأينا، ولذلك لم يحقق المقاصد طيلة عقود متوالية، لكن لماذا تعثر الفتح هذا الزمن الطويل رغم ضعف السلطة الإقليمية، وتمزق المركزية التي كان على رأسها قسطنطين الثالث، بل رغم أن «جريجوار» الذي كان الحاكم المرهق، قتل في أول غزوة على يد ابن الزبير، بل لماذا لم يصبح فتحا حقيقيا إلا بحكم المغاربة أنفسهم وبواسطة رجل واحد من آل البيت هو إدريس بن عبد الله الذي قدم المغرب أعزل

(62) محاضرات ص 109 ط الرباط 1976.

بعد مرور أكثر من قرن ونصف على الغزوتين الأوليين كما سنرى.

اتفق المؤرخون القدامى من عهد ابن عبد الحكم والبلاذري 279هـ 872 م إلى عهد ابن خلدون 732 –808/1331–1405م مشارقة ومغاربة، منهم من أوجز ومنهم من أطنب، وكرر كابن عبد الحكم257 هـ871 م وابن عذاري والمراكشي695هـ1295م حول ما كان لبني أمية من شغف ونهم بالسبي والمغانم، قبل اهتمامهم بانضمام البلاد المفتوحة إلى دولة الإسلام والتمكن من عقيدته ورسالته فمن الأتاوات غير الشرعية التي لجأ إليها الفاتحون الأول حسب سياسة الأمويين:

1) – الضرائب الإضافية العينية التي كانت تجمع من كل قرية حيث يعد رئيسها مسؤولا عن تسليمها، وتكونت هذه الضرائب من مواد عينية مثل مواد بناء السفن أو الآلات، وكان الأهالي ملزمين جميعا بسداد جميع الحاجات ولم تقبل النقود بدلا عنها. وكانت تلك الضرائب تجمع تنكيلا بالمغاربة وغيرهم في العهد الروماني، واستمرت مدة في عهد عمر بن الخطاب لكن هذا الخليفة العظيم سرعان ما أدرك أنها زيادة في النكال فأزالها، لكن الأمويين حين تمكنوا أعادوها وبالغوا في فرض الجبايات الجائرة.

2) الهدايا وغيرها ، فالعمال في عهد بني أمية فرضوا على المغاربة وغيرهم تقديم الهدايا في مناسبات الأعياد وكانت تسمى بالفتوح، وعليها كانت تبني علاقة الحاكم بالمحكومين.

3) ضريبة الغلمان لأن الأمويين تمسكوا، بما قاومه الإسلام وهو الرق ، فاتخذوا الفتوح وسيلة لذلك بحكم ما جلب لهم من ثراء فاحش حتى إن جيوش الفتح أخذوا من المغرب والأندلس 300.000 أسيرا و من السبايا أكثر من هذا العدد، وبلغ أسرى قتيبة شرقا 100.000 وقد خلف الزبير بن العوام36هـ/ 656 م وراءه ألف من الرقيق والإماء. وهو من هو نشأة في الإسلام الذي دخله وسنه 6 سنوات، بل وصحب الرسول (صلى الله عليه وسلم). وإذا هو قتل أثناء نومه من يدريك أن القاتل من أولئك الذين عرفوا منه مخالفته للإسلام .

وفي المغرب لجأ الامويون إلى جمع ضريبة الغلمان من البربر، وقد استمرت إلى أن ألغاها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وهكذا فقد ألغى بنو أمية ما كان عليه حكم الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين الذين كان عندهم أن كل شيء لله يقوم على أساس: المال مال الله، والجند جند الله.. وفي عهد بني أمية وكبيرهم معاوية أصبح كل شيء للحاكم. المال ماله والجند جنده، وقد عبر عن ذلك معاوية بقوله :«الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وماتركت للناس فبالفضل مني» وعلى هذا المبدأ وهب مصر لعمر وبن العاص مكافأة له على بلائه ضد الإمام علي. بل كان جند يزيد في وقعة الحرة وكما سنرى في المغرب يجبرون الناس على أن يبايعوه على أنهم عبيد له.وينقشون على أكف المبايعين علامة الاسترقاق ومن أبى قتل.

كان اهتمام بني أمية بالسبايا أكثر، وقد قال عنهم وعن غيرهم بعض المؤرخين أن جلهم ولد من غير الحرائر، حتى إن بعضهم قال إنه لم يولد من بني العباس أنفسهم لأم حرة إلا ثلاثة(63). وهو قول لا يقصد به التقرير بقدر ما يقصد به التعريض بالإسلام الذي يحرر كل من نطق بالشهادة، وقد أجمع من ذكرنا من المؤرخين وغيرهم كما سبق أن السبايا من النساء حملن بمآت الآلاف إلى المشرق، ثم وزعن بشكل أثار انتباه عمربن عبد العزيز كما نص البلاذري وكما سنرى، بل وزعن على المتفسخين من الشعراء بدورهم. وأن التي فازت بوصف الماجن منهم، بلغ ثمنها ألف دينار كما يقول ابن عبد الحكم، وابن قتيبة، وابن عذاري، والحميري وغيرهم، بل إن السقطي في آداب الحسبة وصف البربرية حسب إستعمال العرب لها وصفا لا يشرف دعاة الإسلام من بني أمية «وأنها للذة أليق»(64) وقد كرر إبن عبد المنعم ذكر السبايا في جل البلاد التي وصلها جنود الأمويين من شرق البلاد إلى أرض السوس(65) وليس هذا فحسب مما نفر وأبعد زمن تركيز الفتح، بل إن الأمويين وبعض ولاتهم استعملوا كل قسوة وشدة مع كبار

(63) راجع حضارة الإسلام جرونيبا وم ترجمة جاويد والعبادي ط 1953 ص 257يقرأ الكتاب بتحفظ واحتراس لأن صاحبه يهودي من أصل ألماني منتدب للتدريس في أمريكا وهو من ألد أعداء الإسلام، وقد أكد لنا هذا الدكتور محمد البهي في كتابه الفكر الإسلامي ص 545 ط 4 عام 1961 وليس هذا فحسب فالذين ولدوا من السبايا عبد الرحمن الداخل أمه «راح» من قبيلة نفزة، وفيهم كان التجاؤه وخادمه بدر وابنه سليمان وخادم أخته أم الأصبغ أبو شجاع سالم، ابن الأثير175/5والحضارة الإسلامية لآدم متز 277/1 ط 1957 ترجمة أبو ريدة.

(64) راجعه ثم راجع ضحى الإسلام لأحمد أمين 88/1.

(65) راجع الروض المعطار مخطوط خاص 30/2 ـ 32. وكذا عند المسعودي في مروج الذهب 175/2 ـ 180ـ 241 والأغاني44/20.

القوم وأشرافهم من المغاربة، حتى اللذين أسلموا وحسن إسلامهم أدخلوا في النزاعات التي كانت بين القوم، وما كانوا عليه من تطاحن قبلي قديم امتد إلى البلاد المفتوحة مما كان سببا في ردة ونفور كثير من القادة البربر وقبائلهم وهذا ما يبرر ما عرف للبربر من تقلب وردة وعدم التزام للفاتحين من العدنانية والقحطانية الذين بلغ تطاحنهم الذروة، ثم نتجت عنه ثورات عام122هـ/739م كما سنرى، ولو أن ياقوت الحموي574 – 626هـ/1178 1228 قبل أن يصدرحكمه استعمل قليلا من الإستنتاج والتحليل، لما كان السابق لإلساق ما ألسقه بالبربر من التهم، والذي يدعم هذا الرأي هو ما ظهر من تمسكهم بعد تركيز الفتح بالإسلام وبواسطة فرد صالح من آل البيت هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي عليه السلام وفاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد ثبت من خلال مراحل التاريخ أن الفتح الحقيقي للمغرب لم يكن جديا إلا في عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد، فعبد الملك هو الذي أفاد من أخطاء سلفه في كثير من المواقف، وهو الذي أرسل حسان بن النعمان بعد في قوات مقاتلة قوامها ستة آلاف وليس أربعون ألفا كما قيل في غير معالم الإيمان(66) أما قبله فقد كانت الفتوحات باستثناء مرحلة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، تهدف إلى غاية هي شغل المعارضين من جانب، والبحث عن المال الكثير من جانب آخر، ولما أصبحت الدولة تضرب نقودها بواسطة كثرة ما أصبح لديها من ذهب تغير الإتجاه، وإذا كان عبد الملك هو أول من ضرب النقود سنة76هـ/ 695 م نعرف الدافع الذي حدا به وبخلفه إلى الإهتمام أكثر بأقطار المغرب والمشرق، حيث ذهب معابد الهند شرقا وما جره طارق من الأندلس غربا، وإذا نحن رجعنا إلى ما حصل بين معاوية وعلي. بعد موت عثمان بحجة واهية من معاوية، انقض بها على الحكم بعد قتل علي في17 رمضان سنة40هـ/660م نجد أن الأمويين ضيعوا ما حققه الإمام علي من فتوحات لأرض العجم، فارس وبقية بلاد العرب ومصر، بل إن غزوات الصيف التي كان يوجهها معاوية طيلة حكمه الذي دام نحو

(66) لمؤلفه الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري 605 ـ 696 هـ، وهو معالم الايمان في معرفة أهل القيروان.

العشرين سنة إلا تسعة أشهر، إلى القسطنطينية، انتهت بمهادنة الروم، وتم الإتفاق على ضريبة يدفعها معاوية للقيصر لمدة ثلاثين سنة لم يعشها، وذلك بسبب ظهور سلاح النفط والقار ثم الزيت والشحم الشبيه اليوم بقنابل النابالم، والذي اكتشفه كيلينكيوس أحد أبناء اليونانيين من أبناء هيليوبوليس عين شمس، وإن كان سلفه قد مزق الإتفاقية. وعادت الحروب ضد الروم، بل عرفت دولة الأمويين بعد موت معاوية انقسام البلاد الى حكومتين حكومة دمشق وحكومة عبد الله بن الزبير في الحجاز(67).

ومهما يكن فإن عقبة بن نافع بن قيس بن لقيط الفهري، توجه إلى المغرب عام 50هـ 670 م لأنه هو الذي فتح غدامس عام 42هـ/662م، وودان عام 43هـ/663م في زمن معاوية بن سفيان، وكان الوالي على مصر مسلمة بن مخلد الذي نبه عقبة للفتح الجدي وبناء القيروان في مكان تفنن الخيال العربي في وصفه والحيوانات التي كانت تعمره وإذا ما طال عهد مسلمة بمصر من19 ربيع الأول سنة 45هـ/665م إلى أن توفي يوم15 رجب 62 هـ/681 م أي بقية حياة معاوية وشطرا من حياة اليزيد، فإن ذلك كان من عوامل تركيز الفتح الذي يكتب لعقبة منه الحظ الأوفر رغم ما فعله معه أبو المهاجر بدافع النزعة الأموية ضد كل الذين لم يشاركوا في الفتنة الكبرى، خصوصا وأنه استمر إلى سنة 64هـ/683 م وعقبة الورع النقي، رغم أنه ابن خالة عمرو بن العاص فهو الذي لم يشارك في الفتنة الكبرى لا بالقول ولا بالفعل، وهو الذي أرسى قواعد الفتح لكنه لم يترك رحمه الله ليرى ثمرة جهاده الذي امتد من زويلة وغدامس بأرض ليبيا شرقا، إلى طنجة ثم آسفي ودرعة على مشارف الساقية الحمراء، ولا صحة لما ذهب إليه بعضهم من أنه وصل إلى السودان(68). بل حفيده حبيب، وإذا ما قتل عقبة ومعه أبو المهاجر بسبب خطأ تقدير

---

(67) بويع بالخلافة في 7رجب 64 هـ وقتل عبد الله بن الزبير في جمادى 2 سنة 73هـ/ 692م بمساعدة قيصر الروم الطفل يوستنيانوس وحاشيته بعد مسالمة عبد الملك بن مروان مقابل دفعه مالا سنة 70هـ/ 689م لكنه عاد لحرب الروم واحتل أرمينه سنة 75هـ/ 694م.

(68) راجع الروض المعطارللحميري مخطوط خاص جـ1/2 وإبن عذاري 27/1 وإبن الأثير 98/5 والعبر1817 ورياض النفوس 25 – 28 ونهاية الأرب 11/2 والبلاذري 315 – 320: مصادر سابقة وحول مدينة تاهودة التي حسبها بعضهم قبيلة راجع الروض المعطار للحميري جـ 1 حرف التاء والهاء وما فيه من وصف لعقبة إلى درجة أن شهر بن حوشب روى حديثا نسب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه وصف قبيح لمدينة تهودة الملعونة. وإن الذين قتلوا بها مثلهم كشهداء بدر..إلخ.

عقبة وبغدر من كسيلة بن ملزم البرنسي وجنوده من الروم البزنطيين بمدينة تاهودة بأرض الزاب من بسكرة في المحرم سنة 64هـ/683م، فإن حنش بن عبد الله اقترح على العرب مغادرة القيروان التي احتلها كسيلة، ودام حكمه لها خمس سنوات، فعاد حكم المغاربة والبربر لشمال إفريقية إلى أن افتكها زهيرا بن قيس البلوى بأمر من عبد الملك، لكن زهير نفسه قتل من قبل الروم ببرقة زمن قسطنطين الرابع المعروف بالملتحي، ومنها عاد حكم المغاربة والبربر أيضا بواسطة دهيا بنت ماتيا، لكن حكم الروم نفسه تقلص، كما اختلط المغاربة والبربر أنفسهم حيث أصبح منهم المسلمون حقا، وسيظهر عدد من المقاتلين ضمنهم ولدي الكاهنة اللذين أصبح لكل منهما القيادة على بعد مع حسان، وكذا مع موسى بن نصير، ونرجح أن من هؤلاء زياد بن عبد الله والد طارق الذي ربما يكون على رأس الألفين من ستة آلاف الذين خرجوا على كسيلة بن ملزم الذي قتله زهير بن قيس(69). إذ يرجع نسبه في نظرنا إلى نفزة وليس لمصمودة لأن مصمودة في هذه المرحلة لم تكن بعد قد مضى عليها من الزمن في الإسلام ما يكفي لتكوين أمثال طارق بن زياد بن عبد الله.

في هذه الفترة بل قبلها منذ معاوية وكما أشرنا كانت الخلافة قد تحولت إلى الملك، وكان الملك قد أسند إلى عبد الملك بن مروان الذي كان قد تولى بعدما مضى على حكم ملوك الأمويين نحو الربع قرن. وبحق كان عبد الملك في أخريات ملكه بالنسبة لتنظيم الدولة أحسن من سلفه بما فيهم معاوية، فهو رغم إعتماده على إجرام الحجاج الذي قتل نحو المائة ألف من المسلمين منهم الإمام سعيد بن جبير التابعي وعبد الله بن الزبير، بعدما قتل عبد الملك أخاه مصعب، فإن الحجاج كان من الذين ساهموا بقسط أكبر في التمكين للأمويين بما كان يتوفر عليه من كفاءة إجرام واقتدار مكن له إجرامه وأخطاؤه الفادحة في الحجاز والعراق من هدمه للكعبة وقيامه بما يعتبر من أكبر الفظائع في

(69) راجع إبن عذاري 1/26 و30 ـ 31 ـ 32 ـ 38 ـ 43 والعبر 4/186 و6/146 و7/7 ـ 8 ـ 9 ومآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي 1/126 ـ 132ط الكويت 1964 ففيه أن الحجاج عاش 54 سنة منها 20 سنة واليا على العراق قتل فيها صبرا 120000 ومات في محبسه 50.000 رجل و30.000 إمرأة، أو ليس كل هذا وما سوف نتعرف عليه في موضوع السبايا والغدر كله في صحائف الأمويين ومهما يكن فإن التاريخ عبر، فليعتبر الذين يحسبون أنه عنهم غافل.

تاريخ الإسلام على عهد بني أمية ولعل في تاريخ الشيعة الذين عرفوا ظلمه ما يكفي لمعرفة قسوته وجبروته.

عبد الملك بن مروان الذي هو الآخر سوف يقبل ذلك السيل من السبايا "البربريات"بمآت الآلاف، هو الذي أسند قيادة ستة آلاف الى واليه حسان بن النعمان ليعيد بهم فتح المغرب، وفعلا أعاد القيروان ومزق قوة الروم المهلهة بالمنطقة، كما توجه إلى الكاهنة دهيا بنت ماتيا بن تيفا، ملكة جبل الأوراس وقبائلها جراوة، وكانت قد جمعت حولها جيوشا جرارة لمقاومة "العرب" عندما علمت بما حصل بينهم وبين الروم، وإذا هي اعتصمت بجبال الأوراس التي يبلغ ارتفاعها نحو 2300 م فإن حسان طاردها غير متهيب من وعورة المسالك واحتمائها بطبيعة المنطقة، فلما التقيا انتصرت عليه واستقلت بالمنطقة، ثم بإفريقية وما حولها، وكانت قد فعلت فيها ما لم تفعله جيوش الغزو من الهدم والتدمير إقتداء بما سجل التاريخ ليوغورطة مع الرومان وذلك منها قصد أن تصد العرب الذين ظهر لها وحسب تصرفاتهم المستمدة في سياسة الأمويين أنهم ما قدموا إلا من أجل ما كان بالبلاد من ثراء، لكنها قتلت بمهاجمة حسان في الجم بعد خمس سنوات وقد عرفت كيف تموت سنة82هـ/701م. وهي نفس المدة التي استقل فيها كسيلة بالمنطقة، وقد أفاد حسان هو الآخر من أخطاء الذين سبقوه، فقد فكر في التمكين للفتح بالقضاء على مراكز القوة مثل قرطاجنة التي فر أهلها إلى صقلية كما أخذ يمكن لاستقرار الفاتحين بالمنطقة بشكل امتزج فيه التجهيز بالتسيير، ذلك لأنه لم يكن كسلفه الذي كان يهمه جمع ما يرضي الملك في دمشق، بل حتى عقبة وزهير تعرضا لفترة إرهاق، إذ كان عليهما أن يغترفا من المغرب ليمدا المحاربين في المشرق، في تلك الحروب التي خاضها عبد الملك وقواده كما أشرنا، ورغم ذلك ففي عهد عبد الملك عرف الفتح الإسلامي بالمغرب خطة مغايرة لما سبق، فقد كان لعقبة وحسان أثر غير أثر السابقين، وعمل مخالف لعملهم كذلك، ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا كان قاصرا على عبد الملك، فحتى عبد العزيز بن مروان الذي كان واليا على مصر من قبل أخيه عبد الملك، لم يرقه عمل حسان الذي كان يريد منه أن ينهج نهج السابقين في الجلب وكثرة الغنائم، ومن أجل ذلك

عزله وصفى أملاكه ثم ولى مكانه صالح كما يقول صاحب الفتوح ، وابن خلدون(70).

بعد حسان تولى من القواد الصادقين موسى بن نصير في شهر صفر سنة 79هـ/698م أرسله عبد العزيز إلى مصر، ورغم أنه وجد البلاد ممهدة بما قام به حسان الذي أنشأ دارا لصناعة السفن، واستقدم ألفا من أقباط مصر، بالإضافة إلى ماكان قد قام به عبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن حديج فإنه كان بحق القائد المحنك الذي عرف كيف يلم شعب المغاربة ويجعلهم يشاركون في الفتح بعقيدة صادقة تتمثل في طارق بن زياد النفزي الذي كان على رأس المقاتلين الذين حرروا إفريقية من أثر الروم والذي قلنا إننا نرجح أن والده كان أول الألفين من الفرسان الذين تخلفوا عن كسيلة وانضموا للعرب سنة69هـ/688 م(71) كما سبق.

لقد استطاع موسى بن نصير أن يعيد الفتح إلى ما كان عليه قبل اغتيال عقبة وأصبحت البلاد على امتدادها تابعة للأمويين، وقد تم له ذلك بخطة محكمة قربته من المغاربة والبربر وقربتهم إليه، ذلك أن أول عمل قام به هو عتقه جميع من اختص به من الأسرى بعدما دانوا بالإسلام، وابتدأ بفتح زغوان، وكان أكبر فتح فرح به الملك الأموي عبد الملك وأخوه عبد العزيز، إذ بلغ مجموع الأسرى ثلاثمائة ألف أسير وهو مالم يحققه السابقون رغم أنهم جميعا اتحدوا في السبايا، ثم صار إلى القيروان عاصمة إفريقية فأمضى بها شهري رمضان وشوال من سنة 79هـ شق أثناءها قناة بين القيروان والبحر، ولتكون مرسى لأسطوله، ومشتى للمراكب، ثم استخلف ولده عبد الله على القيروان، وتقدم بجيوشه ففتح بلاد كتامة، وزناتة، وصنهاجة، وساجومة وأرساف، وغنم كثيرا ثم أرسل ولده مروان ففتح سوس، وبعد تنظيم الأسطول أرسل ولده عبد الله لفتح صقلية

---

(70) فتوح مصر ص203 والعبر 187/4.

(71) لقد قيل ان طارق مولى موسى بن نصير وأنه لم يذكر إلا مع هذا القائد ونحن نرى أن والد طارق كان قائدا محنكا قبل عهد موسى، وربما منذعهد حسان بن النعمان، وأنه نفزي ونفزاوة هم الذين فرغوا بكسيلة بن ملزم البرنسي، الذي قتله زهير بن قيس البلوي وما كان له أن يفعل لولا أن القوة التي ناصرت العرب كانت تتمع بقيادة، ولم يعرف قائد بربري ناصر الإسلام قبل طارق، وموسى بن نصير الذي ينسب إلى بكر بن وائل من قبائل عدنان والذي ولد سنة 19هـ/640 م بوادي القرى شمال الحجاز، وكان والده يدين بالمسيحية. وقد رآه خالد بن الوليد حين فتحه للعراق في كنيسة عين التمر يرتل الإنجيل، وانتهى به الأمر إلى وصيف لعبد العزيز بن مروان الذي أعتقه راجع البلاذري 256 ـ 257 والطبري 22/4 وإبن خلكان 176/2.

ففتحها، وأرسل عياش بن أخيل ففتح سرقوسة سنة86هـ/705م وأرسل عبد الله بن مرة ففتح سردينية سنة89 هـ/708م وكان وقتها قد مضى عشر سنوات على وجود موسى وقومه في المغرب.

وإذا نحن تعمقنا في سير وفتوحات موسى بن نصير والطريقة التي سلكها نجدها أعمق أثرا في المغرب أكثر مما سبق رغم إكثاره وأبنائه من السبايا حسب طلب الأمويين، فقد أخذ المجتمع المغربي في هذه المرحلة يأخذ اتجاه الإقبال على العقيدة الإسلامية خصوصا وقد أصبح من البربر أنفسهم قواد جيش إلى جانب موسى وأبنائه. وبذلك أصبحوا يتدرجون نحو العروبة تدريجيا حتمته الحياة المشتركة، والقيادة المشتركة، والإدارة المشتركة كذلك، وإذا ما أصبحت البلاد تابعة في كل ذلك لمصر التي كانت تستمد منها الأوامر والتوجيهات، فإن المغاربة كان عليهم أن ينصهروا بسرعة مع العرب، وأن يتحدوا معهم ضد الروم الذين بقيت آثارهم وسمومهم تحاول التفريق بين العنصرين حتى لا يتم للعرب سلطان، لكن الطريقة التي سلكها موسى وأولاده عمليا قطعت الطريق على كل ذلك، وأصبحت البلاد كلها تابعة للسلطة الأموية بإشراف وال اتخذ مركزه القيروان، وإذا ما ولي موسى طارق بن زياد على مدينة طنجة، فإن هذا الأخير تطلع إلى فتح الأندلس، لكن قبل أن يتقدم كان عليه أن يؤمن خلفه بالقضاء على عامل سبتة يوليان الذي استقل بهذه المدينة عندما تعرضت البلاد التي كانت تحت حكم البزنطيين للسقوط أمام الفتح العربي.

ويوليان هذا الذي قال عنه ابن عذاري أنه قوطي وابن خلدون أنه رومي وغيرهما إنه بربري غماري، يقول عنه ابن الأثير إنه لقي عقبة سنة 63هـ/682م وقد بقي إلى أن لقي موسى بن نصير وقت وصوله لطنجة سنة 89هـ/708م وإذا صح هذا يكون يوليان قد عاش في الحكم طويلا وما كان له ذلك إلا أنه كان قويا إلى درجة أن طارق بن زياد حاول إخضاعه وفتح مدينته مرتين فلم يستطع، وربما تكون مناعة المدينة بسبب ما كانت عليه من التحصين الطبيعي والعمران المعقد كما وصف الحميري، الأمر الذي دفع بطارق إلى مسالمة يوليان وطلب مودته، فكانت النتيجة أن ساعده يوليان على نقل الجند الفاتحين إلى الأندلس ومساعدتهم لقطع المضيق بواسطة سفنه، بل تقول الرواية إنه ساعد على معرفة

أحوال الأندلس والكشف عن ضعف حاكمها لذريق كما تنطقه العرب وهو رودريك الذي كان يواجه الحروب الناجمة عن اقتلاع عيني (دوكرد وفا) الذي كان أولاده قد التجأوا إلى موسى طالبين منه حرب الأندلس، ولما كتب موسى إلى الوليد يستأذنه أذن له، وتقول الرواية التاريخية إن يوليان كان مندفعا ضد رودريك بسبب أن هذا الأخير هتك عرض ابنته "فلوريدا" التي وضع حولها من القصص الكثير.

جامع عقبة بن نافع الجامع الكبير بالقيروان

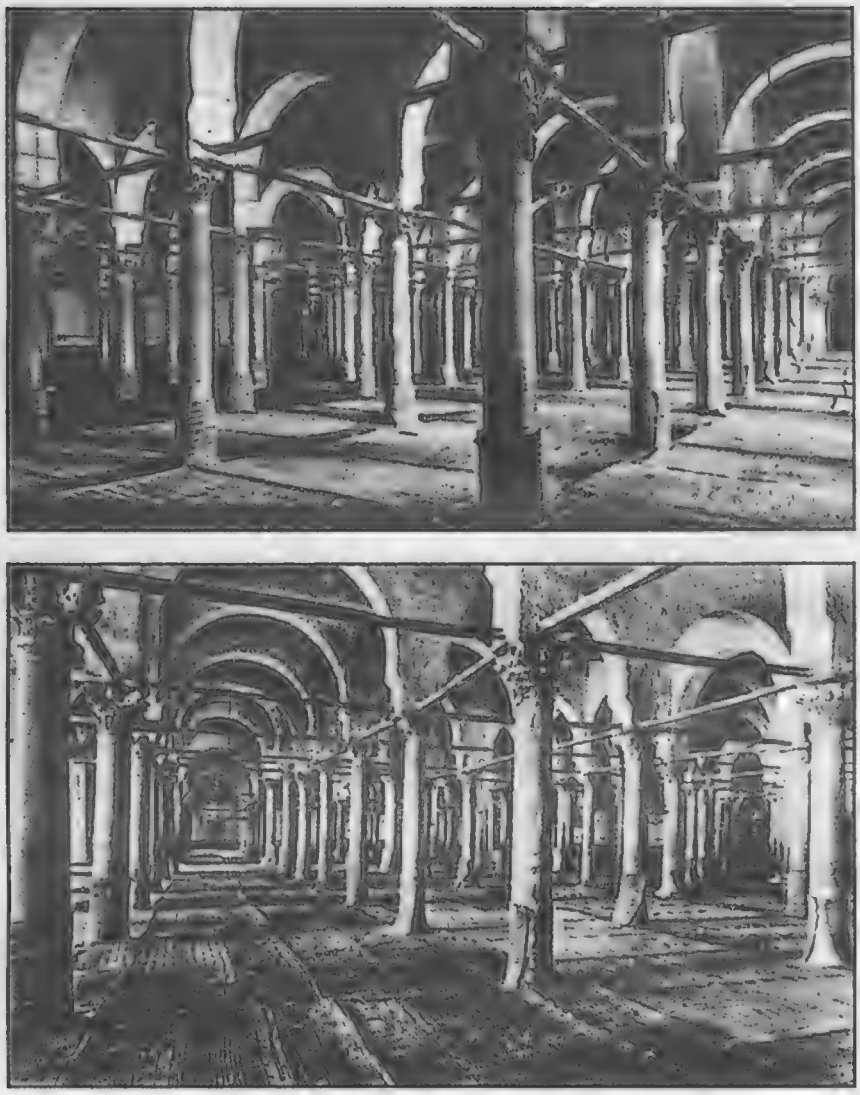

جامع عقبة بن نافع
الجامع الكبير بالقيروان

الجامع الكبير بالقيروان

مدخل جامع البربر بالقيروان

مدخل الجامع الكبير بالقيروان

مدينة المنستير بتونس

من بقايا خرايب ثمودة
المدينة العربية في سفح
جبل حزمار وضفة وادي
مارتيل قرب تطوان

طريق مرصفة موصلة الى جبل
العلم انشاها الصحراوي
سنة 1245هجرية

الفصل التاسع والعشرون
فتح الأندلس

قبل سيرنا مع الفاتح العظيم طارق، ما هي جزيرة الأندلس وما هي حدودها وسكانها وطبيعتها؟

هي شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوربا، تطوف بها المياه من ثلاث جوانبها، مياه الأبيض شرقا وجنوبا، والمحيط الأطلسي غربا وشمالا، عدا جانبا واحدا هو الشمال الشرقي، حيث تحدها جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا، وأخصب بلاد اسبانيا وأحسنها مناخا الأقاليم الجنوبية والشرقية، ثم الغربية ذات السهول الممتدة والخصوبة الوافرة والهواء المعتدل، خلافا لجو أقاليم الهضبة الكبرى القليلة الخصوبة باعتمادها على الأمطار غير الدائمة والمشتملة على جو قارس في الشتاء شديد الحرارة في الصيف، وعندما قدم الإسلام أرض الأندلس وجد بها شعبا هذه أقسامه إلى جانب مائتي وعشرين ألف من اليهود، فهناك الجلالقة والقطلانيين بين الشمال، والشمال الغربي، والشرقي، إلى جانب بيشكنس في الشمال، والقشتاليين في الوسط، ثم الجنوبين، الذين هم أهل الأندلس.

بعد استطلاع طريف للمنطقة بواسطة خمسمائة من الفرسان انتقل طارق بن زياد بتوجيه من موسى بن نصير إلى الأندلس على رأس جند قوامه اثني عشر ألفا من المغاربة والبربر، فيهم قلة ضئيلة من العرب قيل عنها ثلاثمائة، نقلوا على سفن « قيل أحرقها طارق كما فعل القائد الفارسي هرمز»(72)، وكان ذلك يوم 15 رجب

---

(72) قصة إحراق السفن وردت في خبر استنجاد سيف بن ذي يزن الحميري آخر ملوك التبابعة بكسرى أنوشروان فأرسل معه هذا الأخير جيشا من الأسرى الذين كانوا في سجونه في ثماني سفن إلى أن خرجوا ساحل حضر موت برئاسة هرمز الديلمي الذي أحرق السفن والزاد حتى لا يطمع أحد في الفرار إلخ. راجع التاريخ السياسي لمحمد فخر الدين جـ 18/1 ونفح الطيب 122/1 وأخبار مجموعة 10 ـ 12 ـ 40 وابن عذاري 9/2 ـ 10 : وما نسب لطارق من إحراق للسفن واضح الاقتباس كما سبق، بل في نظرنا هذا لا تؤكده الظروف .. إلخ

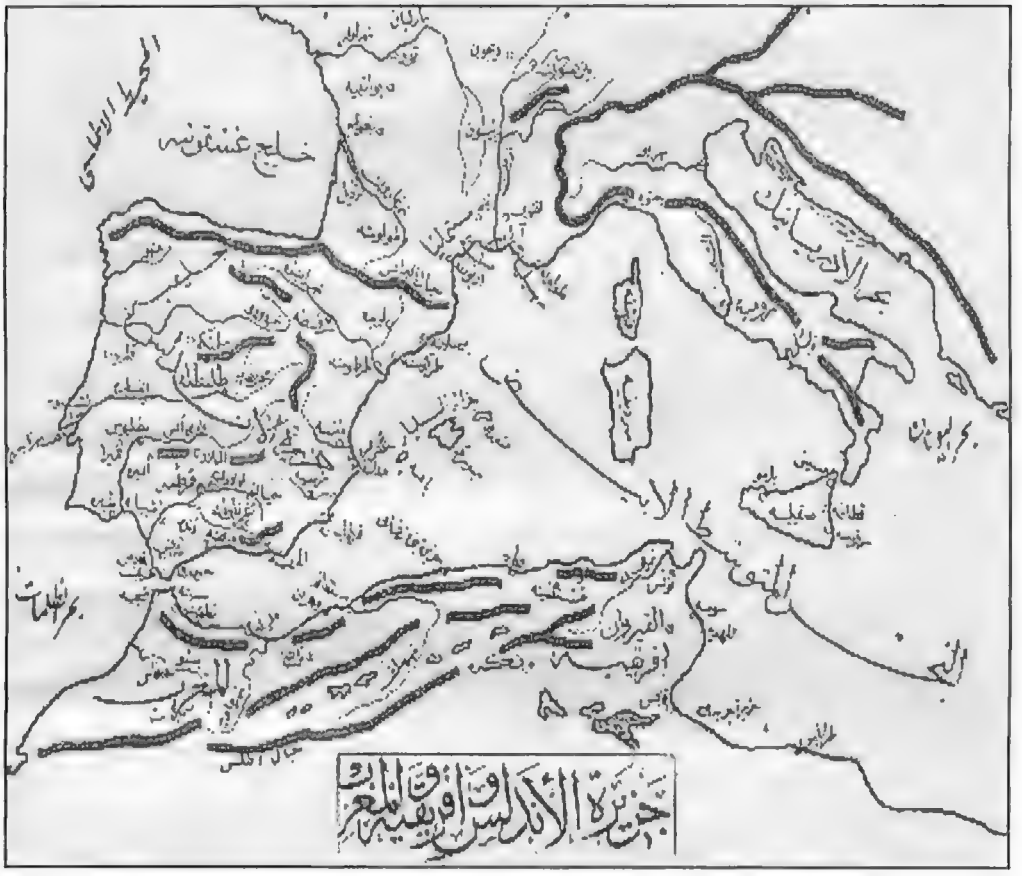
المحيط الاطلسي
خليج غسقونيه
بحر الادرياتيك
بحر اليونان
بحر الظلمات
القيروان
افريقية
المغرب
جزيرة الأندلس وافريقية والمغرب

سنة 92هـ/710/2/27م ورغم ما كان عليه مغتصب العرش رودريك الذي لم تتفق حوله التكتلات السياسية التي اعتادت إنتخاب الملك حيث كان عندهم هذا المنصب بانتخاب، فإنه استطاع أن يجمع من القوات أضعافا مما كان عليه جيش المسلمين الأمر الذي أدى بطارق إلى أن يستنجد بموسى فأنجده بخمسة آلاف آخرين؟. بقيادة طريف بن مالك الذي قيل أنه أرسل قبل على رأس خمسمائة للإستكشاف بالجزيرة التي سميت بإسمه(73). ورغم ذلك فقد اكتسح طارق ما كان أمامه حتى انتهى الأسبان إلى اللجوء إلى الجبال خلف أراضي إستوريا ذات الوعر ناحية الشمال، ولم تعترضه مقاومة تذكر حتى انتهى الأمر بأبناء رودريك الثلاثة، آلمند، ورملة، وأرطياش إلى الإنضمام لصفوف طارق كما تقول بعض مصادر التاريخ عن موقعة شريش بوادي بكة التي حصلت في رمضان سنة 92هـ/يوليوز 711م، والتي انهزم فيها القوط وملكهم شر هزيمة، بل والتي قيل إن رودريك مات فيها غريقا حسب الرواية العربية وأنه لم يمت حسب رواية الأسبان، بل عاش إلى أن قتل بيد مروان بن موسى بن نصير في معركة السواقي(74).

كان طارق قد قسم جيوش الفتح على ثلاث إتجاهات : الأول بقيادة مغيث الرومي مولى عبد الملك بن مروان إلى قرطبة ونواحيها.

والثاني إلى مالقة على الشاطئ الجنوبي من الأندلس ولم يجد أمامه مقاومة تذكرحيث فر أهلها واعتصموا بالجبال.

والجيش الثالث برئاسة عبد العزيز بن موسى بن نصير موجه إلى البيرة بعد مرسية، حتى احتل أرشذونة ثم اتجه شرقا إلى غرناطة ، و قد حصل له من الفتح ما حصل لسابقه لأن أهلها جلهم كانوا من اليهود الذين أعانوا العرب أملا فيهم حتى يتخلصوا مما كانوا فيه من الويل، والنكال، وأما الجيش الرابع فهو الذي كان بقيادة طارق نفسه والذي اتجه إلى طليطلة، وكان الأدلاء لكل الجيوش من أصحاب يوليان. وما

---

(73) لقد نسب طارق إلى مصمودة والراجح أنه من نفزة وبه قال ابن عذاري 37/1 ـ 43. كما رأينا سابقا بل وغيره فهو طارق بن زياد بن عبد الله بن ألغو بن أورفاجون بن نبرغاسن بن ألهاث بن إيتومت بن نفزاو. راجع الأسر، لزامباور 85/1.

(74) تقدم الفتح العربي إلى تخوم فرنسا مخترقا جبال البريين الواقعة شمال البلاد فاستعد لقتالهم الملك شارل مارتل الذي تهيأ قرب مدينة تولوز فوقعت بينهما حرب تقول رواية الأوربيين إنهزم فيها العرب .

طارق بن زياد

ملاقاة موسى بن نصير مع طارق بن زياد بأرض طليطله كما تخيله الرسام

كادت تنتهي سنة 94 هـ حتى كان طارق قد أتى على كل أرض الأندلس ثم شيد الحصن المعروف باسمه، وانتهى بعد انضمام موسى إليه في إستورقة مارا بالجزيرة الخضراء، ثم شدونة، وإشبيلية، وماردة، ولما التقيا تقدما من طلبيرة معا بجيوشهما لفتح سرقوسطة وبرشلونة وأريونة حتى ساحل جليقية وشاطئ المحيط الأطلسي، فكان الفتح الحقيقي الذي قوامه الدين والسلوك والخلق، ولو توفرت هذه الصفات في حكام الأمويين الأولين لما تأخر الفتح إلى هذا الزمان، ومهما يكن فإن ما قيل في غير مصدر عن غيرة موسى من طارق، فإننا لا نقول بالإنسياق في هذا الموضوع الذي يبعد كثيرا عن أخلاق موسى وطارق معا. خصوصا إذا علمنا أن القيادة والتوجيه كانا لموسى، وأنه الذي استأذن في الفتح، من الممكن أن يكون موسى قد لاحظ على طارق توغله في الفتح بشكل أذهل موسى وجعله يفكر في مصير جند الإسلام. خصوصا وأن البلاد مترامية الأطراف، ويفسر هذا بتقدير المسؤولية وحرارة الحب المتبادل بين القائد والجند، وأما ما ذهب إليه بعضهم مما أطلقوا عليه حسدا من موسى لطارق. فهو في نظرنا غير سليم، بل كان الحسد والضغينة يأكلان قلوب القوم بدمشق ضد موسى وطارق معا، وسينكشف عن وجوههم ممثلين في سليمان بين عبد الملك، عندما يجلس على العرش بعد وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك كما سنرى، ناهيك وأن أبناء موسى يتقدمهم عبد العزيز كانوا خير مثال في الوفاء لبني أمية الذين أعماهم الطمع والشر الذي لم يقف عند حد والذين لم يقابلوا صنيعهم بما يرضي الله ويتفق وخلق الإسلام. وإن كنا غير واثقين مما أورده ابن الأثير في كامله(75) حول عبد العزيز بن موسى وما قيل عن تأثير أرملة لذريق التي تزوجها عليه.

لقد كان الجيش الذي وجه إلى غرناطة قد اتجه في نفس الوقت إلى مرسية بالجنوب الشرقي من الأندلس، وكان على مرسية تيودمير الذي عرف عند العرب بتدمير ابن عبدوس. والذي كان شبه مستقل بتلك المنطقة وما حولها، لكنه رغم ما أبداه من مقاومة انهزم شر هزيمة في قرطاجنة مما اضطره إلى الإنسحاب فيما تبقى معه من مقاتلين قلة إلى مدينة أربولة التي استطاع فيها وبحيلة ساعده فيها نسوة المدينة

(75) جـ 8/5 ط مصر.

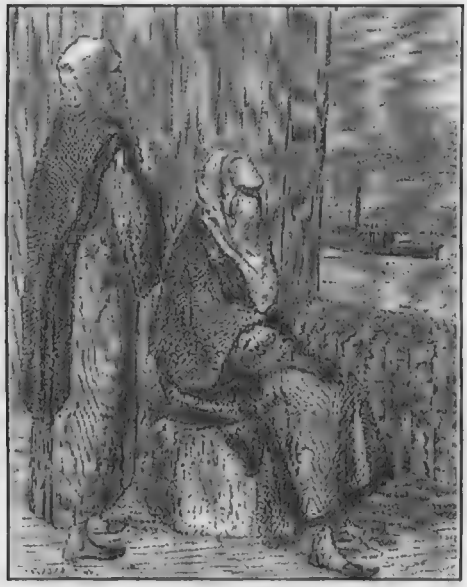

ما عرفه المغرب قديما من أثر الأندلس

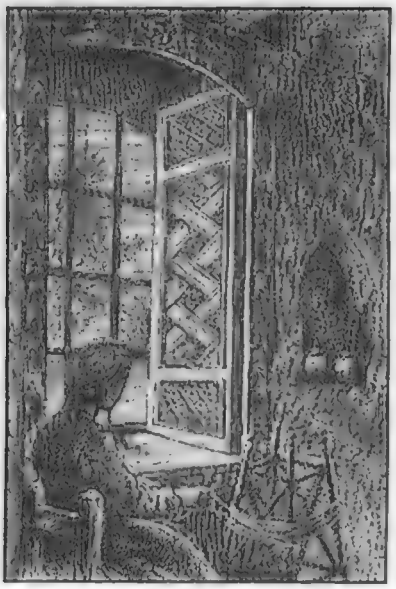

اللائي نشرن شعورهن على سور المدينة وهن يحملن رايات إلى جانب ما تبقى من الرجال، فكان المظهر وكأنه جموع من المقاتلين المستعدين للدفاع عن المدينة، مما جعل العرب يحسبون لهم حسابا مكن تيودمير بن عبدوس من أن يطلب التفاوض بعد ما طلب الأمان على نفسه وما تحت حكمه من البلاد، فأمنه عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي عقد معه معاهدة كانت هي أول معاهدة أبرمت بين الفاتحين وأحد حكام الأندلس ورد فيها ما يلي: ‹‹بسم الله الرحمان الرحيم: كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوس أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع من ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع من كنائسهم ما يعبد، وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن هي: "أريولة وبلنته، ولقنة، وموله، وبلانة، ولورقة، وأله". لا يؤوى لنا آبقا ولا يؤوى لنا عدوا، ولا يخيف لنا آمنا، ولا يكتم خبر عدو علمه، وعليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاء مكيال نصف صاع من عصير العنب غير المخمر وأربعة أقساط خل، وقسطين عسل وقسطين زيت، وعلى العبد نصف ذلك ، وكتب في رجب سنة94 هـ/713م.

لكن عبد العزيز ومن معه من الفاتحين ما كادوا يدخلون مدينة أريولة ويكتشفون أن ليس بها ما قدروا حتى أدركوا أن في الأمر خدعة دبرها تيودمير بن عبدوس لكن القائد المسلم لم يستطع التراجع في ما تعهد به وما اشترطه على نفسه وجنده.

وهكذا أثار طارق بن زياد الذي توجه إلى طليطلة عن طريق جيان حيث وجد بها من الغنائم ما تكرر الحديث عنها في جل المصادر العربية وغير العربية، والتي نالت الصدارة من بينها، تلك المنضدة الذهبية المحلاة بالحجارة الكريمة، والتي قيل إنها من آثار النّبي سليمان عليه السلام، وبعدما سقطت قرطبة وإشبيلية وغرناطة بقيت مدينة ماردة التي حوصرت وكان موسى بن نصير ممن ساعدوا في الحصار وإتمام الفتح حين التحق بطارق في جموع من المقاتلين العرب والبربر، بعدما استخلف ولده عبد الله على القيروان، ثم توجه إلى الأندلس التي حل بها في رمضان 93هـ/712م فتم له فتح ماردة

في شوال 94 ـ 713م وفي كنيسة ماردة وجد موسى قليلة ملأى بالدر، لكنها لم تلطف من غيظ موسى على طارق الذي توغل في الفتح.

كان موسى وطارق وأبناء موسى الثلاثة قد مهدوا البلاد ووحدوا الحكم فيها من شرقها إلى غربها ثم أندلسها، وكانت أخبار تلك الفتوحات وما يتبعها من مجد وإكبار تذكى حسد الكثرة الكثيرة من المفسدين الذين امتلأ بهم بلاط بني أمية في دمشق، وأحقر مثال لهذا النوع من البشر مغيث الرومي الذي كان بالأندلس ثم رجع إلى المشرق، هو وعلي بن رباح اللخمي كرسولين من موسى، ولما سأله سليمان بن عبد الملك – وهو بعد لم يصبح ملكا – عن طارق وموسى، وكان مغيث ربيب نعمة سليمان، أجابه قائلا «إنه لو أمر أهل الأندلس بالصلاة الى غير قبلة لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا» هذا عن طارق، أما موسى فإن صاحبه الذي كان يدس له بلا شك هو الحجاج بن يوسف الثقفي، فهو الذي دس له قبل حتى عزله عبد الملك عن البصرة في شهر صفر سنة 79هـ/698م وإذا كان عبد الملك هو الذي هدم الكعبة، وقتل عبد الله بن الزبير، والتابعي الإمام سعيد بن جبير، وبذلك دمره الله بعدما اختلط عقله من ذلك، فإنه لم يتورع في الإساءة لقائد عظيم عرف مهمته وآمن برسالته في الحياة، وإذا كان موسى قد حدد موقفه من الشرور التي أدت إليها الفتنة الكبرى عندما كان القائد الوحيد الذي رفض من بين قواد بني أمية محاربة آل علي بن أبي طالب، فقال له معاوية بن أبي سفيان ما منعك من الخروج معي لحرب علي وأنا ولي نعمتك؟ "فأجابه : لا أشكرك بكفر من هو أولى بشكري، وهو الله عز وجل، فلا أحارب عليا بن أبي طالب أبدا" فأغض ومضى فأعفاه معاوية، هذا ما أوردته المصادر، وإن كنا نكثر هذا في حق شاب لم يتجاوز العقد الثاني إذ هو من مواليد19 هـ وموقفه هذا مع معاوية ورغم رأينا فيه يكبر في حق الرجل –أنه لما اشتد القحط بإفريقية سنة 93 هـ 712 م وكان موسى قد إستقى بالناس فنزل المطر، ولما قام خطيبا لم يذكر اسم الوليد بن عبد الملك، ولما عوتب قال : هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر إلا الله تعالى " ثم ضرب العملة بالأندلس دون ذكر إسم الأمويين.

ومهما يكن فإن موسى كان في عصره أحد اثنين عظيمين عرفهما الفتح الإسلامي.

واحد بالمغرب هو موسى بن نصير، وآخر في المشرق هو سعد بن أبي وقاص23هـ/ 55هـ، فموسى بلغ رسالة الإسلام ومكن لها في المغرب والأندلس وقبرص حيث عرفت معاركه ومعارك أولاده عبد العزيز وعبد الله ومروان، وهي معارك في مستوى تلك التي خاضها سعد بن أبي وقاص في اليرموك، والقادسية، وجلولاء، ونهاوند، تلك المعارك التي وسعت آفاق الإسلام ومكنت لحكم العرب شرقا وغربا. ولولا استعجال بني أمية بالمغانم التي قالوا عنها تخوفهم على جند الإسلام، لنفذ موسى خطته حتى يعود إلى دمشق عن طريق أوربا رغم عدم موافقة بعض المؤرخين المعاصرين الذين لم يطلعوا على ما دونه مؤرخو الغرب أنفسهم(75) وفعلا تقدم الفتح بعد إلى فرنسا وحصلت بها معارك شارك فيها السمح بن مالك 100 – 102هـ/718م و المتوفى بمدينة تولون ثم عنبة بن سحيم الكلبي الذي فتح بروفانس وليون بفرنسا ، واستشهد سنة 107هـ/725م ومعارك بلاط الشهداء أيام عبد الرحمان الغافقي113هـ/731م وامتلكوا صخرة أبينون "افينيون" كما يقول رينو صاحب كتاب غارات العرب على فرنسا(267) إلى سافواي وبيمونت وسويسرة.

---

(75) راجع البلاذري 238. الطبري 2/1367- 4/12- ابن كثير9/171 وابن الأثير 2/165 - 4/221 - 227 - 376 والعبر 4/117 - 18 والنجوم الزاهرة 1/198 والامامة لابن قتيبة وابن خلكان 2/116 - 176. وتاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم ص 485 ود البستاني جـ 6 - 6 - 11 ووجدي 9 وابن عبد الحكم 202 - 204 وابن عذاري 1/37 - 38 - 42 = 043 - 2/16 ثم راجع عقد الصلح بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتدمير بن عبدوس في الحلل الموشية 3/331 والروض المعطار " أندلس" وعند الأمير شكيب أرسلان في كتاب تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط 104 ط 1352هـ وعند ابن عذاري 2/15 أن العرب حاولوا فتح الأندلس بغزوها من جهة البحر سنة 27 هـ في خلافة عثمان؟؟؟. ثم راجع التاريخ العام مصدر سابق فقرة 523 ص 222 ط 1912م حول غزو العرب لفرنسا ومعركة تور عام 732م.

(76) ترجمة الأمير شكيب أرسلان 104.

معارك العرب بين تور وبواتيه بفرنسا راجع التمدن

الفصل الثلاثون

تظلم المغاربة والفاتحين من سليمان بن عبد الملك

لقد عاد موسى بن نصير إلى دمشق ومعه من الغنائم ما وصف بالحشر، عاد في جمادى الأولى سنة 96هـ/715م مخلفا وراءه ولده عبد العزيز الذي كمل ما تبقى من جيوب لم تفتح زمن والده، ورغم اعتداله وتسامحه الذي سجله تاريخ الغربيين أنفسهم، فإن النقمة التي أجّجها الحجاج ضد والده قد لاحقته هو الآخر كما سنرى.

كان الوليد بن عبد الملك هو باني الجامع الكبير بدمشق وهو آية ظاهرة في العمران، وكان يعجبه أن يكون موضع إظهار ماله من عظمة عرف كيف يخطط لها عبد الملك، وفي يوم الجمعة من شهر صفر من السنة المذكورة، قدم موسى للوليد وبمحضر رجالات الدولة الذين كان من بينهم من هو إلى حزب سليمان والحجاج أميل، ما جاء به من الغنائم التي بلغت حمولة دخائرها الثمينة ما كان يحمله ثلاثين رجلا قيل إنهم من أبناء ملوك البربر والمغاربة، وأبناء أباطرة الروم والأسبان الذين ألبسوا الثياب الملكية الزاهية ثم وضع على رأس كل منهم تاج، وأوقفوا على يمين المنبر وشماله، بعدهم بعث موسى خمسمائة من مواليه يحملون الغنائم من الأموال والجواهر، واللؤلؤ، والياقوت، والزبرجد، والكساء الموشى بالذهب والمرصع بالياقوت، وضعوها جميعا أمام أنظار الوليد، بعدها أرسل موسى أيضا قواده من قريش والبربر والعرب يصحبون ملوك المغاربة والبربر وكبار الروم والأسبان الذين أصبحوا في قبضة موسى. ومرت فترة صمت واندهاش قبل أن يقدم موسى الذي ما كاد يظهر حتى رفعت أصوات المسلمين بصوت عال: موسى موسى موسى. فتقدم القائد العظيم للسلام على الوليد وهو لا يعلم ما يخبئه له القدر غدا من غدر الملك الأموي سليمان بن عبد الملك، وفي ذلك دلالة على ما كانت عليه حتى بين الأخوين والسبب المتاع الزائل الذي سيتركه الوليد بعد أربعين يوما وسليمان كذلك سوف لا يستمتع بالملك طويلا.

بعد ما خطب الوليد خطبة اعتزاز بما حققه المسلمون بقيادة موسى، نزل ثم تقدم من موسى وخلع عليه الوليد ثلاث مرات ثم أجازه بخمسين ألف دينار «؟» وفرض لولده جميعا ولخمسمائة من مواليه في الشرق وأحسن الجوائز لكبار قريش والعرب من قواد موسى.

وهكذا فإن إنتصارات موسى وما حققه وما قدمه للأمويين ماديا وللإسلام والمسلمين روحيا شغلت حيزا كبيرا مما كتبه المؤرخون ودونه التارخ شرقا وغربا(78)، وتوفي الوليد بن عبد الملك بعد أربعين يوما كانت ليلها ونهارها، لا حديث للكبير والصغير فيها إلا عن موسى وما جاء به موسى والبلاد التي افتتحها موسى، وكان أكثرهم غيظا على ما فاته رغم أنه أحد الأربعة الذين خلفهم عبد الملك والذي سيلي الوليد على كرسي الملك، إنه سليمان بن عبد الملك الذي نصب في ربيع الأول سنة 96هـ/ 714م فكان أول ما قام به ليخرس الألسنة ويكم الأفواه التي تؤذي سمعه وتعصر قلبه الحسود بثنائها على موسى، هو مصادرة أموال موسى، ثم أرسل من قتل ولده عبد العزيز والي الأندلس غدرا. بل كاد يفتك بموسى بعدما عزل ابنه عبد الله عن ولاية إفريقية ثم قتله هو الآخر، وكان الأول قد تزوج من أرملة لذريق التي هي "أخيلو" المعروفة " أيله" أو أم عاصم.. وقد قيل إن أيله أم عاصم بقيت سرا على دينها، وقد قيل إنها ألزمته أشياء لم تكن من عادات ولا من تقاليد المسلمين، مثل سجود الذين يدخلون عليه وأنه لبس التاج، بل قال أمثال ابن عبد الحكم إن أخيلون نصرته(79) لكن شيئا من هذا لم يكن وإنما هي مسايرة أهواء ضلال الأمويين. لكنهم سوف يرون من البربر والمغاربة ما يكرهون.

كان الذي تولى حكم إفريقية بعد موسى هو محمد بن يزيد مولى قريش الذي ولاه سليمان بن عبد الملك حيث حل بإفريقيا عام 97 هـ/716م حتى يحقق له ما خطط ضد آل موسى، وفعلا تم لسليمان ما أراد واندفع إليه بحقد سافل، حيث كان قتل عبد العزيز بيد أحد إثنين : زياد بن النابغة التميمي، أو زياد بن عذرة البلوي وهما من الخمسة الذين أمروا بذلك، حيث قتل وهو يصلي بالمسجد الجامع بإشبيلية أو ما قيل عنه مسجد رفنة ،

(78) راجع تعاليق في هذا الكتاب أعلاه.

(79) فتوح 212 وعنه بلاشك نقلت المصادر الأخرى.

وذلك بتاريخ يوم السبت 6 رجب سنة 97هـ/716م، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل حملت الرأس إلى دمشق لتعرض على موسى ثم يسأل من سليمان الذي انتهى به الحقد والدناءة إلى أن وجه السؤال إلى موسى " أتعرف هذا..؟ "فأجاب البطل العظيم بكل ثبات"أجل أعرفه صواما قواما، فعليه لعنة إن كان الذي قتله خيرا منه". راجع ابن عبد الحكم(80) و إذا قال الحافظ الذهبي في العبر1/115 حول هذه السنة97 هـ716 م وحج بالناس خليفتهم سليمان بن عبد الملك، فتوفي معه بوادي القرى أبو عبد الرحمن موسى بن نصير الاعرج الأمير الذي افتتح الأندلس لكن خاتمة سليمان كانت أشد وأنكى، وعند الله تجتمع الخصوم".

لم يجد موسى من بين القوم من اعترف بفضله من بني أمية غير رجل وحيد المكارم في كل من عرف من بني أمية من زمن معاوية، ذلكم هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فهو الذي كان يحب موسى، وقد جاء الوقت الذي يظهر له فيه ذلك الحب الصادق الكبير الذي أنقذ موسى من الموت قبل بيد سليمان كما عبر عنه عمر بقوله : «يا ابن نصير" إني أحبك لأربع الواحده : بعد أثرك في سبيل الله وجهادك في سبيل الله، والثانية حبك لآ ل محمد (صلى الله عليه وسلم)، والثالثة حبك عياض بن عقبة لما تعلم من حسن رأيي فيه، وكان عياض من عباد الله الصالحين، والرابعة أن لوالدي عندك يدا وصنيعة، وأنا أحب أن تتم صنيعته حيث كانت. وهكذا فقد قيل قولا غير الذي أورده الذهبي، توفي موسى رحمه الله سنة97هـ 716م وعمره ثمانية وسبعون سنة، توفي وهو يطوف مستجديا أحياء العرب لجمع الغرامة التي فرضها عليه سليمان الذي قيل إنه خلف بعده عمر بن عبد العزيز كمكرمة، بيد أن علاقته السيئة بإخوته كانت السبب، وليس هذا مجال التفصيل في مثل هذا الموضوع، ومهما يكن فإن تاريخ الأمويين باستثناء خالد بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز كان مليئا بالمآسي القاتمة التي لا مثيل لها نتونة في تاريخ الإسلام، والتي ترجع جذورها بالنسبة للأمويين إلى عهد الجاهلية. وما ورثوه عن سلفهم. ولعل أجمل ما في التاريخ من دروس هو الذكرى، فهل كانت نكبة موسى التي دبرها

(280) راجع المصدر السابق ابن عبد الحكم 212 وإبن عذاري 25/2 والمقري 181/1.

أمثال الحجاج وشره وحقد سليمان بن عبد الملك هي النهاية، بل دارت الدائرة على آل الحجاج أنفسهم، كما عمت قائدا عظيما مثل عظمة موسى(81)، ذلكم هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الذي فتح الأمصار في الهند وخراسان ومدائن السند، فهو الآخر ملأ بيت مال الأمويين من ذهب معابد الهنود وسدنتها وعشرات الآلاف من الذي أسرهم، ملأ بالذهب بيتا طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية، وكان مجموع ما حصل عليه من المال ستمائة مليون درهم، أخذ منها الحجاج بن يوسف مائة وعشرون مليونا، في حين لم ينفق الحجاج على الجيش سوى ستين مليون درهم، بل كان محمد بن القاسم بالإضافة إلى روحه الإدارية قريب الشبه بموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم، ثم هو ابن عم الحجاج، ومع ذلك فإن سليمان ما كاد يجلس مكان أخيه الوليد، حتى فعل بموسى مثل ما فعل الوليد بمحمد بن القاسم الذي كان قد عزله ثم ولى مكانه يزيد بن أبي كبشه السكسكي واليا على السند، و أمره أن يقيد محمد بن القاسم في الأغلال و السلاسل ويحمله إلى العراق، وأمر صالح بن عبد الرحمان الذي كان متوليا خراج العراق أن يقتل محمد بن القاسم، وقد صادف ذلك هوى في نفس صالح لأن أخاه آدم كان من الخوارج وقد قتله الحجاج. ورحم الله محمدا بن القاسم الذي قال قبيل قتله سنة 95 هـ 713م.

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وقال أيضا :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا(82)

وهكذا فإن ما تبقى من ولاة بني أمية وملوكهم مروا سراعا ولم يمض نصف عمر رجل حتى ذهب ملكهم سنة132هـ/749م ليحل محلهم بنو العباس باسم العلويين

---

(81) راجع تعليق 275 قبل ثم ابن عذاري 1/42 ـ 2/23 وابن الحكم 2 ـ 3/183 ـ 184.
وليس ما فعله بنو أمية بموسى ومحمد بن القاسم بأكثر مما فعلوا بآل البيت راجع مروج الذهب 2/23 ـ 24 ـ 25 ـ420 ونفح الطيب 1/180 وما بعدها. والحكم لله.

(82) راجع مجموعة الوثائق السياسية 276 وأبطال الفتح الإسلامي والتركي لمحمود نصير 188 ط 1944 وغيرهما من المصادر المشار إليها قبل.

والإنتصار لهم، انتهوا وكانت نهايتهم تلك التي شهدها مروان وبجانبه ولد موسى بن نصير حين قتل مروان الأموي بيد صالح بن علي بن عبد الله بن العباس يوم الجمعة21 حجة132هـ ببوصير من أرض مصر، في الوقت الذي كرم فيه مروان بن موسى ثم أخذه معه عندما عين أميرا على فلسطين في شعبان سنة 133 هـ وذلك ما زرعه موسى من الخير للذين بقوا بعده من سلالته. أما بنو أمية فإنهم مع كل الأسف قد اندثروا ولم يعد لسلالتهم ذكر كذكر آل علي الذي بقي من الخالدين شرقا وغربا في حين نرى أن بني أمية لم يبق لهم أثر، ثم هم لم يذكرهم التاريخ بما يشرف، وذلك هو التاريخ، والذي كان لابد لنا من كتابته بعيدا عن العاطفة وما يزعمه الذين يقولون إن الأحسن هو ترك هذه الفترة وعدم الخوض فيها من جانب، ومن جانب آخر لنتعرف الأسباب التي دفعت بالمغاربة بعدما شملهم الإسلام، ثم أصبحوا قوة فعالة في عالم المسلمين إلى التحول ضد بني أمية، بل حتى ضد بني العباس أنفسهم في الوقت الذي استطاع رجل واحد صادق العزم سليم السريرة من آل البيت هو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى أن يعيد بهم الفتح ويركز سلطان الإسلام في نفوس المغاربة، وهو الأعزل الوحيد وفي وقت وجيز.

إن الأمويين الذين سجل التاريخ في حقهم ما سجل من أعمالهم رغم تقدم الفتوحات في عهدهم على يد أبطال كرام تنكروا لهم، هم الذين وضعوا أسس الملك القائم على الظلم والجبروت بعيدا عما كان عليه حكم الإسلام قبلهم. فهم الذين لم يتورعوا في اضطهاد كل من خرج على نهجهم أو نادى بالعودة إلى الأسس الصالحة السليمة التي بنى عليها المجتمع الإسلامي حسب قواعد الحق والعدل والحب والخير وشورى الناس فيما يعني أمر دينهم ودنياهم، وقد دام طغيانهم إلى عهد عمر بن عبد العزيز وهو الخليفة الخامس الذي تولى بعد موت سليمان بن عبد الملك يوم10 صفر99هـ فكان عادلا صادقا، لكن خلافته كانت أقل من ثلاث سنوات وهو الذي فتح صدره لغيلان الدمشقي الذي حاوره وقد هاجم الفكر الجبري، يقول ابن المرتضى في كلامه عن الملك حتى انتهى بعمر بن عبد العزيز إلى اختيار غيلان لمساعدته. وهو خلاف ما عند ابن كثير في البداية والنهاية.

وقبل أن نسترسل مع عمر بن عبد العزيز وما حصل بعده في المغرب نرى أن نتطرق إلى موضوع مهم في تاريخ المغرب، ذلكم هو تعريبه المبكر، وهو موضوع يرتبط كذلك بحوادث الفتح، إلا أننا سوف لا نلتزم حولها ما سبق من ترتيب الحوادث. والأشخاص الذين أخرنا ذكرهم في المرحلة السابقة نظرا لما يرتبط بهم من آثار التعريب وما كان معهم من رجالات يرجعون في أصولهم إلى مختلف قبائل العرب، وكيف إستوطنوا هذا البلد، خصوصا الأندلس وأين، وعدد أفرادهم أحيانا، وبذلك يكون ما سبق من الإتجاهين السابقين في الفتح أقل تركيزا مما سنتعرض له، وإن كان يحتوي على بعض التكرار للحوادث. لكنها بشكل مغاير لما سبق، بل ونشير كذلك إلى أن الأمويين عندما أخذوا يتمكنون بنوا نظام دولتهم على نوع من الطبقية سيكون مفعولها أشد ضررا عليهم في عموم بلاد الإسلام كما سنرى، إذ كان قوام هذا النظام هو أن : القريشي أفضل من العربي عموما، والعربي من الموالي، والموالي أفضل من أهل الذمة، وأهل الذمة أفضل من الكفار، ومثل هذا لعمري بعض ما دفع ابن خلدون إلى التعميم في حكمه الخاطئ ضد العرب.

الفصل الواحد والثلاثون
التعريب المبكر للمغرب الكبير

لقد كان عدد الجيش الذي فتح به عمر وبن العاص مصر ثلاثة آلاف وكان أكبر جيش توجه إلى المغرب مع حسان بن النعمان من أجل الثأر لقتل عقبة بن نافع تعداده ستة آلاف وليس أربعون كما قال بعض المؤرخين، بل ما قاله صاحب رياض النفوس وصاحب معالم الإيمان(83) أقرب إلى الصدق إذا نحن إعتبرنا طول المسافة ووسائل النقل والتمويل وما إلى ذلك، ومهما يكن فإنه كان لسماحة الإسلام أقوى الأثر في تعريب المغرب الكبير بعد فتحه الذي تم في بحر سبعين سنة، ولولا تلك السماحة وما جاء به من كريم الصفات التي تركزت بعد، وكان منطلقها الأقوى زمن عمر بن عبد العزيز لما كان للقوة اعتبار في مجال الفتح والتركيز. كانت مصر هي المنطلق الذي انطلق منه العرب نحو فتح بلاد شمال إفريقية أوما حول مصر من أرض النوبة، وإذا كانت مصر قد عرفت الكثير من قبائل العرب التي استقرت بها سواء في عهد عمرو بن العاص من 18هـ إلى24هـ، وهي المدة الأولى، سواء في عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي خلفه، ثم في عهد عمال علي بن أبي طالب، أو العهد الثاني الذي تولى فيه عمرو بن العاص، ففي مصر دونت دواوين الجند، ورحلت قبائل من القحطانيين والعدنانيين كما أشار المقريزي(84)وأن مصر عرفت من بني النضر مائة بيت، ومثلها من بني سليم، ولما أصابهم من خير لحق بهم نحو خمسمائة بيت من البادية، بل صار أهل بلبيس من أرض مصر يعدون بألف وخمسمائة أهل بيت، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد وولي الحوثر

(83) هـ ج ويلز ص 61/1.

(84) الخطط 144/1والبلاذري في فتوح البلدان 312-314-315 ط 1957م وأبطال الفتح لمحمود نصير32 ط1944م ومحاضرات جويدي والسيوطي في ملخصه حسن المحاضرة، ط حجر بدون تاريخ مصدر سابق.

بن سهيل البابلي مصر، مالت إليه قيس، فمات مروان وبها 3000 بيت، ثم توالوا وقدم عليهم من البادية من قدم، وفي زمن هارون الرشيد الذي عقد لهرثمة بن أعين على جيش عظيم بعث به إلى مصر ثم نزل الحوف أصبحت وقتها مصر عربية، وانتقل إليها ما كان بين العرب من تطاحن قبلي أدى إلى بحث الضعيف عن المكان الأفسح، فكان من ذلك أرض النوبة، حيث قبائل البجة التي ترجع في أصلها إلى كنعان بن حام، والتي أسلم بعضها على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبينهم سكن من العرب ربيعة بن نزار، بن معد، بن عدنان، الذين اكتسبوا ما حولهم، بل كان معدن الذهب بها بيد بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة، الذي كان يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة والحدارب الذين انتشر الإسلام بينهم أكثر من غيرهم، ومن البجة أيضا الخاسة، وهي اليوم بالجبل الأخضر من ليبيا غرب قبيلة لعبيدات تعرف بـ "الحاسة" بالحاء المهملة وسين مفتوحة"(85). وبالتالي فقد عرفت مصر من كل قبائل العرب ما كان منها باليمن والحجاز، خصوصا في الصعيد الذي تجبرت فيه جل القبائل وهي بنو هلال، وبلى، وجهينة، و قريش، و بنو كلاب، والأنصار، ومزينة، وبني دراج، وثعلبة، وجذام(86)، وغيرها من القبائل والبطون التي عرفت في تاريخ العرب، وإذا كان الفتح العربي في أولياته لم يفكر قادته في استقرار الجيوش بالأرض المفتوحة بعد مصر، فإنهم أدركوا بعد أن ذلك كان من عوامل نقض الصلح وعدم ثبات أهل البلاد على وفائهم، وإذا كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يقول بعضهم أول من توجه في أربعين ألف مقاتل نحو المغرب فإن ذلك لم يكن إلا بعد ما جيش الجيوش من أهل البلد، بل بعض المصادر تحدثنا عن التركيز الذي حاوله عبد الله في مصر بعدما أنشأ بها أسطولين فسارا بقيادة أمير البحر عبد الله بن قيس الجاسمي ففتحا قبرص، بعد قتال شديد دام شهرا وصارت قبرص تدفع سبعة آلاف دينارا سنويا كما أشرنا ، بل أصبحت مستودعا حربيا في الأبيض المتوسط تلجأ إليه الأساطيل

(85) من تلك القبائل في الجبل الأخضر بليبيا اليوم قبيلة الحاسة بالحاء الى جانب لبراعصة وهما على الحدود الغربية لقبيلة العبيدات قرب قرينة «شحات».

(86) الخطط 1/346_347.

الإسلامية عند الحاجة، ثم غزت الأساطيل الإسلامية جزر كريت، وكوس، ورودس سنة 29هـ/649م، وإذا ما اتجه بن سعد بن أبي سرح نحو المغرب ليفتحه بعدما طلب الإذن من عثمان للجيش الذي جهزه بن سعد، فإن المصادر التاريخية تحدد أرقاما لبعض القبائل التي شارك أبناؤها في هذا الفتح الذي واجهه «جريجوار» بمائة وعشرين ألف من الروم والبربر، ويقول ابن عبد الحكم أنه كان ضمن هذا الجيش ستمائة من مهرة بن حيدان(87) و سبعمائة من ميدعان بن مالك من الأزد، كما شارك في هذه الغزوة الكثير من وجوه العرب بين تميم وهاشم، وبني عدي، وبني أسد بن عبد العزي، ومن بني سهم، ومن بني أمية، وبني زهرة، وبني عامر بن لؤي، كما عددت المصادر من جهينة ستمائة، ومن أسلم ثلاثمائة، ومن مزينة ثمانمائة، ومن بني سليم أربعمائة، ومن بني الذيل ضمرة بن بكر خمسمائة، ومن أشجع وفزارة سبعمائة، ومن كعب بن عمرو أربعمائة(88)، بل أكثر من هذا فقد أورد بعضهم كما رأينا قبل ذكر الكثير من الصحابة الذين قدموا أرض برقة، ومنهم من توفي بها وقبورهم معلومة حتي اليوم قرب مدينة درنة بليبيا وفي القيروان.

وإذا كان عمرو بن العاص يقول البلاذري أنه قال : لولا ماله بالحجاز لنزل برقة، لأنها كما وصف" فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها(89)، ولهذا كان الذين لا تعلق لهم بالأرض أكثر من تعلقهم بالعقيدة وبالموطن المريح، هم الذين استوطنوا أرض مصر وما حولها، ثم بقية أقطار المغرب الكبير عندما تم فتح هذه البلاد(90)، وقد قرر هذا أكثر المؤرخين بدءا من البلاذري، وهو ما يخالف رأي عميد المؤرخين المعاصرين أبو القاسم الزياني الذي قال في الترجمان المعرب: " ليس بمغربنا من قبائل اليمن غير لحياينة

(87) المصدر السابق 335/1. ويقول السيوطي في حسن المحاضرة ص 7 ط حجر وذلك عن حوادث 86هـ لما اسندت إمارة مصر إلى عبد الله بن عبد الملك، وكان حدثا وكان أهل مصر يسمونه تكيس وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية وإنما كانت بالعجمية، وهذا زمن الوليد بن عبد الملك، وعنه نقل جرجي زيدان في تاريخ مصر الحديث دون أن ينسبه ص 148 ط المقتطف 1889م ثم راجع مادة عرب بموسوعة فريد وجدي جـ /6/ 299، والخطط للمقريزي.

(88) ابن عبد الحكم 184 والمجتمعات الإسلامية لشكري فيصل 168 ـ 169 ط 1952.

(89) وفي رياض النفوس ونهاية الأرب للنويري مصدرين سابقين.

(90) فتوح البلدان 314 رواية عن الواقدي الذي روى بدوره عن سلمة بن سعيد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة.

وبني حسن من طيء، وأولاد بوعطية بتامسنا من حمير، وباقي العرب كلها من المضرية وقضاعة، على أنه من ابن خلدون وغيره نستمد وجود بطون من كل القبائل العربية في المغرب الكبير الذي تدخل ضمنه مصر حسب أوسع إطلاق عرفه تاريخ العرب قديما، خصوصا إذا علمنا أن الفتوحات العربية لم تتقدم نحو المغرب الأدنى والأقصى إلا في زمن ملوك بني أمية كما سبق، وجند هذه الدولة كان من مختلف قبائل العرب كندة، وغسان، وتميم، وهمذان، وربيعة، وطيء، ولخم، وجذام وقيس، بالإضافة إلى بني أمية فرع بني هاشم، ورؤساء من أهل الحجاز والشام ومصر، وهذا ما رأيناه ممثلا في مجتمع الأندلس حينما بلغ التنافس بين القبائل أعلى درجات الحرارة، وإذا نحن سلمنا أن المنطلق لعدوة الأندلس هو المغرب الأقصى، نسلم أيضا أنه كان لكل تلك القبائل نفس الفروع في المغرب وإن كانت قد عاشت بين مد وجزر، حسب ظروف قبائل المغاربة والبربر، وعلاقة بعضها بالبعض الآخر من جانب، ومدى أثر ذلك في الأمن العام، ثم علاقتها مع العرب خصوصا جانب الحكم من جانب آخر، كما سيظهر لنا ذلك في الأمن العام، ثم علاقتها مع العرب خصوصا مساوئ الحكام من العرب كلما ابتعد بهم العهد عن ينبوع الإسلام وصفائه.

ولقد قرر المؤرخون المغاربة أنفسهم، كيف كان تعريب المغرب مبكرا مع الفتح وزمن التمكين له(91) يقول المقري أنه دخل الأندلس في فترة الولاة من الصحابة والتابعين المنيذر من الصحابة والتابعين بعد موسى بن نصير، علي ابن رباح، وحنش الصنعاني، وابن يزيد المعافري، وابن كنانة العذري وحيوة بن رجاء التميمي، وعياض بن عقبة الفهري، وعبد الجبار بن أبي سلمة، هذا في نظرنا إلى جانب ستة وثلاثين من الولاة على إفريقية من عقبة بن نافع 49 هـ إلى تمام بن مقاتل 183هـ وما كان لهم من العصبية والأنصار كاف لبذر بذور التعريب في الفترة المشار إليها.

وتقول الرواية أيضا(92) إن عبد العزيز بن موسى بن نصير، لما قسم الأندلس إلى

---

(91) نفح الطيب للمقري 151/2 وقد أرسل عثمان (رضي الله عنه) جيشا ليرافق جيش الفتح، وكان ضمنه من أبناء الصحابة ما سنذكر بعد من العبادلة وغيرهم.

(92) راجع خلاصة تاريخ العرب لسيديو ترجمة علي باشا مبارك ص 98 ط 1309هـ.

أقاليم، وزع الجنود العرب كما رأينا قبل، ونرى بعد تعرضنا للصحابة وأبناء الصحابة الذين قيل إنهم رافقوا الجند الذي جهزه عثمان ليمد به جيش الفتح زمن ابن سعد المشار إليه، منهم الحسن والحسين والعبادلة وهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعند البلاذري أن هذا الجيش كان فيه معبد بن العباس بن عبد المطلب ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والحارث بن الحكم، وعبد الله بن الزبير بن العوام، والمسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وعبد الرحمان بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وبسر بن أبي أرطاة بن عويمر العامري، وأبو نؤيب خويلد بن خالد الهذلي، الشاعر، وبها توفي، فقام بأمره ابن الزبير حتى واراه في لحده(93).

وقد كانت القيادة الجادة ترغب جند العرب في البلاد المفتوحة بضخامة العطاء حتى تستقر وتمكن للإسلام، مثال ذلك ما فعل عبد الله بن سعد في هذه المعركة التي قتل فيها «جريجوار» القائد الروماني بيد إبن الزبير وبذلك كانت الغنائم التي صالح بها ابن أبي سرح عظماء إفريقية بلغت مليونين وخمسمائة ألف دينار أرسل نصف مليون منها إلى الخليفة عثمان، وأعطى كل فارس مما كان لديه ثلاثة آلاف دينار، وكل راجل ألف دينار(94).

وفي ملك معاوية بن أبي سفيان ولي على مصر مسلمة بن مخلد الذي ينسب له بناء القيروان، وذلك بعد عمرو وعتبة بن سفيان أخو معاوية الذي تولى بعد موت عمرو سنة43هـ/663م، ثم مات عتبة بالفسطاط سنة 44هـ/ 664م وبعده ولي عقبة بن عامر بن عبس الجهني، وكان قارئا فقيها مقرضا شاعرا له الهجرة والصحبة والسابقة، إلا أنه لم يكن من السياسة حسب اتجاه معاوية، فولى مكانه مسلمة المذكور وهو ابن مخلد بن الصامت الأنصاري، وكان من سراة المدينة وأمره أن يكتم ذلك بينما يخرج عقبة من مصر بحيلة دبرها في19 ربيع الأول سنة45 هـ/ 665م حين وجه إليه الأمر بالتوجه إلى رودس بحرا، وقدم مسلمة ثم رافق عقبة إلى الأسكندرية وهو لم يعلمْ بإمارته، فلما توجه

(93) راجع أبطال الفتح الإسلامي من العرب والترك ص 17 ـ 32 ـ 81. والبلاذري 319 و320.
(94) المصدر السابق.

استولى مسلمة على سرير إمارته فبلغ ذلك عقبة فقال : أخلفا وغربة"(95) ودام مسلمة في مصر حياة معاوية واليزيد إلى أن توفي في15 رجب سنة62 هـ/681م بعد حكم طال 15 سنة وأربعة أشهر يستدل منها على التركيز للغرب والعروبة في مصر التي كانت قد عرفت التعريب قبل غيرها من أقطار المغرب، وهو الذي وجه عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط الفهري الى إفريقية، فغزاها عام 49 هـ 669 م كما رأينا وشيد القيروان ووضع فيها خامية عربية بعدما شيد الناس حولها، كما وجه عقبة بدوره بسر بن أرطأة الى قلعة قرب القيروان فافتتحها، وتعرف بقلعة بسر بالقرب من مدينة مجانه حيث معدن الفضة، وتوغل عقبة بعشرين ألف من الفاتحين و كان فتحا خاطفا ، ثم تولى بعده أبو المهاجر مولي مسلمة بن مخلد، زمن اليزيد بن معاوية. وفي عهد عبد الملك الذي أسند ولاية مصر إلى أخيه عبد العزيز أرسل هذا الأخير زهير بن قيس الذي استشهد ببرقة ثم تولى مكانه حسان بن النعمان الغساني قاتل الكاهنة كما سبق، إذ هو الذي قام في المغرب بنفس الأعمال التي قام بها عمرو بن العاص في مصر، حيث دون الدواوين ونظم الإدارة التي أصبحت تعتمد على العرب والبربر الذين ساوى بينهم في الأعطيات والفيء، وبذلك تمكن، وكيف؟ وهو الذي جند اثني عشر ألف من المغاربة والبربر الذين أسلموا، وهذا العدد لا يستهان به إذا نحن علمنا ما يفرضه الإسلام على العربي المسلم من صلة رحم وقربى من البربري المستجد في الإسلام، وأن ذلك السلوك هو الذي لم يعهده المغاربة والبربر في كل ما سبق من الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، وبذلك تمكن مجتمع المغرب من العربية كلغة التفاهم، بل إن ما تمكن من حبل الترابط سيدفع قبائل المغاربة والبربر لواتة وزناتة وصنهاجة و غيرها بعد إلى أن يبحث كل منها على أصل عربي ما بين يمني ومضري يرد إليه أصوله، خصوصا عندما أخذت السلطة تنقل من العرب إلى البربر الذين تكونت منهم دول في المغرب فأصبح ملوك هذه الدول ينظرون بشيء من النقص إلى الأصول البربرية، حتى إن بعضهم كان يقيم الولائم إن وجد من يرد أصوله إلى الأصول العربية، خصوصا عندما شاعت نظرية أن الرئاسة حتما يجب أن تكون للقريشي؟.

(95) تاريخ مصر الحديث 141. وكان مسلمة هذا هو أول من شاد المنارة للمسجد في الإسلام.

وعبد العزيز بن مروان أيضا هو الذي وجه موسى بن نصير مولى بني أمية الذي سبق التفصيل حول نزاهته وخلقه ونكبته، وهو صاحب طارق الذي يبالغ المؤرخون في تعريبه ونسبة الخطبة البليغة إليه، وإذا نحن تتبعنا العلاقة بين جموع القيسية واليمنية التي تكاثرت في عهد الأمويين، والذين انتهوا إلى السوس الأدنى الذي يقول المؤرخون بينه وبين الأقصى نيفا وعشرين يوما. وأن الفاتحين اختطوا به وسبوا(96). وبعد فتح الأندلس تواجدوا من قرطبة إلى طليطلة ولم يرحل عنها موسى بن نصير إلابعدماخلف بها ولده الذي مكن للفتح، ثم ركز لسلطان العرب بها عندما قسمها إلى أقاليم فرق عليها الجند فوضع أهل دمشق في قرطبة، وأهل حمص في إشبيلية، وأهل قنسرين في جيان، وأهل فلسطين في شدونة والجزيرة الخضراء، وجند بلاد فارس في قنسرين، وأهل العراق في غرناطة، وأهل مصر في مرسية ولشبونة(97)، ولقد نقل أبا الخطار الحسام بن ضرار جيش الشام ثم فرقه بطريقة أخرى، كما نقل بعضه إلى شمال إفريقية عندما حل مكان ثعلبة سنة 126هـ/743م حيث وزع أهل دمشق في البيرة وأهل حمص في إشبيلية وأهل قنسرين في جيان، وأهل الأردن في مقاطعة رية، وأهل فلسطين في شدونة كما سبق وهي مقاطعة شريش، وسمى كل مقاطعة بإسم مكان سكانها الأصلي، حمص، دمشق، وفلسطين.. كما أنزل المصريين في كل من باجة وتدمير،(98) وإلى هنا يكون الفتح الإسلامي قد تم، والتعريب قد وضعت له أسس تختلف عن الماضي القريب والبعيد، وذلك بتواجد جل قبائل العرب وانتشارها في مختلف المراكز الهامة بإفريقية، القيروان، والأندلس كما رأينا وتصاهر العرب مع المغاربة القدامى والبربر في ذلك الوقت المبكر، بل ومع القوط الذين أسلموا، ثم مع السودان المتاخمين للجنوب، وإذا ما تعربت الدواوين بمصر كما سبق، فإن التعريب الإداري دخل الى المغرب مع إتمام الفتح والتمكين للدين من نفوس المغاربة الذي كان عليهم أن يتعلموا القرآن والحديث وسيلتي العبادة والمعاملات في حدود الشرع، وأقبل المغاربة والبربر على الدين وتعاليمه أكثر في الفترة

(96) البلاذري 322 ـ 23 ـ 24.

(97) البيان المعرب 33/2 والعبر 119/4 ـ 120 وخلاصة تاريخ العرب ترجمة علي باشا مبارك 98 ط1903هـ.

(98) راجع ابن عذاري 33/2 وابن خلدون 119/4 ـ 120، 31/6 وما بعدها.

التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز 99 ـ101هـ الذي حفظ لهم اعتبارهم برسالته المعروفة حول بنات البربر، والتي قال فيها: "من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو أهلها"(99) وزادهم عمر إقبالا حين ولى على المغرب عبد الله بن أبي المهاجر الذي اقتدى بصاحبه خلقا وسلوكا، والذي دعى المغاربة والبربر إلى التمسك بالإسلام كما كتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاب هداية سنة 100هـ/718م قرأه عليهم إسماعيل بن عبد الله الذي بث الدعاة العشرة في مختلف نواحي المغرب فغلب الإسلام على المغرب(100)، وهؤلاء الدعاة الذين قدموا المغرب آخر المائة الأولى للهجرة هم :

1) أبو عبد الرحمان عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي المتوفي عام 100هـ/718م

2) بكر بن سوادة الجذامي المتوفي عام128هـ/745م.

3) إسماعيل بن عبيد الله الملقب بتاجر الله المتوفى عام107 هـ، وهو الذي بنى جامع الزيتونة بتونس.

4) أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي أول قاض بالقيروان عام 80هـ/699م والمتوفي113هـ/731م.

5) حبان بن أبي جبلة القرشي العبدري، المتوفي عام 125هـ742 م.

6) أبو مسعود التجيبي سعيد بن مسعود.

7) أبو سعيد جعثل بن هاعا بن الرعيني، وهو الذي ولى القضاء في عهد هشام بن عبد الملك المتوفي عام115هـ/733م.

---

(99) البلاذري 316، ثم راجع رسالة جده عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. مجموع الوثائق السياسية 276 ط 1941 محمد حميد الحيدر آبادي. ولد عمر بن عبد العزيزسنة 63 هـ /682م وتولى من سنة 99هـ إلى أن توفي في شعبان عام 101هـ /717م.

(100)المصدر السابق 324 . ولقدصدق عمر بن عبد العزيز جين وصف أحوال العالم الإسلامي وما كان عليه بسبب جور الولاة وقتها، وقد بلغه ما كان عليه بن شريك من عتو في مصر حيث قال : الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وقرة بمصر، وعثمان بن خبان بالحجاز. امتلأت والله الأرض جورا. راجع حسن المحاضرة للسيوطي جـ 7/2 ط حجر بدون تاريخ، ولعل في عهده دخل المغرب ما عرف. المشرق من دواوين والتي هي : ديوان الجند 2) ديوان الخاتم 3) ديوان الرسائل 4) ديوان المستغلات 5) ديوان البريد، والتي كانت على عهد عبد الملك بن مروان، ووجود هذه الدواوين ولزوم المعاملات بواسطتها يكفي للتعريب وعن أولئك الفقهاء والقضاة. راجع معالم الإيمان للأنصاري أبو زياد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الشهير بالدباغ ط تونس 1320 هـ في الأرقام التالية 91 ـ 92 ـ 180 ـ 198 ـ 202 ـ 206 ـ 209 ـ 211 ـ 213 ـ 215.

8) إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر المخزومي، الذي أسلم على يده عامة البربر بحسن ما كان له من تأثير طيب عن طريق التربية والسلوك والموعظة الحسنة، وبحكم ما عرف به من زهد وورع وتقوى وعدل وهو المتوفي سنة 132هـ .

9) طلق بن جابان الفارسي.

10) موهب بن حي المعافري.

هؤلاء الكرام هم الذين مكنوا نوعا للإسلام بعلمهم وعملهم وآداب سلوكهم، وما سجل التاريخ لهم من كريم السجايا وأجمل الصفات، بل عن طريق الذين تخرجوا في مدارسهم من العلماء والفقهاء،انتشرت المعارف التي نتج عنها الإقبال على العربية بعدما عرف المغرب الكثير من العلماء والفقهاء في كل من القيروان، وسجلماسة، وتيهرت، وفاس بعد وغيرها من العواصم الأولى، بل بهم أصبح للبربر قوادا ورجالات أسهموا بما أصبحوا عليه من معرفة ودراية في التمكين لدولة الإسلام بعد تعريب المغاربة والبربر الذين أصبحوا أيام الروم الذين لم يكن يعنيهم من المغرب والمغاربة غير الإستعمار والإستثمار والإستيلاء على الثروات، بإستغلال الأرض والبشر معا، ولئن كان عمر بن عبد العزيز بسلوكه قد أعطى للخلافة ما تستحق بل أعادها إلى ما كانت عليه من جمال وجلال أيام جده لأمه عمر بن الخطاب، وذلك في فترة يسيرة رغم ما سبقه في الماضي القريب من وضع أسس فاسدة، وتعميم للفساد بشكل كبير، ورغم تبدل الأيام وتغيرالأحوال أواخر القرن الأول للهجرة وما رأينا من ظلم وطغيان سليمان بن عبد الملك الذي عم كل البلاد المفتوحة، مما يرفع عمر بن عبد العزيز أعلى مقام، خصوصا، وأنه إستطاع أن يرد سياسة الحكم إلى ما كانت عليه من علاقة الحاكم بالمحكوم أيام الخلفاء الراشدين، مع أن مدته لم تزد على سنتين وخمسة أشهر مات بعدها بسم دسه له قومه من بني أمية الذين ضيق عليهم ثم حال بينهم وبين ما كانوا عليه من بغي وعتو وفساد.

ورغم اتساع رقعة البلاد الإسلامية وقتها، الشيء الذي لم يتحقق لعظيم قط بعد عمر بن عبد العزيز الذي ختم حياته أجمل، حين سأله مسلمة بن عبد الملك وهو في مرض الموت فقال له : ألا توصي؟ قال فيم أوصي؟ فوالله إن لي من مال. فقال : هذه مائة ألف فمر بها بما أحببت. فقال عمر : أو تقبل. قال نعم. قال عمر : ترد على من أخذت منه

ظلما فبكى مسلمة وقال لقد ألنت منا قلوبا قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا.. إلخ.

ومثله كان عامله بالمغرب عبد الله بن أبي المهاجر، المشار إليه، والذي استقدم معه الدعاة ورسالة عمر، وعمل في الناس بما جلعهم يطمئنون ويقبلون على الإسلام بتلك الروح التي عرفت زمن موسى بن نصير الذي أعتق جميع من اختص به من الأسرى بعد أن دانوا بالإسلام، وبعد أن أعتق القيروان التي كانت قد تعرضت للإجهاض بردة القوم بعد مقتل عقبة بن نافع.

وهكذا لو استمر الوضع كما عرفه المغرب زمن بن عبد العزيز، لما حصل ما حصل من تذمر المغاربة والبربر، من بعض حكام العرب بالمغرب خصوصا، ودولة العرب بالمشرق عموما، إذ سرعان ما انقلبت الأمور إلى الضد عندما ولى يزيد بن عبد الملك 102-106هـ/719 - 723م فأرسل بدل أبي المهاجر، يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إلى إفريقية والمغرب، والذي قدمها سنة 102هـ/720م وقد بالغ في ظلم ال موسى والمغاربة، كما بالغ صاحبه في ظلم جميع بلاد الإسلام، ومنها مصر التي تذمرت وبلغ صدى تذمرها جميع الآفاق، ومنها المغرب، ذلك أنه اتخذ حرسه من المغاربة والبربر، فوشم كل إمرئ منهم على يده حرسي فانكروا ذلك وملوا سيرته وقتلوه ليحل محله يزيد بن بشر بن صفوان الكلبي سنة 103هـ/721م، وكان يزيد قد مله أهل مصر، وهو الذي ضرب عنق عبد الله بن موسى بن نصير بأمر من يزيد بتهمة تأليب الناس على الهالك، لكنه أخيرا قتل بتدبير من البربر الذين أهانهم(101) و لما تولى هشام بن عبد الملك 106-126هـ/724-743م صادق على تولية بشر بن صفوان ثانية، وذلك بحكم صالح عمله وحسن سلوكه في المغرب، وقد توفي بالقيروان سنة109هـ/727م وتولى بعده عدو بشر وهو عبيدة بن عبد الرحمان، لمدة أربع سنوات ونصف صفى فيها عمال بشر، بعده تولى عبيد الله بن الحبحاب، وهو باني جامع الزيتونة ودار الصناعة بتونس سنة114هـ/732م. وثمة شخص آخر من رجالات العرب ساهم بنصيب يذكر في سبيل تعريب المغرب الكبير وبعث الذاتية المغربية معتمدة على مقوماتها الإسلامية. ذلكم هو عبد الرحمان بن حبيب

(101) راجع الطبري 103/5 وإبن الأثير 4/ 182.

الفهري، الذي حكم المغرب رغم أنف الوليد بن يزيد بن عبد الملك، إذ هو عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، الذي كان محببا في ذلك الثغر لما كان له من آثر جده عقبة بن نافع(102)، ذلك أن الوليد بن يزيد الذي عرف بتصرفاته المريبة في سبيل المال أمر بصرف حفص بن الوليد الحضرمي عن مصر التي كان قد ولاه إياها هشام بن عبد الملك مكان المستبد الظالم حنظلة بن صفوان، الذي ظلم المصريين ظلما كبيرا، عزل الوليد حفص ليجعل مكانه عيسى بن أبي عطاء على خراج مصر فقط، ولم يكن عيسى أحسن من صاحبه الوليد الذي إجتمعت فيه أرذل الصفات التي تحط من قدر الملوك، مما دفع أهل الشام وهم الآدات الطيعة لشهوات الأمويين، أن يشقوا عصى الطاعة عليه، وطالبوا بتولية يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي قبل وجعل لمن ياتيه برأس الوليد مائة ألف دينار، وبذلك قتل ولم يحكم سوى سنة واحدة وشهرين وعشرين يوما.

وبذلك تم لعبد الرحمان بن حبيب ما أراد رغم أنف الوليد، ومثله فعل اليزيد الذي لم يرسل إلى المغرب عاملا.

وعبد الرحمان بن حبيب هذا هو الذي حاول أن يرفع من شأن المغاربة نفسيا حتى أنه اتخذ منهم كاتبا له وكان بمنزلة الوزير، من بين أبناء المغرب، هو خالد بن ربيعة الإفريقي(103)كما أنه استمر حاكما في الفترة التي بدأت فيها دولة الأمويين تسير نحو المنحدر في المشرق، كما تخلص المغاربة مما كان يرهبهم به حكام الأمويين في المغرب كما سنرى في الموضوع الآتي، بل إن السفاح أبو العباس مؤسس الدولة العباسية، لما بويع في 13 ربيع الأول سنة 132هـ/750م أقر عبد الرحمان بن حبيب في مكانه، ولعله فعل ذلك لأن عبد الرحمان قتل ولدي الوليد بن عبد الملك اللذين دخلا إفريقية فرارا من عمهما، ولما قتل عبد الرحمان بن حبيب بيد أخويه إلياس وعبد الوارث، حل محله ولده حبيب بن عبد الرحمان، في رجب سنة138 ـ 140هـ/755 ـ 757 م والذي قتل بدوره بيد خليفته. وهذا جدول الولاة من آل عقبة :

---

(102) البلاذري 325.

(103) نفس المصدر وهذا نتيجة ما سبق من التمكين للتعريب ونشر الثقافة العربية زمن عمر بن عبد العزيز.

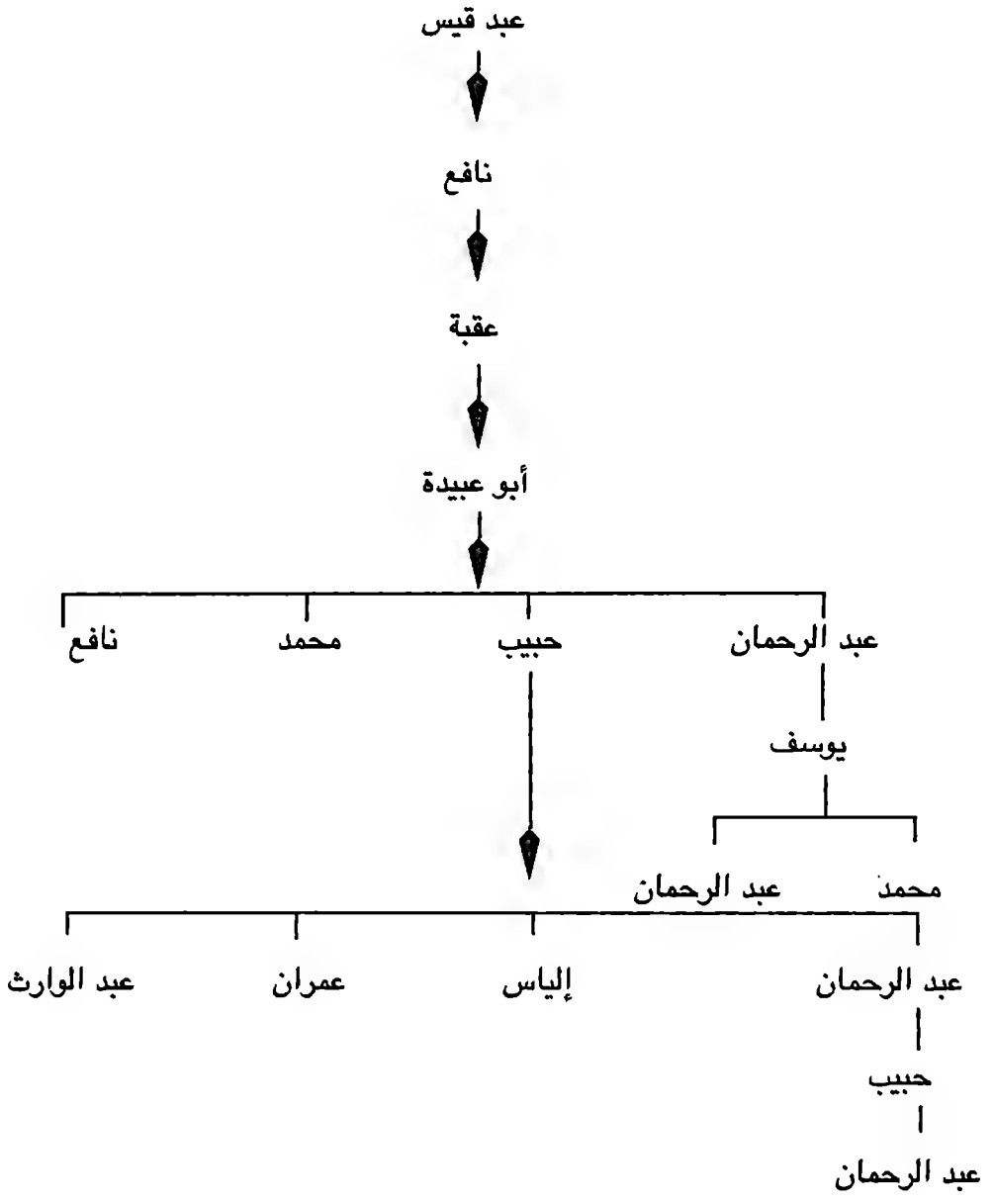
عبد قيس
نافع
عقبة
أبو عبيدة
نافع
محمد
حبيب
عبد الرحمان
يوسف
محمد
عبد الرحمان
عبد الرحمان
إلياس
عمران
عبد الوارث
عبد الرحمان
حبيب
عبد الرحمان

بهذه الأسرة أسرة عبد الرحمان بن حبيب الفهري، كان المغرب قد اكتمل تعريبه وتمكنت عقيدة قادته، وأصبح يتطلع إلى عهد الدولة المغربية الإسلامية منفصلا عن الدولة العربية في المشرق، رغم ما أصيب به من انحراف الخوارج الصفرية في بعض جهاته الشرقية، والذين كان لهم أثر كبير كذلك في التعريب، لقد بدأ الشعور بالإنفصال قبل منذ تردد صدى ما حصل لموسى بن نصير وأولاده على يد سليمان بن عبد الملك، بل ولربما يكون قبل هذا العهد منذ الزمن الذي كان العرب الفاتحون حسب تعليمات ملوك بني أمية يأخذون السبايا بمآت الآلاف يتاجرون فيهن بالمشرق، كما سبق ذكره، ناهيك وقد آل حكم بني أمية إلى الإنهيار بل الزوال، فكيف لا يعمل المغاربة على التحرر من تصرفات الذين كانوا أعنف ظلما من الرومان والوندال، ولكي نتعرف كيف تم الإنفصال وارتد كثير من المغاربة بل وأصبح المغاربة والبربر يتطلعون إلى تكوين دولة مغربية إسلامية يكون لهم في تسييرها والإشراف عليها حظ، وجب أن نرجع قليلا إلى الوراء.

قبل دخولنا في الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيام الدولتين، بل الدول في المغرب، وجب أن نقرر في العوامل والأسباب التي نفرت من بني أمية، بل التي صنعوها بأنفسهم لهدم دولتهم، فمن ذلك أنهم ابتدعوا ما لم يكن قبل في دولة الإسلام، من غلوهم في توسيع سلطة الفرد الحاكم لتحقيق المكاسب المادية التي كانت ترد إلى دار الملك بدمشق، وكان توسيعهم هذا بقدر ما يرضي رغبات الملوك الأمويين، بقدر ما يحدث تخلخلا في المجتمع المحكوم بالفرد الذي لا تقف شهواته عند حد، والمدفوع بعنف عنيف وبصفات أضفاها على نفسه ومكن لها من ذوي الأهواء ما حوله، والتي لم تكن في نظر الإسلام غير خروجهم عن حدود ما شرعه الإسلام، ورجوعهم إلى ما كان قبله من قبيح صفات التسلط التي كانت سائدة عند بعض القبائل في الجاهلية، بل والتي طالما كانت من الدوافع لحروب مضادة عرفها فرع بني أمية مع غيره من فروع قريش، حتى انتهى بهم الأمر إلى زوال، وتلك كانت عاقبة كل من نهج نهجهم كما سنرى في تاريخ دول المغرب بعد.

وإذا نحن أخذنا النظرية التي قررها الواقع التاريخي وطبقناها بصفة خاصة على تصرفات الأمويين بدءا من معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن محمد بن مروان، بـ استثناء عمر بن عبد العزيز، نجدها السبب في كل ما حصل منذ البداية من هدم للإسلام منذ زمن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأن المدبر كما رأينا هو وراثة الجاهلية وعمرو بن العاص المجهول الأب كما سنرى ومثله المنفذ للكيد والتزوير وهو مروان بن الحكم الذي انتهت حياته بالطاعون بعدما دمر حياة ذي النورين بما نتج عن تصرفاته بمركز رئاسة الدولة، والذي كان شبه مفروض عليها حتى انتهى به غروره إلى التلاعب بالأوامر، والذي ساندته فيما اقترف عصبية عمرو بن العاص المخلوع عن مصر والموتور من عثمان وعبد الله بن أبي سرح، بل هو ومن ناصره من الأمويين المخلفين بمصر ومن تأثر بهواهم، كما قام بنفس الدور سعيد بن العاص الذي أثار الكوفيين بالعراق، ومثلهما حاول عمال بني أمية وأولهم معاوية في الشام وغيره في مختلف المراكز بمختلف بلاد الإسلام، ومنها المغرب الذي إنتهى إلى ثورات سنرى بعد مفعولها، كما حصلت نفس الثورات في مصر حتى إن معاوية وبروح القبلية القديمة ما كاد يستولي على مصر قهرا ويقتل محمد بن أبي بكر ثم يحرقه على الشكل الذي ذكرنا، حتى قتل من قبيلة تجيب الكندية ثمانين رجلا من خيرة رجالاتها، وأين هذا من خلق الإسلام وسلوك السابقين قبل من الخلفاء الراشدين الذين لو استمرت سياستهم والنهج الذي بدأه عمر بن الخطاب لما تأخر تعريب المغرب الكبير إلى ما عرف عليه، بل ولولا السلوك الذي دشنه عمرو بن العاص لكانت أوليات تاريخ ذلك العهد أحسن ولتم التعريب في زمن مبكر بدل ما سيحصل من نفور ضد المشرق ورغبة في الإستقلال والسبب سياسة الاستبداد.

ولقد كان فتح العرب أو بالأحرى بداية فتح العرب للمغرب أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة 22هـ/642م حين أذن لعمرو بن العاص بذلك، من عمليات الإنقاذ التي كان المغاربة في حاجة إليها، ولذلك رأينا أنه ما كادت طلائع الفتح تقبل حتى بادر المغاربة والبربرللتعلق بها ومناصرتها، وإلا كيف حصل ذلك الاكتساح بالشكل الذي رأينا

رغم ما عرفنا من عوامل الفرقة والتطاحن التي كان عليها المسؤولون في المنطقة، جريجوار، «وقسطنطين 3 » ورجال الكنيسة، ثم رجال الكنيسة فيما بينهم، بل القسطنطينية نفسها بعد موت هرقل، والتناحر المفتت بين أبنائه وزوجته إلخ. في هذه المرحلة من تاريخ العرب كانت السلطة في يد عمر بن الخطاب، وإذا رجعنا إلى مراسلاته لعمرو بن العاص من أجل الخراج الذي كانت عائلات جند الإسلام وأعمال الدولة في حاجة إليه، راجع الخطط 1/137 ـ 342 وتاريخ مصر الحديث.

وقد جاء فيها ما يظهر تذمر عمر بن الخطاب من تصرفات ابن العاص، والعهد أقرب مما أصبح عليه الأمويون بعد، وإذا كان عمر بن الخطاب في مراسلته لابن العاص بتلك الشدة التي يستدل منها أن ابن العاص كان في حاجة إلى مثل تلك المراسلة التي ورد فيها «ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكن وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام» وإذا ما توفي عمر بن الخطاب وتولى ذي النورين الذي أحاط به قومه، فإنه رغم ذلك عزل ابن العاص وهو من «فرعه».

إذا حصل هذا في عهد الخلفاء الراشدين، فماذا كان عليه الحال في عهد بني أمية بالنسبة للمغرب وقد رأينا ما عملوا به مما لا داعي لتكراره من خزي إحتفظ لهم بذكره جل المؤرخين.

لقد كانت الحكومة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشيدين حكومة شورى، أو بلغة العصر "تيوقراطية" تقوم على الأساس الذي وضعه صاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)، قوامها الدين، أي أن الحكم لله والولاية لله الذي أنزل على عبده الكتاب دستور الدولة، الذي ينص على المساواة، كما كانت كل مرافق الدولة من إدارة وجيش ومال، تقوم على أساس عدم التفاضل إلا بالتقوى والعمل المثمر المجدي، كما كان المسلمون كلهم كرجل واحد، يحكمهم كتاب الله، بل إن حكم أبي بكر وعمر لم يختلف عن حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا بإنقطاع الوحي، أما في التنظيم والأفكار والتسيير، فقد عمل كل من الخليفتين ما أمكنه السير على ما عرفه من صاحبه (صلى

الله عليه وسلم) عن كثب. وقد أحسنا كل الإحسان، وكان على نهجهما علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، لولا ما حصل مما أثارته نزعة بني أمية المشار إليها قبل من شرور قصد السيطرة والتمكين لسلطانهم، ولولا ذلك لكان للتعريب مجال أحسن، ولقد لاحظ هذا كثير من الدارسين لتاريخ الإسلام السياسي مسلمين وغير مسلمين ، وهذا ما دفع بالمغاربة في وقت مبكر إلى التحول عن ملوك المشرق من الأمويين والعباسيين الذين يطلق عليهم الخلفاء(104)، بعد الاحتفاظ بالعروبة والعربية كوعاء، وبالدين الإسلامي الحق كرسالة من السماء.

(104) راجع حضارة الإسلام لجرونيباوم ص 198 ط 1956 وغيره من المصادر المشار إليها بعد، ثم راجع طبقات الأنساب وقبائل العرب بالمغرب من هذا الكتاب.

على أن الخلافة منذ استيلاء بني أمية فقدت أهم شروطها وتحولت إلى ملك وراثي بعيدا عن الحق والعدل والحب والخير والصواب.

الفهرس

الجزء الأول

* **المقدمة: تقديم وتمهيد** 1

* **الباب الأول :**

المدخل الواسع

الفصل الأول: الله والإنسان 41

الفصل الثاني : بين العصور والدهور شرقا وغربا 49

الفصل الثالث: الإنسان ومحاولة تحديد موطنه شرقا وغربا 57

الفصل الرابع: إنسان المغرب 71

الفصل الخامس: هل المغرب أصل الحضارات 95

* **الباب الثاني :**

المغرب الأقصى أرض وبشر

الفصل السادس: المغرب الأقصى أرض وحدود 125

الفصل السابع : المغاربة القدامى 133

الفصل الثامن: أصول المغاربة في تاريخ العرب 141

الفصل التاسع: وحدة البشر بعد الطوفان 147

الفصل العاشر: أصول البربر وقبائلهم وتاريخهم القديم
وممالكهم في المغرب الكبير 163

الفصل الحادي عشر: من هم البربر اليوم في المغرب الكبير 183

الفصل الثاني عشر : المغاربة والمظاهر الغامضة في تاريخ حضارتهم 195

الفصل الثالث عشر: البربر واللغة 219

*** الباب الثالث:**

المغرب الكبير ودول الاستعمار القديم

الفصل الرابع عشر: الفينيقيون وبصماتهم في حضارة المغرب الكبير 239
الفصل الخامس عشر: المغاربة والبربر بين الفنيقيين والقرطاجيون 249
الفصل السادس عشر: الرومان والمغاربة 259
الفصل السابع عشر: صراع المغاربة والبربر ضد الرومان 269
الفصل الثامن عشر: يوغورطة بين جحافل الرومان وخيانة باخوس 281
الفصل التاسع عشر: يوغورطة ونهاية البطل المغربي الذي أذل الرومان فاحتفلت روما بأسره 289
الفصل العشرون : المغاربة والبربر في عهد المسيحية 299
الفصل الواحد والعشرون: المغاربة والوندال 307
الفصل الثاني والعشرون: البيزانطيون والمغاربة 311

*** الباب الرابع:**

العرب قديما قبل الإسلام

الفصل الثالث والعشرون: العروبة قاسم مشترك بين الناس جميعا في ظل الإسلام 317
الفصل الرابع والعشرون: الأحوال السياسية والاجتماعية للعرب قبيل الإسلام 329
الفصل الخامس والعشرون: دول العرب وألوان حضارتهم 337
الفصل السادس والعشرون: العالم والمغرب الكبير وقت ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالة الإسلام 351

*** الباب الخامس:**

الفتح العربي للمغرب الكبير والأندلس

الفصل السابع والعشرون: مقدمات الفتح العربي للمغرب الكبير 367
الفصل الثامن والعشرون: فتح المغرب وأغراضه في عهد الأمويين 381
الفصل التاسع والعشرون: فتح الأندلس 395
الفصل الثلاثون : تظلم المغاربة والفاتحين من سليمان بن عبد الملك 405
الفصل الواحد والثلاثون: التعريب المبكر للمغرب الكبير 41